غونتر غراس

@ketab_n
Follow Me
13.4.2015

تقشير البصلة

مذكرات

ترجمة : عدنان حسن

غونتر غراس

تقشير البصلة

سيرة ذاتية ومذكرات

ترجمة : عدنان حسن

@ketab_n
Follow Me

Twitter: @ketab_n

تقشير البصلة

Twitter: @ketab_n

▪ غونتر غراس
▪ تقشير البصلة ـ سيرة ذاتية ومذكرات
▪ ترجمة: عدنان حسن
▪ جميع الحقوق محفوظة للناشر©
▪ الطبعة الأولى 2014
▪ الإخراج الضوئي: هالا خليل
▪ الناشر: دال للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170
هاتف: 00963 944 464830
البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

All rigyts reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing form the publisher.

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي للكتاب بالإنكليزية

Gunther Grass, Peeling the Onion,

Vintage Books, London, 2008

Twitter: @ketab_n

قشور تحت القشرة

Twitter: @ketab_n

اليوم كما في الأعوام الماضية، يبقى إغراء تمويه الذات بضمير الغائب كبيراً: كان يدخل عامه الثاني عشر، رغم أنه كان لازال يحب الجلوس في حضن أمه، عندما بدأ كذا وكذا وانتهى. لكن هل يمكن تحديد شيء له بداية ونهاية بمثل هذه الدقة؟ في حالتي، يمكن ذلك.

انتهت طفولتي عندما اندلعت الحرب، في المدينة التي نشأت فيها، في عدة أمكنة في وقت واحد. بدأت الحرب بدوي انفجار لا تخطئه الأذن ـ جنوح سفينة واقتراب قاذفات قنابل انقضاضية فوق منطقة حوض نويفارفاسر للسفن الذي يقع في مقابل القاعدة العسكرية البولندية في فستربلاته، وعلى مسافة أبعد، توجد القذائف المصوبة بدقة لسيارتي استطلاع مدرعتين في أثناء المعركة من أجل مكتب البريد البولندي في بلدة دانتسيغ ـ وأذاع خبرَها مذياعُنا ـ لاقط إذاعة الشعب ـ الذي كان ينتصب على طاولة جانبية في غرفة المعيشة. هكذا أعلن عن نهاية طفولتي بكلمات من حديد في شقة في الطابق الأرضي من بناية مؤلفة من ثلاثة طوابق على لابزفغ، في لانغفور.

حتى وقت النهار ظل عالقاً في ذهني. منذ ذاك الحين فصاعداً، بات مطار الدولة الحرة قرب معمل شوكولاته البلطيق يستقبل طائرات هي أكثر من مجرد طائرات مدنية. فمن المنور الكائن في سقف بنايتنا استطعنا أن نرى دخاناً يتصاعد داكناً فوق الميناء الحر في كل مرة كان

Twitter: @ketab_n

يحدث فيها هجوم جديد وتهب ريح خفيفة من الشمال الغربي.

لكن في اللحظة التي أتذكر فيها نار المدفعية البعيدة من سفينة شلسفيغ ـ هولشتاين، التي تقاعدت عن العمل الميداني بعد معركة جوتلاند ولم يعد بالإمكان استعمالها لأي شيء إلا كسفينة تدريب لأجل طلاب الكلية الحربية، والأصوات المتعددة الطبقات للشتوكات أو «القاذفات الإنقضاضية» ـ تدعى هكذا لأنها تحلق عالياً فوق منطقة القتال وهي تميل جانبا ثم تنقض على هدفها، مرخية قنابلها في اللحظة الأخيرة ـ يواجهني سؤال: لماذا أعود إلى طفولتي وتاريخ نهايتها الواضح والثابت، عندما حصل لي كل شيء بين الأسنان اللبنية والأسنان الدائمة ـ يومي الأول في المدرسة، الركبتين المسحوجتين، الرخام، أبكر أسرار كرسي الاعتراف وفيما بعد سكرات الإيمان ـ كل هذه امتزجت في خليط من المذكرات المختصرة التي ارتبطت, منذ أن دُونت على الورق، بشخص رفض أن يكبر وكسر كل نوع من الزجاج بغنائه، وجهز اثنتين من العصي الخشبية، وبفضل طبل من الصفيح صنع لنفسه اسماً وجد بعدئذ في شكل جدير بأن يستشهد به بين دفتي كتاب ويدعي الخلود في السماء ويعرف كم من اللغات؟

بسبب ذلك أيضاً يستحق هذا أن يكون جزءاً من السجل. لأن شيئاً هاماً بشكل فاضح قد يكون مفقوداً. لأن أشياء معينة في أوقات معينة قد سقطت في البئر قبل أن يستقر الغطاء: الثقوب التي تركتها مكشوفة حتى وقت لاحق، والنمو الذي لم يكن بإمكاني إيقافه، التبادل اللغوي الذي أجريته مع الأشياء الضائعة. واسمحوا لي بقول هذا أيضاً: لأنني أريد أن تكون لي الكلمة الأخيرة.

الذاكرة تحب أن تلعب لعبة الاستغماية، أن تدب مبتعدة. إنها تميل إلى الإسهاب، إلى الظهور بمظهر معين، بلا داع غالباً. الذاكرة

Twitter: @ketab_n

تناقض نفسها، ولما كانت متحذلقة، فإنها ستأخذ طريقها. الذاكرة، عندما تُضايق بالأسئلة، مثل بصلة ترغب في أن تقشر لكي نتمكن من قراءة ما تمت تعريته حرفاً حرفاً. من النادر أن تكون واضحة وغالباً ما تكون مكتوبة بكتابة مرآتية أو مقنعة بأشكال أخرى. تحت قشرتها الخارجية الجافة والمتشققة نجد طبقة أخرى أكثر رطوبة، ما إن تُفصل حتى تكشف عن طبقة ثالثة، توجد تحتها رابعة وخامسة تنتظران هامستين. وكل قشرة تنضح بكلمات طال كتمانها أكثر مما ينبغي، وعلامات ملتفة، كما لو أن بائع ألغاز من عصر مبكر كان قد قرر أن يشفر نفسه، في حين كانت البصلة لا تزال تنبت.

ثم يطل الطموح برأسه: هذه الخربشة يجب أن تفك رموزها، هذه الشيفرة يجب أن تُكسر. إن ما يلح حاليا على الحقيقة هو مستهجن، لأن الكذبة أو شقيقتها الصغرى، الخديعة، لا تسلم غالباً إلا الجزء الأكثر مقبولية من الذاكرة، الجزء الذي يبدو معقولاً على الورق، أو يتبجح بأن التفاصيل دقيقة مثل الصورة الفوتوغرافية: كان سقف الكوخ المصنوع من الورق المقير الواقع خلف بنايتنا يومض في حر تموز وفي الهواء الساكن الذي تفوح منه رائحة كراميل الملت.

كانت الياقة القابلة للغسل لمعلمتي في المدرسة الإبتدائية، الآنسة شبولنهاور، مصنوعة من السيلولوئيد وكانت ضيقة للغاية بحيث أنها أحدثت تجعدات في عنقها.

الأقواس ذات الشكل المروحي في شعر الفتيات في منتزه تسوبوت عندما كانت فرقة الشرطة تعزف ألحاناً سريعة...

تجربتي الأولى مع الفطر الصالح للأكل ....

عندما صرفنا من المدرسة بسبب الحر....

عندما التهبت لوزتاي مرة أخرى....

Twitter: @ketab_n

عندما ابتلعت أسئلتي..

للبصلة قشور كثيرة. عدد وافر من القشور. عندما تقشر فإنها تجدد نفسها وعندما تفرم فإنها تسيل الدموع؛ في أثناء التقشير فقط تنطق بالحقيقة. ما حدث قبل نهاية طفولتي وبعدها يدق الباب بحقائق وقد يسير بشكل أسوأ مما هو مطلوب لأجله ويتطلب أن يحكى الآن بهذه الطريقة، ويقود إلى حكايات طويلة.

عندما اندلعت الحرب على سحر طقس أواخر صيف مجيد في دانتسيغ وضواحيها واستسلم المدافعون البولنديون عن فستربلاته بعد سبعة أيام من المقاومة، قمت، أنا الصبي الذي كنته ظاهريا، بجمع حفنة من شظايا القنابل والقذائف قرب حوض نويفارفاسر للسفن، الذي كان الوصول إليه متيسراً بسهولة بالترام عن طريق سازبه وبرويزن، وقايضتها، في وقت بدا فيه أن الحرب لا توجد إلا في نشرات الراديو، بطوابع وبطاقات صور ملونة من علب السجائر، كتب مطوية الزوايا وخارجة لتوها من المطبعة ـ بما في ذلك كتاب رحلة عبر صحراء غوبي من تأليف سفن هدين Sven Hedin ـ والله يعلم ماذا غير ذلك.

في بعض الأحيان ترد ذكرى غامضة أقرب إلى الحقيقة بطول عود ثقاب، وإن يكن ذلك وفق مسارات ملتوية.

غالباً ما تكون الأشياء هي التي تحتك بها ذاكرتي، وترتطم بها ركبتاي أو التي تترك مذاقاً متبقياً منفراً هي: مدفأة الآجر، القطعة الخشبية التي تستعمل لنفض السجاد خلف المنزل...، التواليت على منتصف السلم..... حقيبة الملابس في السقيفة.... قطعة من الكهرمان بحجم بيضة الحمامة.

إذا كنت لا تزال تشعر بملاقط شعر أمك أو منديل أبيك المعقود عند زواياه الأربع في حر الصيف أو تستذكر القيمة التبادلية لمختلف شظايا

Twitter: @ketab_n

الرمانات اليدوية والقنابل المفرضة، فسوف تعرف قصصاً ـ ولو كتسلية فقط ـ أقرب إلى الواقع من الحياة نفسها.

كانت بطاقات الصور التي كنت أجمعها بلهفة شديدة في صباي وشبابي يتم الحصول عليها بقسائم (كوبونات) تأتي في العلب التي كانت والدتي تخرج منها سجائرها بعد إغلاق الحانوت. كانت تطلق اسم سيغيز Ciggies على ملحقات رذيلتها المتواضعة وتحتفل بالطقس الليلي مع كأس من الكوانترو. فإذا كان الجو مفتوحاً، يمكن جعل حلقات الدخان تحلق فيه.

كانت الصور التي كنت أتلهف إليها نسخا ملونة من روائع الفنون الأوروبية. لقد تعلمت منها، منذ وقت مبكر، اللفظ الخاطئ لأسماء جيورجيوني ومانتينيا وبوتيشللي وغيرلانداو وكارافاجيو. إن الظهر العاري لامرأة مضطجعة تحدق في مرآة يمسكها صبي مجنح اقترن في ذهني باسم فيلازكيز بشكل لا ينفصم منذ الطفولة. أما ما ترك أعمق انطباع علي في لوحة **الملائكة المغنية** من أعمال يان فان ايك فكان بروفيل الملاك الأخير: صرت أجعل شعري مجعداً مثله أو مثل ألبريشت دورر. قد يسأل المرء عن البورتريه الذاتي لدورر المعلق في البرادو في مدريد: لماذا رسم الأستاذ نفسه وهو يرتدي قفازين؟ لماذا القلنسوة الغريبة والكم السفلي مقلمين بشكل مناف للذوق السليم على هذا النحو؟ ما الذي يجعله واثقاً من نفسه على هذا النحو؟ ولماذا دون عمره ـ كان عمره ستة وعشرين عاماً ـ تحت إفريز النافذة؟

أعرف اليوم أن خدمة صور السجائر في هامبورغ ـ بارنفلد قد وفرت لي هذه المستنسخات الرائعة مقابل القسائم إضافة إلى الألبومات المربعة التي ينبغي طلبها بشكل منفصل. يمكنني الآن، وقد استرددت كل الألبومات الثلاثة، بفضل صالة لوبك التي تضم مكتبة لبيع الكتب

Twitter: @ketab_n

المستعملة في شارع كونيغشتراسه، أن أؤكد أن عدد النسخ من مجلد عصر النهضة، المنشور في عام 1938 بلغ 450000 نسخة على الأقل.

أرى نفسي، وأنا أقلب الصفحة تلو الأخرى، عند طاولة غرفة المعيشة، ألصق الصور. هذا الزمن هو العصر الغوطي المتأخر كما تمثله لوحة **إغراء القديس أنطوني** لهيرونيموس بوش: القديس وسط جماعة من الوحوش ذات المظهر الإنساني جداً. إنه شبه طقس، الصمغ ينبجس من ماسورة (اوهو) الصفراء....

إن الكثيرين من جامعي الصور، اللذين ثابروا على الفن بلا أمل، ربما اعتادوا على التدخين بشكل مفرط. مع ذلك، فقد استفدت من كل المدخنين الذين لم يستعملوا قسائمهم. فجمعت المزيد من الصور وقايضتها ولصقتها، وقد تعلقت بها بشكل أولي كما يفعل الطفل، لكنني تعلقت فيما بعد بحساسية متزايدة: مادونا الطويلة والنحيلة لبارميغيانيو، التي تطل برأسها على أبراج طويلة العنق فوق الأعمدة التي تشمخ نحو السماء في الخلفية، استثارت الولد ذا الاثني عشر عاماً إلى أن يفرك نفسه بحماسة، مثل ملاك، بركبتها اليمنى.

لقد عشت من خلال الصور، ولأن الابن كان مصمماً على امتلاك مجموعة كاملة، كانت الأم - بالإضافة إلى الإيرادات من استهلاكها المعتدل - مدخنة وفية للسجائر المصرية المفلطحة، المذهبة الرأس، فأعطته خلسة عدداً من القسائم التي كان يساهم بها مستهلك أو آخر لم يكن باستطاعته أن يكون أقل اهتماماً بالفن. في بعض الأحيان كان الأب البقال يجلب لي إلى البيت قسائم مرغوبة كثيراً من رحلاته التجارية. إن متمرني جدي نجار الموبيليا، وكانوا جميعاً مدخنين مجتهدين، ساهموا أيضاً في قضيتي. فالألبومات المليئة بالفراغات البيضاء المحاطة بنصوص شرحية، لابد أنها كانت هدايا عيد الميلاد أو عيد ميلادي.

Twitter: @ketab_n

لقد حفظت الألبومات الثلاثة ككنز واحد: الألبوم الأزرق، الذي كان يضم الفن الغوطي وفن عصر النهضة المبكر؛ والألبوم الأحمر الذي أبهجني بذروة عصر النهضة؛ والألبوم الأصفر، الذي كنت لا أزال أحاول أن أجمع فيه قطع عصر الباروك. كنت مكروباً بالفراغات البيضاء التي تستدعي روبنز وفان ديك. كنت أفتقر إلى التعزيزات. عندما بدأت الحرب تلاشت فورة القسائم. فقد تحول المدخنون المدنيون إلى جنود يدخنون سجائرهم من نوع يونو وR6 بعيداً عن البيت. وقُتل أحد المزودين الأكثر موثوقية، وكان حوذياً يعمل في معمل البيرة المحلي، في أثناء المعركة من أجل قلعة مودلين.

عندئذ بدأت سلسلة أخرى تنافس: حيوانات، زهور، صور لماعة من التاريخ الألماني، والوجوه المطلية بالمساحيق لنجمات السينما الشعبيات.

بالإضافة إلى ذلك، بدأت كل عائلة، في وقت مبكر من الحرب، تستلم بطاقات الإعاشة، وكانت هذه البطاقات تتضمن قصاصات خاصة لاستهلاك منتجات التبغ. مع ذلك، لما نجحت في تأمين تثقيف أساسي في تاريخ الفن بمساعدة شركة ريمتسما للسجائر في أزمنة ما قبل الحرب، فإن النقص المقرر رسمياً لم يؤثر علي بشكل كبير. إذ استطعت ملء الثغرات واحدة تلو الأخرى. لقد تمكنت، على سبيل المثال، من مقايضة **مادونا درسدن** لرافائيل، التي كنت أمتلك نسخة عنها، بلوحة **كيوبيد** لكارافاجيو، وهي صفقة لم تكتمل تماماً في حينه ولا حتى فيما بعد.

حتى عندما كنت في سن العاشرة كنت قادراً على تمييز هانز بالدونغ، المدعو غرين، عن ماتياس غرونفالد؛ وفرانز هالز عن رامبراندت؛ وفيليبو ليبي عن شيمابوي - وكل ذلك من النظرة الأولى.

من رسم مادونا في بستان الورد؟ أو مادونا ذات المعطف الأزرق والتفاحة والولد؟ عندما سئل الابن من قبل الأم التي غطت العنوان واسم

Twitter: @ketab_n

الرسام بإصبعين، أجاب دون أن يضيع نبضة واحدة.

في ألعاب الحزر [الحزورات] المنزلية هذه وفي المدرسة أيضاً كنت طالبا من الدرجة A ـ على الأقل في الفن. منذ عامي الأول في المدرسة الثانوية أصابني اليأس المطلق عندما جاء دور الرياضيات والكيمياء والفيزياء. كنت جيداً بشكل ممتاز في إنجاز عمليات الجمع في رأسي لكني كنت أواجه صعوبة في حل معادلات بمجهولين على الورق. وقد تمكنت حتى عامي الثاني من التعويض عن ذلك بدرجات As و Bs في الألمانية والإنغليزية والتاريخ والجغرافية، وحتى خربشاتي وتلويناتي المائية، سواء أنجزتها من الطبيعة أو من مخيلتي بدت أنها تساعد، لكن اللغة اللاتينية في العام الثالث قلبت التوازن، وكان علي أن أعيد العام بكامله مع زملائي الأغبياء. لقد أزعجني ذلك بأقل مما أزعج والدي: منذ وقت مبكر كنت قد هيأت طرق الهروب المؤدية إلى الكارثة هناك.

في هذه الأيام، إن اعتراف جد بأنه كان في المدرسة كسولاً من ناحية وعديم الطموح من ناحية أخرى، لكنه في النهاية لم يكن غبياً بكل معنى الكلمة ليس مريحاً جداً للأحفاد الذين يعانون من علامات متدنية أو من وجود مدرسين غير أكفاء. فهم يئنون كما لو أن جلاميد تربوية معلقة حول رقابهم، كما لو كانت المدرسة مستعمرة عقوبات، كما لو كانت متطلبات قاعة الدراسة تفسد أحلى أحلامهم. حسناً، إن التلهف إلى الملاعب لم يعكر نومي أبدا.

عندما كنت ولداً ـ قبل أن أُمنح قبعة المدرسة الحمراء وقبل أن أبدأ بجمع بطاقات السجائر ـ كنت أنزل إلى أحد الشواطئ على امتداد خليج دانتسيغ حالما يأتي الصيف بوعده الذي لا ينتهي، وأشكل من الرمل المبلل أبراجاً عالية وأسوار قلعة كنت أجعلها مأهولة بشخصيات خيالية. شيئاً فشيئاً كان البحر يدفن هذا الإنشاء فتنهار البريجات

Twitter: @ketab_n

الشامخة بلا ضجيج. ومع ذلك كان الرمل ينساب مرة أخرى من بين أصابعي.

«كلكربورغ» هو عنوان قصيدة كتبتها في منتصف الستينات، بعبارة أخرى، عندما بدا أن الأب ذو الخمس وأربعين عاماً لثلاثة أبناء وابنة قد استقر في عيش برجوازي. ومثل بطل روايته الأولى، كان مؤلفها قد صنع لنفسه اسماً بحبس ذاته المزدوجة بين دفتي كتاب وأخذها مروضة على هذا النحو إلى السوق.

تدور القصيدة حول خلفيتي وأصوات بحر البلطيق. «ولدت في كلكربورغ، في الغرب منها» هكذا تبدأ القصيدة، ثم تطرح أسئلة: «ولدت متى؟ وأين؟ لماذا؟» في سيل لفظي تستذكر الضياع والذاكرة، التي تفقد ويُعثر عليها في شذرات جمل «النوارس ليست بنوارس بل...».

في نهاية القصيدة التي ترسم معالم أرضي بين الروح القدس وصورة هتلر الفوتوغرافية، مستحضرة بداية الحرب بشظايا القنابل وومضات فوهات المدافع والبنادق، فتتلاشى الطفولة. وحده البلطيق يبقى مستمراً، بالألمانية، بالبولندية «بلوب، بيففف، بششش».

كانت الحرب في طفولتها عندما أعدم الألمان ابن عم أمي، الخال فرانتز، وهو ساعي بريد شارك في الدفاع عن مكتب البريد البولندي في ساحة هيفيليوس ـ مع كل الناجين تقريباً من تلك المعركة القصيرة. القاضي العسكري الذي نطق بالحكم وبرره ووقع عليه استمر في النطق بالأحكام والتوقيع عليها في شلسفيغ ـ هولشتاين بعد الحرب بزمن طويل، دون أن يُمس. وهي قصة شائعة في أثناء فترة حكم المستشار أديناور المديدة.

فيما بعد كيفت المناوشة على مكتب البريد البولندي مع أسلوبي النثري السردي، فبدلت الشخصيات وأقحمت وصفاً هاذراً لسقوط بيت

Twitter: @ketab_n

من الورق المقوى. كانت أسرتي أقل هذراً بكثير. لم يعد يذكر خالنا الذي غاب فجأة، المحبوب كثيراً فوق كل تصور أو رغم سياسته، والضيف الكثير التردد مع أولاده، ايمغارد وغريغو وماغدا وكازيمير الصغير من أجل تناول القهوة وكعك الأحد أو جولة من لعبة سكات بعد الظهر مع والدي. فكان اسمه يتم المرور عليه بصمت، كما لو أنه لم يوجد أبداً، كما لو أنه لا يمكن الكلام عن كل ما له صلة به أو بأسرته. إذ يبدو أنه قد تم ابتلاع الجانب الكاشوبي من الأسرة ـ جانب أمي ـ مع ثرثرة ردهاته الوثيرة. من قبل من؟

ولا أنا طرحت أسئلتي الملحة، حتى رغم أن طفولتي كانت قد انتهت مع بدء الحرب.

أم هل كان ذلك لأنني لم أعد طفلاً لم أكن أجرؤ على السؤال؟

هل الأطفال إذاً هم الذين يسألون الأسئلة الصحيحة، كما في قصصي الخيالية؟

هل من الممكن أن يكون الخوف من الجواب الذي قلب عالمي رأساً على عقب هو الذي جعلني أمسك لساني؟

من المخزي أن تجد مثل هذه الوصمة على القشرة السادسة أو السابعة من تلك البصلة المقوية للذاكرة، المتاحة من النوع الحدائقي. لذلك أكتب حول الخزي، والعار الذي يطلع في أثره. إن الكلمات المستخدمة نادراً ما أثمرت في خدمة التعويض المتأخر عندما تبقى عيناي، المتساهلتان تارة والمتشددتان تارة أخرى، على صبي لا زال يرتدي الشورت، يستطلع بتطفل في الشؤون الخفية، مع ذلك يفشل في السؤال، لماذا؟

وعندما أستفسر بشكل مبهم وبذلك أرهق بشكل واضح سن الثانية عشرة، فإنني أزن كل خطوة أقوم بها في هذا الحاضر سريع الزوال،

Twitter: @ketab_n

أسمع نفسي وأنا ألهث، وأعيش بطريقتي، بشكل بهيج قدر الإمكان، حتى الموت.

ترك فرانتز كراوزه، خالي المعدوم، زوجة وأربعة أطفال كانوا يتراوحون في أعمارهم بين من هو أعمر مني بثلاث سنوات ومن هو أصغر مني بثلاث سنوات. لم يعد مسموحاً لي أن ألعب معهم. فكان عليهم أن يخلوا شقتهم في المدينة القديمة في شارع برابانك ـ التي جاءتهم مع الوظيفة ـ وأن ينتقلوا إلى الريف بين تسوكاو ورامكاو، حيث كانت الأرملة تمتلك كوخاً وقطعة من الأرض. وهناك، في كاشوبيا الهضبية، يعيش أولاد ساعي البريد حتى يومنا هذا، مبتلين بالعلل المعتادة للشيخوخة. لديهم ذكريات مختلفة: لقد فقدوا أباهم، في حين كان أبي حاضراً أكثر مما ينبغي. كان هذا المستخدم لدى مكتب البريد البولندي رجل أسرة رعديد، قلق، لم يخلق ليموت ميتة بطل، يظهر اسمه، فرانسيشك كراوزه، على لوحة تذكارية برونزية، وهكذا دخل الخلود.

عندما أصدرت بعد جهد كبير تأشيرة دخول [أخيراً] إلى بولندا في شهر آذار عام 1958 وسافرت من باريس عن طريق وارسو إلى غدانسك, وهي مدينة كانت لا تزال تبرز من حجارة الركام، لأفتش عن دانتسيغ السابقة، بحثت بفضول خلف واجهات الخرائب وعلى امتداد شاطئ بروزن، انتقلت إلى قاعة المطالعة في المكتبة البلدية، أراضي مدرسة بستالوتسي التي لازالت قائمة، ومطابخ غرف المعيشة لموظفي مكتب البريد البولندي اللذين لازالوا على قيد الحياة، ومن ثم، وقد جمعت قليلاً من المادة الخام من أجل الرواية، ذهبت لأرى الأقارب الباقين على قيد الحياة في الريف. عند باب كوخهم حيتني والدة ساعي البريد الذي أعدم، بالعبارة التي لا تقبل الجدل «غينترشن كم كبرت!».

Twitter: @ketab_n

كنا قد أصبحنا أجانب للغاية، غرباء للغاية عن بعضنا البعض، بحيث كان علي في البداية أن أبدد شكوكها بإبراز جواز سفري، لكنها بعدئذ أخذتني لأرى حقل البطاطا العائد لها، الذي يقع اليوم تحت المدرج الإسمنتي لمطار غدانسك.

في صيف العام التالي، كانت الحرب قد تحولت إلى حرب عالمية، وفي أثناء عطلتنا على شواطئ البلطيق لم نكن نحن طلاب المدارس الثانوية نسترجع الأحداث المحلية فقط بل كنا نتابع الوقائع وراء حدودنا. فكنا منشغلين بالكامل باحتلال فرماخت للنروج، مع أن نشرات الأخبار في حزيران كانت تعلن عن الحملة الفرنسية كحرب خاطفة وتحتفل باستسلام عدونا الوراثي. روتردام، أنتويرب، دونكيرك، باريس، الساحل الأطلسي... كل غزوة جديدة كانت درساً في الجغرافية: ضربة تلو الأخرى، انتصاراً تلو الآخر.

ومع ذلك ذهب كل إعجابنا قبل السباحة وبعدها إلى «أبطال نارفيك». ربما كنا نتكاسل في منطقة استحمام العائلة، لكن الفيوردات تحت الحصار «فوق في النروج» كانت حيث كنا نتوق لأن نكون. هنا كنا ملطخين بكريم نيفيا؛ هناك كان من الممكن أن نتغطى بالمجد.

بفضل الهزائم التي سددت إلى الإنكليز، فقد توجهت عبادتنا التي لا نهاية لها للبطل إلى البحرية، وكان عدد منا، بمن فيهم أنا، يحلمون بالتطوع في الجيش، فقط لو استمرت الحرب ثلاث أو أربع سنوات أخرى، ومن المفضل أن يكون في سلك الغواصات. كنا، ونحن جالسون هناك بلباس السباحة، نجري مسابقات لنرى من يستطيع أن يسمي أكبر عدد من المآثر العسكرية، بدءاً بانتصارات الغواصة Weddigen U9 في الحرب العالمية الأولى، التي كان فيها الرائد البحري برين يغرق سفينة رويال اوك ويعود دائماً إلى «النصر الصعب» في نارفيك.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم، قال واحد من شلتنا ـ اسمه ڤولڤـغانـغ هاينريشز، وكان مغنيا للأغاني الشعبية معترفاً بـه غـامر بتقـديم لحـن اوبـرا بنـاء علـى الطلب، لكنه كان ذا يد يسرى مبتورة جعلته غير لائق لأجل البحرية، ولذلك فقد كان موضوع تعاطفنا، «لابد أنكم مجانين تماماً!».

ثم عد على أصابع يده غير المبتورة كم من مدمراتنا أغرقت أو أعطبت بشكل سيئ في نارفيك. لم تكف الأصابع الخمس على تلك اليد.

دخل في تفصيل شبه مهني، مشيرا إلى أن إحدى السفن التي يبلـغ وزنها 1800 طن ـ وذكر اسمها ـ يتعين إنزالها إلى الأرض. كان يعرف كل تفاصيل المعركة، حتـى الأسـلحة علـى سـفينة وورسـبايت التابعـة لإنكلترا وسرعتها بالعقد. صحيح أننا، وقد كنـا، أيضـاً، أولاد مينـاء، بإمكاننا أن نثرثر بمواصفات سفننا والسفن الأجنبية: الوزن بالطن، حجم الطاقم، عدد الأنابيب الطوربيدية، سنة الإطلاق، لكننا دهشنا من مدى إطلاعه على نارفيك لأن معرفته كانت تتجاوز ما نقله إلينا من نشـرات فيرماخت الإذاعية اليومية. «ليس لديكم أي دليل حول ما حـدث حقـاً هناك في الشمال. فقد وقعت خسائر فادحة! فادحة بشكل لعين!».

وسـواء فوجئنـا أم لا، فقـد قبلنـا ببسـاطة مـا قالـه. لا أحـد سـأل ڤولڤـغانـغ هاينريشز من أين حصل على معلومته المذهلة وأنا لم أسـأله بالتأكيد.

بعد ذلك بخمسين عام، عندما بدأت آثار ما كانت تدعى في حينهـا «الوحدة الألمانية» بسبب عدم وجود مصطلح أفضل، بالظهور، قمنا، أنا وزوجتي، اوته، بزيارة الجزيرة المـوطن الأصـلي لهـا، هيـدنزي. قبالـة الساحل الألماني الشرقي بالضبط، تقع الجزيرة بين بحر البلطيق وخليج ظل، وهي أقل عرضة للخطر الناجم عن المد العاصف من الخطر الناجم عن مهنة السياحة.

Twitter: @ketab_n

لا توجد سيارات على جزيرة هيدنزي، لذلك قمنا بنزهة طويلة سيراً على الأقدام فوق المرج إلى بلدة نويندورف، حيث زرنا أحد أصدقاء طفولة زوجتي، مارتن غرون الذي قرر، بعد أعوام من الهروب الجريء بزورق ذي مجذافين من جمهورية ألمانيا الديموقراطية إلى السويد، أن يعود إلى دولة العمال والفلاحين وأن يتقاعد هناك. لم يظهر في دور المغامر. كان مكرساً نفسه للحياة المنزلية أكثر مما ينبغي، ميالاً إلى الاستقرار أكثر مما ينبغي.

وفيما كنا نتناول القهوة والكعك كنا نثرثر حول هذا وذاك: سيرته كمدير في الغرب، الرحلات الكثيرة التي قام بها إلى الهند وأوستراليا وأمكنة أخرى لصالح شركة كروب. حكى لنا حول محاولته المحبَطة لدخول عالم المشاريع المشتركة بين الشرق والغرب وحول مصدر الفرح الوحيد المتبقي له، صيد السمك بالفخ في المياه المحلية.

ثم فجأة بدل العائد إلى الوطن الراضي بشكل واضح الموضوع: كان لديه صديق يسكن في ڤيته، إحدى القرى الثلاث على الجزيرة، ألح بشكل مطلق على أنه كان قد تقاسم معي مقعد الدراسة في دانتسيغ. كان اسمه هاينريشز، ڤولڤغانغ هاينريشز.

متابعة للمسألة، علمت أن يده اليسرى كانت مبتورة، ويملك صوتاً جيداً، «رغم أنه نادراً ما استخدمه».

لوهلة من الزمن حولنا، اوته وأنا، الموضوع إلى مسائل الجزيرة حصراً، ونحن ننسج الحكايات التي استمر فيها الأحياء والأموات بلهجتهم الألمانية السفلى. أما مارتن غرون، الذي كان قد حقق حلم صباه ورأى الدنيا، فقد أرانا بافتخار الأقنعة والبُسُط الملونة والفتيشات المحفورة على الجدران. شربنا آخر زجاجة شنابز.

في طريقنا عبر المرج بحثنا، اوته وأنا، عن البيت خلف الكثبان

Twitter: @ketab_n

حيث كان هاينريشز يسكن مع زوجته. فتح الباب رجل عملاق، يتنفس تنفساً ثقيلاً. كان الشيء الوحيد الذي ميزته فيه هو يده المبتورة. بعد تردد قصير تعانق صديقا الدراسة وكانا متأثرين إلى حد ما.

جلسنا على الشرفة، وقد قررنا أن نبتهج، وفيما بعد ذهبنا نحن الأربعة إلى مطعم، لتناول السمك: السمك المفلطح المقلي المقرمش. لا، لم تكن لديه أية رغبة في غناء أغنية Erklonig، لكن لم يطل بنا الوقت قبل أن نصل إلى حديثه على الشاطئ عن صيف 1940، الذي لا يزال لغزاً بالنسبة لي بعد كل السنوات الفاصلة.

سألته، وقد أردت أن أسمع: «كيف عرفتَ أكثر مما عرفنا نحن؟ كيف عرفت ما لم نكن نملك أي دليل حوله، على حد تعبيرك؟ من أين حصلت على العدد الدقيق للمدمرات التي تم إغراقها وإعطابها في نارفيك؟ وكل شيء آخر عرفته؟ بعد قليل من الرميات الصائبة وبطوربيدين ـ وكلاهما كانا يطلقان النار من الشاطئ ـ قامت وحدة مدفعية ساحلية نرويجية قديمة الطراز بإغراق الطراد الثقيل بليشر في فيورد اوسلو؟

كان وجه هاينريشز الجامد يبدي من نواح أخرى أثراً لابتسامة عندما يتكلم. كان أبوه قد ضربه بقسوة عندما ذهب إلى المنزل وسخر من جهلنا. رغم كل شيء، كان من الممكن أن يكون تبعات مترتبة على تبجحه. كان ثمة عدد كبير من المخبرين، ليس أقله بين تلاميذ المدرسة. كان أبوه يستمع بانتظام إلى الإذاعة البريطانية، وكان ينقل معرفته إلى ابنه تحت القسم الصارم على الصمت. «صحيح»، قال هاينريشز، فقد كان أبوه معادياً حقيقياً للفاشية، وليس واحداً من صنفك المدعي. قال ذلك كما لو أنه، الابن، شعر بالحاجة إلى أن يذم نفسه بوصفه مدعياً ومتباهياً بنفسه.

Twitter: @ketab_n

ثم سمعت حكاية محنة، مثل عويل مكتوم، كانت قد فاتتني بالكامل ـ أنا، زميله في الدراسة ـ لأنني لم أسأل، لأنني هنا، أيضاً، كنت قد فشلت في طرح الأسئلة. وليس حتى بعد أن اختفى ڤولڤغانغ هاينريشز من المدرسة فجأة، مدرسة كونرادينوم المبجلة.

بعد العطلة الصيفية بوقت قصير، ربما حتى في حين كانت حبات رمل الشاطئ الأخيرة تقطر من شعرنا، كان صديقنا إما مفقوداً أو لم يكن موجوداً، ولا أحد كان يرغب في البحث عن معنى تلك العبارة المرتجلة بشكل عرضي «اختفى بلا أثر»، ومرة أخرى فشلت في النطق، فابتلعت كلمة لماذا.

الآن فقط، بعد كل تلك الأعوام، علمت بما حدث. في أثناء عهد الدولة الحرة كان والد هاينريشز عضواً في الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني، وصار فيما بعد عضواً ديمقراطياً اجتماعياً في البرلمان، وكان قد عارض شخصيتي الحزب النازي الكبيرتين راوشنينغ وغرايزر وصداقة «حك لي لأحك لك» التي أدت إلى التحالف بين القوميين الألمان والنازيين في المجلس البلدي. وُضع تحت المراقبة حتى أوائل خريف 1940، عندما اعتقله الغستابو. أرسل إلى معسكر الاعتقال الذي أقيم قرب الفريشز هاف بعد أن ألحقت دانتسيغ بالرايخ. وقد سمي المعسكر باسم قرية صيادي السمك المجاورة، سوتهوف، وكان من الممكن الوصول إليه بسلوك سكة القطار الضيقة العرض من محطة فردر في المدينة، المعبر الذي يخترق الدهليز في شيفنهورست. كانت رحلته تستغرق ساعتين.

بعد اعتقال والد ڤولڤغانغ بزمن ليس طويلاً، انتحرت أمه، فأرسل ڤولڤغانغ وشقيقته إلى جدتهما في الريف، بعيداً بما يكفي لأن ينساهما زملاؤهما في المدرسة. في نهاية المطاف أُطلق سراح والدهما من

Twitter: @ketab_n

المعتقل ليخدم في كتيبة العقوبات التي كانت وظيفتها هي إزالة الألغام على الجبهة الروسية. كانت فرقة مغاوير الصعود إلى السماء، وهو الاسم الذي كان يطلق تهكماً على هذه الفرقة، ولكن رغم عدد القتلى المرتفع فيها، فقد منحته الفرصة للعبور إلى الروس.

عندما دخل الجيش السوفييتي الثاني إلى تلة الدبش التي يتصاعد الدخان منها، التي كانتها دانتسيغ في آذار 1945، دخل والد زميلي في المدرسة مع المنتصرين. بحث عن ولديه وعثر عليهما. وعندما انتهت الحرب أخرجهما إلى بولندا في رحلة تحت الحراسة مخصصة للألمان المعادين للفاشية، واختار ميناء شترالزوند، في المنطقة الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي، كوطن مستقبلي لأجل من تبقى من أسرته.

وهناك تم تعيينه رئيساً على لاندتاغ، الهيئة البرلمانية المحلية. ولما كانت قناعاته السياسية لم تتأثر بغسيل الدماغ الذي أُخضع له في معسكر الاعتقال، فقد أسس على الفور رابطة ديموقراطية اجتماعية محلية. لكنها برغم شعبيتها مرت بأوقات عصيبة بعد دمج الحزب الشيوعي الألماني والحزب الديمقراطي الاجتماعي قسراً في الحزب الاشتراكي الموحد. رفض والد هاينريشز أن يفرض عليه الاصطفاف من فوق فتعرض للمضايقات وهُدد بالاعتقال ولُمح له حتى إلى معتقل بوخنفالد الذي أعيد تأهيله حديثاً كوجهة ممكنة.

توفي بعد ذلك بسنوات، وهو يشعر بالمرارة لكونه قد نُحي جانباً من قبل رفاقه. مع ذلك كان قادراً على إكمال دراساته في روستوك، مع زميله في المدرسة مارتن غرون، وسرعان ما صنع لنفسه اسماً في حقل علم الاقتصاد. بعد هروبه بالقارب، تابع غرون دراسته لعلم الاقتصاد أولاً في لوند ومن ثم مع كارل شيلر في هامبورغ، في حين صنع هاينريشز لنفسه سيرة في الحزب كلي السلطات، فكان يخدم عبر كل انتقال

Twitter: @ketab_n

للنظام، بما في ذلك الانتقال من اولبريشت إلى هونيكر. وقد كوفئ في شيخوخته بمنصب مدير معهد الاقتصاد التابع لأكاديمية العلوم، وهو منصب بارز بحيث ما إن هُدم الجدار وكفت دكتاتورية العمال والفلاحين عن الوجود حتى كان المنتصرون الألمان الغربيون، السادة الجدد للتاريخ، قد «قيموه» ـ أي خفضوه إلى الصفر.

هكذا كان مصير الكثيرين الذين اتُهموا بتزوير سيرهم الذاتية، وكانوا يعرفون دائماً ما الذي يحتاج في سيرهم الفعلية لأن يكون زائفاً.

عندما زرنا هاينريشز في ڤيته كان مريضاً بشكل خطير. أفهمتنا زوجته أن ثمة مبرر للقلق. إذ كان يشكو من ضيق في صدره و يعاني من مشاكل في التنفس. مع ذلك فقد وجد عملاً حينياً كمستشار ضريبي في شترالزوند وكان، كما أكدت لنا، يكتسب مهارة في إيجاد ثغرات للتهرب في النظام [الضريبي].

توفي ڤولفغانغ هاينريشز، الرجل الذي هزمته الظروف الألمانية، متأثراً بانسداد رئوي بعد سبعة أشهر من زيارتنا. كان صديق الدراسة، تقاسمت معه شبابي ـ غنى أغنية *الساعة Die Uhr* لكارل لويفه في حفل التخرج وكان يعرف عن البحرية أكثر من بقيتنا مجتمعين ـ وبقي في ذهني لأنني كنت راغباً في ألا أعرف شيئاً، أو أصدق المعلومات المزيفة، لأنني كنت قد استخدمت وضعي كطفل لألعب دور الأخرس وتقبلت اختفاءه بدون تمتمة، وتهربت مرة أخرى من كلمة لماذا، بحيث أنني الآن، وأنا أقشر البصلة، [أشعر] بصمتي يطن في أذني.

لقد سلمت بأنه كان من الممكن أن يكون الألم أسوأ، لكن تفجعات من قبيل لو كان لي أب قوي مثل ڤولفغانغ هاينريشز وليس أب لم ينضم إلى الحزب النازي إلا عندما صار في السادسة والثلاثين وعندما لم يكن الضغط كبيراً بشكل خاص بعد لفعل ذلك في ولاية دانتسيغ الحرة،

Twitter: @ketab_n

وهي تفجعات رخيصة ومن المحتمل أن تثير النوع من الضحك الذي يضحكه الكلبي فيَ كلما سمعت أشياء مثل لو كان لنا ـ لو كنا....

لكنني لم يكن لي [ذاك الأب]، ولا كنت أنا. قضى عمي في سبيل الخير، واختفى زميلي في المدرسة. مع ذلك كان الصبي الذي أشعر بالحاجة إلى تتبع حياته حاضراً بوَضوحٍ أكثر مما ينبغي عندما كانت تُقترف الأعمال الشنيعة. قبل عام تقريباً من بدء الحرب كان العنف في وضح النهار.

بعد عيد ميلادي الحادي عشر، عندما أحرقت الكنُس في دانتسيغ وفي أمكنة أخرى وحطمت واجهات حوانيت التجار اليهود، لم أشارك في ذلك مع أنني كنت متفرجاً فضولياً جداً؛ كنت أراقب عندما نُهب كنيس لانغفور في شارع ميشائيليزڤغ، غير بعيد عن مدرستي، كونراديوم المبجلة، وقد سلبته جماعة من رجال SA وأحرقته. والشاهد على هذه العملية الصاخبة إلى درجة قصوى، التي وقف فيها البوليس البلدي جانباً ـ ربما لأن الحريق طال اشتعاله ـ ببساطة وراقب، وكان هذا الشاهد، في أقصى حالاته، مندهشاً.

لا شيء أكثر، بغض النظر عن مدى حماسي، وأنا أنقب في أوراق ذاكرتي، لا أستطيع أن أجد شيئاً لصالحي. يبدو أن سنوات طفولتي غير مشوشة بالكامل بالشك. لا، كنت خصماً سهلاً، كنت دائماً طريدة لكل ما كان لدى العصر، الذي كان يسمي نفسه حديثاً ـ بشكل مبتهج ومبهج ـ ليقدمه.

كان ثمة الكثير، وكان مغرياً. فعلى الراديو والشاشة كان الملاكم ماكس شملينغ منتصراً. توزع ممثلو صندوق الشتاء الخيري Winter Charity Fund مع علب الصفيح أمام مخزن قسم شترنفلد وهم يهتفون: لا أحد سيموت جوعاً! لا أحد سيتجمد! كان سائقو السباق

Twitter: @ketab_n

الألمان مثل برند روزماير في سيارته المرسيدس السهم الفضي هم الأسرع. كان الناس يحدقون فاغرين أفواههم إلى غراف تسبلين وهندنبرغ وهما تومضان فوق المدينة أو على البطاقات البريدية المصورة. عرضت نشرات الأخبار فرقة الكوندور التابعة لنا وهم يساعدون في تحرير إسبانيا من الخطر الأحمر بأحدث الأسلحة. لقد أعدنا تمثيل دور القصر الإسباني Alcazar على أرض الملعب. قبلئذ بأشهر قليلة فقط كنا قد اهتزينا طربا للألعاب الأولمبية، الميدالية تلو الأخرى، وفيما بعد كان لدينا عداء أعجوبة في رودلف هاربيغ. كان الرايخ الثالث يتلألأ في بقعة ضوء نشرة الأخبار.

في أثناء الأعوام الأخيرة من الدولة الحرة ـ كنت في العاشرة من عمري آنذاك ـ انضم الصبي الذي يحمل اسمي بشكل طوعي إلى اليونغفولك، وهي منظمة تحولت إلى شبيبة هتلر. كان يطلق علينا اسم «الجراء» Pimpfe أو «الدغافل» [جراء الذئاب]، وهو مصطلح مستعار من حركة الكشافة Wolfling. فكان على رأس قائمة رغباتي في عيد الميلاد لذاك العام اللباس الرسمي لليونغفولك: القلنسوة، الوشاح، الحزام، وشريطة الكتف. صحيح لا أذكر أنني كنت أرتعش بشكل خاص لفكرة حمل العلم في المسيرات أو الطموح إلى الزركشة التي كانت تتناسب مع رتبة قائد الجماعة، لكنني كنت أؤدي دوري دون مناقشة أو اعتراض، حتى عندما كان الإنشاد وقرع الطبول المتواصلين يضجرانني حتى أذرف الدموع.

لم يكن اللباس الموحد هو ما جعل الجماعة جذابة. فالفكرة الرغبية لشعارها، **الشباب يجب أن يقودهم الشباب!** كانت مدعومة بالوعود بنزهات سيراً على الأقدام ليلاً والنشاطات العرائية الأخرى في الغابات على امتداد الشاطئ، وحفلات السمر بين الكتل الصخرية النافرة التي

Twitter: @ketab_n

جُرفت وضُمت إلى بعضها البعض لتشكل مرْبَعاً قبلياً جرمانياً، Thingstatte، في الريف الهضابي جنوبي المدينة، واحتفالات ليالي منتصف الصيف تحت السماء المرصعة بالنجوم والتراتيل حتى الفجر في الأراضي المقطوعة الأشجار المواجهة للشرق. كنا ننشد كما لو أن أناشيدنا يمكن أن تجعل الرايخ أكبر فأكبر.

كان قائد وحدتي، وهو فتى من أبناء الطبقة العاملة من نويشوتلاند، بالكاد أعمر مني بسنتين، وكان شاباً عظيماً يروي النكات ويمشي على يديه. كنت معجباً به، فكنت أضحك عندما يضحك، وأهرول وراءه طائعاً. أغريت بالابتعاد عن الجو البرجوازي الصغير الخانق للالتزامات العائلية بعيداً عن والدي، عن ثرثرة الزبائن على طاولة الحساب، عن قيود الشقة المؤلفة من غرفتين حيث الفضاء الوحيد الذي كان بإمكاني أن أدعوه فضائي هو المشكاة تحت عتبة نافذة غرفة المعيشة اليمنى. كانت رفوفها مترعة بالكتب وألبومات بطاقات الصور المأخوذة من علب السجائر. وفيها أيضاً كنت أحفظ صلصال تشكيل القوالب الذي كنت أحوله إلى تميثيلات، ومحبرة الرسم من نوع بليكان، ومجموعة من إثني عشر قلم تلوين مائي، ومجموعة طوابع باهتة نوعاً ما، وكومة من الخردة المتنوعة، ومفكراتي السرية.

قليلة هي الأشياء التي أراها بوضوح للغاية في الاسترجاع كما أرى تلك المشكاة تحت عتبة النافذة، ملاذي لسنوات (فقد خُصت شقيقتي فالتراوت التي كانت أصغر مني بثلاث سنوات، بالمشكاة تحت النافذة اليسرى).

هذا ما يقودني إلى شيء يمكن أن يقال في صالحي. أي، إنني لم أكن فقط دغفلاً PIMPF بلباس رسمي بذل قصارى جهده لكي يسير بخطى منتظمة وهو ينشد، «علمنا المرفرف يدفعنا قُدُماً»، بل كنت

Twitter: @ketab_n

أيضاً فأراً منزليا يحرس كنوز مشكاته بغيرة. وحتى في التشكيل كنت منعزلاً، مع أنني كنت حريصاً على ألا أبرز؛ كنت مخططاً ذهنه على الدوام في مكان آخر.

إضافة إلى ذلك، جعلني الانتقال من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية طالباً في الكونراديوم. فقد سمح لي بارتداء قلنسوة الطالب الحمراء التقليدية المطرزة بحرف C ذهبي اللون وشعرت بأنني مخول بأن أكون متكبرا: كنت طالباً في مؤسسة نخبوية، حتى لو كان على والديَ أن يدفعا مقابل هذا الامتياز تقسيطاً من المال الذي ادخراه جانباً بصعوبة كبيرة. أما كم كنت منغمساً في ذلك فهذا لا أعرفه: كان ذلك عبئاً شهرياً يكاد لا يُلمح إليه أبداً في حضور الابن.

كان دكان البقالية، الذي يجاور مدخلاً ضيقاً يؤدي إلى باب شقتنا وكانت أمي، هيلينه غراس، تديره بمفردها وبحس تجاري شديد ـ فقد قام والدي ڤيلهلم (المعروف للجميع باسم ڤيلي) بتزيين واجهة المحل، وهو الذي كان يتعامل مع بائعي الجملة ويكتب بطاقات الأسعار ـ يحقق معدل نجاح يتراوح من المتوسط إلى الضعيف. في أثناء عهد الدولة الحرة، عندما كانت العملة المتداولة هي الغولدن بدلاً من المارك، جعلت القيود الجمركية من التجارة شيئاً لا يمكن التنبؤ به. إذ كانت ثمة منافسة على ناصية كل شارع. فمن أجل الإذن ببيع الحليب والقشدة والزبدة والجبنة بالإضافة إلى مواد البقالة، كان علينا أن نضحي بنصف المطبخ الذي كان مطلاً على الشارع، الذي لم يترك لنا سوى مكان ضيق مقفل بلا نافذة لأجل المدفأة والثلاجة. تشعبت سلسلة محلات البقالة كايزرز كافي إلى مزيد من الأعمال التجارية. فكان مندوبو المبيعات لا يسلمون البضائع إلى محلنا مالم نسدد كل فواتيرنا، وكان الكثيرون جداً من زبائننا يشترون بالدين. كانت زوجات ضباط الجمارك ورجال

Twitter: @ketab_n

الخدمة المدنية ورجال الشرطة يتذمرن، فكن يختلسن البنسات، ويطالبن بحسميات. في كل يوم سبت بعد إغلاق المحل كان والداي ينظران أحدهما إلى الآخر ويقولان: «مرة أخرى بالكاد خرجنا بلا ربح ولا خسارة».

لذلك كان ينبغي أن يكون واضحا أن أمي لا تقدر على إعطائي مصروفي الأسبوعي المخصص. بعد نواحات لا نهاية لها من جانبي - فكل من في صفي كان يخشخش نقوده متباهياً بمؤونة وفيرة من مصروف الجيب - ناولتني الدفتر الأستاذ المهترئ الذي يحتوي على صفوف وصفوف من ديون الزبائن الذين يشترون بالدين - «على الحساب» على حد تعبيرها. فتحته.

أرى قائمة مكتوبة بخط أنيق من الأسماء والعناوين والمبالغ المستحقة، التي تنخفض في أحيان قليلة لكنها ترتفع غالباً، وهي محسوبة بدقة إلى آخر بنس. إنه سجل امرأة أعمال لها كل المبررات للقلق على أعمالها، إضافة إلى كونه مرآة للوضع الاقتصادي العام في زمن البطالة المتنامية.

كانت تقول لي دوماً: «سيأتي مندوبو المبيعات في صباح الاثنين وسيتمنون رؤية النقود». وهي طوال الوقت لم تُشعرني، ولم تُشعر أختي لاحقا، بأن أقساط المدرسة التي تتشعب كل شهر تفرض علينا أي التزام تجاهها. فهي لم تقل أبداً: انظرا إلى التضحية التي أقدمها لأجلكما، فاظهرا تقديركما لذلك.

كانت قليلة الصبر على أساليب تربية الأطفال الحذرة التي تأخذ في الحسبان التبعات الطويلة الأمد - إلا أنها عندما كان الجدال بيني وبين أختي يرتفع قليلاً، كانت تقول لزبونها: «ثانية واحدة فقط»، وتخرج مهرولة من المحل إلى حيث نكون، وبدلاً من أن تسأل: «من بدأ ذلك؟»

Twitter: @ketab_n

فقد كانت تصفعنا كلينا ببساطة بدون كلمة، ثم تعود فوراً إلى المحل وتخدم الزبون بحرارة كما تشاء ـ فهي التي كانت لطيفة للغاية وودودة، كانت تتأثر بسهولة إلى حد ذرف الدموع، فكانت تطلق على كل ما تراه جميلاً «رومانسياً بشكل حقيقي»، هي الأكثر اهتماماً من بين كل الأمهات، تدفع إلي بالدفتر الأستاذ وتعرض علي أن تدفع نقداً ـ بالغولدنات أو بالبفينيغات ـ الخمسة بالمائة التي أحصلها من الزبون إذا كنت أرغب في كسب الوقت ـ في فترة بعد الظهر أو كلما كنت متحرراً من اجتماعات الشباب البلهاء (بنظرها) ـ لزيارة المدينين المتأخرين عن سداد ديونهم، ولست مسلحاً بشيء سوى لسان وقح (لم يكن ينقصني) ومفكرة مليئة بالأرقام الدقيقة التي أحث أصحابها على تسديدها بالشكل الأكثر إجباراً إذا لم يعمدوا إلى تسوية ديونهم كاملة فعلى الأقل أن يسددوها بالتقسيط. كانت تعطيني مجرد نصيحة خاصة واحدة: «يوم الجمعة هو يوم دفع الرواتب، لذلك فإن مساء الجمعة هو أفضل وقت للتحصيل».

وهكذا أصبحت في سن العاشرة أو الحادية عشرة جابي ديون واسع الحيلة وناجحاً، عندما قيل كل شيء وأُنجز كل شيء. فلم أكن أرتشي بتفاحة أو بقطعة حلوى رخيصة. كنت أطالب بالمال بكلمات قادرة على تذويب قلوب المدينين القساة. حتى الأعذار الأكثر تقوى، الأكثر تملقاً كانت تمر من أذني. ولم تردعني التهديدات. كنت عدوانياً بشكل خاص في أيام الجمعة، مشيراً إلى رزم الراتب الصغيرة، لكن حتى أيام الأحد لم تكن مقدسة بالنسبة لي. وفي أيام العطل، الكبيرة والصغيرة، كنت أقضي النهار كله في ذلك. وسرعان ما استرجعت مبالغ كبيرة بحيث شعرت الوالدة أنها مكرهة، لأسباب أخلاقية آنذاك، على تخفيض النسبة المئوية الباهظة لابنها من خمسة إلى ثلاثة بالمائة. قبلت

Twitter: @ketab_n

بهذا الاقتطاع بحسد. فكان ردها: «كنت تحصل على مبلغ كبير من أجل بنطلونك».

في النهاية كنت في وضع مالي أفضل من الكثير من زملائي في المدرسة، حتى أولئك الذين كانوا يسكنون في بيوت (اوفنغنفغ) Uphengenweg أو (شتيفنفغ) Steffenweg الخاصة ذات المداخل المعمدة والشرفات والمصطبات ومداخل الخدم، وكان آباؤهم أطباء ومحامين وتجار حبوب وحتى مالكي مصانع وسفن. فتراكمت دخولي في علبة التبغ المخبأة في مشكاة النافذة. وقد أنفقتها على التزود بمحابر الرسم والكتب بما فيها المجلدات العديدة من كتاب ***سير الحيوانات*** *Lives of Animals* من تأليف برم Brehm. استطاع المدمن على الأفلام بداخلي في ذاك الوقت أن يتحمل كلفة زيارة أفخم قصور السينما في البلدة القديمة، حتى قصر روكسي في حدائق قلعة اوليفا، بما في ذلك بطاقة العودة بالترام. فلم يفوت عرضاً واحداً هناك.

في أثناء أيام الدولة الحرة كانت دور السينما تعرض جريدة السينما [وهي عبارة عن شريط إخباري قصير] من شركة (فوكس موفيتون) قبل كل فيلم وثائقي أو روائي. كنت أستمتع بالتفرج على تشارلي تشابلن وهو يأكل حذاءه والأربطة وكل شيء وذلك في فيلم ***حمى الذهب*** *The Gold Rush*؛ كنت أضحك على لوريل وهاردي؛ وكنت مفتونا بهاري بييل، أما شيرلي تمبل فكنت أجدها سخيفة وجذابة بشكل معتدل فقط. لحسن الحظ أنني كنت أملك المال أيضاً لمشاهدة بستر كيتون الذي كانت مشاهده المضحكة تحزنني ومشاهده الحزينة تضحكني.

هل كان ذلك في شهر شباط / فبراير، من أجل عيد ميلادها، أم كان من أجل عيد الأم؟ بأي حال، أردت أن أقدم لأمي شيئاً خاصاً، شيئاً من الخارج، قبل وقت من بداية الحرب العالمية الثانية. أتذكر الوقوف

Twitter: @ketab_n

أمام واجهات الحوانيت وأنـا أتأمـل الإمكانيـات، مسترسلاً في صـراع الاختيار، متردداً بين زبدية كريستال بيضاوية في مخزن قسم شـترنفلد وبين مكواة كهربائية.

في النهاية استقر رأيي على جهاز سيمنز المصمم بشكل جميل، الذي انتزعت الأم ثمنه الباهظ بشكل صارم من ابنها، رغم أنها تفادت كشف ذلك لبقية الأسرة كما لو كان ذلك إحدى الخطايـا السـبع القاتلـة. لا، حتى الأب، الذي كان يعرف أن لديه سبباً للافتخـار بابنـه الكفـؤ، لم يُخبر بثروتي المفاجئة. فكانت المكواة تختفـي، بعـد كـل اسـتعمال، في الخزانة الجانبية.

حصدت مكافأة أخرى من عملي كمحصل ديون، رغم أنني لم أستفد منها إلا بعد عقود من ذلك، وعندئذ جاءت على شكل نثر. كنت أصعد الدرج وأهبطه في بناية مؤلفة من شقق حيث كانت الروائح تختلف مـن طابق إلى آخر: ففي أحدها كانت الرائحة الكريهة لنقع الغسيل تطغـى على رائحة الملفوف المغلي؛ وفي طابق آخر كانت رائحة سيارة أو رائحة شراب مسكر تشق طريقها. وراء كل باب كانـت تكمـن زنخـة خاصـة: عفن حـامض أو رائحـة نسـيس شـعر محـترق، لأن ربـة المنـزل كانـت تصفف ضفائرها بمكواة الشعر. وكانت هناك رائحة السيدات الكهلات ـ كـرات النفتـالين والكولونيـا [المصـنوعة مـن] خزامـى اورالـت ـ ونَفَـس شنابس الأرمل المتقاعد.

تعلمت بالشم والسمع والبصر وبالتجربـة. فقـر أسـر الطبقـة العاملـة وقلقها، غطرسة وغضب موظفي الخدمـة المدنيـة الـذين كـانوا يشـتمون بالألمانية العليا المتكلفة وكـانوا يرفضـون دفـع فـواتيرهم كمسـألة مبـدأ، وحاجة النساء الوحيـدات إلى ثرثـرة طاولـة المطـبخ، والصـمت المشـؤوم والعراكات الضارية بين الجيران.

Twitter: @ketab_n

لقد جمعت ذلك كله في حساب مدخراتي الداخلية: آباء رصينون وآباء سكيرون، يضربون أولادهم، أمهات يصرخن بأعلى أصواتهن، أولاد مطبقو الأفواه أو متأتئون، سعال ديكي، سعال متواصل، تنهدات، شتائم، دموع من كل المقاسات، حب الكلب والكناري، أشخاص مكروهون، الابن المبذر الذي لم يعد بعد، حكايات البروليتاريا وحكايات البرجوازية الصغيرة، الأولى بالألمانية السفلى المنمقة بحشوات بولندية، والثانية بلغة بيروقراطية مرخمة ومختصرة إلى طول الذراع، البعض منها ولدته الخيانة الزوجية، والأخرى - حول قوة الروح وهشاشة الجسد - لم أميزها كقصص إلا فيما بعد.

لقد أصبح هذا وغيره الكثير مستخفياً فيَ - ليس فقط اللكمات التي تلقيتها عندما كنت أقوم بجولاتي - مخزون احتياطي من أجل المرات التي كان فيها راوي القصص المحترف تنقصه المادة، يفتقر إلى الكلمات. كل ما كان علي فعله آنذاك هو أن أدع الزمن يعود إلى الوراء، أتنشق الروائح، أفرز الروائح النتنة، أصعد الدرج وأهبطه مجهدا، أرن أجراس الأبواب أو أقرع الأبواب، غالباً في أمسيات الجمعة.

ربما يكون حتى هذا الاحتكاك المبكر مع عملة الدولة الحرة، البفينغ، إضافة إلى الغولدن، ثم بدءا من عام 1939، مع مارك الرايخ والقطع النقدية من فئة خمس ماركات الفضية المرغوبة كثيراً - أي انتسابي المبكر إلى العالم المالي - قد سهل علي المتاجرة، بتجرد من المبادئ، بسلع السوق السوداء كالقداحات [الولاعات] وشفرات الحلاقة بعد الحرب، ومن ثم فصاعداً كمؤلف يتفاوض مع الناشرين الصعبي المراس. لذلك أمتلك المبرر الكافي لأكون ممتناً لأمي لأجل دروسي المبكرة في التعامل العملي بالمال حتى لو كانت هذه الدروس قائمة على تحصيل الديون. وعندما أجبرني ولداي فرانتز وراؤل على رسم بورتريه ذاتية

Twitter: @ketab_n

شفهية لي في أوائل السبعينات فيما كنت أشتغل على كتاب من مفكرة حلزون، طلعت بالعبارة المنقوشة، «لقد تربيت بشكل سيء جداً». كنت أشير، من بين أشياء أخرى، إلى سيرتي كمحصل ديون .

لقد نسيت أن أذكر نوبات التهاب اللوزتين الذي لم يكن يبقيني بعد انتهاء طفولتي خارج المدرسة لأيام فقط، بل كان أيضاً يتداخل مع حياتي المهنية المجنونة بالمال. فقد كان الصبي الناقه يطعم صفار البيض المخلوط مع السكر من قبل أمه على طرف سريره.

Twitter: @ketab_n

تكبسلات

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ثمـة كلمتـان تستحضـر إحـداهما الأخـرى: Schulden [الـديون]، Schuld [الإثم]. كلمتان متقاربتان جداً، ومتجذرتان بشكل عميق للغاية في تربة اللغة الألمانية. لكن في حين يمكن إطفاء الديون بدفعات مقسطة، طويلة الأجل عندما يمكن ذلك (كما يشهد على ذلك زبائن أمي)، يبقى الإثم ـ سواء كان مثبتاً أم مزعومـاً، أم مسـتوراً ـ يتـك ويتـك، يتشـبث بمكانه، حتى في رحلات لا تـؤدي إلى أي مكـان. إنـه يقـول قولـه، لا يخشى أي تكرار، يُنسـى بشـكل رحـيم لفـترة مـن الـزمن، يسـبت في الأحلام. يبقى كراسب ـ ليس لطخة يجب أن تُزال، أو إراقة ينبغي أن تُمسح. يتعلم، تائباً، في وقت مبكر أن يلتجئ في قوقعة الأذن، أن يعتبر نفسه خارج قانون التقييد، طـويلاً منـذ أن غُفـر، أصـغر مـن الصـغير، قريباً من العدم، مع أنه موجود، كما تطرح البصلة قشـرة تلـو القشـرة، منقوشاً بشكل دائم على أصغر القشور سـناً، بحـروف كـبيرة تـارة، وفي شبه جملة أو على هامش في أسفل الصفحة تارة أخرى، واضحاً ومقروءاً تارة، وبحروف هيروغليفيـة يمكـن بالكـاد فـك رموزهـا، تـارة أخـرى. النقش المختصر كان يعني اقرأ: بقيت صامتاً.

لكن لأن الكـثيرين بقـوا صـامتين، فثمـة إغـراء كـبير للمـرء لحسـم الصمت أو التعويض عنه باستحضار الإثم العام، أو التحدث عـن نفسـه كلها لكن بشكل مجرد، بضمير الغائب: كان، رأى، ملك، قال، ظـل

Twitter: @ketab_n

صامتاً... وما هو أكثر من ذلك، صامتاً من الداخل، حيث يوجد الكثير من المتسع لأجل لعبة الاختباء والظهور [الاستغماية].

عندما أستذكر الفتى الذي كنته في سن الثالثة عشرة، أخضعه للدرجة الثالثة، وأشعر بالإغراء للحكم عليه كما سأحكم على غريب لست مباليا باحتياجاته، وإدانته، فأرى ولداً ذا قامة معتدلة يرتدي الشورت والجوارب التي تصل إلى الركبتين، وهو يكشر دائماً، يجري إلى أمه ويصرخ، «كنت مجرد طفل، مجرد ولد» أحاول تهدئته وأطلب منه أن يساعدني في تقشير البصلة، لكنه يرفض كل التوسلات ويرفض أن يدع نفسه يُستغل كصورة ذاتية مبكرة لي. فينكر علي الحق - على حد تعبيره - في أن أخدعه و«من حصانك العالي» علاوة على ذلك.

الآن ها هو يضيق عينيه إلى شق للرصد، زاما شفتيه إلى بعضهما البعض، لاويا فمه إلى تكشيرة قلقة فيما هو منحن فوق كتبه ثم يمضي، إلى أي مكان لكي لا يُعثر عليه.

أراقبه وهو يقرأ. إنه الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله في أية فترة من الزمن. في العادة يرفع أذنيه بسبابتيه ليصمهما عن سماع صخب أخته المرح. إلى هنا تأتي، وهي تصدح بعيداً. من الأفضل له أن يحترس، لأنها تحب أن تغلق كتابه عليه. أو قد تطلب منه أن يلعب معها. هذا هو كل ما تفكر به، اللعب؛ لا تكف. المرة الوحيدة التي يحبها فيها هي عندما تحتفظ بمسافتها.

كانت الكتب دوماً هي ثغرته في السياج، مدخله إلى العوالم الأخرى. لكنه أيضاً يكشر عندما لا يقرأ، عندما يكون واقفا في غرفة المعيشة ينظر شارداً للغاية بحيث أن أمه تنادي إليه: «أين أنت، بأي حال؟ ما الذي يدور هناك في رأسك؟».

أين كنتُ عندما كنت أتظاهر فقط بأنني هناك؟ في أية فضاءات

Twitter: @ketab_n

بعيدة كان الابن الأصغر المكشر المقيم دون أن يغادر غرفة المعيشة أو غرفة الصف؟ في أي اتجاه كان يلف خيوطه؟ كقاعدة، كنت أتحرك نحو الوراء في الزمن، جائعاً بنهم شديد إلى الأحشاء الدموية للتاريخ ومجنونا بالعصور الوسطى الحالكة السواد أو الفاصل الزمني الباروكي من حرب دامت ثلاثين عاماً.

وهكذا أحبَ الصبيُ الذي يرد على اسمي أن يرى الأيام الماضية كسلسلة من الظهورات بأزياء دائمة التبدل. كنت دائماً أريد أن أكون شخصاً آخر وفي مكان آخر، السونوذر Soonother الذي قابلته بعدئذ بأعوام قليلة، مستغرقاً في طبعة رخيصة من كتاب *Simplicissimus*، وهو شخصية غريبة، مع أنها جذابة، يساعد البطل الذي يحمل اسم قبيلة في نهاية مغامراته على الانسلال من البنطلون الفضفاض للجندي المسلح بمسكيتة إلى الرداء الخشن للراهب.

حتى مع أن الحاضر كان، مع خطابات الفوهرر والحروب الخاطفة وأبطال الغواصات والطيارين الممتازين، والتفاصيل العسكرية المشابهة، موضوعا أعرفه إلى الوراء وإلى الأمام، وكانت معرفتي بالجغرافية تتوسع لتشمل جبال مونتي نيغرو [الجبل الأسود] والأرخبيلات اليونانية و ـ بدءاً من صيف 1941، عندما انتقلت الجبهة نحو الشرق ـ سمولنسك وكييف وبحيرة لادوغا، فقد كنت في الوقت نفسه على خطا الصليبيين عندما دخلوا القدس، كنت المرافق للإمبراطور باربروسا، قاتلت بشراسة كفارس ذي مرتبة عالية ضد البروسيين، كنت محروماً كنسياً من قبل البابا، وانضممت إلى حاشية كونرادين، وهزمت ببسالة، مع آخر فرد من آل هوهنشتاين.

وفي حين كنت متعامياً عن المظالم التي كانت تصير وقائع يومية في ضواحي المدينة ـ بين الفيشتولا والهاف، على بعد قريتين فقط عن بيت

Twitter: @ketab_n

نيكلزفالد الريفي الذي تستخدمه ثانوية الكونرادينوم لأجل الرحلات المدرسية القصيرة، كان معسكر شتوتهوف للاعتقال يكبر ويكبر ـ أثارت سخطي الشديد جرائم رجال الدين المتظاهرين بالتقوى، تعذيبات محاكم التفتيش. فمن ناحية أولى، هزني وصف الكماشات والمساعر الحامية حتى الاحمرار، واللوالب الإبهامية؛ ومن الناحية الأخرى، رأيت نفسي أثأر لميتات الساحرات والهراطقة، احتفظت بغضبي لأجل غريغوري التاسع وشركاه. كان الفلاحون البولنديون يطردون مع عائلاتهم من مزارعهم في المناطق البروسية الغربية؛ في هذه الأثناء كنت وكيلاً [مقطعاً] لفريدريك الثاني، الذي أسكن السراسنة [العرب] الموالين له في أبوليا وكان يتكلم بالعربية إلى صقوره.

بالعودة إلى الوراء أرى أن طالب الثانوية المكشر قد نجح في نقل مفهومه للعدالة الذي تعلمه بشكل كامل من الكتب إلى العصور الوسطى. ربما هذا هو السبب في أنني في محاولتي الأولى لكتابة قطعة مستدامة استخدمت إطاراً مكانياً بعيداً عن حصارات صيف 1941 وترحيل يهود دانتسيغ الباقين من غيتو ماوزيغاسه إلى تيريزنشتات. كان بإمكاني بصعوبة أن أختار ستارة مسرحية لأجل حبكتي أبعد من منتصف القرن الثالث عشر.

بدأ ذلك كله مع صحيفة مد يداً ! Hilf mit، وهي صحيفة أطفال كانت قد رعت مسابقة ذات جوائز لأجل النثر السردي الذي يقدمه القراء صغار السن. هكذا لوث الشاب المكشر، أو أنا نفسي، المكرس جيدا آنذاك رغم أنه يتوارى إلى الأبد خلف أدغال النثر، مفكرة كانت حتى ذاك الوقت غير ملوثة بأي شيء، ليس بقصة قصيرة هزيلة، بل رواية مكتملة بطرفة عين. وبطرفة عيني الخاصة: كانت الرواية تحمل عنوان الكاشوبيون ـ أتذكرها جيداً. فقد كان الكاشوبيون، رغم كل شيء، أقربائي.

Twitter: @ketab_n

في أثناء طفولتي غالباً ما كنا نعبر حدود الدولة الحرة في اتجاه كوكوشكن وتسوكاو لزيارة العمة الكبيرة آنا، التي كانت تسكن مع عائلتها الكبيرة في حي ضيق تحت سقف منخفض. كان كعك الجبن ولحم الخنزير المخلل مع بذور الخردل والفطر والعسل والبرقوق، وقلوب وأكباد وحويصلات الطيور وأطباق الحلو وأطباق الحامض، ومشروب الشنابس، شنابس البطاطا ـ كل ذلك كانت تضعه على المائدة في وقت واحد، وكنا جميعاً نضحك ونبكي في وقت واحد.

في الشتاء، كان العم جوزف، الابن الأكبر للعمة الكبيرة آنا، يأتي من أجلنا مع حصانه وعربة الجليد. كم كان مضحكاً. كنا نعبر الحدود عند غولدكروغ. حتى رغم أن العم جوزف كان يحيي ضباط الجمارك باللغتين الألمانية والبولندية، فقد كان يلقى توبيخاً قاسياً من كل طرف على حدة. وهكذا كان أقل إضحاكاً. قبل أن تندلع الحرب، كما تقول القصة، أخرج من حقيبة السفر علماً بولندياً وعلماً رسم عليه الصليب المعقوف وقال: «عندما تبدأ الحرب، أتسلق شجرة وأنظر لأرى من يأتي أولا. ثم أرفع هذا العلم أو ذاك....».

حتى فيما بعد، عندما تغيرت الأزمنة، واصلنا رؤية والدة المرحوم العم فرانتز وأخواته وإخوته، وإن كان ذلك سراً، بعد إغلاق الحانوت. كانت التجارة سلعا [بالمقايضة]ً وليس نقداً مفيدة في اقتصاد الحرب ذاك. إذ كانوا يقدمون دجاج الحساء وبيض المزرعة، وكنا نعطيهم الزبيب، وذرور الخبز، وخيوط الغزل والبارافين. إلى جانب برميل من سمك الرنكة كان هناك خزان بارافين بحجم رجل. كانت رائحته قد بقيت مع مرور الزمن . كما بقيت صورة العمة الكبيرة آنا وهي تسحب إوزة منتوفة كانت قد جلبتها للمتاجرة بها من تحت تنورتها ورمتها على طاولة البيع وهي تقول: «الواحدة منها زنتها عشرة أرطال...».

Twitter: @ketab_n

كنت ملماً بالخصوصيات اللغوية للناطقين الكاشوبيين بالألمانية: كلما تخلت العمة عن الدمدمات بلغتها السلافية القديمة من أجل تعابير الأسف في الألمانية السفلى، كانت تتخلى أيضاً عن كل أدوات التعريف والتنكير وتقول nein (لا) مرتين بدلاً من مرة واحدة لمجرد أن تكون متأكدة. كان كلامها البطيء مثل حليب مختثر ممزوج بالسكر ويعلوه فتات خبز الأرز المبشور.

كان الكاشوبيون، من تبقى منهم، قد عاشوا منذ زمن سحيق في الأرض الخلفية الهضابية لمدينة دانتسيغ، وتبعاً لمن كان في السلطة كانوا يعتبرون غير بولنديين أو غير ألمانيين بشكل كاف. عندما استولى الألمان على حكومة الدولة الحرة، صنف الكثير من الكاشوبيين بموجب مرسوم كجماعة إثنية رقم ثلاثة. وقد تم ذلك تحت ضغط السلطات، بحيث يمكن للكاشوبيين أن يثبتوا أنهم جديرون بأن يُجعلوا ألماناً كاملين، Reichsdeutsche، كانت النساء الشابات مؤهلات لأجل خدمة العمل، أما الشبان، مثل العم يان، الذي كان يدعى آنذاك هانز، فقد كانوا مؤهلين لأجل الخدمة العسكرية.

هنا كان ثمة قضايا تستصرخ من أجل عرضها على الملأ. هذا هو السبب في أنني وضعت فعل دخولي إلى الأدب، حكاية التشويه الدائم ـ والقتل، في أثناء فترة انقطاع القرن الثالث عشر ـ في «زمن رهيب بلا إمبراطور». كان لدي الدافع للهرب من الواقع إلى حقبة تاريخية عنيفة ومنفلتة قدر الإمكان. ولم تكن حياة وتقاليد ثقافة سلافية قديمة تمتلك فرصة. لا، كان ظهوري الأدبي الأول يدور أكثر حول البلاط الفيهمي Vehmic الألماني القروسطي ومظالمه بعد سقوط آل هوهنشتاوفن، الذي كان يصلح لأجل مادة سردية قوية بشكل وافر.

لم تبق كلمة واحدة من تلك الرواية: لا أملك أوهى ذكرى من

Twitter: @ketab_n

فصولها، سوى تلك الفصول التي تقطر دما لأنها كانت تتعامل مع شهوة الدم؛ لم يتبق معي اسم شخصية واحدة ـ فارس أو فلاح متسول ـ لا إعلان إدانة من قبل رجل دين، ولم تعلق صرخة ساحرة واحدة. مع ذلك لا بد أن جداول من الدم قد سالت، وأن دزينة أو أكثر من الخوازيق قد نصبت، وأن الضحايا أحرقوا بالمشاعل، لأنه في نهاية الفصل الأول كان كل الأبطال موتى: قطعت رؤوسهم أو خنقوا أو خوزقوا، أو أحرقوا حتى صاروا رماداً، أو انتزعت أحشاؤهم أو قطعوا إلى أربعة أجزاء. ليس ذلك وحسب: لم يُترك أحد ليثأر لهم.

لهذا انتهت محاكمتي بالنار في نثر سردي قبل الأوان في ساحة معركة مغطاة بالجثث. لو نجحت هذه الفكرة، لكانت ذات أهمية للفتيشيين الشظويين فقط.

لم يكن من الممكن أن تغيب عن ذهني إعادة المخنوقين والمقطوعي الرؤوس والمبتوري الأطراف والمحروقين والجثث المتدلية من أشجار البلوط مثل علف الغربان ـ إعادتهم في فصول لاحقة كأشباح، وذعر الجحيم خارج السكان العاديين: لم أكن أبداً ميالاً إلى قصص الأشباح. لكن قد يكون الأمر أن هذه الحالة المبكرة من انسداد الكاتب، التي أحدثتها معالجتي غير الاقتصادية للشخصيات التخيلية، هي التي قادتني لاحقاً كمؤلف دقيق الحساب، إلى أن أكون أكثر اقتصاداً لأبطال رواياتي.

لقد نجا أوسكار ماتسيرات كقطب إعلامي. ونجت معه جدته، بابكا، من أجل الاحتفال بعيد ميلادها السابع بعد المائة، في الإطار الزمني المتقاطع لرواية *الجرذ*، فإنه حتى أخذ على عاتقه عناء رحلة إلى كاشوبيا ـ وذلك رغم آلام مشاكل البروستات الخطيرة.

ولأن موت تولا بوكريفكه المبكر يمكن افتراضه فقط ـ في الحقيقة كانت قد أنقذت في سن السابعة عشرة، وكانت حامل، من سفينة

Twitter: @ketab_n

اللاجئين الغارقة **فيلهلم غوستلوف** - كانت جاهزة لأجل الاستدعاء كناجية في السبعين من العمر عندما كانت الرواية القصيرة **مسار السرطان** جاهزة لأجل الورق. إنها الآن جدة راديكالي يميني شاب يمجد «شهداءه» على الإنترنت.

يصح الشيء نفسه على مفضلتي بيني برونيز التي نجحت، رغم كونها أصيبت بشكل سيء ومصابة دائماً بالزكام، في أن تعيش بعد صدور رواية ***أعوام الكلب***، بقدر ما تم الإبقاء علي أيضاً، من الأفضل أن أكتشف نفسي، تكراراً في مراع جديدة.

في النهاية، كان الشاب المتطرف، وهو رسم تخطيطي لذاتي التي لم تكتشف بعد، عاجزاً عن دخول مسابقة صحيفة الأطفال Hilf mit!. أو لنضعها في ضوء أكثر ايجابية، لقد استثنيتُ من المشاركة، ربما كنت أستحق الجائزة، في مسابقة المجلة ***الاشتراكية القومية*** من أجل الشباب الأدبي للرايخ الألماني الكبير. لأنه لو توجت قصة أولى ناجحة بجائزة ثانية أو ثالثة - لئلا نقول شيئاً عن الأولى - لكان الظهور الأول قبل الأوان لسيرتي الأدبية ملطخاً بالنازية؛ ولكان مساوياً لتسليم الأدلة - الكاملة بالفصل والسطر - إلى الصحافيين النهمين دائماً على طبق من فضة. كان من الممكن أن أوصم نازياً شاباً، وأن يقام العدل علي على هذا النحو، أن أعلن متواطئاً، أن أصنف بشكل يتعذر محوه. إذ لم يكن ثمة نقص في القضاة.

لكنني يمكن أن أتولى الوصم والتصنيف بنفسي. فبصفتي عضواً في شبيبة هتلر كنت في الحقيقة نازياً شاباً مؤمناً حتى النهاية. ليس ما يدعوه المرء متعصباً، لا أقود الزمرة، بل بعيني، كما لو بمنعكس، المثبتة على العلم الذي كان يعني «أكثر من الموت» لنا. لقد كنت مسايراً للإيقاع في صفوف الأعضاء العاديين. لم تكن ثمة شكوك تلبد إيماني؛

Twitter: @ketab_n

لاشيء مدمر مثل التوزيع السري للنشرات يمكنه أن يحرر الصنارة، لا نكتة غورينغ تجعلني شكاكاً. لا، كنت أرى أرض أبي مهددة، محاطة بالأعداء.

لقد أخافتني تماماً قصص «*أحد برومبرغ الدامي*» المرعبة التي كانت كلها تغطي الصحيفة اليومية النازية المحلية ***دانتسيغن فوربوستن*** *Danzigen Vorposten* التي كانت تثبت أن البولنديين قتلة خونة، وأدركت أن كل فعل ألماني بمثابة جزاء قابل للتبرير. إذا كان لدي أي انتقاد فهو ضد الشخصيات الحزبية المحلية ـ المعروفين بالطواويس الذهبية بسبب أشرطتهم الذهبية ـ الذين شقوا طريقهم من الواجب الفاعل على الجبهة والذين سيضجروننا، بعد أن نكون قد مررنا أمام المنابر الضرورية، بخطاباتهم المضجرة، الخطابات التي اتخذت عبثاً الاسم المقدس للفوهرر الذي كنا نؤمن به هكذا ـ لا، هكذا كنت أؤمن، أؤمن به بحماسة لا تهتز، ولا يطالها الشك، حتى سقط كل شيء، كما تنبأ نشيدنا «هكذا إلى الأمام سنسير، دائماً إلى الأمام، إلى أن يتداعى كل شيء» ـ إلى أجزاء.

تلك هي الكيفية التي أرى بها نفسي في مرآتي الخلفية. الصورة لا يمكن مسحها. فهي ليست طباشيراً على لوح أسود، إنها دائمة. ورغم ظهور انمحاءات قليلة مع مرور الزمن، لا تزال الأناشيد موجودة أيضاً: «إلى الأمام، إلى الأمام! الأبواق تدوي جعجعة! إلى الأمام! الشباب لا يعرف الخطر!» إن الزعم بأنهم «أغروني» لا يعذر الشباب الذين كانوا ينشدونها وبالتالي لا يعذرني. لا، فنحن ندع أنفسنا نُغرى، أنا أدع نفسي أُغرى.

لكن البصلة يمكن أن تقول بشكل جبان، مشيرة إلى بقع قليلة غير مشوهة على القشرة الثامنة، أنك قد نلت سجلاً نظيفاً. كنت مجرد

Twitter: @ketab_n

صبي أحمق، لم تفعل شيئاً سيئاً: لم أش بأحد، كالجار، على سبيل المثال، الذي تجرأ على أن يروي تلك النكتة الكلبية حول غورينغ، مارشال الرايخ البدين؛ أنت لم تسلم الجندي في إجازة من الجبهة الذي تباهى بتجنب المهمات التي يمكن أن تجعله ينال صليب الفارس؛ ولا كنت أنت الذي يشي بمدرس التاريخ الذي تجرأ، ولو بأشباه جمل، على التشكيك «بالنصر النهائي» ووصف الشعب الألماني بأنه «قطيع من الغنم»، والذي كان، قبل كل شيء، مكروها من المدرسة كلها. كان ذلك صحيحا، فالوشاية بالطلاب إلى البواب، تحويلهم إلى رئيس الزمرة النازية أو قائد الحرس ـ لم تكن أسلوبي. لكن مدرس اللغة اللاتينية، لأنه كان كاهنا أيضاً فقد لقب نفسه «مونسنيور»، عندما لم يعد موجوداً بشكل مفاجئ لاختبارنا في مفردات اللغة، وعندما اختفى فجأة، لم أسأل مرة أخرى أية أسئلة حتى رغم أنه في اللحظة التي ذهب فيها كانت كلمة «شتوتهوف» على شفتي كل شخص من قبيل التحذير.

كنت في الرابعة عشرة عندما بدأت إذاعة شعبنا ببث النشرات المسبوقة بصخب الصنجات والطبول معلنة الحصارات الظافرة على السهوب الروسية. يوماً بعد يوم كانت **افتتاحيات** فرانز ليست Liszt يتم انتحالها بشكل سيء، وفي حين كانت معرفتي بالجغرافية ترتقي، كانت لغتي اللاتينية تتأرجح بشكل غير مرض.

بعد تبديل آخر للمدرسة وجدت نفسي مع ذلك في ثانوية القديس يوحنا، ثانوية المدينة القديمة في شارع فلايشرغاسه قرب المتحف البلدي وكنيسة الثالوث، وهي مؤسسة ثبت في النهاية أنها تقوم على قبو غوطي، وقد وجدت ردهاتها ذات السقف المنخفض طريقها إلى روايتي *أعوام الكلب*. هذا هو السبب في أنني لم تكن لدي أية مشكلة في إدراج اثنين من شخصياتي ـ إدي آمزل وفالر ماترن، وهما صديقان

Twitter: @ketab_n

وخصمان بآن معاً - في المدرسة وجعلهما يشقان طريقهما من غرفة الأدراج المقفلة إلى الكوريدورات الفرانسيسكانية.

عندما عاد مدرس اللغة اللاتينية، المونسنيور شتاخنيك بعد أشهر قليلة إلى ثانوية القديس يوحنا وباشر التدريس فيها مرة أخرى، فشلت مرة أخرى في طرح أية أسئلة ملحة، رغم أنني كنت أمتلك سمعة كوني على العموم صعب المراس وصخاباً بشكل خاص.

أوه، حسناً، ما كان ليجيب أيضاً بأي حال. تلك هي الطريقة التي كانت تسير بها الأمور دائماً عندما يتم إطلاق سراح الناس من المعتقلات. إذ لم يكن يظهر أي اختلاف ولم تكن الأسئلة لتفعل شيئاً سوى أن تنضاف إلى مشاكله.

مع ذلك، لابد أنني تضايقت من صمتي بما يكفي لأن أشعر بالحاجة إلى إقامة نصب لا يخطأ للرجل - فهو لم يكن مدرس اللغة اللاتينية فقط بل كان أيضاً الزعيم السابق للحزب الوسطي للدولة الحرة والناطق الذي لا يتعب بالنيابة عن دوروتيا فون مونتاو المبجلة في روايتي المتراجعة بشكل متعمد، *التخبط*، إنه المونسنيور شتاخنيك وراهبته الغوطية. لقد تم الإقرار بمساعيه المبذولة للحصول عليها. كان يدخل في حالة من النشوة كلما حثثناه على الحديث عن علاجها المنحف. لم نكن نجد عناء في إغرائه بعيداً عن الحديقة الرسمية للإعراب اللاتيني: كل ما كان علينا القيام به هو أن نستحضر المرأة، التي كانت بالنسبة له القديسة دوروتيا.

ما الذي أفسد زواجها بصانع الدروع؟

ما هي المعجزات التي نسبت إليها؟

لماذا سجنت نفسها في الكاتدرائية في مارينفرز؟

هل كانت لا تزال تمتلك شكلاً جميلاً بعد فقدانها لكل ذاك الوزن؟

Twitter: @ketab_n

كـل هـذه الأشـياء، وياقتـه المغلقـة بشـكل دائـم، استحضـرتها مـن ذاكرتي إجلالاً له.

لكن ترنيمـة المـديح المتـأخرة هـذه لم تكـن تـروق تمامـاً للمونسـنيور شتاخنيك. لقد قيمنا حياة دوروتيا التائبة وموتهـا جوعـا مـن منظـورين مختلفين تماماً. فعندما كنت وزوجتي مسافرين عبر الريف حول مونتسر في منتصف السبعينات ننقب في بقايا لـون البـاروك المحلي مـن روايـة **اللقـاء في تلغتـه**، قمنـا بزيارتـه. كـان قـد أقـام في ديـر الراهبـات في شيخوخته وكان لدينا صومعة فسيحة ومفروشة بشـكل مـريح ومسـاعدة علـى الحـوار. وقـد تجنبـت بحـذر إثـارة أي نـزاع علـى هـذه الأرض الكاثوليكية جداً. تفاجأت أوته قليلاً، وهي بروتستانتية بـالولادة، مـن الوجود الجليل للسيد الكهل في وسـط جماعـة مـن الراهبـات، اللـواتي ظهرن أمامنـا، بـأرديتهن الكهنوتيـة الـتي تحجـب كـل شـيء، لكـي يدخلننا فقط.

بلهجة مغناجة لم أسمعها منه في أيام التدريس، أطلـق علـى نفسـه اسم ديك المشي. فالشكل الذي أمامي كان أيضاً أكثر استدارة مما كانت ذاكرتي قد حفظته. كان طهي حجرة الطعام يناسبه بشكل واضح.

لم نقض وقتاً طويلاً على دوروتيا، الـتي طوبـت أخـيراً. في المسـائل السياسية كان لا يزال وسطياً إلى حد كبير جداً، وهو موقف كان يشـعر أنه يلقى تأييدا ضعيفاً من قبل الديموقراطيين المسيحيين في ذاك الوقت. لقد امتدح الأب فينكه، كاهن اعترافي في كنيسـة القلـب المقـدس، لأنـه كان قد اعتنـى بالعمـال الكاثوليـك «ببسـالة عظيمـة». لقـد اسـتغرق في الذكريات عن هذا المعلـم أو ذاك في ثانويـة القـديس يوحنـا وعـن مـدير المدرسة الذي كان ابناه، على حد تعبيره، قد «لقيا حتفهما مع البارجة الحربية بيسمارك». مع ذلك فقد تطلـع إلى الـوراء بنفور قـائلاً: «تلـك

Twitter: @ketab_n

كانت أوقاتاً عصيبة. كانت.... لا، لا. لا أحد وشى بي ....». أما كوني رديئاً في اللغة اللاتينية فقد انزلق برفق من خلال الشقوق.

تكلمنا حول دانتسيغ عندما كانت بطاقة بريدية مصورة للأبراج والجملونات. كان مسروراً بسماع أنني قمت برحلات متكررة إلى غدانيسك.

«إنني أسمع أن الثالوث المقدس قد أعيد إلى جماله السابق» ـ وعندما أثرت موضوع سكوتي في أثناء تلك السنوات في المدرسة رفض المونسنيور شتاخنيك ذلك بابتسامة وتلويحة اليد. ظننت أنني سمعت Ego te absolva (إنني أغفر لك).

رغم أن أمي التقية نادراً ما حثتني بشكل معتدل على الذهاب إلى الكنيسة، فقد وسمت في وقت مبكر بالكاثوليكية، وكنت دائماً أرسم إشارة الصليب بنفسي عندما أمر بين كرسي الاعتراف والمذبح الرئيسي ومذبح سيدتنا. كانت كلمتا Monstrance وTabernacle من الكلمات التي أحب نطقها ولو فقط من أجل صوتهما اللحني. ولكن ما الذي كنت أؤمن به قبل أن أؤمن بالفوهرر فقط؟

هوجم الروح القدس بوصفه أكثر قابلية للفهم من الله الأب أو الله الابن. كان إيماني، الذي كانت تغذيه تماثيل المذبح، واللوحات التي دكن لونها بفعل القدم والجو الأشباحي المضمخ بالبخور في كنيسة القلب المقدس، إيماناً وثنياً أكثر من كونه مسيحياً. فقد كنت أشعر جسدياً بأنني قريب من مريم العذراء: بوصفي سونوتر Soonother كنت كبير الملائكة الذي اعترف بها وبغيرها.

بالإضافة إلى ذلك، فقد تربيت على الحقائق في الكتب، الحقائق التي عاشت حياتها الخاصة بها، الحياة الغنية بالمعنى، وكانت في منابت دفيئتها نبتت قصصي المنافية للطبيعة والعقل، فماذا قرأ أبن الأربعة عشر عاماً، إذا؟

Twitter: @ketab_n

لا كراسات دينية، هذا أكيد، ولا دعاية الدم والتراب Blut und Boden الجناسية الاستهلالية: الدم والتراب لم يكونا لأجلي. ولا أنا انجذبت إلى توم ميكس أو المجلدات التي لا تنتهي لمؤلف قصص الغرب الأمريكي[الوسترن]، كارل ماي، التي لم يكن بمقدور زملائي في المدرسة أن يدونوها. وفوق كل ذلك، لقد قرأت كل شيء ـ يا للحظ ـ كل ما احتوته خزانة أمي.

بمناسبة استلام جائزة في بودابست منذ حوالي عام ـ وهي ساعة توضع على رف الموقد وجدتها بشعة جداً لأنها مؤطرة بإطار رصاصي رمادي، ما يعني ضمناً أنه لا توجد في انتظاري سوى لحظات كئيبة. سألت محرر كتابي الهنغاري، إيمري بارنا، إن كان يعرف من كتب رواية أذهلتني في شبابي عنوانها *إغراء في بودابست*. قبل ذلك بوقت طويل، تسلمت مجلداً سميكاً من تاجر الكتب المستعملة. كان مؤلفه، الذي نسيته منذ زمن طويل، هو فرانز كورمندي. أما كتابه، الذي نشرته دار بروبيلاين في برلين عام 1933، فهو حكاية من خمسمائة صفحة عن رجال يجلسون في المقاهي بعد الحرب العالمية الأولى، ضجرين، ويتوقون إلى السعادة والاستقرار. ثمة تيار خفي من الثورة البروليتارية والثورة المضادة والتفجيرات الفوضوية. أما البطل فهو فرد لا جذور له من جماعة المقاهي، فقير لكنه طموح، يغادر المدينة الواقعة على نهر الدانوب، منطلقاً إلى العالم، ويعود برفقة زوجة غنية، ليقع فريسة لحب محير وزائف في النهاية.

إنها رواية طازجة اليوم كما كانت عند نشرها وعندما وجدتها في مجموعة كتب أمي ـ وهي مجموعة متنافرة من الكتب وضع الابن ملخصا لها ولابد أن عناوينها غير مدرجة حاليا في قائمة لأنني، أنا الجائع إلى مزيد من مادة القراءة، أتصور نفسي الآن جالساً إلى طاولة في

Twitter: @ketab_n

المكتبة البلدية قرب كنيسة القديس بطرس.

كانت كنيسة القديس بطرس هي موقفي الوسيط. فقد نقلت إلى هناك بقرار من هيئة المدرسة بعد طردي من ثانوية لانغفور كونرادينوم لكوني، كما تم إخبار الوالدين المحبطين، «متغطرساً بشكل عنيد ووقح»، إلى مدرس تربية بدنية كان معروفاً بتعذيب تلاميذه على القضبان الأفقية والمتوازية.

لكن ماذا يعني القول «أتصور نفسي في المكتبة البلدية؟» بمساعدة اللقطات الفوتوغرافية القليلة التي نجحت أمي في إنقاذها من الحرب يمكننا أن نجمع بورتريه ذاتية أخرى للمراهق الذي كنته. إن البثور التي حاصرتها لاحقاً بزهو وذلك بغسول بترالون ونخالة اللوز لم تعاود الظهور بعد، لكن شفتيٍ السفلى الناتئة وفكي البارز بشكل خلقي يجعلانني أبدو أقل شبهاً بالطفل، فأنا جاد، شبه كئيب، النوع من التلميذ البالغ قبل أوانه الذي يمكن أن نتوقع منه أن ينتفض ضد معلميه: وبخه بالطريقة الخاطئة ومن المحتمل أن يضع يديه عليك.

ثم ذات مرة غنى لنا مدرس الموسيقى السمين أغنية Heideroschen بصوته الفالسيتو؟ falsetto، وعندما قدمنا مصاحبة جاز بالأصوات والإيماءات كنت الوحيد الذي وبخه وتجرأ على هزه، ما دفعني إلى الإمساك بربطة عنقه بيدي اليسرى وخنقه بها إلى أن تمزقت تماماً تحت العقدة (بسبب الحرب كانت مصنوعة من الورق). وفر الحدث الأسس لأجل نقل آخر مع ذلك ـ كإجراء احتياطي تربوي، وفقاً للتقرير الملطف هذه المرة من ثانوية القديس بطرس إلى ثانوية القديس يوحنا. لا عجب أنني كنت أعزل نفسي عن الجميع، حتى أمي.

وأتصور نفسي متخذا نفس المظهر الغارق في التفكير في طريقي إلى المكتبة البلدية التي كان لدينا الحس الهانزي Hanseatic بالواجب

Twitter: @ketab_n

المدني للشكر على وجودها ويمكن للمرء أن يفترض بشكل منطقي أنها قد احترقت عندما كانت المدينة برمتها في الحرائق قبيل نهاية الحرب. لكن عندما زرت مدينة غدانيسك البولندية آنذاك في ربيع 1958، وجدت المكتبة البلدية سليمة، حتى داخلها القديم المصنوع من ألواح خشبية، بحيث إنني لم أجد حرجاً في رؤية نفسي كمراهق بالبنطلون الذي يصل طوله إلى الركبتين أجلس إلى إحدى طاولاتها أستمتع باستعمال مجموعتها من الكتب. صحيح: لا بثور بعد، بل خصلة من الشعر تنسدل فوق الجبهة، جسر الأنف مقوس تماماً: الذقن والشفة السفلى تندفعان نحو الأمام؛ الفم مفتول إلى تكشيرة. لا يزال يكشر وليس فقط عندما يقرأ.

الزمن يتراكم طبقة فوق طبقة. ما يغطيه يستعاد في أفضل الأحوال من خلال الشقوق. ومن خلال هذه الفجوة في الزمن، التي أبذل قصارى جهدي لتوسيعها، أراه وأرى نفسي في الوقت نفسه. إنه شاب بلا حياء، وأنا أتقدم في السن. هو يقرأ المستقبل في الكتب، وأنا يعلق الماضي بي. اهتماماتي ليست اهتماماته: ما يفشل في رؤيته بوصفه شائناً، أي ما يجعله لا يشعر بأي عار، فإنني، أنا الأكثر ارتباطاً به، يجب علي أن أتشبث به بشكل ما. صفحة فوق صفحة من الزمن المبدد تقبع بيننا.

في حين أن الأب ذا الخمس وثلاثين عاماً من العمر للابنين التوأمين الحديثي الولادة، الذي حاول مؤخراً أن يوازن شفته السفلى الناتئة بإطلاق شارب، يبحث حوله من أجل لقمات محلية لتغذية مخطوط شره دائماً، فإن ذاته المتجددة لن تدع شيئاً يلهيه، حتى هو، الرجل ذا البذلة القطنية المضلعة.

لكن عيني لا تستطيعان البقاء ساكنتين. فعندما أقلب صفحات أعداد

Twitter: @ketab_n

عام 1939 من صحيفة **دانتسيغر فوربوستن** التي جلبت إلي من الرفوف المتراصة المكتظة للمكتبة أنغمس بشكل سطحي فقط فيما تنقله الصحيفة حول الحياة اليومية في بداية الحرب. من المسلم به أن ذاتي البالغ من العمر ثلاثين عاماً (يخربش) الأشياء في مفكرته: الأفلام المعروضة في أثناء الأسبوع الأول من أيلول في لانغفور وفي سينمات البلدة القديمة ـ فيلم Water for Canitoga مع هانز ألبيرز، على سبيل المثال، في الأوديون قرب الـ Dominikswall ـ لكن عينه الطوافة تلتقط في الوقت نفسه مشهد الصبي ذي الأربعة عشر عاماً الذي يجلس على بعد ثلاث طاولات، مستغرقاً في مجلد غني بالصور الإيضاحية من مونوغرامات الفنان العالمي كناكفوس.

ثمة كومة من المجلدات الأخرى في السلسلة بجانبه: إنه يأمل بشكل واضح في توسيع المعرفة التي اكتسبها من بطاقات السجائر. ودون أن يرفع رأسه كثيراً، يضع جانباً المجلد المكرس لماكس كلينغر ويفتح مجلداً آخر.

في حين قام جامع اللقمات الناضج بنسخ أسعار السوق العشوائية ومقتطفات مبتذلة (حرير بمبرغ ثابت، سلع الحبوب في ارتفاع) وقبل أن يكون بالإمكان إماتته عن طريق قصة رعب أخرى متعددة الأعمدة ـ هنا قصة تستغرق صفحات، تعتصر آخر قطرة تجمد الدم في العروق عن «المجزرة التي ارتكبها الوحوش البولنديون». في الثالث من أيلول، «أحد برومبرغ الدموي» ـ يرى نفسه، لا، يرى الفتى الذي أعجب، بفضل كناكفوس بتعدد براعات كلينغر، الرسام، النحات، المصمم، وهو الآن، بعد أن فتنته سيرة كارافاجيو الصاخبة، يتمنى لو كان بمقدوره أن يكون متدرباً في أستوديو أنسلم فويرباخ. مفضلوه الحاليون هم الروم الألمان Deutschromer لمنتصف القرن التاسع عشر. يريد أن يصبح فناناً ومشهوراً، لا شك في ذلك.

Twitter: @ketab_n

يدرك رحالة العصر الناضج من باريس، الذي قد يكون فناناً لكنه ليس مشهوراً بعد، أن نظيره الشاب مستغرق كلياً: حتى لو صاح به فإنه لن يلقى رداً.

هذا اللقاء مع ذاتي قابل للنقل: عندما أعزل نفسي عن العالم، غالباً ما أرى ذاتي الأصغر سناً في أمكنة مختلفة، في غابة يشكنتال أو على درج نصب غوتنبرغ المصنوع من الحديد الصب. أو على الشاطئ المهجور قبل أن يبدأ موسم الشاطئ، عندما أخذت كومة من الكتب المستعارة إلى بحر البلطيق وتكومت في إحدى الكراسي المصنوعة من العيدان المجدولة، لقراءتها، رغم أن مكان قراءتي المفضل كان في علية شقتنا، حيث كان بمقدوري أن أقرأ تحت النور. يمكنني أيضاً أن أتصور نفسي في شقتنا الضيقة واقفاً أمام خزانة كتب أمي. إنها أكثر جدارة بالتذكر من أية قطعة أثاث أخرى في غرفة المعيشة. إنها تصل إلى جبهتي فقط. فواجهتها الزجاجية وستائرها الزرقاء المقصود منها أن تحمي ظهور الكتب من الضوء الكثير أكثر مما ينبغي. الخشب هو من خشب الجوز ذي حواف تحمل زخرفة البيضة والسهم. يقال إن القطعة التي يعمل عليها المتدرب على منضدة النجار جدي لأبي حدث أن انتهت قبل عرس أبوي وسلمها إلى سيده، جدي، بوصفها عرضه ليصبح عاملاً بارعاً.

منذ ذاك الوقت، كانت تنتصب إلى يمين نافذة غرفة المعيشة، إلى جانب مشكاتي تماماً. تحت أسكفة نافذة غرفة المعيشة اليسرى، التي كانت تؤمن الإضاءة الجانبية لأجل البيانو والموسيقى على مشجبه، حفظت أختي ألبومها الشعري ودماها وحيواناتها المحنطة، أختي، التي لم تفتح أبداً تكشيرة أو كتاباً، مع أنها كانت مدللة البابا، لأنها كانت مبتهجة دوما، ومن الناحية العملية لم تحدث جلبة أبداً.

Twitter: @ketab_n

بعد إغلاق المتجر، لم تكن أمي تعزف مقطوعات ممرضة على البيانو فقط، بل اشتركت في نادي للكتب أيضاً، مع أنني لا أستطيع أن أتذكر واحداً منها. لا بد أنها قد تركت.

مع ذلك، كانت الخزانة تحتوي رواية ***المسوسون*** لدوستويفسكي ورواية *Sparrow Street Chronicle* من تأليف راب Raabe ***والقصائد المجمعة لشيلر***، ورواية ***غوستا برلنغ*** من تأليف سلما لاغرلوف. كان ثمة عمل ما من تأليف زودرمان، يقف جنباً إلى جنب مع رواية ***الجوع*** من تأليف كنوت هامسون ورواية ***هنري الأخضر***، من تأليف راب، ورواية **الفارس الأبيض** من تأليف ستورم. كانت رواية ***المعركة من أجل روما*** على الأرجح هي السند لأجل المجلد المزور بالصور الذي عنوانه ***راسبوتين والنساء***، الذي أعطيته لاحقاً إلى شخص معين ليقرأه كمضاد لكتاب ***مصاهرات انتقائية*** Elective Affinities من تأليف غوته، مع أنه كان مجنون كتب لسبب مختلف كليا، مستخدماً المزيج الانفجاري ليعلم نفسه ABCs، في الحالة العليا والسفلى.

كل هذه وأكثر كانت الحنطة التي تصب في طاحونتي. فهل كان لرواية **كوخ العم توم** ورواية **صورة دوريان غراي** مكان في المجموعة النفيسة للكنز الواقع خلف الستائر الزرقاء؟ فما الذي كانت تحتويه من أعمال تشارلز ديكنز، من أعمال مارك توين؟

أنا متأكد من أن أمي - التي كان لديها وقت أقل فأقل للقراءة كما أن شغلها كان يسبب لها المتاعب أكثر فأكثر - وابنها لم يدركا أن أحد الكتب الموجودة في خزانتها كان على القائمة السوداء: إنه كتاب فيكي باوم بعنوان ***هيلينه فيلفوير***، **طالبة الكيمياء**. فرواية فيكي باوم، التي أحدثت فضيحة حتى قبل أن يستلم النازيون السلطة في عام 1933، تدور حول شابة مجتهدة بقدر ما هي بدون موارد مالية، وحول الحب

Twitter: @ketab_n

والتوق إلى الموت في الجو المأساوي لمدينة جامعية، ولأن البطلة تصبح حامل، تدور الرواية أيضاً حول الأطباء الدجالين ومحترفي الإجهاض - وهذا الموضوع الأخير محظور بالتعريف. أعتقد أن أمي لم تقرأ فعلاً وصف مكابدات طالبة الكيمياء الشجاعة، لأنها عندما رأت ابنها ذا الأربعة عشر عاماً جالساً إلى طاولة غرفة المعيشة مستغرقاً بشكل كامل في محن البطلة - وفي الفرح الذي تجده هيلينه لاحقاً في الأمومة - فإنها لم تبد أي اعتراض من أي نوع.

على مدى أعوام كنت أعود إلى فيكي باوم. فقد قرأت رواية *أشخاص في فندق*، وهي الرواية التي اقتبسها فيلم غاربو الشهير *الفندق الفخم*. وفي أوائل الثمانينات عندما كنت أشتغل على كتاب أسفار ظهر تحت عنوان *مساقط الرؤوس، أو الألمان يندثرون*، وتنبأت فيه بحياة الذين لا أولاد لهم القائمة على الخدمة الذاتية واستمرار عبادة الأنا في جيلي حتى الوقت الحاضر - إضافة إلى شيب السكان الألمان، هناك الأزمة الطويلة الأمد في نظام البنسيونات ووحشة الرفقة القسرية - قصة باوم الغرائبية «الحب والموت في [جزيرة] بالي» قد ساعدتني على ملء الخلفية الميلودرامية. لكنني لم أسلم نفسي مرة أخرى أبداً إلى كتبها، التي تعتبر مجرد تسليات، بمثل هذه الحماسة كما فعلت في شبابي.

حالما حان الوقت لإعداد مائدة العشاء، قال الأب: «الكتب لن تملأ معدتك».

على كل، كانت الأم تحب أن تراني وأنفي في كتاب. فقد كانت، وهي المحبوبة من الزبائن ومن مندوبي المبيعات على حد سواء، رغم أنها تميل إلى نوبات الكآبة الحلمية، ذات طبيعة بهيجة أساساً وفي بعض الأحيان كانت مزوحة؛ ولم تكن تكره النكات العملية غير المؤذية، التي كانت تسميها «مزحات»، وكانت تستمتع بأن تثبت

Twitter: @ketab_n

لزوارها ـ كالصديقة التي تدربت معها في مقهى القياصرة، على سبيل المثال ـ كم أصبح ابنها تائهاً في الصفحة المطبوعة وذلك باستبدال كسرة الخبز والمربى، التي كنت أقضمها من حين إلى آخر وأنا أقرأ، بقالب صابون بالموليف.

رسمت ذراعاها إشارة الصليب ووجهها يبتسم، واثقة من النجاح، وانتظرت نتيجة التبديل. كانت شديدة الابتهاج خصوصاً عندما عض ابنها الصابونة ولم يلاحظ إلا بعد ثلاثة أرباع الصفحة التالية ما الذي برهنه للزائرة المتسلية. منذئذ بات حلقي يميز بشكل دائم طعم البالموليف.

في أغلب الأحيان كان الصبي ذا الشفة الناتئة يعض البالموليف، لأنه في ذاكرتي التي تميل إلى أن تكون مأسورة بالتنويعات كان الطعام الذي حل الصابون محله هو سندويتش السجق أو الجبن تارة، وشريحة من كعك الزبيب تارة أخرى. فيما يتعلق بالشفة السفلى، فقد باتت هشاشتها ملائمة للاستعمال كلما احتجت إلى نفخ شعري لإبعاده عن عيني. وكنت في حاجة إليها طوال الوقت عندما أقرأ. في كل مرة كانت الأم في تلك الأثناء تزيل مشبك شعر من شعرها المصفف بعناية وتعيد تثبيت الكتلة المزعجة من الشعر الناعم. كنت أتحمل ذلك.

كنت ابنها الوحيد. رغم القلق الذي سببته لها ـ بوجوب أن أعيد السنة الثالثة في المدرسة الثانوية، بكوني مطرودا من مدرستين بسبب السلوك المشاكس ـ فقد احتفظت بافتخار لا يتزعزع بابنها، الدائم المطالعة، الدائم الخربشة، لكنه تراجع بسهولة عن عالمه الحلمي ليصبح، كما كانا يرغبان، صبيها الصغير العزيز.

لم يفشل ابتهال تبجحاتي، التي ستفتتح بعبارة «عندما أصبح غنياً ومشهوراً سوف.....»، في تضليلها. إذ لاشيء كان يبدو أنه يسرها أكثر من أن تمطرها بالوعود المفرطة: «وعندئذ نسافر معاً إلى روما

Twitter: @ketab_n

ونابولي....». إنها، وهي التي كانت تعشق الجمال كثيراً وكل الأشياء السوداوية، ستلبس أفضل ما عندها يوم الأحد وتخرج إلى المسرح البلدي وحدها أو مع أبي كملحق، كان لديها اسم لي كلما وضعت في ذهني أن أعدها بالقمر: كانت تدعوني (بير جينت) ـها Peer Gynt الصغير. هذا الإخلاص الأعمى الذي منحها تفاخرها بصبي الماما كان له جذوره بشكل مفترض في مسيرة شبابها.

لم يكن بمقدور عائلتي أن تسكن في مكان أقرب ـ حول الناصية في شارع إلزنشتراسه، حيث كان المنشار الدائري في ورشة الجد ثابت النغمة من الصباح إلى المساء ـ وكنت أجد عناء كبيراً في الابتعاد عن الخصام الدائم الثابت، الذي لم يتوقف في فترات المصالحة القصيرة. لقد كانوا دوماً في حالة خصام ـ «لا كلمة أخرى إليهما» و«لن يعتما بابنا مرة أخرى، أليس كذلك». كان جداي لأمي وأخوالي الثلاثة وخالتي الوحيدة، من الناحية الأخرى، معروفين لي فقط من خلال القصص والتذكارات القليلة. بعيداً عن الأخت، التي كان اسمها إليزابيث لكنها كانت تدعى بيتي، والتي كانت قد تزوجت «إلى الرايخ»، فقد كانت أمي وحدها.

صحيح، كان هناك الجانب الكاشوبي من عائلتها، لكنهم كانوا يسكنون في الريف؛ بالإضافة إلى ذلك، لم يكونوا ألماناً في الواقع ولم يعدوا كذلك، في ذاك الوقت كان ثمة مبررات لإبقائهم تحت الأطواق. إن والدي الأم، اللذين كانا قد تكيفا مع الأساليب المدينية للطبقة الوسطى، كانا قد ماتا شابين. فقد سقط أبوها في المعركة في تاننبرغ في وقت مبكر من الحرب العالمية الأولى. ثم، بعد أن قتل الابنان الكبيران في فرنسا، مات الأصغر بالأنفلونزا، وكان جندياً مثلهما. أما أمها فقد ماتت أيضاً: لقد كانت قد فقدت الإرادة في العيش.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم لا تاريخ له ـ هل كنت في الرابعة عشرة عندئذ أم كنت لا أزال في الثانية عشرة؟ ـ في سقيفة مبنى (لابزفغ) المكون من شقق، حيث كنا نشغل إحدى الوحدات التسعة عشرة. كنت في الطريق إلى مكان القراءة المفضل لي، الكنباية الرثة تحت المنور المعلق، عندما وجدت في إحدى مساحات التخزين المخصصة لكل واحدة من الوحدات والمقطعة بألواح خشبية، حقيبة ملابس محزومة بخيط، كنت أنا ـ أو الصبي الذي بدأت القصص تتراكم لديه في سن مبكرة ـ قد قمت باكتشاف هام جداً تحت أكوام الخردة، بين قطع الأثاث المهجورة، كانت هذه الحقيبة بانتظاري. تلك على الأقل هي الكيفية التي فسرت بها اللقية.

هل كانت تحت فراش ممزق؟

هل كانت حمامة هي التي طارت عبر المنور ترقص على القشرة، وهي تهدل؟

هل أجفلها وجودي إلى حد أن تفلت زرقة؟

هل سارعت إلى حل العقد؟

هل تحسست جيبي من أجل السكين؟

هل تراجعت إلى الوراء بدافع الخوف؟

أم هل سحبت الحقيبة إلى أسفل السلم مثل صبي صالح وسلمتها إلى الوالدة؟

ثمة إمكانيات أخرى، قابلة للتبادل فيما بينها: وفقا لأنظمة الغارات الجوية المعممة في منتصف عام 1942، يجب تنظيف كل السقيفات؛ لقد ظهرت الحقيبة في أثناء العملية وقامت (الوالدة) بفتحها، أو فتحتها أنا أو طرف ثالث.

بأي حال، كانت تحتوي على المقتنيات القليلة للأخوين الذين توفيا

Twitter: @ketab_n

في الحرب العالمية الأولى والأخ الذي أخذه الوباء الذي قتل الصديق والعدو دون تمييز.

كل ما كانت أمي قد حكته لي غالباً، ألم الفقدان المتعذر استئصاله، الذي كانت تستحضره مع الدموع، أكدته محتويات حقيبة الملابس تلك: ثلاثة شبان منعوا من أن يعيشوا الحياة التي أعدت لها ميولهم ومواهبهم.

كان لكل واحدة من الأكوام الثلاث التي لفتها بشريط حريري حكايتها الخاصة لترويها. الأخ الأوسط، باول، أراد أن يكون رساماً وقد تدرب على المشاهد المسرحية. وجدت رسومات ملونة لأطر خشبة المسرح وأزياء أوبرا *الهولندي الطائر* وأوبرا *الصياد* Der Freisschutz، أو ربما كانت أوبرا *لوهنغرين* Lohengrin لأن ما أراها الآن في عين عقلي هي سكتشات لأجل بجعة جديرة بخشبة المسرح تدعوني إلى التفكير بها باعتبارها تنتمي إلى الأكوام الملونة بقلم الرصاص التي خلفها الخال باول، الذي توفي قرب سوم. لم تكن ثمة ميداليات بين طلحيات الورق.

كان الأخ الأصغر، ألفونز، الذي توفي بالأنفلونزا الإسبانية، قد تدرب كطباخ محترف وكان يحلم بأن يُرفع إلى مرتبة شيف [كبير الطهاة] في فندق فخم في عاصمة أوروبية - بروكسل أو فيينا أو برلين - اعترافا بالوجبات المختارة بعناية التي كان قد ابتكرها. لقد صبها كلها في رسائل مكتوبة على جزيرة سيلت في بحر البلطيق، حيث مارس أول وآخر وظيفة له، كطباخ في منتجع صحي، قبل أن يجند بشكل إلزامي ويرسل إلى التدريب الأساسي.

كانت الرسائل التي كتبها إلى أخته هيلينه طويلة ومحشوة بالتبجحات المرحة. بعد التلميح إلى المغامرات مع النساء من طبقة النبلاء اللواتي يتلقين العلاج في المنتجع، كان يدخل في تفاصيل الأطباق التي تعلم أن يصنعها: سمك القد المطهو مع صلصة الخردل، فيليه

Twitter: @ketab_n

سمك اللوتش على طبقة من الشمرة، حساء الحنكليس المبهر ببقلة الشبث، وأطباق السمك الأخرى التي جربتها بنفسي فيما بعد، وأنا أتذكر العم ألفونز.

كان الأخ الأكبر، أرتور، الذي كانت الأم تتحدث عنه بوصفه المفضل لديها، يرى نفسه شاعراً متوجاً بالمجد إلى أن قضت عليه طلقة في البطن. في أثناء تمرنه في أحد فروع البنك الإمبراطوري قرب البوابة العالية، وهي بناية نجت من الحرب الأخيرة وفي الوقت الحالي تمد مصرفاً بولندياً بكل أبهة ازدهار عهد بسمارك، كانت صحيفة دانتسيغية محلية تنشر من حين إلى آخر أشعاراً متعددة المقاطع مذيلة باسمه، دزينة أو أكثر من قصائد الربيع والخريف، وقصائد عيد كل القديسين هنا، قصيدة عيد الميلاد هناك، وقد وجدت هذه القصاصات مجمعة في حقيبة الملابس - في اكتشافي الكبير، كما أسمتها أمي لاحقاً.

كان ابنها أيضاً يغريه أن يراه اكتشافاً كبيراً وعندما رزح، في منتصف السبعينات، بما يكفي تحت عبء مخطوطات الروايات الطويلة، وجد نفسه ينتج قصصاً قصيرة، قرر أن يوقعها باسم خاله المفضل ونشرها في سلسلة من الإصدارات التي نشرتها الـ Literarisches Colloquium Berlin، فشاركت فيها لأحميها من خبث النقاد النزويين من ناحية أولى، ولأسلط الضوء على الحياة القصيرة لأرتور كنوف بشيء من المجد بعد الوفاة، من الناحية الأخرى.

حظي العمل الأول لكنوف باستقبال جيد تماماً، بغض النظر عن آثار الصبا الشعرية التي كانت تدين بالكثير من تلونها إلى آيشندورف. فرغم شبهه المميز بمؤلف مشهور من مؤلفي ذاك اليوم، آمن النقاد بأنه موهوب وأن له مستقبلاً. إذ رأت ناشرة إيطالية أنه من المبكر جداً التفكير في ترجمة القصص، لكنها أملت في أنهم يمكن أن ينتظروا منه

Twitter: @ketab_n

شيئاً أكثر أهمية في القريب العاجل، شيئاً يليق بتاريخ العائلة. كان واضحاً، كما قال الناس، أن موهبته هي أكثر إفضاء إلى الرواية.

كانت قصص أرتور كنوف قيد الطبع لأكثر من عقدين من الزمن، تحمل عناوينها تحت اسم مستعار إلى أن قام كلاوس روهلر، الذي كان محرراً رزيناً، نيقا لدى دارٍ لوخترهاند - فرلاغ، بكشف القناع عن خالي الأدبي عندما كان ثملاً.

كانت السقيفة مع مساحات التخزين المقطعة بالألواح الخشبية مليئة بالنثريات والبقايا وشبكات العناكب، حيث التجأ أوسكار ماتسيرات، كما التجأت فيما بعد، أي إلى أن تبعه أولاد الجيران إلى هناك وضايقوه. لقد استطاع أوسكار أن يجرب غناءه القوي، أما أنا فقد حصلت على حقيبة الملابس.

لازال بمقدوري أن أرى الشمس ترقش سطحها الجلدي الأملس. لا، لم تنصحني حمامة هادلة. فقد كنت الوحيد الذي يتمتع بامتياز فتحها، هناك في مكان مطالعتي السري. فقدت صبري، ففتحتها بمبراة الأقلام ثلاثية الشفرات. صدمتني برائحتها، كما لو أن قبراً قد فتح. فتراقصت سحابة من الغبار في الضوء. اعتبرت ما وجدته إشارة: لقد أطلقتني في رحلة مدى الحياة. الآن فقط بدأ الرحالة يتعب: النظر إلى الوراء هو كل ما يبقيه صاحياً.

انجذبت مرة تلو الأخرى إلى مخبأي. فالمنور المعلق منحني رؤية لا يعيقها شيء للباحات الخلفية، أشجار الكستناء وسقف معمل الحلويات المطلي بالقار، وحدائق مكتب الطوابع البريدية، والسقيفات نصف المسقوفة، وحظائر الأرانب، وهياكل نفض السجاد، طوال الطريق المؤدية إلى البيوت الواقعة في شوارع لويزن وهرتا وماريني، التي كانت تحد المساحة الفسيحة. لكنني رأيت أبعد من ذلك. من مكان لقائي مع

Twitter: @ketab_n

الرسام والشاعر والشيف ـ باول، المتجهم عادة، أرتور الحالم غالباً، ألفونز المبتهج دوماً ـ اتبعت مسار هروب يؤدي إلى مكان ما، كما الآن تماماً في طيراني إلى الوراء، أحاول أن أهبط على الأرض في مكان لا توجد فيه بقايا، ولا كنباية مهترئة، لا شيء يمكن أن ألمسه أو أضع يدي عليه في انتظاري.

آه، لو كان ثمة حقيبة ملابس، أو صندوق كرتون على الأقل مملوء بخربشاتي المبكرة. لكن لم تنج شذرة من قصائدي الأولى، ولا صفحة من بقايا الرواية الكاشوبية: لا توجد واحدة من الفنتازيات المشوشة أو القرميدات المغطاة بالطحلب، المفصلة بشكل شديد الحساسية، التي رسمتها أو لونتها. لا الشعر المقفى بخط سوترلين ولا الرسوم المظللة بالأبيض والأسود الموجودة في مكان ما في الأقنعة التي حزمها والدي لأجل هروبنا. ولا يوجد كتاب تمارين في موضوعات الإنشاء المدرسية التي نالت تقدير «جيد» أو «جيد جداً»، رغم تهجئتي الرديئة جداً. لا يوجد أي سجل لبداياتي. أم هل ينبغي أن أقول لنفسي: «كم هو جيد أنه لم تتبق قصاصة واحدة؟». لأنه كم سيكون محرجا لو كانت تفجرات ما قبل المراهقة تتضمن قصيدة، مؤرخة في 20 نيسان، متأثرة بالأسلوب المدحي لشعراء شبيبة هتلر أمثال منتسل أو باومان أو فون شيراخ، وتمجد الفوهرر بمصطلحات ترنمية تعكس الإيمان الذي لا يلين للشاعر الفتي. كان من المروع أن نواجه القوافي مثل Ehre gebare («قد يولد الشرف) و Blut und Glut («الدم والغيرة») وardour Fanfaren und Gefahren («الجعجعات والأخطار») لاحقاً، أو لو أن هراء عنصرياً وجد طريقه إلى مقطع في روايتي الأولى على حساب الكاشوبيين الفقراء: فارس طويل الوجه يقطع رؤوس السلافيين ذوي الوجوه المستديرة بالدزينات. ونتاجات كهذه المشابهة للضلالات التي تأتي من غسيل الدماغ.

Twitter: @ketab_n

في أفضل الأحوال، يمكنني أن أكون واثقاً من أنه لو وجدت كومة من الرسوم، إن لم يكن في السقيفة ففي القبو، فإن أيا منها لن يصف بطل حرب مزخرفاً بشكل عادل مثل الليفتينانت كوماندر برين أو الطيار المقاتل غالاند. رغم أنني كنت أعتبرهما معبودين.

ماذا لو؟ كانت التأملات التي تستثيرها محتويات حقائب الملابس المفقودة عديمة الجدوى بقدر ما هي حتمية.

ما هي الهمسات الخائنة التي كان من الممكن أن تستمر في علبة منظف استعملتها الوالدة لرزم حاجيات ابنها عندما أرغمت العائلة على الفرار والتي أغفلتها في الاندفاع إلى الرحيل؟

ما ذا غير ذلك كان يتطلبه فضح إنسان بحاجة إلى ورقة تين؟

نظراً لكوني قد ترعرعت في أسرة مطرودة من المنزل والوطن، على النقيض من كتاب جيلي الذين ترعرعوا في مكان واحد ـ على بحيرة كونستانس في نورمبرغ، في الأراضي المنخفضة الألمانية الشمالية ـ ولذلك فهم يمتلكون سجلاتهم المدرسية وآثار الصبا، ولا أمتلك بطبيعة الحال أي دليل على سنواتي المبكرة، لا يمكنني أن أدعو سوى الشهود الأكثر شكوكية إلى موقع الشاهد: السيدة ذاكرة، وهي مخلوق نزوي معرض للإصابة بالصداعات ومشهور بأنه يبتسم للمزايد الأعلى. إذاً، ما نحتاجه هنا هو وسائل أخرى، مفيدة بطرق أخرى. فالأشياء المستديرة أو ذات الزوايا تنتظر على الرف فوق طاولة الوقوف. أما الأشياء الموجودة، عندما تستحضر بشدة كافية، فتبدأ بكشف أسرارها.

لا، لا قطع نقدية ولا كسر أثرية فخارية. إنها عسلية اللون وشفانية، ألوانها هي حمرة الخريف والذهب. نتف بحجم حبات الكرز، وهذه الواحدة كبيرة كبيضة البطة. الذهب من بركتي البلطيقية: كهرمان. عثر عليه على شواطئ البلطيق أو اشتري منذ سنة في مدينة

Twitter: @ketab_n

ليتوانية تدعى ميمل من تاجر ينادي على أوانيه في الشارع. السلع السياحية النموذجية، المصقولة والملمعة ـ سلاسل كهرمان وأساور، مثقلات ورق كهرمان وعلب ـ لكن بعضها غير مقصوص أو قطع مصقولة بشكل جزئي فقط.

كنا، أنا وأوته، قد ذهبنا إلى هناك مع يورغن وماريا مانتي عن طريق مركب نهري من اللسان الكيوري Kurische Nehrung. في الواقع، كنا ننوي فقط أن نزور النصب التذكاري لأنكه فون تاراو ونقدم الإجلال إلى الشاعر سيمون داخ. كان يوماً عاصفاً ذا غيوم سريعة التحرك. أجريت اختياري، ترددت ثم قمت بالعمل الحاسم.

كانت الأشياء مصانة في كل القطع التي وجدتها أو اشتريتها: في الرأس المتحجر توجد إبر صنوبرية، في ذاك الشيء المكتشف توجد أشنة طحلبية، وفي هذا توجد بعوضة، أرجلها الصغيرة قابلة للعد، جناحاها متوازنان من أجل الطيران. مع رفع قطعة بيض البط عالياً إلى الضوء أرى كتلة مستحاثية تشبه الطوف الجليدي محشورة بشكل محكم ومحاطة بحشرات دقيقة. إنها مسألة تكبسل [تحوصل]. هل هذه دودة؟ هل توقف ذو المائة رجل في منتصف الخطوة؟ تحت التمحيص المطول يكشف الكهرمان عن الأسرار التي زعم ذات مرة أنها آمنة.

كلما كانت وسيلتي الأولية، البصلة التخيلية، لا تملك شيئاً لتقوله لي أو توصل رسالتها في كل [شيء] سوى الشيفرات غير القابلة للتفكيك، أمد يدي إلى الرف فوق المنضدة الواقفة في أستوديو بلندورف وأنقب بين الشذرات المشتراة والتي عثر عليها هناك.

هذه القطعة العسلية اللون شفافة حتى حافتها القشرية، حيث تصبح حليبية. فإذا رفعتها إلى الضوء لفترة طويلة كافية من الزمن وأطفأت التكتكة في رأسي ورفضت السماح للأحداث الجارية ـ أو أي

Twitter: @ketab_n

شيء راهن ـ بأن تتحول عن مسارها، أي إذا كنت مركزاً بشكل كامل ومطلق، فإن ما أراه بدلاً من الشيء، الذي كان يُزعم حتى حينه أنه قرادة، هو الشكل العام بالطول الكامل لشخصي، البالغ أربعة عشر عاماً والعاري. قضيبي، الذي كان في الاستراحة لايزال صبيانياً، مثل قضيب كيوبيد، كما رسمه على بطاقات السجائر فنان بارع مع أنه نزاع إلى القتل بشكل كامن، كان يدعي حالة النضج عندما يتصلب، عمداً أو بعد تحسس قصير، ويحرر حشفته.

إن عضو كيوبيد، كما أبدعه كارافاجيو، ذو مظهر جميل حميد للنظر ـ منقار صغير ظريف رغم أن النذل المجنح يتكلف الابتسام عندما يتسلق خارج سرير حيث يكون قد بدأ الوقائع أو عززها، لكن العضو الخاص بي، عديم الأذى كما عندما يكون نائماً، عندما يستيقظ فإنه سوف ينهض إلى فرصة الإثم بعزم شرس: بشكل رجولي لا رحمة فيه، فيحاول اختراق كل ما يحتمل الاختراق، ولو كان ثقوب الحبكات في كبائن تبديل الملابس في حمامات بروزن.

سيكشف الكهرمان المزيد حتى إذا ألححت في سؤاله. إن العضو الموصول بي ـ أو مثل ويلي، بصورتي الذاتية، المطمور في الراتنج ـ يفتقر إلى العقل وينوي أن يبقى بلا عقل حتى النهاية القصوى. يمكن إثارته يومياً ولفترات زمنية قصيرة على الطريقة التوراتية التقليدية، مع أن اليد وحدها ليست كافية. فرأسه، المعروف باسم الحشفة أيضاً، سيكون له طريقه وقراره السريع. بغض النظر عن بلاهته المثبتة، يصبح مبدعاً عندما يكون بحاجة لذلك. إنه يدعي الشجاعة الرياضية ولا يخلو من الطموح. هو نزاع إلى التراجع، لا ينكمش عن أي عقاب.

طالما كنت كاثوليكياً مؤمناً ـ كان الانتقال إلى اللاإيمان سلساً ـ فقد خدم قضيبي كموضوع دائم جاهز للاعتراف. إذ كنت أنسب إليه أشنع

Twitter: @ketab_n

الخطايا: العلاقات المحرمة مع الملائكة. مع نعجة عذراء. حتى الأب فينكه، كاهن اعترافي ذو الخبرة العالية، الذي لم يكن المقصود من أي شيء إنساني أن يطن بصوت غريب في أذنه، وجد مآثره وذنوبه مذهلة. لكن الاعتراف ساعدني على إطلاق ما كان يعزى وينسب إلى الملحق ذي شكل رأس الخنزير كلذة. كان ذلك هو تنفيسي الأسبوعي.

على كل، فيما بعد، عندما كان ابن الأربعة عشر عاماً قد وصل إلى مرحلة انعدام الإله المطلق، كان عضوه الأكثر نضجاً بشكل مواز أكثر إقلاقاً له من الوضع العسكري على الجبهة الشرقية، حيث انتهى تقدمٍ فرق دباباتنا الذي لا يمكن إيقافه حتى ذاك الوقت إلى توقف تام: أولاً في الوحل، ثم في الثلج والجليد. إن الأب صقيع قد أنقذ روسيا. وما الذي ساعدني في [قضاء] حاجتي؟

كان الهدف لكل رغباتي قد اكتسب اسماً بالتدريج. مررت بتجربة ألم الحب الأول. لم يكن لأية نوبة لاحقة من جنون الحب مثل هذا التأثير القوي. فألم الأسنان لا شيء بالمقارنة معه، رغم أن عذاب الحب أيضاً كان يترافق بتورمات وصداعات تأتي وتزول.

بما أنني لا أستطيع أن أحدد بأية درجة من الدقة تاريخ بدء حبي الأول، وبما أنه لم يؤد إلى منهاج عمل يمكن وصفه كخطوات في اتجاه الاحتكاك الجسدي ناهيك عن الاستحواذ الأكثر اقتحاماً، فأنا متروك مع مجرد كلمات، التمتمة التي تؤدي إلى تدفقات شديدة الاتقاد وقد انتشرت في الرسائل وهمسات السرير منذ رواية *آلام فرتر* لغوته. سأكون مقتضباً.

كانت الفتاة التي مرنتُ رغبتي عليها مثل كلب صيد تمر بي في طريقها إلى المدرسة. لفترة من الزمن كان مبنى الثانوية يستخدم ليس فقط من قبل كل طلابها الذكور بل أيضاً من قبل طالبات مدرسة غوردون (حيث كانت الأولى تسمى مدرسة هيلينه لانغه) التي صودرت.

Twitter: @ketab_n

كنا نداوم في الصفوف في نوبتي الصباح وبعد الظهر. كانت هي من حركة المرور القادمة على أوبهاغنفنغ: كانت تجيء، كنت أذهب. أي، كنت في طريقي إلى البيت بعد خمس ساعات من الدروس، كانت تستغرق نفس العدد من الساعات مع ذلك لتجلس خلالها. كانت دوماً مع شلة من الفتيات، في حين كنت أنا، المتوحد المشهور، وحدي فقط. كنت أسير مباشرة عبر سرب من القهقهات الصغيرة مخاطراً بأكثر من نظرة إليها.

لم تكن مليحة ولا قبيحة، بل كانت بالضبط فتاة سوداء الشعر ذات ضفائر طويلة نوعاً ما. الإطار الداكن جعل وجهها يبدو صغيراً: نقطتان هما العينان، فاصلة هي الأنف، شحطة هي الفم. كانت شفتاها رقيقتين، وكان فمها مزموماً. حاجباها نميا معاً طاغيين فوق أنفها.

عرفت فتيات أملح. إذ كنت حتى قد توصلت إلى ابنة عمي في سقيفة حطب جدي. وكان ثمة فتاة أخرى اسمها دورشن. كانت تنحدر من بارتنشتاين في شرق بروسيا، تتكلم اللهجة المحلية، ومكثت طوال الصيف.

لا، لن أعرف حبيبتي ذات الضفائر السوداء بالاسم. قد تكون على قيد الحياة في مكان ما، وقد نجت، مثلي، ولا ترغب في أن تضايق في شيخوختها من قبل رجل عجوز، ذهنه مليء بالذكريات الغامضة، استوقفها كالأخرق أثناء أيام الدراسة، وفي النهاية أهانها بشكل مؤلم.

لذلك سيبقى حبي الأول بلا اسم، إلا عندما أمد يدي إلى الكهرمان أجدها في بعوضة مكبسلة؟ أو عنكبوتة أرغب في أن أستجمعها، أستحضرها، ألعنها.

كنت عنيداً. إنها سمة أصبحت جزءاً مني واستمرت تمنحني قدرة على الاحتمال في جهودي المختلفة. مذ كنا تلاميذ في المدرسة أكثر أو أقل إدراكاً لأين كانت تجلس كل فتاة غودرون في صفنا، فقد زرعت

Twitter: @ketab_n

لافتات لأجلها ـ وعاء رغباتي الذي لا يمكن ملؤه ـ عند مقعدها، رسائل خطية سرية ملصقة تحت غطاء طاولتها، أشياء تافهة تولد في بعض الأحيان ردوداً تافهة. لا، لم يكن ثمة شعر في مراسلاتي المدرسية. لا يمكنني حتى أن أقول على وجه اليقين ما إذا كانت مذكراتها أو مذكراتي موقعة.

استمر ذلك إلى أن أرغمت على تغيير المدارس وركوب الترام، الخط رقم خمسة، من ضاحية لاندفورم إلى دانتسيغ ومدرستي الجديدة ثم من البلدة القديمة رجوعاً إلى البيت. الشوارع الضيقة، الصروح الآجرية البرجية، الروح القروسطية خلف الجدران المائلة إلى جانب واحد والواجهات الجملونية ـ تقدمات التاريخ المتحجرة ـ وجدت أنها إن لم تكن مهدئة فهي على الأقل ملهية، خصوصاً في أثناء شتاء 1942 ـ 1943، قبل معركة ستالينغراد وبعدها، عندما كانت امرأة شابة اسمها ليلي تؤدي خدمة الحرب المدنية الإلزامية كمعلمة فنون في مدرسة القديس بطرس، صارت أكثر أهمية بالنسبة لي.

ما إن بدلت المدارس مرتين وكان الطلاب في صفي قد تم استدعاؤهم كاحتياطيين في سلاح الجو وأعطوا ألبسة موحدة أنيقة لارتدائها حتى تلقيت رسالة من حبيبتي الأولى. وقد تلقيتها في الميدان، حيث كنت قد تدربت كمدفعي فئة سادسة مع بطارية كايزرهافن.

لا أتذكر ما كتبته بأفضل خط يدها، لكن رجل المدفعية الغر كان متعجرفاً بما يكفي ليصحح لها أخطاءها الإملائية، ويعطي الرسالة العلامة [المستحقة] بالحبر الأحمر كما لو كان معلمها، وأعادها إليها مع مذكرة خاصة به، من الممكن أن تكون ذات طبيعة شعرية.

كان هذا آخر ما سمعته من حبيبتي الأولى. المعرضة للأخطاء الإملائية في سن الرابعة عشرة ـ وحتى الآن أقل ثقة في المسائل

Twitter: @ketab_n

الأورثوغرافية [الخطية] ـ لقد دمرت شيئاً كنت قد بدأت بفهمه بشكل مبهم فقط، شيء كان قد وعد بأكثر مما هو كاف لأجل عضوي المستعد من مقاس كارافاجيو.

فراغ. إشباع يسعى وراءه في العزلة. فالرغبة تنعس تارة، وتصحو تارة أخرى، وتدوم طويلاً بعد أيام من خدمتي كاحتياطي في سلاح الجو، الأمر الذي وجد تعبيره في وصف حياة الثكنات في منطقة المطار المهجورة، بعيداً عن البيت، في رواية *أعوام الكلب*: مع قصص مختلفة كلياً تروى بالعامية المدرسية لصبيان مختلفين كلياً، لكنهم كانوا، مثلي في ذاك الوقت، منفرجين لأن كلا من خدمتهم في شبيبة هتلر، التي كانت تصبح بلهاء بشكل متزايد، وفترة دراستهم المدرسية قد انتهتا.

رغم أن الحب يلعب دوراً عرضياً في الحبكة، فقد سارعت إلى الإشارة إلى أن تولا بوكريفكه النحيلة، التي كانت تعذب فتيان بطارية كايزرهافن أثناء ساعات زيارة نهاية الأسبوع، لا تشترك في شيء مع حبي الأول.

قد يخبرنا الكهرمان أكثر مما نرغب في تذكره: يحتفظ بما ينبغي أن يكون قد هضم وطرح منذ زمن طويل. إنه يستبقي كل ما يتلقاه في حالته الرخوة، التي لا تزال سائلة. إنه يدحض الأعذار. وهو كهرمان، لا ينسى شيئاً ويطرح في السوق أعمق الأسرار الدفينة، ما يعني أن الفتى الذي يحمل اسمي، البالغ اثني عشر عاماً وهو لا يزال متديناً ـ أي لازال يؤمن بمريم إن لم يكن بالله ـ كان يثير الفتاة ذات الضفائر أثناء التعليم الشفهي: كان راعي أبرشية يجهز الفتيان الذين في مثل سني وأنا من أجل العشاء الرباني الأول في بيت قسيس كنيسة القلب المقدس. إن قائمة الخطايا التي كان يتوقع منا أن نعترف بها ـ والتي يمكن اغتفارها، أيها الجسيم وأيها المميت ـ قد انسابت من شفاهنا. كان من المفروض بي حتى أن أخدم كغلام مذبح على وعاء خبز القربان ووعاء القربان المقدس.

Twitter: @ketab_n

نعم، إلى هذا اليوم يمكنني أن أرتل افتتاحية قداس العشاء المقدس Introit مثل موليغان في بداية رواية *أوليس* وأنا أهمس قائلاً: Introibo ad altare Dei [سأذهب إلى مذبح الرب] وأنا أحلق ذقني.

إذا بقيت في الثالثة عشرة - أي بعد معجزات حقيبة الحيل الكاثوليكية - أذهب إلى الكنيسة، فقد كان ذلك فقط لكي أكمن للفتاة بعد ظهر يوم السبت، لأكون قريباً قدر الإمكان إلى كرسي الاعتراف، على بعد مقعد خلف ضفائرها.

تلك القطعة العسلية اللون من الراتنج المتحجر حتى يكشف أسرار كرسي الاعتراف: إنها تروي أن تفاصيل ممارستي للاستمناء الشبابي كانت تتدحرج من لساني بشكل سلس للغاية إلى أذن الكاهن بحيث أن اسم موضوعه، ملاذ رغبتي، كان ينبع من شفتي، وإذ ذاك كان من المكن سماع المبجل الكاهن، المتمرس كما هو الحال، وهو يصفي حنجرته خلف المشواة.

وتستمر الحكاية بأن أعلن لاحقاً أنني، فيما كانت الفتاة ذات الضفائر تنتظر بمحاذاة كرسي الاعتراف تعداد خطاياها، قفزت من المقعد وصعدت إلى مذبح سيدتنا وبدون نية مسبقة في أي أذى أو خبث.

لا، أقول، وأنا أضع القطعة ذات البعوضة بجوار القطعة التي تحتوي الذبابة والعنكبوت والخنفساء الصغيرة. فذاك لم يكن أنا. هذا في الكتاب وهو صحيح فقط في الكتاب. لا يوجد دليل على الجريمة. في الآونة الأخيرة، في وقت مبكر من صيف 2005، عندما التقيت أنا ومحرر أعمالي، هلموت فريلينغهاوس، في غدانيسك مع عشرة مترجمين من كافة أنحاء العالم كانوا يجرون نقاشاً آخر لتجربتي الأولى، زرت أحد مسارح الجريمة بعد الآخر في الحبكة المتغيرة بشكل حيوي للرواية، بما في ذلك كنيسة القلب المقدس، التي نجت من الحرب

Twitter: @ketab_n

وفيها نسخة من مادونا فيلنيوس مع إكليلها المطلي بالقصدير التي تبعث الإشعاع وتجتذب البولنديين الأتقياء. بمحاذاة الباب تماماً، في كوة خلف الشموع، شاهدنا صوراً فوتوغرافية للجنازة العامة للبابا البولندي وصوراً لخليفته الألماني المنتخب حديثاً.

وهناك، في هذا المشهد النيوغوطي لجريمة فتية، طلب مني كاهن شاب ذو ابتسامة غامضة، رجل ذو أكثر من شبه عابر بالأب ڤينكه، أن أوقع نسخة من الطبعة البولندية للكتاب قيد البحث، والمؤلف، أمام دهشة مترجميه ومحرره، لم يتردد في كتابة اسمه تحت العنوان. ولأنني لم أكن أنا الذي انتزع المبخرة من يد الطفل المسيح في ذاك اليوم في مذبح سيدتنا؛ كان شخصاً ذا إرادة مختلفة كلياً: شخصاً لم يتبرأ من الشر أبداً، شخصاً كان قد رفض أن يكبر....

كبرت وكبرت. في الوقت الذي كنت فيه في سن السادسة عشرة ومؤهلا للخدمة المدنية، كنت أعتبر مكتمل النمو. أو ألم يكن طولي متراً وأثنين وسبعين سنتيمتراً ـ خمسة أقدام، وستة إنشات ونصف ـ إلى أن أصبحت جندياً، نجا من نهاية الحرب فقط بالحظ أو بالصدفة؟

هذه قضية لا تكترث بها البصلة ولا الكهرمان. فهما يريدان معلومات دقيقة حول أشياء أخرى، حول ما تم تغليفه بخلاف ذلك، حول ما تم ابتلاعه خجلاً، حول الأسرار في قناع متبدل، حول الصئبان التي تعشش في وبر الخيش. الكلمات التي يتم تجنبها بفصاحة. فضات من الفكر. الأشياء تؤذي .... حتى الآن.

Twitter: @ketab_n

كان اسمه نحنلانفعلذلك

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كنت سأمسك نفسي وأنا أعيد تصفح كتابي، أراقب نفسي وأنا أقفز فوق الصفحات، وعندما تبرز الفراغات الكبيرة كنت أرسم زخرفات بشكل عابث وألصق الأشكال.

إن ما هو مفقود هي الروابط في سيرورة لم يوقفها أحد، سيرورة غير قابلة للإعكاس لا يمكن لأية ممحاة أن تمحو آثارها. لكن لا توجد بصلة بحاجة إلى تقشير، لا كهرمان لاستشارته في حالة الخطوة القاتلة لتلميذ المدرسة البالغ من العمر خمسة عشر عاماً باللباس النظامي. إنه واضح: لقد تطوعت لأجل الواجب الفعلي: متى؟ لماذا؟

بما أنني لا أعرف التاريخ ولا يمكنني تذكر المناخ المضطرب للحرب آنذاك أو أعدد بقعها الساخنة من الدائرة القطبية إلى القوقاز وعلى الجبهات الأخرى، فكل ما يمكنني فعله الآن هو حبك الظروف التي ربما تكون قد حفزت قراري النهائي بالتجنيد وغذته. لم تكن هناك نعوت مسكنة متاحة. ما فعلته لا يمكن اعتباره حماقة شبابية. لا ضغط من فوق. ولا شعرت بالحاجة إلى تسكين الإحساس بالذنب تجاه الشك بمعصومية الفوهرر، بحماسي للتطوع.

حدث ذلك عندما كنت أخدم كجندي احتياطي في سلاح الجو - الذي لم يكن تطوعياً، رغم أننا جربناه كتحرر من روتين المدرسة وقبلنا تدريباته غير الشاقة جداً.

Twitter: @ketab_n

الطريقة التي كنا نراه بها نحن الفتيان، كانت بذلاتنا النظامية تجذب كل الأنظار. فقد كنا، نحن البالغون بشكل عنيف، نعتبر أنفسنا الدعامات الأساسية للجبهة الداخلية. فأصبحت بطارية كايزرهافن بيتنا الثاني. إلى الشرق تمتد السهول نزولاً إلى الفيستولا؛ إلى الغرب توجد رافعات التحميل، والسيلوهات العملاقة والأبراج البعيدة للمدينة. في البداية بُذلت مساعي لإبقاء المدرسة مستمرة، لكن لما كانت الصفوف الدراسية تقطعها غالباً التدريبات الميدانية الضعيفة في معظمها، فقد رفض المدرسون الكبار في السن اجتياز الطريق القذر المرهق إلى بطاريتنا.

أخيراً، أُخذنا على محمل الجد. كان ثمة ستة أسلحة مدفعية ينبغي التصويب على أهدافها. كنا قد تلقينا التدريب المناسب وكنا قادرين، لو تطلب الأمر ذلك، على المساعدة في حماية المدينة والمرفأ من هجمات العدو. في تمارين الاختبار بلغنا مواقع قيادتنا خلال ثوان.

صرنا نستعمل مدافعنا من عيار ثمانية فاصلة ثمانية مرتين أو ثلاث مرات فقط، عندما كانت قاذفات قنابل معادية قليلة تُشاهد في مجالنا الجوي في شعاع الأضواء الكشافة. كان ذلك كله يبدو مهرجانياً جداً. لكن الغارات الضخمة ـ النوع المعروف بالعواصف النارية الذي عانت منه كولونيا وهامبورغ وبرلين ومدن حوض الرور، والذي لم نعرف عنه إلا من خلال الشائعات ـ لم نجربها. لا أضرار تستحق الذكر: قُصف منزلان في شارع فوكسفال قرب حوض شيشاو للسفن، وقعت إصابات قليلة. كنا فخورين بكوننا قد أسقطنا قاذفة لانكاستر رباعية المحرك، حتى لو نُسبت الضربة إلى بطارية تسيغانكنبرغ على الحدود الجنوبية للمدينة بدلاً من أن تنسب إلى بطاريتنا. قيل إن أفراد الطاقم الذين تفحموا إلى حد ما كانوا كنديين.

مع ذلك، كقاعدة، كانت الخدمة في احتياط سلاح الجو كئيبة، مع

Twitter: @ketab_n

أنها كانت كئيبة بطريقة مختلفة عن المدرسة. فقد كانت تزعجنا بشكل خاص مهمة الحراسة الليلية وصفوف الدروس البالستية التي بقيت تجري إلى الأبد في براكات الصفوف العفنة.

عندما كنا نمل، كنا نرتد إلى سلوك طفولي، أو كنا نسلي بعضنا بعضا بالحديث عن مآثر جنسية ملفقة. هكذا انقضت الأيام.

كنا نخرج لقضاء عطلة نهاية الأسبوع كل أسبوعين. كان بإمكاننا، على حد تعبيرهم، «أن نذهب إلى البيت إلى الماما». وفي كل مرة كان ألمي من التفكير في مسكننا الضيق يفسد فرح بفكرة الزيارة.

لم تساعد حتى حلوى بودينغ الفانيلا مع فضيات اللوز التي يصنعها الأب، الذي كان يحب طهوها لأجل العائلة، من مكونات مقشودة من طلبياته الهزيلة ويدخرها لمناسبات خاصة. بعد أن يفك البودينغ عن القالب، كان يغطس حصتي منه بصلصة الشوكولاته ويقدمها لي ترحيباً بي على المائدة المدودة خصيصاً لأجل ابنه.

لا، لم يكن بمقدور أية حلوى أن تعوض عن الشعور بالضيق. فقد بقيت أصطدم بالأشياء وبنقص الأشياء: غرفة حمام وتواليت، على سبيل المثال. كل ما كان لدينا في بطارية كايزرهافن غرفة دوش مشتركة وخلفها مرحاض مشترك. هناك كنا نجثم بجوار بعضنا البعض لنتبرز في حفرة، وهذا لم يكن يزعجني البتة.

أما في البيت، فقد كان التواليت على منبسط الدرج، تتقاسمه أربع شقق، وصار أكثر فأكثر قرفاً بالنسبة لي: كان متسخاً دوماً من أولاد الجيران أو مشغولاً عندما تحتاجه ويصدر رائحة كريهة، وكانت جدرانه ملطخة ببصمات الأصابع.

كنت أخجل من التواليت المشترك وكنت أخفي وجوده عن زملائي في المدرسة، الذين كانوا يعتبرون الحمامات والتواليتات الخصوصية أمرا

Twitter: @ketab_n

بديهياً. أما أنا فلم أكن أسألهم عن الموضوع أبداً. كان إيغون هاينرت، الذي كان له أيضاً تواليت خارجي تفوح منه رائحة كريهة، هو وحده الذي كان يأتي ويعيرني الكتب.

كان الوكر مكونا من غرفتين. فخ العائلة. كل شيء هناك كان يتآمر للتضييق على زائر نهاية الأسبوع. ولم يكن بمقدور حتى يد الوالدة أن تزيل كرب الابن. صحيح أنه لم يعد منتظراً منه أن ينام في غرفة نوم والديه، مثل أخته، لكنه حتى على الأريكة المرتبة لأجله في غرفة المعيشة ظل شاهداً على الحياة الزوجية التي كانت تستمر دون انقطاع من السبت إلى الأحد، أي، كان بمقدوري أن أسمع ـ أو كنت أظن أن بمقدوري أن أسمع ـ أصواتاً كانت قد استقرت في عقلي على شكل طقس رهيب: الهمسات التمهيدية، تلمظ الشفاه، صرير نوابض السرير، تنهد الفراش المصنوع من شعر الخيل، التأوه، المخزون السمعي الكامل للجماع، القوي للغاية، خصوصاً في الظلام. كنت، كطفل، فضولياً تجاه الأصوات المجاورة، لكنني كنت أتقبلها ببراءة. أما ما سمعه احتياطي سلاح الجو، الذي كان يرتدي لباساً [عسكرياً] في النهار، وهو يرتدي بيجامته، عندما كان أبوه يرتمي على أمه، في أثناء عطل نهاية الأسبوع في الإجازة، فقد كان لا يطاق. مع أن البعيد عن المؤكد أن كليهما كانا يمضيان في ذلك عندما يستلقي الابن على الأريكة ضمن مجال السمع؛ في الحقيقة، الأرجح أنهما كانا يأخذان وجوده في الحسبان ويفلتان بعضهما البعض. لكن مجرد توقع تلك الأصوات بتسلسلها الأكثر أو الأقل انتظاماً كان كافياً لإبقائي مستيقظاً.

في الظلام تكونت لدي صورة واضحة لكل التنويعات على الاقتران الزوجي، وفي نسختي السينمائية للحدث كانت الأم دائماً هي الضحية: فقد كانت تخضع، وتعطي إشارة الانطلاق، وتتحمل إلى نقطة الإنهاك.

Twitter: @ketab_n

لذلك، فإن كره صبي الأم لأبيه، ساحة المعركة اللاشعورية التي قررت حدوث مسار التراجيديات الإغريقية والتي لم يتم تحديثها بشكل بليغ وحساس من قبل الدكتور فرويد وتلامذته، إن لم يكن السبب الأساسي، فهو على الأقل أحد العوامل في اندفاعي لترك المنزل.

أجهدت دماغي في البحث عن طرق للفرار. إذ كانت كلها تسير في اتجاه واحد: الجبهة، إحدى الجبهات الكثيرة، بالسرعة الممكنة.

حاولت أن أفتعل شجاراً مع والدي. لم يكن ذلك سهلاً، فقد كان يتطلب اتهامات مضادة كبيرة، ورجل العائلة المحب للسلام الذي كانه سرعان ما سيستسلم. أي شيء للحفاظ على الانسجام. كان لدى الجد الأعلى أمنية دائمة لأجل ذريته، تتردد على شفتيه: «أريد أن تكون حياتكم أفضل.... ستكون حياتكم أفضل من حياتنا....».

كنت أحاول كلما استطعت أن أجعل منه بعبعاً، لكنه لم يكن مخلوقاً لهذا الدور. بالنظر إلي من خلال عينيه الزرقاوين البراقتين، كنت كائناً غريباً؛ كان من الممكن أيضاً أن أكون غير شرعي. إن كون أختي مخلصة له ربما قدم تعويضاً عن برود أخيها. وأمنا؟ كانت تجلس إلى البيانو دون أن تعزف، مرهقة من وجوب أن تتعامل مع مخزون دائم التناقص من السلع أو مكروبة، مثل الأب والأخت، من الزيارات القصيرة للابن - الأخ والأعباء التي كان يبدو أنه يحملها على كتفيه.

مع ذلك، فإن الوضع الذي لا يحتمل للشقة المؤلفة من غرفتين والتواليت المشترك بين أربع عائلات على منتصف بسطة الدرج لم يكن من الممكن أن يكون السبب الوحيد لإلحاحي على التطوع. فزملائي في المدرسة كانوا قد ترعرعوا في شقق من خمس غرف وكانت لهم غرف نومهم الخاصة، وتواليتات مجهزة ببكرات من ورق التواليت بدلاً من ورق الجرائد الذي كنا نقطعه إلى مربعات. حتى أن بعضهم عاش في

Twitter: @ketab_n

بيوت خاصة فاخرة في شارعي أوبهاغنففغ وهيندنبورغاله وكانت لهم غرف خاصة بهم، مع ذلك، أيضاً، كانوا يتوقون إلى الابتعاد، إلى الذهاب إلى الجبهة. لقد أرادوا، مثلي، أن يواجهوا الخطر بلا خوف، أن يغرقوا السفينة تلو السفينة، وأن يدمروا الدبابة تلو الدبابة، أو يطيروا عبر الأجواء في طائرات مسرشميتس من أحدث طراز، يسقطون قاذفات القنابل المعادية. على كل، بعد ستالينغراد تدهور وضع الجبهة. فأي شخص، مثل عمي فريدل، كان يتابعه بالمسامير الإبهامية الملونة على الخرائط ذات الخلفية المصنوعة من الورق المقوى، المكبرة خصيصاً، كان يلاقي صعوبة في مسايرة التطورات في الشرق وفي شمال أفريقية. في أفضل الأحوال، كان بمقدورهم أن يسجلوا نجاحات حليفتنا اليابان في البحر وفي بورما، مع أن غواصاتنا كانت من حين لآخر تحشو النشرات بعدد السفن التي تغرقها وتسجل وزنها. وفي المحيط الأطلسي صعوداً إلى قرب الدائرة القطبية الشمالية كانت تهاجم قوافل السفن في مجموعات.

لم تقصر نشرة إخبارية واحدة في إظهار الغواصات وهي تعود إلى الوطن ظافرة وبما أن احتياطي سلاح الجو الموجود في المنزل في إجازة سيضطجع ساهرا لساعات على أريكة غرفة المعيشة بعد رؤية الغواصات على الشاشة، فقد كانت لدي الكثير من الفرص لأتصور نفسي كوكيل ربان سفينة في أثناء مناوبة برجية عاصفة، ملفوفاً بقشر البصل، مغطى بالرذاذ، والمنظار المقرب مسدد على الأفق المتراقص... .

بحماسة استباقية، رأى متطوع المستقبل نفسه عائدا من حملات ظافرة إلى إحدى القاذفات الغواصة على الساحل الأطلسي لفرنسا، آمناً في النهاية من ضربات الأعماق المعادية التي لا ترحم. سيقف في تشكيل مع الطاقم إلى جانب معاون القائد الملتحي، يرفع رايات تمثل كل

Twitter: @ketab_n

السفن التي أغرقوها. لقد اعتبرت مفقودة وستمنح نوعا من الاستقبال، بالفرقة النحاسية وكل ما كان مرتاد السينما قد شاهده مرة تلو الأخرى عندما عاد أبطاله إلى الوطن منتصرين. لا مشاهد للزوارق التي غرقت مع آخر رجل فيها.

لا، لم تكن الصحف هي التي غذت عبادتي للبطل. فوالداي لم يشتركا في صحيفة *فوربوستن*، بل في الصحيفة الأكثر موضوعية، *دانتسيغر نويسته ناخريشتن* *Darnziger Neuste Nachrichten* التقليدية المحافظة. بل كانت نشرات الأخبار: كنت خصماً سهلاً «للحقيقة السوداء والبيضاء» المجملة التي كانت تقدمها.

كانت النشرات تأتي قبل الفيلم الروائي. ففي سينما لانغفور أو قصر إليزابيتكيرشنغاسه اوفا في المدينة القديمة رأيت ألمانيا محاصرة بالأعداء، تخوض ببسالة معارك دفاعية في الخارج في سهوب روسيا التي لا نهاية لها، وعلى الرمال الحارقة في الصحراء الليبية وعلى امتداد السور الأطلسي الواقي وفي قاع البحر ـ وعلى الجبهة الداخلية سأرى النساء يخرطن الرمانات اليدوية، والرجال يجمعون الدبابات: متراس ضد المد الأحمر. الشعب الألماني في صراع حياة أو موت. أوروبة القلعة تتصدى للإمبريالية الأنغلو أميركية بكلفة كبيرة. في كل يوم كانت صحيفة *نويسته ناخريشتن* تنشر المزيد ثم المزيد من الإعلانات المؤطرة بالأسود والمزخرفة بالصلبان السوداء السميكة التي تدل على وفيات الجنود من أجل الفوهرر والشعب وأرض الآباء.

هل كان من الممكن أن يكون ذلك وراء رغبتي في التطوع؟ هل كان أحد مكونات أحلام يقظتي المشوشة قدر من شهوة الموت؟ هل كنت أرنو إلى رؤية اسمي مخلداً ضمن الإطار الأسود؟ لا أعتقد ذلك. ربما كنت متوحداً أنانياً، لكنني لم أكن مراهقاً ضجراً من الدنيا، نمطياً. ربما

Twitter: @ketab_n

مجرد مغفل؟ لا توجد معطيات متوفرة حول ما كان يدور في رأس فتى في الخامسة عشرة يتوق إلى دخول نزاع ـ كان من الممكن أن يفترض جيدا، كما كان يعرف من كتبه ـ يأخذ فيه الموت جزيته. لكن يوجد أي عدد من التخمينات: هل هو ضغط العواطف بلا أي مخرج، الرغبة في أن يكون مستقلاً كلياً، الإرادة في النضوج بين عشية وضحاها، أن يكون رجلا بين الرجال؟

لا بد أنه كان ممكناً لاحتياطي سلاح الجو أن يقايض عطلة نهاية الأسبوع بيوم أربعاء أو خميس. في حالتي، ثمة شيء واحد واضح: بعد مسير نهار طويل كنت أستقل الترام من هويبوده إلى المحطة المركزية ومن هناك أستقل القطار عبر لانغفور وتسوبوت إلى غوتنهافن، وهي مدينة كانت في طفولتي تدعى غدينغن بالألمانية وغدينيا بالبولندية. كانت قد كبرت بسرعة بالغة ولم يكن لها تاريخ لتتكلم عنه.

كان الإنشاء الحديث المسطح السقف يمتد على كل الطريق النازل إلى المرفأ، حيث كانت الأرصفة وحواجز الموج تواجه الفضاء المفتوح. فهناك كان يدرب مجندو البحرية على التعامل مع الغواصات. كان ثمة أمكنة أخرى أيضاً ـ بيلاو، على سبيل المثال ـ لكن غوتنهافن كانت الأقرب.

استغرق الأمر كله ساعة لبلوغ هدف أحلامي بالبطولة. هل كان ذلك في آذار أم في أثناء وابلات مطر نيسان؟ نعم، ربما كانت السماء تمطر، كان الميناء مغطى بالسديم. كانت سفينة القوة من خلال البهجة السابقة فيلهلم غوستلوف مربوطة وراسية عند رصيف اوكسهويفت: سمعت أنها كانت تستعمل كثكنة عائمة من قبل فرقة تدريب غواصات، رغم أنني لم أعرف بشكل مؤكد أن الميناء وحوض السفن هما خارج نطاقنا.

بعدئذ بستين عاماً، على بعد حياة إنسانية، تمكنت أخيراً من كتابة رواية قصيرة بعنوان *مسار السرطان Crabwalk* حول تلك السفينة،

Twitter: @ketab_n

حول إطلاقها الذي كثر الإعلان عنه لطراداتها السلمية المحبوبة كثيراً، وحول تحويلها في زمن الحرب إلى ثكنة محاذية للرصيف، حول رحلتها الأخيرة، مع حمولة بشرية من ألف مجند وبضع آلاف من اللاجئين، وحول غرقها في 30 كانون الثاني 1945، قبالة ساحل شتولبيبانك. كنت أعرف كل تفصل من تفاصيل الكارثة: درجة الحرارة في ذاك اليوم (عشرين درجة تحت الصفر)، عدد الطوربيدات (ثلاثة)....

بما أنني كنت أتكلم عن عمل مضغوط الزمن، مع أنني أكتب التخييل في الوقت نفسه، فقد تخيلت نفسي أحد مجندي الغواصات على متن السفينة الغارقة غوستلوف. هكذا تخيلت ما كان يدور في رؤوس أولئك البالغين سبعة عشر عاماً التي تعتمر قبعات البحارة، الذين كان قدرهم أن يموتوا باكراً في بحر البلطيق: أولاً، وعد الفتيات بالنعيم الفوري. ثم، الأفعال البطولية القادمة. لقد كانوا، مثلي، يؤمنون بمعجزة النصر النهائي.

عثرت على مكتب التجنيد في بناء منخفض من العهد البولندي حيث يوجد صف من الأبواب ذات اللافتات حيث كانت المعاملات المعقدة البيروقراطية تُعالج وتُرحل وتُحفظ في إضبارة خلف هذه الأبواب. بعد السماح لي بالدخول، أمرت بالانتظار إلى أن ينادى اسمي. كان ثمة شابان آخران أو ثلاثة قبلي. لم لدي الكثير لأقوله لهم.

رفضني الرقيب وقائد البحارة اللذان تكلمت إليهما حالاً: كنت صغير السن أكثر مما ينبغي، فئتي العمرية لم يأت دورها بعد، وقريبا سأبلغ السن الكافي. لا مبرر للعجلة الزائدة. كانا يدخنان ويحتسيان القهوة بالحليب من فنجانين بصليي الشكل كبيرين. كان أحد الجنتلمانين الكهلين - من منظوري - (هو الرقيب) يبري رزمة من أقلام

Twitter: @ketab_n

الرصاص فيما كنت أتكلم. أم هل التقطت هذا التفصيل الدرامي من فيلم أو آخر؟

هل كان احتياطي سلاح الجو باللباس العسكري أم المدني؟ بالسروال القصير والجوارب التي تصل حتى الركبة، ربما؟ هل كان يقف في استعداد، المسافة المطلوبة عن طاولة المكتب، ويلقي الجملة الجبانة التي تمرن عليها كثيراً: بموجب هذه الوثيقة أتطوع للخدمة في فيلق الغواصات؟ هل طلب منه أن يجلس؟ هل رأى نفسه شجاعاً، تبدو عليه علامات البطولة؟

الصورة مشوشة هي الجواب الوحيد.

لابد أنني وقفت جامداً في مكاني عندما أُخبرت بأنه لا حاجة لمتطوعي الغواصات حالياً: لقد توقفوا عن قبول الطلبات. ثم قالوا، كما نعرف جميعاً، الحرب لا تخاض كلها تحت الماء، وسوف يدونون اسمي ويمررونه إلى فروع أخرى من قوات الجيش. اتُخذت الاحتياطات من أجل فرق الدبابات الجديدة. ستكون هناك إمكانيات متوفرة عندما تأتي فئتك العمرية. «اصبر، يا رجل، اصبر، سنأتي ونجلبك عندما تبلغ السن الكافي لذلك...». هل أثبت المتطوع أنه مرن؟ «إذا كانت الغواصات غير ممكنة، فلماذا لا تكون الدبابات...؟» هل سأل عن آخر الطرز؟ «»هل كنت سأرقى إلى قيادة إحدى الدبابات الجديدة من طراز تايغر؟». مرة أخرى، كانت نشرات الأخبار هي معسكر التدريب الأول لمرتاد السينما: لقد شاهد دبابات رومل في رمل الصحراء.

من المكن أيضاً أنني تباهيت بالمعرفة التي استخلصتها من فيلم *Weyer* وفيلم روزنامة أسطول كولر، *Kohler,s Fleet Calendar*.

لقد كنت مطلعاً حتى على تفاصيل السفن الحربية اليابانية وحاملات الطائرات والطرادات، وانتصاراتها في المحيط الهادئ: الاستيلاء على

Twitter: @ketab_n

سنغافورة، المعركة من أجل الفلبين. وحتى هذا اليوم يمكنني التحدث بإسهاب عن الأسلحة وسرعة الطرادين الثقيلين كوروتاكا وكاكو بالعقدة البحرية. تحب الذاكرة أن تدخر المعدن الخردة والأشياء التي تعد بالصمود على مر الزمن حتى في حالتها المتآكلة.

على كل، عند نقطة معينة، لا بد أن الرقيب الذي يبدو مثل عمي والجندي البحري الفظ قد سمعا ما يكفي عندما... فضا نقاشنا وأكدا لي أن طلبي سينظر فيه بعطف. لكن في البداية جاءت خدمة العمل [السخرة]، رغم كل شيء. حتى الرجال المجندين لم يعد بإمكانهم أن يخرجوا من خدمة العمل «هناك حيث تقوم بتدريباتك على البندقية. وتتعلم ماذا يعني الانضباط العسكري الحقيقي...».

عندما أستذكر الفتى الذي كنته آنذاك، جاعلاً إياه يقف باستعداد وهو يرتدي حذاء معقوداً برباط، ملمعاً بالبصاق وجوارب مخططة تصل حتى الركبة تعلوها ركبتان عاريتان، وحريصاً على تجنب الصور المستعملة من الشاشة أو من الصفحة، يبدو أنني أسمع السيدين المتوسطي العمر ـ أو المسنين، من منظوري الشاب ـ وهما باللباس العسكري يضحكان بشكل تهكمي، ربما يفكران بما يخبئه الفتى الذي لا يزال يرتدي الشورت: كان الكم الأيسر للرقيب خالياً.

وانقضى الوقت. صرنا نحن الفتيان معتادين على حياة الثكنة، على السرير المبيت، على الصيف بلا شواطئ البلطيق والاستحمام. شقت الصياغات الهايدغرية لعبارة عريف زعم أنه درس الفلسفة طريقها عبر لغتنا العامية المدرسية. «أنتم ناسون لكونكم كلاباً، أنتم» كان يصرخ بنا. «سنحطم جوهريتكم مع ذلك!» «إن رؤيتنا قد وضعته في مزاج واقعية كومة من الروث». لكنه خلافاً لذلك كان عديم الأذى. لم يكن مراقب عبيد. كان مجرد شخص يحب أن يسمع نفسه يتكلم. استعمله الفتى

Twitter: @ketab_n

فيما بعد في القصاصات الأولية لرواية *أعوام الكلب*.

عندما هبت الريح من الشمال، ساقت الرائحة النتنة في طريقنا المنبعثة من كتلة من مادة مائلة إلى البياض لا يمكن تحديد هويتها قرب أراضي المعامل المطلة على الميناء. رأيت الأشياء وشممت رائحتها. الأشياء التي تركت علامتها. كان ثمة أشياء أخرى أيضاً، والله يعلم ماذا أكلنا.

في نهاية شهر آب دخلت جماعة من «الشغيلة المتطوعين» الأوكرانيين إلى الثكنات المقامة خصيصاً لهم. لم يكونوا أعمر منا كثيراً، وكان شغلهم هو تخليص المدفعيين من نشاطات غير أساسية كمهمة الطبخ وأعمال البناء الترابية. وفي المساء كانوا يجلسون بهدوء أمام مستودع العدة.

لكن بين التدريبات على البندقية ومحاضرات علم الرمي والقذائف كنا نتصيد الجرذان الطويلة الذيل، في غرفة الغسيل، خلف مطبخ الثكنة، في المخابئ تحت المدفعية من قياس ثمانية فاصلة ثمانية. كان أحدنا ـ أم كان أحدهم؟ ـ يمسكها بيديه العاريتين. كنا نتقاضى مكافأة مقابل كل عشرة أذيال نقدمها. إذ كان احتياطيو سلاح الجو يحصلون على أقراص سكرية بطعم الفاكهة [دروبس] وجنود الهجوم المتطوعون يحصلون على السجائر، ويحصل الهيفيون Hiwis (هكذا كنا نسمي الأوكرانيين، اختصاراً لكلمة Hilfwillige، «الشغيل المتطوع») على نوع من التبغ الذي يحبونه، يدعى ماخوركا.

بغض النظر عن كم كنا موفقين في التقاط الغنائم، فإننا لم نكن أكثر توفيقاً في صد المد. لم يكن بإمكان بطارية كايزرهافن حتى أن تبدأ بالاحتفال بالنصر على المخلوقات. ربما كان هذا هو السبب في أنني فيما بعد قد منحت الأرضية على امتداد قسم من الرواية لقارض لا يمكن

Twitter: @ketab_n

إفناؤه. سأحلم بالجرذان فرادى وجماعات. لقد سخرت الجرذان مني لأنني بقيت آمل. كانت تعرف أفضل؛ لقد حفرت الخنادق قبل أن يفوت الوقت. إلا أنها كانت تمتلك الشيء الذي تنجو بواسطته من الجنس البشري ونزاعاته.

نُقلت بعد وقت قصير من عيد ميلادي السادس عشر مع قسم من فريق كايزرهافن إلى بطارية ساحل برزون ـ غلتكاو، التي كانت مجهزة بمدفعية مضادة للطيران رباعية السبطانة لحماية المطار المجاور من القصف. هناك كان لدينا أرانب أكثر من الطرائد طويلة الذيل.

في أثناء وقتي الحر كنت أختفي في الكثبان ملتجئاً من الريح وأخربش قصائد خريفية في مفكرة. إن ثمار الورد المفرطة النضج والضجر اليومي وبلح البحر والأسى العالمي وعشب الشاطئ الذي أمالته الريح والحذاء المطاطي المغسول على الشاطئ هي التي أمدتني بالإلهام، وعندما كان الضباب يلف ما أسميتها آلام حبي كانت تفي بالمطلوب. بعد العواصف كان ثمة شظايا أو، إن كنت محظوظاً، كسر بحجم الكستناء من الكهرمان لأجمعها من بين زوايا عشب البحر. حتى أنني ذات مرة وجدت كسرة بحجم الجوزة، تحتوي على حشرة تشبه ذا المئة رجل كانت قد نجت من الحثيين والمصريين والإغريق والإمبراطورية الرومانية، ومن يدري غير ذلك. لكنني لم أعد أبني قلاعاً من الرمل الرطب.

أخذت الأمور في البيت مجراها في زمن الحرب. نجحتُ في إبقاء عداوتي التي كنت أشعرها تجاه والدي ضمن الحدود طوال مدة إجازاتي الأسبوعية. كنت أستمتع بشكل مفترض باحتقاره. أولاً، لأنه وجد؛ تالياً، لأنه كان يقف أو يجلس في غرفة المعيشة وهو يرتدي بذلة وربطة عنق وشبشباً من اللباد؛ ثم، لأنه كان دائماً يخلط عجينة الحلويات في

Twitter: @ketab_n

القصعة الحجرية نفسها وهو يرتدي المئزر نفسه، ثم، لأنه كان دوماً هو من يمزق الجرائد بعناية محولاً إياها إلى ورق تواليت؛ وأخيراً لأنه، وقد أعلن أنه «معفى من الخدمة العسكرية»، لن يذهب إلى الجبهة أبداً، ولذلك لن يخرج من شعري. لكن والدي أعطاني ساعة يد من ماركة كينتسله بمناسبة عيد ميلادي.

كانت الأم قد فعلت كل شيء إلا الكف عن العزف على البيانو. كان مأخذها على الوضع يتلخص في ما يلي: «لدي شكوك». رغم أنني سمعتها ذات مرة تقول: «إن هس Hess يتصرف بشكل سيء للغاية. لقد أحببته أفضل من فوهررنا...». كانت معروفة أيضاً بقولها: «لا يمكنني أن أفهم لماذا دخلناها من أجل اليهود، لقد اعتدنا أن يكون لدينا مندوب مبيعات للخردوات باسم تسوكرمان. كان ظريفاً إذا جاز القول، وكان دوماً يعطي حسماً».

بعد عشاء الأحد كانت تغطي الطاولة بطوابع حصص الأغذية لأجل كل السلع التي وزعتها. ثم تلصقها على ورق الجرائد بمزيج من نشاء البطاطا والماء. كان المطلوب منها أن تسلمها إلى المسؤولين، كما أن حجم مواد البقالة المسلمة يجب أن ينطبق على حجم الطوابع المجمعة. كان فرع ماكس هالبه بلاتس من مقهى كايزرز قد أغلق أبوابه، فزاد عدد زبائننا.

غالباً ما كنت أساعدها في اللصق. كانت صحيفة ***دانتسيغر نويسته ناخريشتن*** تزودنا ليس بأحداث اليوم فقط بل بالخلفية لأجل الطوابع أيضاً. من الممكن أن تكون طوابع الدقيق والسكر قد حجبت التقرير المرسل من القيادة العليا لفرماخت الذي حاول تلطيف التقهقر بتسميته عملية تسوية للجبهة. كانت المدن التي تم إخلاؤها ذات أسماء لم أكن قد سمعت بها عندما تم الاستيلاء عليها. وكانت الطوابع من أجل

Twitter: @ketab_n

السمن وزيت الطبخ تحجب صفحات الإعلانات عن الجنود الذين سقطوا في المعركة، الطوابع من أجل البازلاء والفول تطمس برامج عروض السينما، التي بقيت بدون تغيير من أسبوع إلى أسبوع، أو الإعلانات المبوبة.

كان الوالد يمد يد المساعدة أيضاً في بعض الأحيان. فقربتنا عملية لصق الطوابع أكثر من بعضنا البعض. كان يطلق على زوجته اسم لنشن؛ وكانت تدعوه فيللي. كانا يدعواني «الابن». أما داداو، أختي، فلم تكن تساعد أبدا. ريثما يجف المعجون اللاصق، سيبث برنامج ما يطلبه المستمعون الموسيقي الذي يذاع يوم الأحد كل الأغنيات القديمة المفضلة للوالدة: مثل أغنية «أوه، واحسرتاه، لقد فقدتها»... و«أصغ إلى أغنية اليمامة الحلوة»... و«وحدي مرة أخرى، وحدي».... وأغنية سولفيغ، «هل بمقدور الشتاء البارد أن يبارحنا».... و«أجراس وطننا»....

طوال الشتاء كانت الجبهة تقترب أكثر فأكثر من البيت. توقفت النشرات فعلياً، لكن ازداد عدد ضحايا القصف الذين كانوا يبحثون عن المأوى في مدينتنا وضواحيها. ومن ضمنهم كانت شقيقة والدي، العمة ايللي، مع زوجها العاجز وابنتيها التوأمين، وكلتاهما كنت أحبهما ـ وأحببت واحدة منهما على وجه الخصوص. كانوا قد جاؤوا من برلين يحملون حاجيات قليلة نجحوا في إنقاذها إلى مدينة كانت الحرب قد تركتها سليمة بالكامل، مدينة محجوبة بالكامل بالنسيان الآجري المتبلد بحيث كانت تبدو كما لو أن أية معارك لن تقترب منها أبدا.

بما أن قصور السينما كانت مفتوحة عموماً للاستثمار التجاري، فقد كان مرتاد السينما يستغل إجازاته لمرافقة إحدى بنات عمه ذات اللكنة البرلينية لحضور أفلام *Quax*، *Crash Pilot* مع هاينز روهمان، وفيلم *أرض الوطن* *Homeland* مع تساراه لياندر. ربما جلسنا معاً طوال

Twitter: @ketab_n

عرض أفلام أخرى أيضاً. كانت ابنة عمتي أعمر مني بعام وكانت أكثر حذاقة في الظلام.

من المفترض أن التوقيع الذي وضعته على الورقة في أحد مكاتب غوتنهافن للتجنيد في هذا السلاح أو ذاك من أسلحة الخدمة قد عومل في أثناء ذاك الشتاء كنزوة واختفى بدون تبعات. كانت الحاجة الملحة إلى الابتعاد، الهروب إلى أية جبهة، التي استبدت بي قد فقدت زخمها. كانت رغبتي تتحرك في اتجاه آخر: لقد قرأت آيشندورف وليناو في قمة رومانسيتهما، وتأملت في رواية *Kohlhaas* لكلايستر ورواية *Hyperion* لهولدرلن ووقفت حارساً قرب مدافع مضادة للطائرات شارد الذهن، وعيناي تراقبان البحر المتجمد. هناك، في الضباب فوق المكلأ، كانت سفن الشحن ترسو في المرسى، ربما كانت سفنا سويدية.

في حوالي هذا الوقت، في أواخر الشتاء، سلمني البريد العسكري رسالة كتبتها حبيبتي، موضوع حبي الأول المحموم بشكل زائد، ذات الضفائر السوداء بأفضل خط يدها وشعرت أنني مكره على تصحيح أخطائها الإملائية. ما كتبته تلاشى في الهواء الرقيق. وقبل أن يتم النعيم تبعثر إلى نتف.

على مدى أعوام بعد الحرب فتشت عبر الصليب الأحمر في لوائح الأشخاص المفقودين والجريدة الخاصة بالمطرودين من دانتسيغ*، التي كانت تنشر من حين إلى آخر تقارير عن حالات لم شمل طلاب من مدرسة غوردون، بحثاً عن اسم فتاة بقي شكلها دون تغيير، بدت أنها في لحظة ما لا تبعد سوى ذراع واحد، وفي لحظة أخرى بدت وهمية تماماً، وكان لها في البداية اسم واحد، ثم اسم آخر، في كتبي.

ذات مرة، في منتصف الستينات، ظننت أنني رأيتها في المدخل الرئيسي لكاتدرائية كولونيا، وما زاد الأمر سوءا فيما يتعلق باللباس أنها

Twitter: @ketab_n

كانت تتسول. عندما خاطبتها، وكانت امرأة بـلا أسـنان عمليـاً، ردت بكلام غير مفهـوم شـيئاً باللهجـة المحليـة... وفي أواخـر التسـعينات، عندما عدت إلى غدانيسك لحضور العرض الأول للمسرحية المقتبسة عـن روايتي *نداء الشرغوف* في المقر الكائن في شقة خاصة، مررت برفقة أوته ببناية قديمة تقع في الشارع الذي كان فيما مضى يدعى برونزهوفرڤـغ، قلت: «هنا كانت تسكن»، وشعرت أنني أحمق. ما كنت قد خسرته بدا أن من المستحيل أن أتجاوزه في البداية، لكنني تعاملت معـه في حينـه. فهناك كانت ابنة العم التي كانت تروق لي رغم كل شيء. بالإضافة إلى ذلك، هناك العمل الذي كان مملا بطبيعة الحال، لكنه كان يسير على ما يرام. لم يكن مدربونا، NCOs، يقسون علينـا بشـكل خـاص وكـانوا يبدون ممتنين لكونهم بعيدين عن النزاع «واضعين الخوف من الله فـيكم أنتم ياررؤوس الأغنام».

كانـت الأمـواج تتكسـر برتابـة علـى موقـع شـاطئ البطاريـة. كـان التدريب على البندقية يتكون من التسديد على الأرانب أو علـى نـوارس البحر، رغم كان ممنوعـاً، بأسـلحة مـن العيـار الخفيـف. لقـد خضـت معركة لا طائل تحتها ضد البثـور. عنـدما كانـت السـماء تمطـر ونحـن خارج الخدمة، كنا نلعب ألعاب الورق أو ألعاب الرقعة.

هذا الإيقاع المتمهل كان من الممكن أن يسـتمر طـوال الربيـع، الـذي جاء أخيرا، وحتى إلى الصيف، لكن بعد ذلك بوقت قصير تم استدعائي من أجل الفحص البدني الذي يجرى لكل المجندين المكنين، في مبنى القيادة العسكرية المحلية قرب الـڤيبنـڤـال، إذ تلقيـت إشـعاراً رسميـاً بقبولي في خدمة عمل الرايخ.

لم أكن الوحيد الذي تلقى تلك القطعة من البريد المصدَق. لقد مضـى ذلك كله مثل آلة الساعة، وفقا لفئة العمر. مدة الخدمة: ثلاثـة أشـهر.

Twitter: @ketab_n

كنت سأرسل تقريرا في أواخر نيسان أو أوائل أيار. صرفت مجموعة كاملة منا من الخدمة من وحدتنا الاحتياطية في سلاح الجو، فتم استكمالها فوراً عن طريق دفعة من تلاميذ مدارس دانتسيغ، وفجأة عدت أرتدي السروال القصير والجوارب التي تصل إلى الركبتين. وفيما كنت أنظر في المرآة أو أزور الأصدقاء ذوي الأخوات المليحات، كنت أشعر أنني لم أعد أملك شيئاً لأقدمه. حدث ذلك كله بسرعة وقريباً من البيت في حين كانت أعناق الموتى تجرد من الصفائح الكلبية وفي الوقت نفسه وبعيداً من هنا كانت أعناق الأحياء تعلق حولها الميداليات الحديدية.

طوال فترة الشتاء وحتى الربيع كانت معرفتي بالجغرافية تتوسع مرة أخرى مع تقارير تحركات الجبهة في الشرق (تم إخلاء كييف)، والمعارك من أجل الجزر في المحيط الهادي بين اليابانيين والأميركيين، والتطورات في أوروبة الجنوبية. بعد أن انشق عنا حلفاؤنا الإيطاليون، وهي حركة رأيناها كخيانة خسيسة، وقام مظليونا بتحرير الدوتشه [موسوليني] من مخبئه في أبروتزي أبينين - كان اسم آخر بطل هو سكورنزي - جاءت المعركة من أجل آثار دير مونت كازينو. كان الأميركيون والبريطانيون قد نزلوا على الساحل إلى الجنوب من روما ويمدون رأس جسر كان لا يزال تحت النار عندما كان علي أن أسلم لباسي العسكري كاحتياطي في سلاح الجو مقابل بذلة خدمة العمل الأقل إشباعاً للغرور ذات اللون البني الروثي، الذي كان يجعلنا نبدو روثيين، كما كنا نقول. كان الجزء الأكثر إضحاكاً منها هو لباس الرأس، وهو قبعة لبادية تبدو مثل نتوء كبير مع خنجر أندونيسي إلى الأسفل و يبدو أنها صنعت فقط لكي ترمى. كنا نسميها «أست ذو قبضة».

Twitter: @ketab_n

في روايتي القصيرة المبكرة *القط والفأر* التي كانت تصنف غير لائقة للقراء الشباب عندما ظهرت لأول مرة لكنها أصبحت في نهاية المطاف مادة مطالعة مطلوبة في المدارس ولذلك فهي معرضة للنزوات التفسيرية لدى الأوفياء للخلاصات، فإن بطلي التراجيكوميدي، يوآخيم مالكه، يرتدي هذه القبعة المنفرة لوهلة. إن بيلنتس، الراوي، يراه وهو يرتديها في حديقة قلعة أوليفا. علاوة على ذلك، كان مرج توخل ـ المنطقة التي يقع فيها معسكر خدمة العمل ـ ساحة مربعة من البراكات زائد قاعة الطعام ـ يضاهي الريف المنبسط المائل إلى التموج الذي حدث فيه تطور يوآخيم مالكه: «الغيوم الجميلة تطفو فوق أشجار البتولا والفراشات لا تدري إلى أين تمضي بعدها. البرك الحلقية الشكل السوداء البراقة في مستنقع يمكنك فيه أن تصطاد سمك الفرخ وسمك الشبوط المغطى بالطحلب مع الرمانات اليدوية. إنه الإطار المثالي لعمل الأنصار البولنديين.

لكن زمني مع خدمة العمل مقسم إلى طبقات بشكل مختلف في ذاكرتي. فذكرياتي تختلف عما يحكيه بيلنتس حول مالكه Malke العظيم، في اضطراره لإنزاله على الورق، ليس في التفاصيل فقط بل في الطريقة التي يفضحني بها أيضاً: فوتت الفرصة لأن أتعلم الشك، وهو نشاط مكنني ـ في وقت متأخر كثيرا، لكنني تابعته بعدئذ حتى النهاية ـ من تنظيف كل مذبح والذهاب إلى ماوراء الإيمان في صنع القرارات.

لم يكن ذلك سهلاً دائماً، لأن نيران الأمل كان يعاد إيقادها بشكل دائم، في محاولة لتدفئة الجو القارس. لوهلة من الزمن، كانت الرغبة في السلام الدائم والعدالة للجميع، ثم النعيم الاستهلاكي للطريقة الأميركية في الحياة. والآن يفترض بالبابا الجديد أن يجترح المعجزات....

منذ البداية، كان لدي ما يُعرف في خدمة العمل بأنه عمل يسير:

Twitter: @ketab_n

كنت ماهراً في الرسم وكانت لي طريقة في التعامل مع الألوان ولذلك كنت أعتبر متمتعاً بالامتياز. كانت جدران المطعم المتنقل في قاعة الطعام الحجرية تزين بصور مستوحاة من أغصان العرعر وحفرة الماء كاملة مع الغيوم المنعكسة وبتولا المرج نصف المستوي، نصف الهضبي. كان ثمة ما هو مرغوب لكنه ليس ضرورياً: حورية ماء لعوب. .

بعد تدريب الصباح المعتاد - ممارسة الرماية بالبندقية، أولاً بالرفش، ثم بالقربينة من عيار ثمانية وتسعين - أطلق سراحي لأخربش عن الطبيعة: طوال فترة بعد الظهر كان بوسعي أن أغيب عن المعسكر مع ألواني المائية، وقارورة الماء ولبادة الرسم. إن الغيوم الجميلة، والبرك السوداء اللماعة، وأشجار البتولا أمام أو وراء أحجار الجلمود الشاذة العملاقة قد شقت طريقها على الورق بالألوان المشبعة. وسرعان ما كان لدي كومة من الرسوم لأرسمها بالطلاء الممزوج بالغراء على الجدران البيضاء للمطعم. ولأني كان لدي تعلق بالشجرة منذ الطفولة، و ربما جعلت من بلوطة معزولة منفردة موتيفتي المفضلة. ولأنني في شيخوختي لا زلت أستمتع بالرسم بالألوان المائية من الطبيعة، سواء كان على الطريق أم في بستان بلندورف، فليست لدي مشكلة في رسم نفسي جالسا على حافة مستنقع يبقبق أو مقرفصاً على صخرة حدباء خلفها العصر الجليدي الأخير.

عندما كنت أجلس لأرسم الأرض المنبسطة أو التلال المتلاشية في الأفق، لم أكن، إن كنت نزيها بالكامل مع نفسي، متحرراً بشكل كامل من الخوف. فالأنصار ذوو القربينات المغنومة كان من الممكن أن ينصبوا كمينا وهم رابضون خلف دغلة عرعر كثيفة أو متسترين بالجلاميد الناتئة من المرج البور. لابد أن العريف الذي رأى رجل خدمة العمل يبرم وجهه وهو يطوي فرشاته جيئة وذهابا لم تكن لديه مشكلة في

Twitter: @ketab_n

إطلاق النار عليه.

ستنتهي سيرة متطوع الحرب قبل أن تبدأ. علاوة على ذلك، فقد كنت أعزل. في البداية تم توزيع القربينات فقط من أجل ممارسة التسديد النظامي والظليل. كانت صورة توزيع الأسلحة، القاتمة والغائمة كصورتي وروتيني في أيام خدمة العمل كما تبينت لي، جارحة بشكل مؤلم ونابضة بالحياة كثيراً، حتى في هذا الوقت.

يوماً بعد يوم كنا نجرب طقساً يقوده المجند المسؤول عن الأسلحة، وهو رجل كان يبدو جدياً في المبدأ، إذ كان يرميها ونقوم بالتقاطها. جربنا الرجل تلو الآخر ما يعني أن تكون مسلحاً. من نافلة القول إن كل عنصر من خدمة العمل شعر بأن يتشرف بلمس الخشب والمعدن، أخمص القربينة وسبطانتها، بيديه.

وكنا نحن الفتيان في الحقيقة نضخم أنفسنا إلى رجال عندما كنا نقف في حالة تأهب مع بنادقنا على أجنابنا أو نقدمها أو نسير بها وهي على أكتافنا. قد تقولون إننا كنا نأخذ عبارة «بندقية الجندي هي عروس الجندي» حرفياً. كنا نعتبر أنفسنا مخطوبين، إن لم نكن متزوجين، للقربينة من عيار ثمانية وتسعين.

رغم أنني أتقصد استعمال كلمة «نحن» هنا، فقد كان ثمة انتشار لذاك الجمع المستخدم من قبل صف الضباط والجنود، الهين نوعا ما، وهو استثناء يمكنني أن أستحضر صورته بشكل أوضح من صورة رسام الجداريات الممتاز، وضربات فرشاته المواظبة وكل شيءٍ آخر ارتشح تحت سماوات مرج توخل المشمسة جزئياً والغائمة جزئياً.

كان هذا الاستثناء فتى طويلاً هزيلاً شديد الشقار وذا عينين زرقاوين، ويكشف بروفيله عن جمجمة متطاولة للغاية بحيث لا يمكن إيجاد أشباهه إلا في الدعايات التي تعلي من شأن العرق النوردي.

Twitter: @ketab_n

فالذقن والفم والأنف والجبهة ـ كان كل واحد منها رمزا للنقاء «العرقي» بضربة واحدة. كان سيغفريداً، بلدوراً، ومثل بلدور إله النور التيوتوني، كان يشع أسطع من النهار. كان خالياً من اللطخ: لا أثر لثؤلول على العنق أو على الصدغ. لم يكن يفأفئ أو يتأتئ عندما يؤمر بأن يقدم تقريراً. لم يكن بإمكان أحد أن يسبقه في جري المسافات الطويلة، ولا أحد يضاهي جرأته عند الوثب من فوق الخنادق العفنة أو رشاقته عند التسلق فوق جدار. كان بإمكانه أن يقوم بخمسين انحناءة للركبة دون أن يتعب. لقد ولد ليحطم الأرقام القياسية. لم يكن ثمة شيء، أو عيب، يلطخ الصورة. لكن ما جعله استثناء هو أنه ـ اسمه، أولاً وأخيراً، يراوغ ذاكرتي ـ كان متمردا.

رفض المشاركة في التدريب على البندقية؛ الأسوأ من ذلك أنه رفض أن يمسك الأخمص أو السبطانة بيده، والأسوأ من ذلك كله، أنه عندما رمى مدرب البنادق الجاد تماماً القربينة إليه فأوقعها. وهو ما جعله أو جعل أصابعه إجرامية.

هل كان ثمة جريمة أكبر من ترك بندقية، سلاح، خطيبة الجندي تقع على تراب أرض الاستعراض بلا مبالاة، فما بالك لو كان ذلك بشكل متعمد؟

لقد فعل بالرفش، وهو أداة أساسية لكل شخص في خدمة العمل، كل ما أمر بأن يفعله. عندما قدم النصل، ومض أمام بروفيله النوردي مثل الترس. كان التحديق فيه هو أن تتعبده، أن تجعله مثلك الأعلى. طالما كان الرايخ يمتلك سينمات لعرض نشرات الأخبار المصورة، ستكون الشاشة قد تشرفت بمحياه السماوي.

سيكون أيضاً قد نال أعلى العلامات في الصداقة الحميمة. فعندما كانت تأتي كعكة بندق من البيت، كان يتقاسمها عن طيب خاطر. كان

Twitter: @ketab_n

النمط البهيج الودود، المستعد دوماً للمساعدة، لفعل أي شيء يطلب منه، ولم يكن يشكو أبداً. كان، عند الطلب، يضفي على أحذية الرفاق مثل هذه اللمعة النظامية بحيث ستكون مصدر بهجة للعيون الحساسة، حتى لعيون الـ NCO الأكثر صرامة أثناء التفقد. لم يكن لديه أية مشكلة مع الفراشي أو الخرق المغبرة، بل كان السلاح الناري فقط هو ما رفض أن يستخدمه، القربينة من عيار ثمانية وتسعين التي كنا نتدرب عليها لتسهيل دخولنا إلى الجيش.

لقد فرض عليهم كل صنف ممكن من العمل العقابي ـ كانوا صبورين ـ لكن شيئاً لم ينفع. فكان يعمل بشكل وجداني لساعات دون أدنى شكوى، يفرغ المرحاض بدلو يعج بالدود على عصا طويلة ـ وهي عقوبة تعرف باسم «نزح العسل» بلغة الجنود العامية ـ يملأ الدلو إلى الحافة من الحفرة التي تبرز فيها الرجال وينقله في عربة، ليظهر فقط، وقد استحم حديثا، في التدريب على البندقية بعد ذلك بوقت قصير ويرفض استخدام السلاح مرة أخرى. يمكنني أن أرى البندقية تسقط على الأرض كما لو بالحركة البطيئة.

في البداية سألناه أسئلة فقط وحاولنا أن نسوي ذلك بالحوار. لقد أحببنا الزميل فعلاً، أحببنا غريب الأطوار هذا، الغبي: «خذها! أمسكها فقط!».

تحول رده إلى كلمات قليلة شحيحة، سرعان ما تقوم بالتفافات على شكل مقتطف مهموس.

لكن عندما اعتادوا على معاقبتنا بسببه وتعذيبنا في الشمس الحامية، وحتى أصبنا بالانهيار، بدأنا كلنا نكرهه. أنا، أيضاً، أعملت غضبي ضده. كان مأمولاً منا أن نجعله يقضي وقتاً عصيباً، وهكذا فعلنا. لقد وضعنا تحت الضغط، وسنرد المعروف.

Twitter: @ketab_n

لقد ضربه في الثكنة نفس الفتيان الذين لمع أحذيتهم لتصبح كالمرآة. الكل ضد الواحد. من خلال الألواح التي تفصل الغرفة عن الأخرى استطعت أن أسمع أنينه وفرقعة القشاط الجلدي والعد بصوت عال. إنها مغروسة في ذاكرتي.

لكن لا الإنهاك بالسخرة ولا الجلدات ولا أي شيء آخر كان بمقدوره أن يرغمه على حمل الأسلحة. عندما بال بعض الفتيان على نقالته القشية لكي يوصموه بأنه متبول في الفراش، ابتلع إهانته وأطلق عبارته الشهيرة آنذاك في الفرصة التالية. لم يكن بالإمكان فعل شيء حول هذه الحالة غير المسبوقة. وصباح تلو الصباح، عندما كنا نتجمع من أجل التفقد ويبدأ مدرب الرمي بوقاره الثابت بتمرير الأسلحة، سيدع المتمرد السلاح المخصص له يسقط على الأرض مثل حبة البطاطا الساخنة التي يضرب بها المثل ويعود فوراً إلى وضعيته الصارمة، واليدان المسبلتان مضغوطتان إلى درزتي السروال والعينان مثبتتان على نقطة بعيدة.

لا يمكنني أن أحصي عدد المرات التي كرر فيها تعويذته، التي كانت قد وصلت في ذاك الوقت حتى إلى من كانوا في القيادة، لكنني أتذكر الأسئلة التي طرحها عليه من هم أعلى منه رتبة وصولاً إلى الضابط القائد، إذ سألوه ونحن كنا نغيظه بالسؤال: «لماذا تفعل ذلك، يا رجل خدمة العمل؟»، «ما الذي يجعلك تفعل ذلك، أيها الأبله؟» أصبح رده الثابت هو الشعار الذي لم يبارحني: «نحن لا نفعل ذلك».

تمسك بصيغة الجمع. بصوت لا هو مرتفع ولا هو خافت، مع أنه جهوري، صوت يصل بعيداً بشكل جيد، أعلن عما يرفض هو ورفيقه أن يفعلاه. كان الأمر كما لو أنه إذا لم يكن هناك جيش، فثمة على الأقل كتيبة ضخمة من المتمردين الخياليين المصفوفين خلفه مستعدين لترديد العبارة وراءه. أربع كلمات مدمجة في كلمة واحدة:

Twitter: @ketab_n

نحنلانفعلذلك.

عندما سئل عما يقصده، كرر «ذلك» النكرة ورفض أن يسمي الشيء الذي لن يأخذه في يديه باسمه.

لقد غيرنا سلوكه. من يوم إلى آخر كان ما بدا صلباً قد تفتت. كانت كراهيتنا ممزوجة أولاً بالانشداه، ثم بالإعجاب المعبر عنه بأسئلة مثل «كيف يمكن لذاك الأبله أن يبقيه؟» ما الذي يجعله عنيداً إلى هذا الحد؟ «كيف يحدث أنه لا يقول إنه مريض؟ كان شاحبا مثل شبح في الآونة الأخيرة».

تركناه يكون. لا مزيد من الجلدات على المؤخرة العارية. كان الأصعب مراسا بيننا - بعض الفتيان من ألزاس أو لورين الذين تكتلوا معاً في أثناء الإجازة، استمروا في لهجتهم العامية غير المفهومة، و كلما سنحت الفرصة، كما بعد مسير بالحمولة تحت المطر المدرار، أبلغوا عن كونهم مرضى في مساعيهم الغريبة إلى الألمانية العليا - يهمسون كلمات بالفرنسية، التي كانت محظورة، ربما كانت تعني «واحد من نوع...».

كان المتمرد يقف فوقنا، كما لو على قاعدة تمثال. الأهم من ذلك أن تمرد هذا الفرد كان يبدو لرؤسائنا أنه أثر على الانضباط العام. ففرضوا واجبات زائدة علينا، كما لو أن كل واحد في عامه يشارك في هذا الذنب. في النهاية قطع هذا الطقس الصباحي باعتقاله. «بردوه!» جاء الأمر. مع ذلك رغم أنه كان خارج نطاق رؤيتنا، فقد بقينا نحس بغيابه.

منذ ذاك الوقت فصاعداً، استقال الانضباط والنظام. فجلسات الرسم في الهواء الطلق سرعان ما انتهت - الفراشي مشطوفة نظيفة، الجداريات ناقصة، الطلاء المائي جاف. ولت أيامي اليسيرة إلى الأبد، لم أكن مخولا بشيء أكثر من التدريب على إصابة قلب الهدف، رمي

Twitter: @ketab_n

الرمانات اليدوية، الطعن بحربة ثابتة، والزحف عبر الحقول.

في كل مرة كان «المدان» يظهر في نقاشاتنا، كان شخص ما ـ هل كان مدرب الرمي أم أحدنا؟ ـ يقول، «لا بد أنه من شهود يهوه». أو أنه مولع بالكتاب المقدس. «لا شك في ذلك». لكن الفتى الأشقر ذا العينين الزرقاوين مع البروفيل النقي عرقياً لم يشر أبداً إلى الكتاب المقدس أو يهوه أو أي جبار آخر؛ كان قد قال ببساطة : «نحن لا نفعل ذلك».

ذات يوم خُلع درجه: الأشياء الخصوصية، بما فيها النشرات الدينية. ثم ولى ـ تم تسفيره، كما يقال.

لم نسأل إلى أين. لم أسأل. لكننا جميعاً كنا نعرف. فهو لم يسرح بوصفه غير لائق للخدمة بشكل مبرهن؛ لا، همسنا «لقد نضج منذ زمن طويل لأجل معسكر الاعتقال». كان الآخرون يعرفون: إنها طائفة لا تفعل ذلك. هذا هو السبب في أنهم محظورون، شهود يهوه».

هذا ما قلناه، رغم أن لا أحد كان يعرف بالضبط لماذا كانوا محظورين، ما الذي شهدوه، أو ما الذي فعلوه عندما لم يكونوا يشهدون. مع ذلك، اتفق الجميع على أن مثل هذا المتمرد العنيد لا يمكن أن ينتهي إلا في مكان واحد فقط: شتوتهوف. وبما أننا كنا نعلم بالمعسكر فقط عن طريق الأقاويل، فقد فكرنا أنن (نحن لا نفعل ذلك)، وهو ما كنا نطلق عليه سراً، هو بين أياد خيرة. «سوف يدقون في ذاك النحن لا نفعل شيئاً العجوز إسفينا أو اثنين».

«هل كان ذلك كله بسيطاً كهذا؟

ألم يذرف أحد دمعة؟

هل سار كل شيء على المنوال نفسه؟

ما الذي يمكن أن يكون قد مر عبر رأسي أو خلافاً لذلك أزعجني عندما نقل إلى الحجر الصحي كما لو كان يحمل مرضاً ولذلك أبعد عن

Twitter: @ketab_n

الأنظار، من جهة أولى، مع أنه كان مفتقداً بشكل ملموس بحيث أنه في حفرة مرئية على الجانب بدا أنه يتابع التدريب، والحراسة والزحف عبر الحقول وأكل حساء البطاطا على طاولتنا الطويلة، يجثو في المرحاض، يلمع الأحذية، ينام ويحلم مبللة أو يمد يد المساعدة ويستقبل بداية الصيف. جاء الصيف، كان جافاً، حاراً وعاصفاً. استقر غبار الرمل في كل مكان، مغطياً الكثير، بما في ذلك الأفكار التي كان من الممكن أن تكون قد أزعجتني.

لكنني إذ كنت أضع جانبا كل الحبكات الثانوية وأمضي مباشرة إلى الهدف، يجب أن أقول، إن لم أكن سعيداً فقد كنت منفرجاً على الأقل عندما اختفى الفتى هدأت عاصفة الشكوك في كل ما كنت مؤمناً به إيماناً لا يتزعزع، والسكينة الناتجة في رأسي منعت أية فكرة أخرى من الطيران: الغباء قد ملأ الفضاء. كنت مسروراً من نفسي ومشبعاً. إن صورة ذاتية من تلك الفترة كانت ستظهرني حسن التغذية.

لكن فيما بعد، بعد ذلك بوقت طويل، عندما كنت أرسم بطل رواية ***القط والفأر*** الصغيرة، يوآخيم مالكه، وهو شخصية عجيبة، شاذة ـ فتى مذبح يتيم الأب، طالب، معلم غوص، حائز على وسام صليب الفارس، آبق ـ استعملت المتمرد الذي كنا نسميه نحنلانفعلذلك كنموذج. حتى رغم أن مالكه كان عليه أن يخوض معركة بتفاحة آدم متضخمة، فقد كان يبدو أنه لا تشوبه شائبة عندما أوقع سلاحه ببطه بشكل متعمد مرة تلو الأخرى، الأفضل أن نغرسه في ذاكرتنا.

عندما أعلنت نشرة القيادة العليا لفيرماخت، التي كانت تثبت بالمسامير يومياً على لوحة الإعلانات، عن إنزال القوات البريطانية والأميركية على الساحل الأطلسي، مغنية بذلك معرفتي بالجغرافية مرة أخرى (كان الألزاسيون واللورينيون وحدهم من بيننا الذين يمكنهم أن

Twitter: @ketab_n

يبلعوا ألسنتهم حول أسماء المدن والقرى النورمندية والبريتونية)، أزاحت المعركة السور الأطلسي إلى الخلف كل ما سبقها ـ بما في ذلك النموذج من أجل تكاثر العرق النوردي، والشوكة في خاصرتنا.

كان الحذر الزائد هو أمر اليوم. استنفر المعسكر مرتين بإنذار من مناصرين، لكن لم يتبعه إطلاق للنار ـ أو أي شيء آخر. كان مجمع براكاتنا محروساً بشكل مستمر بحارس أو اثنين.

عندما كنت أقوم بالمهمة بنفسي، كنت أهدئ مخاوفي بترك أفكاري تجول. لقد اكتسبت الكثير من التجربة. التاريخ سيفسح الطريق مباشرة للحكايات الأسطورية: الآلهة البروسية القديمة مثل بركون وبيكول وبوتريمب، الأميرة البوميرانية مستفينا؛ الأمير سفانتوبولك؛ وبالعودة إلى الوراء أبعد، الغوطيين الجوالين من فم الفيستولا إلى البحر الأسود. الفيالق التي تسكن أحلام يقظتي ـ كلها مسلحة على طريقة أزمنتها ـ ساعدتني على السيطرة على خوفي من الأنصار في وضع يضطرني للدفاع عن نفسي.

كانت إحدى واجباتنا هي تحصين المعسكر: حفرنا الخنادق، أقمنا الحواجز السلكية الملغمة. كان علينا أن ننصب منظومة إنذار معقدة، رغم أن لا شيء منذر قد حدث أبداً باستثناء ذات يوم أحد أمرنا بالخروج إلى أرض العرض بكامل قوتنا، كل المائتين وخمسين منا، وليس باللباس الرمادي الفاتح للجنود بل بلباسنا البني البرازي زائد لباس الرأس بشعرنا المقصوص قصيراً جداً.

في منتصف الساحة، المجاورة تماماً لسارية العلم، كان قائد خدمة عمل الرايخ، الذي وصل من مكان مجهول مع حاشية محبوكة بإحكام، يفرد إعلانات مقصقصة حول العار والخيانة الجبانة، أي حول المؤامرة الخسيسة والماكرة الفاشلة، الحمد لله ـ من طرف زمرة من الضباط

Twitter: @ketab_n

الكريمي المحتد، لاغتيال قائدنا المحبوب [الفوهرر]، وحول الانتقام عديم الرحمة، «إبادة هذه الزمرة الشريرة». والمزيد ثم المزيد حول الفوهرر، الذي نجا ـ «كان ذلك معجزة حقاً».

بجمل أطول دوماً تم الاحتفال بإنقاذه من قبل القدر، وأمرنا بان نجدد قسمنا بالنيابة عنه. في ساعة الضرورة هذه، منذ الآن فصاعداً، من هذه اللحظة فصاعداً، كان ذلك واجبنا، نعم. هنا وفي كل أنحاء الرايخ الألماني، في ساعة الضرورة هذه، كان واجب الشباب ـ أكثر من أي شخص آخر ـ الذي يمثل الحركة التي تحمل اسمه هو أن يقف بلا انحراف إلى جانبه حتى النصر النهائي.

سرت فينا رعشة. شيء ما قريب من التقوى جعل العرق ينضح من مسامنا. لقد أنقذ الفوهر! كانت السماء مرة أخرى، أو لا تزال، إلى جانبنا.

أنشدنا نشيدنا الوطني. هتفنا: زيغ هايل! Sieg Heil ثلاث مرات. كنا غاضبين، كنا ساخطين على الخونة الذين لازالوا مجهولي الأسماء.

رغم أنني لم أقابل أبداً أي شخص في المدرسة ـ ناهيك عن بقالية أمي ـ يمكن أن يسمى كريم المحتد، فقد حاولت أن أنمي الكراهية الضرورية للدماء الزرقاء الحسنة الصيت. لكنني في الحقيقة كنت ممزقاً. فمنذ عهد شروداتي العقلية إلى الزوايا المظلمة ـ والزوايا المضاءة ـ للتاريخ الألماني كنت قد احتفظت بإعجابي بسلالة هوهنشتاوفن من الأباطرة. كنت سأسعد أكثر مما ينبغي فقط بالخدمة كمرافق لفريدريك الثاني في باليرمو في القرن الثالث عشر. وعندما وصل الأمر إلى حروب الفلاحين بعد ذلك بقرون، لم أكن واحداً من معجبي توماس مونتسر فحسب، بل وقفت أيضاً مع قادة العصيان المسلح من الطبقة العليا، رجال ذوي أسماء نبيلة مثل غوتس فون سيكينغن و غيورغ فون فروندسبرغ وغوتس

Twitter: @ketab_n

فون برليشنغن. كان اولريش فون هوتن معبودي، وكان البابا وأفراد إكليروسه هم أعدائي. عندما عرفت في حينه أسماء المتآمرين والرجل الذي ضغط على الزناد ـ أسماء مثل فيتسلبن و فون شتاوفنبرغ، وجدت صعوبة في إعادة تأكيد الكراهية التي كنت قد أقسمت عليها ضد «عصابة الأرستوقراطيين الجبانة» بوصفهم أعشاباً ضارة يجب اقتلاعها من مجتمعنا.

الفوضى التي كانت تحتدم تحت شعرنا المحلوق قصيراً! الصورة التي كانت صافية مثل البلور في ذهن رجل خدمة العمل ذي الستة عشر عاماً حتى ذاك الوقت تصير مغبشة حول الحواف. ليس معنى ذلك أنها أصبحت غريبة، لا. لكن يبدو أن ذاتي المرتدية بزة نظامية تنسل مبتعدة. فقد تخلت حتى عن ظلها وأرادت أن تنتمي إلى من هم أقل إجرامية.

كان ثمة الكثير من الأشخاص كهذا فيما بعد، أشخاص «كانوا يطيعون الأوامر». أولاً كانوا يطلقون عبارة «لا أرض أكثر جمالا في هذه الأزمنة الجميلة ...» ثم يعددون الظروف الملطفة التي أعمتهم وضللتهم، يتظاهرون بالجهل ويصادق كل منهم على كلام الآخر. لا يهم كيف يخترعون أعذارهم وحجج براءة الأطفال حديثي الولادة، فهذه كلها نوادر شديدة البلاغة وقصص مصالح بشرية، منقوشة بكثافة على قشور البصل، والمقصود بها في الواقع أن تحرف الانتباه عن شيء يقصد به أن يُنسى، شيء يرفض مع ذلك أن يتوارى.

أتلمس الكهرمان الشفاف على الرف فوق مقعدي لأتفحص المدى الذي يقاوم إليه إيماني بالفوهرر التصدعات الظاهرة في سطحه، الهمسات المتزايدة، والتقهقر من فرنسا أيضاً، آنذاك.

لكن لم يكن من الصعب الاحتفاظ بالإيمان بالفوهرر ـ كان

Twitter: @ketab_n

مسرحية أطفال، في الحقيقة: كان قد بقي آمناً وسليماً وكان ما كان يزعم هو أنه، نظرته ثابتة جاهزة لمقابلة كل عين، بلباسه الرمادي الميداني الخالي من الأوسمة اللماعة. كان يصور في كل مكان مع صليبه الحديدي فقط من الحرب العظمى، مهيباً في بساطته. كان الصوت كأنه يأتي من عل. كان منيعاً على المهاجمة. ألم يكن يتمتع بحماية شيء خارج نطاق الفهم، حماية العناية الإلهية؟

كان الشيء الوحيد الذي يعتمل هو الذكرى الدائمة لذاك الفتى الأشقر، الأزرق العينين، الذي لم يمل أبداً من قول«نحنلانفعلذلك». منذ الوقت الذي ذهب فيه، كان مفتقدا بشكل مؤلم. مع ذلك، لم يصبح نموذجا لدور.

طُردنا على الفور بعد محاولة الاغتيال. سلمنا ونحن ببذلاتنا المصنوعة من قماش الدراب، والرفوش التي قدمناها لماعة كالمرايا في التفقد الرسمي الأخير، بعد ذلك سمعنا أنفسنا ننشد نشيد خدمة العمل: «أسمر كالتراب لباسنا....».

لدى عودتي باللباس المدني، كنت خجلاً من ركبتي العاريتين وجواربي الركبية المتهدلة إلى الأبد: كنت خارج كل ذلك الآن، لم أعد تلميذ مدرسة. عدت في لانغفور الصيفي. كان الوالدان اللذان ينتظران القادم إلى البيت هما الوالدان القديمان ذاتهما لكنهما وجدا ابنهما، على حد تعبيرهما، «مختلفاً نوعاً ما».

كانت الشقة المؤلفة من غرفتين التي كنت أمقتها للغاية تثقل علي بشكل أكثر وطأة، مع أن الأشياء كانت أهدأ بكثير داخل فنائها المغلف بورق الجدران، شبه هادئة أكثر مما ينبغي. كانت داداو قد مضت ومعها الضحكة والأذى المتعمد اللذان كانت تثيرهما بأنتيكات مائدة الغداء ونطيطها المتعمد جيئة وذهابا بين غرفة المعيشة وغرفة النوم. لم

Twitter: @ketab_n

تكن ثمة أخت صغيرة تريد اللعب دوماً ـ كانت تريـد أن تلعـب فقـط ـ وتظل تغلق كتابي. كان كل ما تبقى منها هو دماها وحيواناتها المحنطة تحت عتبة النافذة اليسرى.

تم، بقرار رسمي، إجلاء كافة تلاميذ المدارس إلى الريف لإنقـاذهم من هجمات قاذفات القنابل المعادية. كـان معلمـوهم قـد ذهبـوا معهـم، واستمرت الدروس في ملجئهم قرب قرية هايسترنست، على شبه جزيرة هيلا. كتبت أختي لنا بطاقات بريدية مليئة بالحنين إلى الوطن.

كان والداي يدللاني ـ الوالد يدللني بالمشاوي المحمضـة، والوالـدة بالطريقة التي كانت تبتسم بها كلما انطلقت في إعادة صـياغة لعبـارات من غوته: سنذهب جنوباً إلى حيث ينمو الليمون. لكن الابن كان متعبـاً من كونه صبي الماما، حتى عندما عاشت الأم في فزع من ساعي البريد. «ربما سينتهي ذلك بشكل ما قبل ذلك».

استغرق الأمر أقل من شهرين لكي تصل رسالة التجنيد، وهي فـترة فاصلة من الانتظار الكسول لا يمكنني أن أستذكر منها سوى نتـف مـن الذكريات بلا أي ترتيب خاص. كان ذلك مثل نكسـة: كمـا خشـيت، بعد خدمة العمل، عاودت الانزلاق إلى نمط تلميذ مدرسة في العطلة، وإن يكن بدون الشاطئ، بدون العناق والتلمس في الكثبان خلف أدغال الورد.

في كل مكان كنت أذهب إليه، كنت أرى خزانات من أدراج الصور الفوتوغرافية ذات الحواف الموشحة بالسواد، أشخاصاً ملتحين يتحدثون بأصوات مكبوتة حول رجال ـ ابن، أخوة ـ متورطين في الجريمة.

بدت البلدة القديمة رثة، كما لو أنها لم تنذر بالخراب التدريجي إن لم يكن المفاجئ. فأنظمة إطفاء الأنـوار جعلـت الشـوارع في الليـل تبـدو مخيفة لسكانها. كانت الملصقات تعلـن أن للجـدران آذان وأن لصـوص الفحم يطوفون خلسة أينما استدرت. كانت واجهات المحـلات تعـرض

Twitter: @ketab_n

بضائع لا يريدها أحد. كانت أمي تعرض بديلا من الكريما المخفوقة يدعى سيكوزان على طاولة البيع لكن من هو خارج [الجراية] الحصة الغذائية المخصصة.

أمام المحطة المركزية، على جسر موتلاو وجزيرة شبايشر، عند المدخل المؤدي إلى حوض شيشاو لصناعة السفن وعلى امتداد الهندنبورغاله كان البوليس العسكري ودوريات شبيبة هتلر يتوقفون ويدققون في بطاقات هويات المدنيين وإجازات الجنود والعدد المتزايد من الفتيات اللواتي تركن أنفسهن هدفاً للمغازلة من قبل الجنود بالإضافة إلى الضباط. كان ثمة حديث عن هاربين من الجندية وعن عصابة من الشبان الذين اقتحموا مكتب إمدادات الأغذية أو أضرموا النار في منطقة المرفأ، وعن متآمرين يتجمعون في كنيسة كاثوليكية... في نهاية المطاف، أخيراً عندما وجدت الكلمات بإمرتي، كرست بضعة فصول لريف ـ راف «riff –raff» الذي نسبت إليه كل هذه النشاطات غير القابلة للتصديق.

في رواية *طبل الصفيح*، أحد زعماء التمرد يدعى شتورتبكر. ينجو من الحرب ويتحول بشكل منطقي في فترة ما بعد الحرب إلى مدرس مناهض للحرب، باسم شتاروش، وهو نمط معدل بشكل فائق يكون في رواية أخرى بعنوان ***مخدر موضعي*** خائفاً بشكل مرضي من الألم ويقيم كل شيء بمعيار «من ناحية أولى..... ومن ناحية أخرى».

كان كل ما كنت أفعله هو أن أصغي. عندما كنت أزور زملاء المدرسة الذين كانوا ينتظرون رسائل التجنيد، سواء كانوا قد تطوعوا أم لا، كنوع من الانعتاق، كنت أسمع شائعات عن زملاء دراسة آخرين اختفوا فجأة، «ذهبوا تحت الأرض»، على حد تعبيره. أحد هؤلاء، الذي كان أبوه مفتش شرطة رفيع المستوى في راينلاند، أخبرنا عن عصابة من

Twitter: @ketab_n

الشبان تعرف بقراصنة إدلفايس الذين كانوا يقومون بتصفية الناس في كولونيا المقصوفة بالقنابل.

كنت أذهب إلى السينما بدافع العادة أكثر مما بدافع الاهتمام. وفيما كنت أتفرج على فيلم *Romance in a Minor Key* في قصر لانغاسه توبيس، لم يكن بمقدوري أن أتجنب مقارنة ماريانه هوبه بالحسناوات على بطاقات صور السجائر في الأعوام الماضية: كانت نساء عصر النهضة يمتلكن شيئاً من بروفيلها المميز.

كنت أيضاً أقتل الوقت في الشوارع الخلفية للبلدة القديمة وفي غابة يشكنتال، أجمع بشكل لا واعٍ التفاصيل التي تحولت في نهاية المطاف إلى مصدر دائم لمادة الكتابة. لا أزال قادراً على تصور نفسي جالساً في مقصورات الكنائس الغوطية، من كنيسة الثالوث إلى كنيسة القديس يوحنا، أطبع في ذهني كل قوس أو كتف آجري.

كانت لي أيضاً أمكنة المطالعة الخاصة بي. فالسقيفة كانت لا تزال مكاني المفضل، رغم أنها، بدون الكنبة الرثة والفوضى في منطقة تخزينها المضلعة، الكنبة التي أزيلت لأنها ستكون مادة سريعة الاشتعال في حالة القصف بالنار، كانت آنذاك مجرد فضاء تحت بلاطات السقف غير المتأذية، مكنوسة بشكل نظيف استباقاً للأشياء القادمة. للسبب نفسه، كان ثمة صف من دلاء الماء تقف إلى جانب عدد قليل من المطافئ وبرميل من الرمل.

لكن ما الذي كنت أقرأه تحت المنور؟ ربما رواية *صورة دوريان غراي*، بطبعة مغلفة بالجلد، ذات صفحات مطوية الزوايا، أحد كنوز أمي. كانت القوائم الوفيرة بخطايا أوسكار وايلد التي تبز بعضها بعضاً تمدني بمرآة مناسبة.

كان الأكثر احتمالاً في ذاك الوقت هو أنني استعرت كتاب *ليوناردو*

Twitter: @ketab_n

دافنشي من تأليف ميريجكوفسكي من شخص ما والتهمته في السقيفة. كنت أجلس على دلو إطفاء حرائق مقلوب وأقرأ أكثر من قدرتي على التمثل. فقد كنت منجذباً بشكل خاص إلى الأبطال الذين يخرجونني من ذاتي ويدخلونني إلى عوالم أخرى: يورغ ييناتش، أوغوست ڤلتومسغلر؛ وهاينريش الأخضر، ديفيد كوبرفيلد، أو الفرسان الثلاثة ـ وكل الثلاثة في وقت واحد.

لا يمكنني القول بشكل أكيد متى التقطت رواية *كل شيء هادئ على الجبهة الغربية* من رف كتب خالي. هل إن ذلك لم يحصل إلى أن كنت في انتظار أن أُستدعى [إلى الخدمة] أم أنني قرأت في الوقت نفسه رواية *عاصفة الفولاذ* من تأليف يونغر، وهي مفكرة حرب كان أستاذ اللغة الألمانية في مدرسة القديس بطرس قد أوصى بها بوصفها إعداداً جيدا لأجل الجبهة؟

امتدح المدرس، وهو متطوع معوق الرجلين من الحرب العالمية الأولى كان اسمه ليتشڤاغر، الخاصية «الملونة بشكل خيالي والحيوية» لمواضيع الإنشاء [التي أكتبها] وحتى «لعبها بالكلمات الجريء بشكل استثنائي». مع أنه تحسر على «افتقارها الكلي إلى الرزانة» ـ الرزانة، برأيه، تستدعيها «المحاكمات المشؤومة التي تخضع لها أرض الآباء».

سواء كان ذلك بوصفي تلميذ مدرسة أم رجل خدمة مسرّح حديثاً، فقد وجدت رواية *كل شيء هادئ على الجبهة الغربية* لإريش ماريا ريمارك في خزانة كتب خالي الأصغر. بصفته الرجل المسؤول عن نقل مكونات البراكة ـ الجدران، النوافذ، الأبواب ـ فقد أفرغها المتدربون الخمسة الذين أبقوا منشار جدي في حالة تشغيل بلا توقف. كان العم فريدل معفى من الخدمة العسكرية. لقد أمضى كثيراً من الوقت في الميناء أو في حوض السفن لأن المطلوب كان تجميع المزيد والمزيد من براكات

Twitter: @ketab_n

الطوارئ لأجل العمال الشرقيين، العمال المجلوبين من الأراضي المحتلة في الشرق، وإحاطتها بسياجات من الأسلاك الشائكة.

أعتقد أن عمي لم تكن لديه أية فكرة عن أن رواية ريمارك، قصة الموت المحزن لشاب مجند صغير السن في الحرب العالمية الأولى، كانت على القائمة؛ أما أنا فلم تكن لدي أية فكرة. إلى هذا اليوم لا يزال معي الأثر المؤجل لتجربة القراءة المبكرة. الطريقة التي يبقى فيها زوج من الأحذية يبدل المالكين الذين يسلمون الروح واحداً تلو الآخر....

مرة تلو الأخرى، يذكرني المؤلف والكتاب بكم كان فهمي ضئيلاً عندما كنت شاباً وكم يمكن أن يكون أثر الأدب محدوداً. فكرة مصحية.

عندما كنت في تيكينو مع زوجتي الأولى، آنا، وأولادنا الأربعة في منتصف الستينات ـ كنت وابنتي على المرصد نراقب الغزال الجبلي على طول المنحدرات المكسوة بالغابات لأنها ستلحس الملح عن أيدينا ـ انتهزت الفرصة لأقوم بزيارة ريمارك، زيارة رتبتها ناشرتي الأميركية هيلين وولف، في فيللته المتخمة بالعاديات في شارع لاغو ماغيور. حكيت له عن الحمامات الساخنة والباردة لمطالعاتي: فتنني تمجيد يونغر للحرب بوصفها مغامرة واختباراً للرجولة، واقتناعه بأن الحرب تصنع من كل جندي قاتلاً قد جعل دمي يتبرد.

ضحك الجنتلمان المسن برقة في نفسه، وبإنكليزية ذات لكنة بروسية انتقل من تجربة قراءتي الفتية إلى حبه المتأخر في الحياة، نجمة السينما لمرة واحدة بوليت غودارد، التي كانت الزوجة الثالثة لتشارلي شابلن. ثم أخرج قليلاً من عادياته، من بينها أصص صينية وروسمات خشبية من المادونا. لا، لم نتناول مشروب الغرابا معاً.

لكن بعد ذلك بوقت طويل، عندما كنت أكتب القصص لأجل كتابي الذي يحمل عنوان **مئويتي**، كنت مدفوعاً إلى إدخال تناقضات ريمارك

Twitter: @ketab_n

في اللعب. عندما وصلت إلى الحرب العالمية الأولى، أجلست الفارسين إلى طاولة في فندق زوريخ شتورشن وافتعلت سجالاً بينهما جاعلاً مؤرخة سويسرية شابة ـ كانت صادقة مع نوعها، تظاهرت بالحيادية ـ هي الحكم بينهما. مثل خبيري خمور كانا لطيفين أحدهما مع الآخر، لكنهما بقيا منقسمين بفظاظة عندما وصل الأمر إلى معنى حرب الخنادق المميتة: حربهما لم تكن قد انتهت؛ لم يكن بالإمكان مصالحتهما؛ شيء ما كان قد ترك دون أن يقال.

لكنني، أيضاً، وأنا أطل على الطبق الفضي للاغو ماغيوره، كنت قد أهملت قول الاعتراف بأن تلميذ المدرسة ابن الخمسة عشر عاماً كان قد تطوع من أجل فرق الغواصات أو كتيبة المدرعات رغم كوني قرأت كتابه، الذي يعدد أكثر من تشكيلة كافية من أنواع الموت الذي تسببه الحرب. عندئذ، مرة أخرى، كان اللاجئ، الضجر من شهرته فوق الطبيعية، أقل من القادم في الرواية الشهيرة التي بزت كل ما كتبه منذئذ.

هناك، على مائدة العشاء، كانت رسالة التجنيد، مخيفة الأب والأم. هل مضت الأم إلى البيانو وعزفت شيئاً من مجموعة الأغاني الشعبية *حديقة الورد*؟ وعندئذ فقط انفجرت بالبكاء.

لا، علينا أن نلتف قليلاً. قبل أيام قليلة من الصدمة التي أصابت والدي بفعل الورقة ذات الختم الرسمي، ركبنا القطار إلى بوتسيغ عن طريق تسوبوت وغوتنهافن لزيارة أختي المهجرة. ثم أخذنا جميعاً حافلة إلى هايسترنست. كان يوماً آبياً معتدلاً.

إن كون بيت الأولاد قرب البحر تؤكده صورة احتفظت بها أمي في ألبوم صور العائلة الذي نجا من الحرب والمنفى: الأخ والأخت يجلسان جنبا إلى جنب على الرمل الساطع الذي كان يغطي طول شاطئ شبه

Twitter: @ketab_n

جزيرة هيلا وعرضه. قبل الاستحمام في بحر البلطيق أو بعده بوقت قصير وضعت يدي اليمنى الأخوية حولها. الشقيقان اللذان يكادان لا يعرفان شيئاً أحدهما عن الآخر. ولن يكونا قريبين من بعضهما البعض مرة أخرى لفترة طويلة.

تبدو أختي مليحة، وهي التي كنت أدعوها داداو مذ كنا صغاراً. إنها تضحك. أخوها، الذي لا يزال صبيانياً نوعاً ما، مع أنه ذو مقاييس رجالية، يبذل أقصى جهده لكي ينظر بشكل جدي في عدسة الكاميرا الصندوقية.

استفاد الأب من طقس أواخر الصيف الجميل، فخرجت الصورة جميلة جدا. إنها آخر صورة تلتقط قبل أن أغادر. وما كان مكبوتاً لزمن طويل هو الآن واقع. إنه يقع بالأبيض والأسود على الطاولة، موقعاً، مؤرخاً، ومختوماً: رسالة التجنيد. لكن ما الذي تقوله نشرة مطبوعة كبيرة وصغيرة؟

لاشيء يساعد: ترويسة الرسالة مبهمة: رتبة الرجل خلف التوقيع غير واضحة، كما لو أنه قد خفضت رتبته ex post facto. الذاكرة، التي تكون في العادة ثرثارة مستعدة كثيراً لقص حكاياتها فقط، ترسم فراغا أبيض. أم هل أنا مرتبك، غير راغب في فك شيفرة الرسالة التي تحتويها قشرة البصلة؟

تقفز التبرئات إلى الذهن. رسالة التجنيد وتبعاتها، التي تم التفكير فيها ملياً، كلها، تحولت أولا إلى كلمات ومن ثم إلى كتاب، إلى مقطوعة موسيقية من سبعمائة صفحة. *أعوام الكلب*. كل شيء حول كيف يبدأ هذا الرجل المدعو هاري ليبيناو مفكرة في اليوم الذي يدخل فيه إلى الجيش ويكتب رسائل إلى ابنة عمه تولا من معسكر التدريب في فالينغبوستل، محملة بالمقتطفات من الشاعر القومي لوينز، وكيف أنه

Twitter: @ketab_n

فيما بعد، بغض النظر عن أين يأخذ أوامر سفره ـ من مرج لونهبورغ طوال الطريق إلى الجبهة الشرقية المتقهقرة ـ يحاول ويفشل، أن يجد قافية لأجل تولا في الرسائل. «لم أر روسيا بعد. في بعض الأحيان أتوقف عن التفكير بتولا. مطبخنا الميداني ولى. أظل أقرأ الشيء نفسه. الشوارع تغص باللاجئين. لا يؤمنون بأي شيء الآن. لوينز وهايدغر مخطئان في كثير من الأشياء. في بونتسلاو رأيت خمسة جنود وضابطين يتدلون من خمس شجرات. هذا الصباح قصفنا بالقنابل منطقة مكسوة بالغابات. لم يكن بمقدوري أن أكتب لمدة يومين لأننا التحمنا مع العدو. توفي رجال كثيرون. بعد الحرب سأكتب كتاباً.....».

فيما يتعلق بي، أنا الجاثم بسروال يصل إلى الركبتين على المقعد الخشبي في مقصورة قطار من الدرجة الثالثة في شهر أيلول من عام 1944، لم يكن لدي رواية مستقبلية، لا صفحات محشوة بالأحداث في الذهن، رغم أنني لم أكن أنوي ملء المفكرة بتجاربي المجمعة.

خرج القطار من محطة دانتسيغ المركزية، مخلفاً لانغفور وراءه، وتوجه نحو برلين. كنت قد رفعت حقيبة الملابس الكرتونية، المشتراة خصيصاً لأجل المناسبة إلى داخل الشبك فوق مقعدي. كانت أفكاري مشوشة، حتى أكثر (لخبطة) من المعتاد. لا يمكنني أن أنتقي واحدة منها لأستشهد بها، ولا حتى لأتمتمها أو لأتلعثم بها. الشيء الوحيد الذي أسمعه هو فرقعة رسالة التجنيد في الجيب الصدري لسترتي الضيقة.

رفضت الوالدة مرافقة الابن إلى المحطة. كانت أصغر مني، وعندما عانقتني في غرفةِ المعيشة بدا أنها تذرف الدموع بين البيانو وساعة الحائط العائدة للجد. «كل ما أطلبه هو أن تعود بسلام....».

عندما قال هاري ليبينا وداعاً لابنة عمه تولا بوكريفكه، كانت

Twitter: @ketab_n

ترتدي القلنسوة الأنيقة لمساعد قائد الترام. «انتبه لئلا يُبتر أنفك بطلقة!».

رافقني الوالد. لم يتفوه أحدنا بكلمة للآخر على الترام. عندئذ كان عليه أن يشتري بطاقة منصة. كانت قبعته المخملية تمنحه منظراً برجوازياً أنيقاً: رجلاً في منتصف الأربعينات نجح في البقاء مدنياً والبقاء حياً.

ألح على أن يحمل حقيبة ملابسي الكرتونية. الرجل الذي تخلصت منه في اللحظة التي بدأت فيها بالنمو، الرجل الذي كنت ألومه لأجل الشقة الضيقة المكونة من غرفتين والتواليت المخصص لأربع عائلات، الرجل الذي أردت قتله بخنجر شبيبة هتلر وطعنته مرات كثيرة في خواطري، الرجل الذي حوله شخص ما فيما بعد إلى شخصية حولت المشاعر إلى حساءات، الرجل الذي لم أقترب منه، رغم كونه والدي، إلا عندما تشاجرنا، هذا الرجل المفعم بالحيوية، المستهتر، السهل الإغراء المهووس بالمزاج الجيد و، على حد تعبيره، «بخط اليد الأنيق، الظريف»، الذي أحبني على طريقته، الزوج الأبدي، الذي تسميه زوجته ڤيللي، هذا الرجل وقف إلى جانبي عندما اندفع القطار عبر سحابة من البخار.

لم أبك، لكنه بكى. عانقني فعانقته. ألح على ذلك. أم أنه صافح بطريقة رجولية فقط؟ هل كنا حكيمين وحتى مقترين بكلماتنا: «احذر، يابني»، «أراك، يا بابا؟» هل نزع قبعته عندما كرج القطار خارج المحطة؟ هل ملس شعره الأشقر؟

هل لوح وداعاً بقبعته؟ أم بمنديله؟ المنديل الذي سيرتديه على رأسه في نهارات الصيف الحار - مثير للسخرية! فكرت في نفسي - بعد ربط زواياه الأربع على شكل عقد. هل رددت له التلويحة من النافذة

Twitter: @ketab_n

المفتوحة وهو يصغر ويصغر؟

كل ما أتذكره بوضوح هو المدينة بأبراجها [الشامخة] في سماء الليل عن بعد. أظنني أيضاً سمعت أجراس كنيسة القديسة كاترين المجاورة. «كن على الدوام صادقا وصريحا حتى تأتي إلى القبر...».

من كل الكنائس في المدينة التي نهضت مرة أخرى من الدبش حجراً حجراً في سنوات ما بعد الحرب، كانت كنيسة القديس يوحنا قرب الموتلاو هي الأكثر جذباً لي في أثناء زياراتي إلى المدينة عندما صارت بشكل متزايد ـ وبالتصميم ـ تشبه المدينة التي ولدت فيها. رغم أن الكنيسة المبنية بالكامل من الآجر غير متأذية من الخارج، فإنها قد حرقت بشكل فادح ونهبت من الداخل. على مدى عقود خدمت الكنيسة فريق الترميم البولندي كمستودع للقطع غير المتأذية التي تنتظر إعادة دمجها.

عندما كنت أقوم بزيارة في آذار 1958، سألت رجلاً عجوزاً، كان أحد القلائل الذين يعرفون عن أنفسهم، باللهجة المحلية، بأنهم emmer noch deitsch، لا يزالون ألماناً، ما الذي يمكنه أن يخبرني به عن الكنيسة. علمت أنه عندما تعرضت المدينة لأول مرة للقصف بالقنابل ثم للقصف الشديد، وكانت كنيسة القديس يوحنا محاطة بكل شوارع البيوت المحترقة ـ هيكرغاسه ويوهانيسغاسه، نويناوغنغاسه وبيترسيلينغاسه ـ التجأ إلى الكنيسة مائة ونيف من الرجال والنساء. إن الذين لم يختنقوا أو يحترقوا حتى الموت قد أصابتهم الحجارة الساقطة، وشظايا القناطر والملاط ودفنوا أحياء. قال العجوز: «لكن لا أحد يريد أن يسمع حول ذاك النوع من الشيء في هذه الأيام».

أخذت قصة أخرى سمعتها، هذه المرة، بالبولندية، مساراً مختلفاً: لأن نساء كثيرات فررن إلى كنيسة القديس يوحنا، أضرم الروس النار

Twitter: @ketab_n

فيها. أيا كان من فعلها، لم يتبق منها سوى الحجارة المتفحمة.

فيما بعد استعمل الناس الكنيسة التي كانت متضررة لكنها لا تزال قائمة لتخزين ما التقطوه على امتداد المدينة ـ زخرفات الجملونات الحجرية، نتف وقطع من النقوش الضئيلة البروز، والدرابزينات من شرفات عصر النهضة على امتداد شوارع بروتبينكنغاسه وهايليغن غايستغاسه وفراونغاسه، ومن فتحات أبواب عصر الباروك المصنوعة من الغرانيت. ليس فقط ما ترك من الزخرفة الشجرية على واجهة الأرتوسهوف بل أي شيء تقدمه أكوام الدبش. كان أي شيء ذو أهمية يُعلم تعليماً دقيقاً ويُرقم ويخزن لأجل الاستعمال فيما بعد.

كلما انسللت داخل قاعة الكنيسة الغوطية ـ إذ أهملوا إقفال البوابة ـ كنت أجد عظاماً بشرية، كبيرة وصغيرة، بين التراب وأكوام الحجارة، ولم يكن بمقدوري سوى أن أتساءل عما إذا كانت من منشأ قروسطي متأخر أو كانت تذكرني بالرجال والنساء والأطفال الذين قيل إنهم ماتوا بلهيب كنيسة القديس يوحنا عندما أُحرقت البلدة وكنائسها كلها.

لا أحد كان يعلم علم اليقين. ربما كانت القبور تحت الألواح التذكارية المتصدعة تقدم بعضا منه على الأقل. إن العظام، من أي زمن كانت، تشبه بعضها بعضاً من النظرة الأولى. في كنيسة القديس يوحنا، حيث كان للبحارة وصناع البراميل مذابحهم الخاصة بهم، كان التجار الميسورون ومالكو السفن قد خلدوا إلى الراحة تحت ألواح الحجر الرملي والغرانيت حتى القرن الثامن عشر.

بغض النظر عمن كانت تعود إليهم العظام، فقد شكلت جزءاً مما كان محفوظا وبالتالي فقد كانت تحمل شهادة. يقال إن ذلك كان أحد الأسباب في أن فناء الكنائس المهجورة، بدءا من الخمسينات، كان

Twitter: @ketab_n

يستعمل كإطار مكاني لأجل الأفلام البولندية - فقد كان هذا الفناء والضوء الساقط عبر النوافذ المكسوة جزئيا بألواح الخشب، من المؤثرات التي جذبت المخرجين والمصورين المسرورين.

في إحدى زياراتي الأخيرة إلى دانتسيغ، وجدت كنيسة القديس يوحنا مختلفة. فلا حجارة ولا عظاماً، كبيرة أم صغيرة؛ الأرضية ملساء، النوافذ ملمعة، والبناء الآجري قد تم تجديده. كنت أقدم قراءة من روايتي *مسار السرطان*، وكان الجمهور يجلس على الكراسي المرتبة في صفوف تمتد على طول المسافة الواصلة إلى خلفية القاعة.

وفيما كنت أجرب الأجهزة الصوتية للكنيسة والسفينة المليئة بالشحنة البشرية كانت تغرق خطأً خطأً، بحث الجزء من ذهني الذي كان يفضل الرجوع إلى الوراء عن الفتى الذي ترك المدينة في وقت كانت فيه كل أبراجها وجملوناتها لاتزال سليمة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كيف تعلمت الخوف

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هل من الممكن أن تكون ذكرى سفري الأول في ذاك الاتجاه، في أثناء الرحلة إلى برلين، هي التي اختزلتني بهذا الشكل إلى طفل؟ هل كان ذلك في عام 1936، عام الألعاب الأولمبية، أم في عام لاحق؟

حين كنت لا أزال في المدرسة الابتدائية أُخذت على متن القطار إلى الراينلاند، على امتداد الطريق إلى الحدود الهولندية، من قبل منظمة تدعى **أطفال يزورون الريف**. ولأننا كنا نزور الريف في زمن الدولة الحرة، جربنا نحن الأطفال تنويعاً معاصراً من عرض **بنتش أند جودي**، فمررنا أولاً بجمارك الدولة الحرة، ثم بمجموعتين من الجمارك البولندية ذات اللباس الرسمي المختلف، وأخيراً في محطة شنايدهمول الحدودية، الجمارك الألمانية وطقم لباسها الرسمي الموحد. كان لضباط الجمارك طرق مختلفة في التحية: الألمان يحيون بيد مبسوطة، والبولنديون بإصبعين عند أعلى القبعة.

حدثت هذه الاستقصاءات بفواصل زمنية قصيرة. كنا نحن الأطفال نحمل أوراقنا التي تتدلى من أعناقنا بأغلفة شفافة، وهو ما جعلنا فخورين جداً.

تعلمت من فلاح كان يربي ماشية الألبان والخنازير، وكان ماتياس في مثل سني، كيف أقطع الهليون من مساكبه المزروعة، الممهدة بعناية بحيث أتجنب إيذاءه. لذا لابد أنه كان شهر أيار. كان اسم القرية هو

Twitter: @ketab_n

بربيل. كانت بربيل أكثر كاثوليكية من كنيسة القلب المقدس في لانغفور. دفعتني زوجة الفلاح إلى الذهاب مع ماتياس للاعتراف كل سبت. كنت لا أزال أؤمن بالجحيم وكنت أعرف الكثير من الخطايا.

لم يترك الطريق من المزرعة إلى مدرسة القرية أي أثر في ذاكرتي، ولا ترك غيره كثيراً منها. رغم أنني أرى ذباباً ملوناً لا حصر له على الجدران المبلطة بالبلاط الأبيض للمطبخ الفلاحي. فالذباب السمين كان بالإمكان التقاطه وإخضاعه لعملية تعلمتها من زميل دراسة لا يعرف حبه للحيوانات حدوداً. لصق خيوط ملونة على أجسامها. كان مشهداً فخماً أن أراقبها وهي تطير أو تحوم حول طاولة المطبخ وهي تجر خلفها أذيالاً حمراء أو زرقاء أو صفراء.

كنت أتنافس وماتياس على رؤية كم ذبابة يمكننا أن نلتقط عن الجدار بيد واحدة. «التقاط الذباب أفضل من حياة التبطل»، قالت جدة ماتياس، التي كانت تجلس طوال النهار في كرسيها المريح وهي تطقطق مسبحتها بأصابعها. في الخارج كانت الأرض تمتد منبسطة. على بعد ثلاثة أبراج كنسية كانت تقع هولندا.... .

لا يمكن سوى للكلبي أن يكون قد رأى سفرتي الثانية غرباً بوصفها أطفالاً يزورون الريف. عندما انطلق القطار أخيراً، بعد رحلة ليلية قطعتها التوقفات المتكررة، متأخراً إلى عاصمة الرايخ، كان يمضي بطيئاً للغاية بما يكفي لأن يدعو المسافرين إلى أن يدونوا كل شيء أو على الأقل أن يملأوا فجوات الذاكرة المحتملة استباقاً للزمن.

هاكم ما احتفظت به: كان ثمة بيوت، بيوت مؤلفة من شقة كاملة، تشتعل على جانبي الجسر، كان ثمة ألسنة لهب تخرج من نوافذ الطوابق العليا، وقبسات ضوء من الشوارع الضيقة المعتمة والساحات ذات الأشجار. كان الأشخاص الوحيدون الذين رأيتهم صوراً ظليلة

Twitter: @ketab_n

معزولة. لا حشود. اعتبرت النيران طبيعية آنذاك: كانت برلين في مخاض التفكك، والوضع يسوء نهاراً. كانت المدينة قد قصفت بالقنابل ويتردد صدى صفارة الإنذار الواضحة. هذا هو السبب في أن القطار كان يتحرك ببطء شديد، عارضاً ما كانت تبدو كجولة ارتياد شخصية.

حتى ذاك الوقت لم يكن مرتاد السينما قد رأى سوى ومضات قصيرة للخرائب، خدمت كوسائل إيضاح لأجل الرايات التي تحمل شعارات من قبيلٍ ***نحن لن نلغى*** أو ***جدراننا قد تتهدم، أما قلوبنا فلن تتهدم أبداً***، وما شابه.

كان غوبلز، وزير دعاية الرايخ، قد ظهر مؤخراً على شاشة قصر توبيز، يسلي نفسه بمهارة، وهو يبهج الرجال والنساء، الذين كانت بيوتهم تقع حولهم في الخراب، يصافح يد آمر السجن ويربت على رؤوس الأطفال المكشرين بشكل أخرق.

قبل أيام قليلة من وضع رسالة التجنيد على طاولتنا، زرت أحد أخوالي، وهو مشغل المسلاط الضوئي في قصر توبيز وكان لسنوات مسؤولاً عن تجارب ارتياد الأفلام التي كانت، مثل فيلم ***الحمام على أرض العتبة*** *The Bath on the Threshing Floor*، تصنف غير مناسبة للمشاهدين الشباب. هل اختلست النظر من خلال ثقب الباب المجاور للمسلاط وتفرجت على فيلم **كولبرغ** Kolberg، مع هاينريش غيورغه في الدور الرئيسي مباشرة بعد الفيلم الإخباري الذي يظهر غوبلز وهو يثرثر مع الناجين من الغارة الجوية؟

فيما بعد كان ثمة شائعات ممن يعرف أن عدداً من الرجال الذين قاتلوا بشجاعة ضد نابليون وهم يرتدون أزياء العصر أمام الكاميرات وجدوا أنفسهم يعودون في كولبرغ كمحاربين في الفولكسشتراوم، جيش الجبهة الداخلية الألمانية. عندما كانت كولبرغ تحت الحصار من قبل

Twitter: @ketab_n

الروس والبولنديين الحقيقيين. هذه المرة لم تكن ثمة كاميرا في اليد لتصور ميتاتهم البطولية.

بدا الناس في المحطة غافلين عن النيران. كان ذلك شأناً مألوفاً: حشود مندفعة، شتائم، انفجارات مفاجئة من الضحك، جنود في إجازة يهرعون عائدين إلى الجبهة، جنود في إجازة يهرعون إلى المنزل، نواب من الذراع الأنثوي لشبيبة هتلر، رابطة الفتيات الألمانيات، يتبادلن المشروبات الساخنة ويقهقهن عندما يتودد الجنود إليهن.

ما الذي كانت له الرائحة الأقوى: دخان القاطرات البخارية، المضغوط تحت السقف المتأذي قليلاً لباحة المحطة، أم الحريق؟ وقفت أمام مجموعة مشوشة من الإشارات التي تدل على نقاط التجمع، وطاولات التسجيل وما شابه. اثنان من قادة الجنود ـ يمكن تعريفهما هكذا عن طريق اللوحات الاسمية المعدنية المتدلية من عنقيهما، ومن هنا جاءت تسميتها «كلاب السلاسل» ـ أخبراني إلى أين أذهب. في القاعة ذات نوافذ التذاكر (في أية محطة من محطات برلين كان ذلك؟) انضممت إلى مجموعة من المجندين الجدد من سني وبعد انتظار قصير تسلمت أوامر مسير تحدد درسدن كوجهة لي.

يمكنني أن أتصور زملائي المجندين وهم يبربرون: نحن جادون، كما لو أننا في مغامرة. نحن في مزاج جيد. أسمع نفسي وأنا أضحك بصوت عال أكثر مما ينبغي، لا أعرف حول ماذا. نحصل على جرايات المسير بما فيها السجائر. بوصفي غير مدخن، أتنازل عن سجائري. ما أحصل عليه بالمقابل من الفتيان هو شيء يقترن بعيد الميلاد حصراً: بطاطا المرزبان الملفوفة بمسحوق الكاكاو. أظنني أحلم وأنا محطم بحقيقة ذلك كله.

فجأة، طاردتنا صفارة إنذار الغارات الجوية كلنا إلى داخل القبو الضخم للمحطة، أقرب ملجأ. وسرعان ما حشر هناك رهط متنافر

Twitter: @ketab_n

معا، من جنود ومدنيين وكثير من الأطفال. كان ثمة جنود جرحى يستلقون على جانبي القبو ويتكئون على عكازات. كان ثمة أيضاً فرقة من عازفي قاعة الموسيقى تتضمن أقزاماً. كانوا جميعاً باللباس الخاص: كانت الصفارة قد أخرجتهم مباشرة من خشبة المسرح إلى القبو.

تابعوا عرضهم في حين كانت نيران المدافع المضادة للطائرات تدوي في الخارج والقنابل تسقط بعيداً أو قريباً: فتننا مشعوذ قزم يبقي قطع التسع بنسات والكرات والحلقات الملونة في الهواء كلها معاً؛ وأدى عدد من زملائه حركات بهلوانية؛ وربطت سيدة صغيرة أنيقة نفسها برشاقة بأحبولات في حين كانت تطير القبلات إلى الحشد المصفق بحماس شديد. كانت الفرقة التي كانت مهمتها الترفيه عن جنود الجبهة، بقيادة رجل عجوز ضئيل يمثل دور المهرج. كان يصدر أيضاً موسيقى سوداوية عذبة من صف من الكؤوس الفارغة والمليئة وذلك بالنقر على حوافها بأصابعه، والبسمة لا تفارق أبداً شفتيه المطليتين بأحمر الشفاه. وهي صورة علقت بي.

حالما اتضح كل شيء، ركبت الترام إلى محطة أخرى. مرة أخرى رأيت ألسنة اللهب تتقافز من نوافذ شقة، وتدمر واجهات بأكملها، وخطوطاً طويلة من الشوارع تحولت إلى ركام بعد ليال من القصف بالقنابل. في البعيد، كان ثمة مصنع مضاء من الداخل، كما لو أنه من أجل احتفال. وكان القطار الذاهب إلى درسدن ينتظر من أجل الانطلاق في ضوء المصباح الرمادي.

لاشي حول الرحلة هناك. ولا كلمة حول محتوى السندويتشات في جرايات مسيرنا، ولا أفكار استباقية تراكمت مسبقا لكي تفك ألغازها. كل ما تبقى ليقال وبالتالي لكي يسأل هو أنه لم يكن حتى هنا، في درسدن، التي لم تمسها الحرب بعد أو، لنكن أكثر دقة، في الطابق

Twitter: @ketab_n

العلوي من شقة تعود إلى الطبقة العليا ـ المتوسطة في مقاطعة فايسرهيرش قرب درسدن ـ نيوشتات، علمت ما هي الكتيبة التي تم إلحاقي بها. كشفت أوامر مسيري الجديدة أين سيخضع المجند الذي يحمل اسمي للتدريب الأساسي، على أرض تدريب سلاح الإس إس كرامي مدفع دبابة، بعيداً في الغابة البوهيمية. السؤال هو: هل كنت خائفاً مما كان جليا آنذاك في مكتب التجنيد كما أخاف الآن من الإس إس، حتى عندما أكتب ذلك بعدئذ بأكثر من ستين عاماً؟

لا يوجد شيء محفور في قشرة البصلة يمكن قراءته كإشارة على الصدمة، ناهيك عن الرعب. الأرجح أنني رأيت سلاح الإس إس كوحدة نخبة كانت تزج في العمل القتالي كلما تعين صد اختراق في خط الجبهة، أو إعادة فتح جيب مثل دميانسك بالقوة، أو استعادة حصن مثل خاركوف. لم أجد الحرف الروني المضاعف على ياقة اللباس الموحد منفراً. ربما كان الفتى، الذي رأى نفسه رجلاً، أكثر اهتماماً بهذا الفرع من الخدمة: لو لم يوجه إلى الغواصات، التي لم تظهر بالكاد في النشرات الإذاعية، لكان رامي مدفع في فرقة كانت، كما كان يعرف الجميع في المقر الإقليمي لفايسر هيرش، ستحشد من جديد تحت اسم «يورغ فون فوندنسبرغ».

كان فون فوندنسبرغ معروفا بالنسبة لي كقائد للعصبة السوابية في أثناء حروب الفلاحين في القرن السادس عشر، وبوصفه أبا «فرسان الأرض Landsknecht»، وهم مرتزقة مشاة ممتازين. كانوا أشخاصاً يدافعون عن الحرية، التحرر. بالإضافة إلى ذلك فقد كان لسلاح الإس إس هالة أوروبية: كان يضم فرق متطوعين مستقلة من الجنود الفرنسيين والوالون Walloon والهولنديين والفلمنكيين والكثير من الجنود النروجيين والدانماركيين؛ وكان هناك حتى سويديون محايدون على

Twitter: @ketab_n

الجبهة الشرقية في المعركة الدفاعية، كما تقول الخطابة، لإنقاذ الغرب من الطوفان البلشفي.

لذلك كان ثمة الكثير من الأعذار. مع ذلك، وعلى مدى عقود، رفضت أن أعترف بالكلمة، وبالأحرف المضاعفة. ما كنت قد قبلته بغرور الشباب الغبي أردت أن أخفيه بعد الحرب بدافع الإحساس المتكرر بالعار. لكن العبء بقي، ولا أحد كان بمقدوره أن يخففه.

صحيح، في أثناء تدريب رماة مدافع الدبابات، الذي كان يبقيني خدراً طوال فترة الخريف والشتاء، لم يكن ثمة ذكر لجرائم الحرب التي سلط الضوء عليها لاحقاً، لكن الجهل الذي أدعيه لم يكن من الممكن أن يعميني عن حقيقة أنني قد اندمجت في منظومة خططت ونظمت ونفذت إبادة ملايين البشر. حتى لو كان بوسعي ألا أتهم بالمشاركة الفاعلة في الجريمة، تبقى إلى هذا اليوم بقية تدعى بشكل شائع أكثر مما ينبغي بالمسؤولية المشتركة. سيكون علي أن أعيش معها، بقية حياتي.

خلف الغابات وبينها، في الحقول المضطربة. كانت الأشجار وسقوف البراكات مثقلة بالثلج. وفي البعد تلوح الخوذة ذات القبة البصلية لكنيسة. لا تنطق كلمة من اللغة التشيكية على أرض التدريب، وحدها الألمانية ـ لغة القادة، كانت تنتقل في الهواء الصقيعي أبعد من المعتاد.

تم تدريبنا على تجهيزات قديمة الطراز ـ بانتزر 3 وبانتزر 4، كانت تستعمل في الأعوام الأولى بعد الحرب ـ وكنا نساق كالعبيد. في البداية ظننت أن تلك هي الكيفية التي ينبغي أن تكون، لكن مخزوني الأولي من الحماس سرعان ما تلاشى. كنا جميعاً ـ المجندون في سني والأقدمون الذين.نقلوا إلى سلاح إس إس كجزء مما كان يدعى بشكل ساخر صندوق هرمان غورينغ ـ نتدرب بشكل قاس من الفجر إلى الغروب وكنا، كما حذرنا منذ البدء، نوبخ بقسوة.

Twitter: @ketab_n

كنت قد قرأت عن ذلك في الكتب.لقد كتمت بشكل متعمد أسماء سائقي العبيد، حتى أسوأهم. كل ما تعلمته من التجربة كان تواطؤاً صامتاً أو حيلاً ذكية. خرجت من التدريب ذات مرة عن طريق التظاهر بالإصابة باليرقان ـ ابتلعت بعض الزيت المسخن من علب السردين الصفيحية، ومرة بسبب اندلاع الغليانات التي اكتسحت المعسكر، لكن المشفى المزدحم بشكل مزمن لم يكن بمقدوره أن يوفر سوى الملاذ المؤقت. ثم عدت إلى التعذيب.

كان مدربونا، الذين كانوا صغاراً في السن لكنهم تحولوا إلى كلبيين متحجري القلوب، بقضائهم عاماً أو عامين على الجبهة، متحمسين آنذاك،بوصفهم NCOs وحاملين فخورين لميداليات القتال القريب وتحمل الصقيع، لينقلوا الخبرات التي اكتسبوها عند رأس جسر كوبان وفي حرب الدبابات في كورسك. كانوا يفعلون ذلك بالجدية المرة أو بالفكاهة التي لا ترحم أو كيفما شعروا ذلك. كانوا يمطروننا بالمصطلحات العسكرية، تارة بصوت عال، وتارة أخرى بصوت منخفض، ويبزون بعضهم بعضاً بالتنمر علينا بتعذيبات الجيش الحديثة أو المتمتعة بقداسة القدم.

إن الكثير من هذا يهرب من ذاكرتي، لكن إحدى الطرق التي كانوا يتبعونها في إذلالنا نحن المجندين لا تزال عالقة في ذهني، مع أنني لست متأكداً مما إذا كان رد الفعل من الجانب المتنمر عليه هو التفكير الدال على الرغبة بشكل متطرف أو ما إذا كان فعل انتقامي قد حدث فعلا. بأي حال، إنها حكاية ذات مغزى.

إنه الصباح الباكر. أشق طريقي مترنحاً عبر بقعة ثلجية من غابة شديدة السواد مع العلب المعدنية في كلتي اليدين. ركضت خارجاً إلى هناك في ضعف الزمن، لكن كان علي أن أعود ببطء. كنت متخفياً بين

Twitter: @ketab_n

الأشجار، لكنني كنت مرئياً بسبب النوافذ المضيئة لبيت المزرعة الشبيه بالقلعة، حيث تقع المكاتب الهامة. ذات مرة اعتقدت أنني سمعت الموسيقى تأتي من هناك، واليوم أنا واثق من أنها كانت فرقة رباعية وترية تتمرن على هايدن أو موتسارت. لكن ذلك لا علاقة له بقصتي، التي حدثت بصمت مطبق.

على مدى أيام كنت قد أمرت من قبل قادة الجند بالاهتمام بإفطارهم، الذي كان يعني حمل صفيحتين من القهوة خصيصاً لأجلهم. كان ينبغي أن تصل القهوة ساخنة وكانت تسخن بشكل متكرر أثناء النهار. كانت تأتي من المطعم المتنقل على الجانب الآخر من الغابة. منقوع الشعير أو بديل الشعير الذي كنا نحصل عليه نحن المجندون ـ وقد أشيع أنه يخلط مع بيكربونات الصودا لإبقاء دافعنا [الجنسي] هامداً ـ كان يأتي أيضاً من هناك. ما كنت أسلمه ساخناً جداً إلى قائد الجنود الرئيسيين والخمسة أو الستة من قادة الجنود الذين كانت لهم معاملة تفضيلية إنما كان يدين بطعمه إلى حبات البن الأصلية. على الأقل ما كان ينبعث من الصفائح كانت له رائحة الأصالة.

لم يقطع الطريق ذهاباً وإياباً موعد فطوري في المنتصف فحسب، بل قطع أيضاً في الدقائق القليلة التي بقيت لي لأعطي لباسي العسكري الملطخ بالوحل نفضات قليلة وتنظيفاً بالفرشاة، لذلك. غالباً ما كنت أتأخر عن التفقد الصباحي وأنال تمرين عقوبة: صعود تلة وهبوطها وأنا أرتدي قناعاً واقياً من الغازات وصرة ثقيلة، وألتقط صلصالاً لزجاً على أخمص بوطي وأنا أسير. كان ذلك تعذيبا يستثير كراهيات مدى العمر لدى المجند ذي القناع الواقي من الغازات.

مما لا يثير الاستغراب أنني خططت لانتقامي إلى آخر تفصيل فيما كنت أولول وراء القناع المغبش.

Twitter: @ketab_n

في طريق العودة من المطعم المتنقل توقفت خلف إحدى الصنوبرات المثقلة بالثلج. كان بإمكاني أن أرى بيت المزرعة يتألق في البعيد، لكنه لا يستطيع أن يراني. الغابة هادئة للغاية بحيث يمكنني أن أسمع نفسي وأنا أتنفس. أسكب إصبعين من القهوة في الثلج، أنزل الصفائح، وأبول أولاً في صفيحة واحدة، ثم في الأخرى، حتى تمتلئان. وأكمل الباقي بين شجرتين لتلوين الثلج باللون الأصفر.

ثم يهطل الثلج ويغطي آثاري.

فجأة أصبح حامياً في البرد. يغمرني شيء قريب من السعادة.

همسة من الداخل. جيد. سيبلعون المادة ـ صحيح، أنها محلاة بمكعبات السكر، التي ينجحون في ادخارها الله يعلم كيف. الآن، الآن بالضبط، من أجل الفطور، وعند الظهر ثم تسخن مرة أخرى في الليل: إنهم يبحثون دوماً عن ركوة القهوة عندما يكونون قد صرخوا بحناجرهم المبحوحة. يمكنني أن أتصورهم تماماً، قادة الجند، قائد الجند الرئيسي. أظل أعد، الرشفة تلو الرشفة.

وكانوا في الحقيقة يبلعون الركوة تلو الركوة مما سلمته، أكثر أو أقل سخونة. لماذا الشك في ذلك؟ يمكننا أن نفترض أن انتقامي المتكرر، إيماءة عبثي الصباحية المنتظمة، قد ساعدني على تحمل التدريبات، وحتى أسوأ التعذيبات، مع تكشيرة جوانية. قبل أحد تمارين العقوبة تلك، قام مجند في الجماعة المجاورة لجماعتنا بشنق نفسه بخيط قناع الغاز.

خلافاً لذلك، لقد فعلت كل ما أمرت به دون تفكير لثانية واحدة. إن الزحف تحت حوض زيت دبابة التدريب تنفيذا للإيعاز «قس خلوص الأرض!»، والتدريب المختصر على التجهيزات الثقيلة، والتصويب على الأهداف المتحركة، والمسيرات الليلية بالجعبة الحربية، وانحناءات الركبتين مع البندقية ممسوكة بطول الذراع، كل ذلك كان مفترضاً به أن يصنع مني رجلاً.

Twitter: @ketab_n

في كل مرة كنا نكافأ بجلسة إزالة القمل في براكات الرعاية الصحية المعدة خصيصاً لهذا الغرض، وبعد ذلك نأخذ دوشاً جماعياً ونحن عـراة ونضحك على هانز موزر و هاينز رويمان في سينما المعسكر.

كانت الرسائل تأتي بشكل أقل انتظاماً. في فترات بعـد الظهـر كنـا نلقن قسراً نظريات تعلمنـا عـن محـرك مايبـاخ الخـاص بالـدبابات. لا يمكنني أن أتذكر تفصيلاً تقنياً واحداً. إلى هذا اليوم لا يمكنني أن أقـود دبابة ولن أفعل ذلك. كانوا يصمون آذاننـا بأبجديـة مـورس، فلـم يبـق منها حرف واحد.

وكنا نتثاءب مـرة كـل أسـبوع علـى طريقتنـا خـلال حصـة دراسـية في المجال الحيوي ورؤيـة العـالم *Lebensraum und Weltanschauung* والدم والتراب *Blut und Boden*.... فالرفض اللفظـي الـذي خلفتـه تلـك البلاغة لم يفسد: بإمكانك أن تستحضره على الإنترنت حتى الآن.

الأوضح في ذهني، لأنه يمكن أن يروى كقصة، هو حدث وقع خارج الروتين المنهك. فقد تم استدعاء بضعة مجندين، وأنا منهم، واحداً تلـو الآخـر إلى بيـت المزرعـة الـذي وجدتـه آسـراً للغايـة في أثنـاء نزهـاتي الصباحية. في كل مكان ـ خلف البيـانو في البهـو، علـى امتـداد السـلم الملتف، وعلى جدران المكان المقصود، غرفة من مقاس صالة الحفلات ـ كان ثمة قرون أيائل ورسوم مؤطرة بشـكل فخـم لمشـاهد صـيد، صـارت داكنة بتقادم الزمن. كانت الغرفـة خاليـة مـن الأثـاث، إلا مـن طاولـة دراسة ذات سيقان منتفخة. جلس إلى الطاولة جندي من قوات العاصفة كان من الممكن أن يكون معلماً جليلاً.

أمرني، وهو يبذل قصارى جهده ليبدو ودوداً، بأن أقف مرتاحاً، ثم سألني عن خطط حياتي المهنية بعد النصـر النهـائي. كـان يـتكلم مثـل خال دمث يستفهم عن مستقبل ابن أخته المفضل.

Twitter: @ketab_n

لم أتطرق إلى ذكر عزمي على أن أصبح فناناً، حاصراً نفسي بشيء غامض كدراسة تاريخ الفن، وبناء عليه استبعد إمكانية التأييد لو كنت راغباً ومؤهلاً للدوام في مدرسة يونكر لأجل قادة المستقبل.

كانت مثل هذه المدارس آنذاك تدرب الشباب بالوعي القومي والعرقي المناسب لاستلام مواقع المسؤولية التي ستكون هناك حاجة لملئها بعد النصر النهائي لمعالجة قضايا المجال الحيوي وإعادة توطين السكان غير الألمان، وإعادة بناء المدن وإدارة الاقتصاد. ستكون هناك مواقع في القطاع المالي، وربما حتى في الفنون، تهفو قلوبكم إليها. ثم سألني ماذا يمكن أن أخبره عن الفن.

هذه الشخصية الخالية [نسبة إلى الخال] العطوفة، الذي كان يرتدي نظارات بلا إطار، وتصبح رتبته أكثر إثارة للشك كلما فكرت في ذلك - هل كان من الممكن حقاً أن يكون جندياً من قوات العاصفة؟ - بدا مهتماً بشكل صادق بما كان يبجله بتسميته سيرتي المهنية، لذلك فككت أمامه ما كنت قد شبكته معاً على أساس بطاقات سجائري ومجلدات كناخفوس. تحدثت بلا توقف، وكأنني بشكل غير تفاخري، حول البورتريهات الذاتية لدورر، والـ *Isenheim Altarpiece*، ومعجزة القديس مرقس لتينتورتو التي تمتدح الهبوط المفاجئ للرسول كمثال على استعمال الفنان الجريء للمنظور. أما وقد قطعت طريقه عبر رؤيته الحادة، في ثلاثة مجلدات، لتاريخ الفن، وبذلك استنفدت معركته التراكمية، فقد أضاف خريج مدرسة يونكر المستقبلية توكيدات جامحة قليلة حول عبقرية كارافاجيو المجمدة للدم وثناء حماسياً مفرطاً لأنسلم فيورباخ والروميين الألمان Deutschromer وأخيراً لوفيس كورينث، الذي كانت ليلي كرونرت، أستاذة الفن في جامعة القديس بطرس، قد وصفته بالألمعي. كنتيجة لذلك، وضع عمل كورينث فوق أي شيء يمكنك أن تراه في معرض الرسم المعاصر في دار الفن الألماني.

Twitter: @ketab_n

بهزة رأس، أشار لي خالي بأن أتجه إلى البار. كان من الواضح أنني فقدت تأهيلي لموقع المسؤولية بعد النصر النهائي: لا مدرسة يونكر تكنسني بعيداً عن التدريب.

وصلتني هدية، رغم كونها بشكل متأخر، بمناسبة عيد ميلادي السابع عشر، عبر البريد: طرد يحتوي على جوارب صوفية، كعكة مفتتة في معظمها، ورسالة مكتوبة على الجهتين مليئة بالمقلقات التي لا حل لها، بخط أبي الجميل. منذئذ وحتى عيد الميلاد، رسائل فقط، أما بعد عيد الميلاد، فلا شيء.

دفعتنا لوحة الإعلانات إلى الاعتقاد بأن هجومٍ الأردنيز ـ معركة الأفضلية ـ كان يسير بنجاح وستنقلب الأمور أخيراً، لكن سرعان ما جاءت النشرة لتعترف بأن الروس قد دخلوا إلى شرق بروسيا. في أثناء الدروس النظرية شغلت تفكيري التقارير عن اغتصاب النساء الألمانيات وقتلهن في منطقة غومبينن.

طوال النهار كنا نرى أسراب طائرات العدو ترسل حزماً من أذيال الدخان عبر السماء الصقيعية الساطعة، وهي تشق طريقها دون أي عائق ـ إلى أين؟ كان ذلك يبدو جميلاً تماماً، بالفعل، لكن أين كان طيارونا المقاتلون؟

كان لا يزال يوجد الكثير من الكلام حول صواريخ V1 و V2 ناهيك عن السلاح المعجزة الذي كان يتوقع منه أن يظهر في أية لحظة. في نهاية شهر شباط، عندما بدأت تنتشر الشائعات حول رجال عاصفة درسدن، أدينا القسم. كان القمر بدراً والليل بارداً إلى حد التجمد. كان الكورس ينشد «إذا أثبت الآخرون أنهم غير صادقين، فسنكون مع ذلك صادقين»، إنه نشيد سلاح الإس إس.

بعد ذلك مباشرة شهدت حدثا كان ينبغي أن يجعل سقوط الرايخ

Twitter: @ketab_n

الألماني جلياً ـ الفوضى المنظمة للهزيمة التي تنتقل ببطء، ثم بسرعة وأخيرا بسرعة قاصمة للعنق. هل كنت قادرا على تمييز ما كانت تؤول إليه الأشياء؟ هل أدركت ما الذي كان يجري معنا، معي؟ هل النشاط المتواصل، الحاجة الملحة إلى لوح من الصابون وكسرة من خبز الجيش، بالتوازي مع المخاوف ذات الأحجام المختلفة، تترك أي مجال للتبصر في الوضع العام؟ هل كان ذو السبعة عشر عاماً واعياً لبداية النهاية، للأبعاد المتزايدة تدريجياً لما سمي لاحقاً الانهيار؟

عندما انتهت محاولاتي لأصنف وأدون على ورق أبيض لماع التشويش السائد في رأس جندي شاب، الذي تظل خوذته الفولاذية الكبيرة المقاس تنزلق، على شكل رواية *أعوام الكلب* في أوائل الستينات، تصبح الحرب بوصفها تقهقرا ثابتاً مختلطة في صفحات المفكرة التي حفظها سائق الدبابة هاري ليبنهاو مع التوسلات الملحة لتولا، ابنة عم هاري التي قادته الشائعات إلى الاعتقاد بأنها قد غاصت عميقاً في جليد البلطيق على باخرة اللاجئين فيلهلم غوستلوف.

أنا، أيضاً، احتفظت بمفكرة من النوع نفسه. احتفظت بها في دفتر مذكرات فقدته مع معطفي الشتوي والأغراض الأخرى في صرتي إما في فايسفاسر أو قرب كتبوس. إنها خسارة ليس من السهل حذفها: غالباً ما جعلتني أشعر بأنني فقدت نفسي.

ما الذي خربشته على تلك الطلحيات من الورق المسطر في أثناء الاستراحات القصيرة أو المديدة؟

أية شطحات خيال حررتني من المسائل القريبة في المتناول أو من السأم الذي كان يحوم كلما كان علينا أن ننتظر من أجل المتشرد الأبدي أو المطبخ الميداني أو الأوامر التي سترسلنا في هذا الاتجاه أو ذاك؟

هل نقلتني إعلانات الربيع إلى أزواج من الأبيات المقفاة؟ هل

Twitter: @ketab_n

اندفعت في الأفكار القيامية؟ وحتى لو لم يثمر ذلك أية فكرة مبهمة لفك شيفرتها، فلا شعر ربيعي لتدوينه، لا شكوك مرغوبة لإيضاحها، المفكرة المفقودة كان من الممكن أن تكون قد ألقت بعض الضوء على السؤال: ما الذي فعله المجند المستعد للمعركة؟

هل جلس في دبابة بوصفه رامياً أم بوصفه ملقم مدفع؟ هل تحول من الأهداف الكرتونية إلى الأهداف المتحركة؟ أين ومتى فرزت إلى أية وحدة؟ لا يمكن أن أبدو وكأنني أحول الأعضاء الآخرين لفرقة يورغ فون فروندنسبرغ، التي أشعر الآن أنها خيالية تماماً، إلى لحم ودم. من معسكر التدريب في الغابة البوهيمية نقلنا جماعة تلو الجماعة إلى عدد من الحاميات النائية: انطلقت مجموعة في اتجاه فيينا، وأرسلت الأخرى للدفاع عن شتتين، وأخذت مجموع ثالثة ذات ليلة على قطار شحن عبر تتشن ـ بودنباخ إلى درسدن، ثم بعيداً إلى الشرق في سيليزيا السفلى، حيث اشتهرت الجبهة بكونها هناك. كل ما تبقى في ذهني من درسدن هو رائحة الاحتراق ومنظر الحزم المفحمة المكومة بعضها فوق بعض بين السكك وأمام الواجهات المسفوعة، من خلال الباب المنزلق المفتوح قليلاً لسيارة الشحن. زعم البعض أنهم رأوا جثثاً ذابلة، وزعم الآخرون الله يعلم ماذا رأوا. لقد أخفينا رعبنا عندئذ بالاختلاف على ما حدث، فالكثير مما حدث في درسدن يكمن إلى اليوم مطموراً تحت اللغو.

كان يبدو أننا قد وصلنا إلى واقع فقط لنهجره أو لنستبدله بشيء يُزعم أنه واقع آخر، بعد نقلنا من جهة إلى الجهة التالية، وجدنا أخيراً السرية التي فرزنا إليها وانضممنا إلى زمرتها الناقصة حتى حينه في مدرسة مهجورة. كان طاقم المطبخ ينشر مقاعد الدراسة المكومة في الخارج لتحويلها إلى حطب. أوضح الاستيعاب الذي ينتظرنا في الريف أن وجود البراكات التي قدتها منذ أيام خدمتي كاحتياطي في سلاح الجو لم ينته بعد.

Twitter: @ketab_n

جلسنا هناك في انتظار وصول دبابات تايغر الشهيرة. تبين أن الانتظار طويل لكنه يمكن احتماله، حتى أننا، نظراً إلى الوجبات المنتظمة والانضباط الرخو، صرنا نشاهد الأفلام. هل أصابني صداع آخر في فيلم *نحن نصنع الموسيقى*، الذي يصور ايلزه فرنر Ilse Werner الذي يصفر بابتهاج، وكان قد خدم كبديل جاز في أيام دراستي؟ أم هل أنني رأيت هناك فيلم *كولبرغ* لأول مرة؟.

كم طال انتظار هذه الجماعة المتنافرة المؤلفة من جنود فرماخت النظاميين والطاقم الأرضي المغنوم من القواعد الجوية المستسلمة لتلك الدبابات ـ والخدمات البريدية للجيش، التي لم تأت؟

لا يمكنني أن أضع تاريخاً لذلك. أتصور تلك الفترة كفيلم مركب من حلقات عشوائية ـ تارة بالحركة السريعة وتارة أخرى بالحركة البطيئة، يقفز إلى الأمام، وإلى الوراء، وينقطع، ثم يقلع مرة أخرى بنص وحبكة مختلفين تماماً.

الشخص الوحيد الذي أتذكره بشكل واضح هو NCO تجلس معنا إلى الطاولة الخشبية الطويلة التي نأخذ إليها صفائح طعامنا، «خنزيرة الجبهة» النموذجية. إنه، وقد أجبر على أن يستمع إلى نداء طبيعة ملح، يقتلع عيناً زجاجية من محجرها الأيمن بقرصة متمرسة، وينقرها، زرقاء فاتحة، على منتصف لوح اللحم الذي بحجم الكف الذي يخصص لكل واحد منا لأجل الغداء ـ بالتوازي مع البطاطا المسلوقة والملفوف وصلصة اللحم البنية. يصرخ، «أنا أبقي عيناً زجاجية عليه»، ونجلس هناك فاغرين أفواهنا إلى أن يعود من المرحاض.

ما الذي تتمسك به الذاكرة؟ حياة راكدة ذات هدف عملي ولا طموحات إلى الفن. كان ثمة الكثير من الجنود المعلمين بجروحهم الذين عادوا إلى الواجب الفعال مباشرة من المستشفى الميداني: لم يستغرق الموضوع كثيراً في النهاية لكي يصرَح لهم بأنهم لائقون للقتال.

Twitter: @ketab_n

في نهاية المطاف استلمنا ثلاث أو أربع دبابات ياغدبانتر، وهي دبابات صيادة، بدلاً من دبابات النمور الملكية الموعودة، كانت تقف هناك تحت شباكها التمويهية: كانت المدافع بدون برج دوار. وبالرغم من كوننا نفتقر إلى التدريب على تشغيلها، كان علينا أن نخرج من البراكات ونعتليها بصفتنا حراساً عليها، مزودين بالبنادق والأسلحة الهجومية الأخرى.

كانت الجبهة هي بشكل مفترض بلدة ساغان السيليزية التي تمت استعادتها لكنها لازالت تحت النار. ومن ساغان كان من المقرر أن ينطلق هجوم، أو هكذا تم إعلامنا، لتحرير برسلاو، التي كان الروس قد حاصروها ولذلك كانت تدعى المدينة القلعة، لكننا لم نصل إلى أبعد من ڤايسڤاسر، حيث تفرقنا كجماعة وفقدت الحقيبة التي تحتوي على مفكرتي والمعطف الشتوي المبزم عليها....

في تلك النقطة ينقطع الفيلم، وعندما تم وصله وأعيد تشغيل مسلاط الضوء، كان كل ما حصلت عليه هو خليط من الصور: في مكان ما أرمي حذائي بعيداً، وأرتدي الجوارب الصوفية التي عثرنا عليها في مستودع عسكري تم إخلاؤه، وكان يحتوي أيضاً على أكوام من القمصان التحتية والمشمعات. توقفنا في سهل من الطمي وأنا أقطع الصفصافات العسلية الأولى.

هل سمعت وقواقاً مبكراً؟ هل عددت صيحاته؟ وعندئذ أرى جثثي الأولى، الجنود الفتيان والمسنين باللباس الموحد لفرماخت، متدلين من الأشجار وهم لازالوا عراة على امتداد الطريق، من أشجار الزيزفون، في الأسواق. مع لافتات كرتونية على صدورهم تصفهم بأنهم جبناء وعناصر ضالة - فتى في سِني - شعره، مثل شعري، مفروق إلى اليسار - يتدلى إلى جوار الضابط المتوسط العمر من رتبة غير محددة أو، بالأحرى، مجرداً

Twitter: @ketab_n

من رتبته من قبل محكمة ميدانية. نمر بموكب من الجثث ونحن راكبون مع صلصلة رتل دباباتنا المصمة للآذان. لا أفكار، بل صور فقط.

على الجانب أرى فلاحين يعملون في حقولهم، أخدوداً تلو الأخدود كما لو أنه لا يوجد أية مشكلة. لدى أحدهم بقرة مقرونة إلى محراثه. الغربان تتبع المحراث.

ثم أرى مزيداً من اللاجئين يملأون الشوارع في مواكب طويلة. عربات تجرها الأحصنة وعربات يدوية مثقلة تدفعها وتجرها نساء عجائز ومراهقون؛ أرى أطفالاً يمسكون بالدمى، يجثمون على حقائب الثياب والحزم المربوطة بالحبال. ثمة رجل عجوز يجر عربة تحتوي على خروفين يأملان في أن ينجوا من الحرب. جامع الصور يرى أكثر مما يمكنه أن يستوعب.

عند التوقف في أثناء التقهقر أثبت ناظري على فتاة اسمها سوزان - هذه المرة أنا متأكد. إنها هاربة من برسلاو مع جدتها. الآن ها هي تمسد شعري. إنها تدعني أمسك يدها، ولكن لاشيء آخر. هذا الحدث المثير يحدث في الإسطبل غير المتضرر من بيت مزرعة مثقوب كالغربال بالرصاص. تطل عجلة. لعل القصة كانت رسالة بررت التضحية بذاك المصدر للإزعاج المسمى حقيقة.

لكن ربما أن كل ما دونته في مفكرتي كان «سوزان ترتدي عقداً مصنوعاً من الخرزات الخشبية ذات اللون الأحمر الكرزي ....» أم هل كانت فتاة مختلفة كلياً تلك التي كانت ترتدي العقد، ليست الفتاة ذات الشعر الكتاني اللون بل الفتاة ذات الضفائر السوداء الطويلة، التي أرفض ذكر اسمها؟

إن أي شيء حصل خارج حقل رؤيتي لا يدخله في فيلمي المجمع بطريقة خرقاء غير متقنة. بما أن الشائعات سريعة الانتشار، سأكون قد

Twitter: @ketab_n

سمعت أن الروس قد أخذوا مدينتي الأصلية؛ ما لا أعرفه، مع ذلك، هو أن البلدة القديمة قد حولت منذ زمن طويل إلى كومة كبيرة واحدة من الدبش المدخن وأن خرائب الكنيسة القرميدية المحروقة هي بانتظار المصورين الذين ستكون مهمتهم أن يوثقوا كل جذعة من برج الكنيسة على حدة ومجتمعة، كل كسرة من الواجهة قبل أن تجري عملية إعادة البناء، بحيث أن أطفال المدارس سيميزون لاحقاً ....

على كل، كانت صورة المدينة لا تزال سليمة في خواطري. فأبراج الكنائس يمكن عدها من اليسار إلى اليمين؛ كل زخرفة جملون كانت في مكانها، الطرق من المدرسة وإليها سليمة. أجبرت نفسي أيضاً على رؤية أمي خلف طاولة البيع، وأبي في المطبخ. هل من الممكن أن أكون قد تعذبت بالخوف من أن يكون والداي، مع أختي وأمتعتهم الضئيلة، قد وجدا في النهاية متسعاً على الغوستلوف.

عند هذه النقطة لابد أن تكون بكرة احتكاكي الأول مع العدو منفصلة عن التسلسل الاعتباطي للصور المنتجة والمخرجة بالصدفة، وإن كان ذلك بلا أية إشارة إلى المكان أو الزمان أو حتى إشارة إلى أن عيني قد وقعتا على ذاك العدو.

لا يمكن للمرء إلا أن يفترض أن المواجهة حدثت في وقت ما من منتصف نيسان، عندما كانت الجيوش السوفييتية قد اخترقت الخطوط الألمانية، بعد قصف مدفعي مديد، على طول الأودر ونايسه بين فورست وموسكاو لتنتقم لأرضها السليبة وملايين القتلى. لتغزو، لتنتصر.

أرى دباباتنا من طراز ياغدبانتر، ناقلات الجنود المدرعة، وبضع شاحنات والمطبخ الميداني، وجماعة تم إنزالها من المشاة ورماة مدافع الدبابات معاً وهم يتخذون موقعهم في بستان من الأشجار الفتية، إما ليشنوا هجوماً مضاداً أو من خط دفاع.

Twitter: @ketab_n

البراعم على الأشجار ـ البتولا من بين أنواع أخرى. الشمس تمنح الدفء. العصافير تزقزق. ونحن ننتظر، نصف ناعسين. عريف يرغي معجون الحلاقة، يبدأ الحلاقة، شخص ليس أكبر مني سناً يعزف على هارمونيكا. عريف يرغي الصابون ثم يشرع في الحلاقة. ثم، من السماء الزرقاء ـ أم هل كان السكوت المفاجئ للطيور إنذاراً عالياً بما يكفي؟ خرجت آلة ستالين فوق رؤوسنا.

لا يوجد وقت للتساؤل من أين يأتي التعبير. هل هي الطريقة التي تعوي بها وتهس وتئن؟ اثنان أو ثلاثة من قاذفات الصواريخ تغطي البستان. إنها تخترق بلا رحمة، تسقط أي غطاء كان من الممكن أن تعد به الأشجار الفتية. لا مكان للاختباء، أم هل يوجد؟ من أجل رامي بندقية بسيط على الأقل؟

أرى نفسي أفعل ما تدربت عليه: الزحف تحت إحدى دبابات ياغدبانتر، حيث أجد شخصاً آخر ـ السائق، الرامي، القائد؟ ـ يقيس الفراغ بين حوض الزيت والأرض، أحذيتنا تتلامس. تحمينا السكك على الجانبين. تتابع الآلة اللعب لمدة من الأرجح أنها أبدية من ثلاث دقائق ـ خفت إلى حد الموت، بلت في سروالي ـ ثم ساد الصمت.

إلى جانبي أسنان تصطك. لا، كان الاصطكاك قد بدأ حتى قبل أن تؤدي الآلة دورها إلى النهاية، ولم يتوقف عندما طغت صرخات المجروح على الأصوات الصاخبة الأخرى.

كما كان الفاصل الزمني قصيراً، كان كافياً: علمني درسي الأول بالذات كيف أخاف. تملكني الخوف. عندما زحفت خارجا من تحت دبابة الياغدبانتر، لم أعد أزحف الزحفة التي كنت قد مارستها. إذ أرى نفسي أزحف عبر أرض غابة عجنت بعنف أوراق الأشجار المتحللة، ومرغت وجهها فيها طالما كانت آلة ستالين تطلق الهدير؛ علقت بي رائحة الأوراق طويلاً بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

كنت لا أزال أتمايل على قدمي، داهمتني الصور. كانت أشجار البتولا تبدو كما لو أنها قد تكسرت على ركبتي شخص: كانت هامات الأشجار الساقطة قد صدت بعض متفجراتنا. كان ثمة جثث في كل مكان، الواحدة إلى جانب الأخرى وفوق بعضها البعض، موتى، لازالوا أحياء، يتلوون ألماً، مطوقين بالأغصان، ممطرين بوابل من شظايا القنابل. كان الكثيرون في حالة التواءات بهلوانية. وكانت أشلاء الجثث منثورة حولنا.

أليس ذاك هو الفتى الذي كان يعزف على الهارمونيكا؟ وهناك العريف ورغوة معجون الحلاقة على وجهه لم تجف بعد....

كان الناجون إما يزحفون هنا وهناك أو كانوا، مثلي، متجذرين في الأرض. كان البعض ينتحب، مع أنه غير مجروح. لم أصدر أي صوت؛ وقفت هناك، بسروالي المنقوع بالبول، أحدق إلى أحشاء فتى كنت أشم النسيم معه. يبدو أن الموت قد قلص وجهه المدور.

لكنني كنت قد قرأت كل ما أكتبه هنا. لقد قرأته لدى ريمارك أو سيلين، اللذان كانا - مثل غريملزهاوزن قبلهما في وصفه لمعركة فيتشتوك، عندما قطع السويديون جنود القيصر إرباً إرباً - يقتبسان مشاهد الرعب التي تناهت إليهما فقط...

ثم، فجأة، كان مصدر اصطكاك الأسنان إلى جانبي، رافعاً نفسه بطوله الكامل وكاشفاً عن رتبة سلاح الإس إس العالية نوعاً ما على ياقته، وميدالية صليب الفارس المروبة بشكل طفيف فقط تحت ذقنه، صورة بطل شريط الأخبار كما غُذينا بها من الشاشة على مدى سنوات عندما كنا تلاميذ في المدرسة. «قم بحركة أيها الجندي!» نبح في، كشهادة على خوفه. «اجمع كل الرجال القادرين. على التشكيل البديل. أعدهم إلى التشكيل، قطعة قطعة. استعد للهجوم المضاد».

أراقبه وهو يدوس فوق الأجسام المبعثرة، الميتة والحية. يبدو مضحكاً

Twitter: @ketab_n

وهو يفرشخ، ملوحاً بذراعيه، لم يعد بطل كتاب الصور موجوداً. استذكرته فيما بعد بامتنان، بسبب سلوكه في وسط الوحدة المتعددة الأطراف - دبابتا ياغدبانتر فقط وعدد قليل من ناقلات الجنود ستبقى مفيدة في الميدان - قد قوض تماماً صورة البطل التي كنت أعرفها أثناء أيام المدرسة. ثمة شيء ما سار خطأ. كان أساس إيماني، الذي أظهر لأول مرة تصدعاً بسبب نحنلانفعلذلك الأزرق العينين الأشقر الشعر، يضعف مرة أخرى، رغم أنه سوف يستقر في نهاية المطاف....

منذ ذاك الوقت فصاعداً، لم يكن للوحدات التي أنتمي إليها أسماء. فالكتائب، والجماعات بقيت تتفكك. الفروندسبرغ لم يعد موجوداً - هذا إن كان موجوداً أصلاً. كانت الجيوش السوفييتية قد تحركت إلى ما بعد الأودر والنايسه وشكلت جبهة عريضة. خطوط معركتنا الرئيسية، المحولة والمختَرَقة، لم تكن موجودة إلا على الورق، لكن ما الذي كنت أعرفه عن خطوط المعركة وماذا كانت أو ماذا كانت تعني؟

في فوضى التقهقر سعيت إلى الالتحاق بالجنود المشتتين الذين كانوا يحاولون بالشكل نفسه أن يعثروا على وحداتهم حتى رغم أنني لم يكن لي أي اتصال مباشر مع العدو، فقد كنت خائفاً حتى الموت. كان الجنود المتدلون من الأشجار على امتداد الطريق إنذاراً ثابتاً بالمخاطرة التي يرتكبها كل واحد منا لا يمكنه أن يثبت أنه ينتمي إلى جماعة ما أو في طريقه إلى هذه الوحدة أو تلك بأوامر سفر موقعة ومختومة.

كان القطاع الأوسط من الجبهة الشرقية، التي تندفع غرباً بشكل عنيد، تحت إمرة الجنرال شورنر السيء الصيت. بحسب «أوامر شورنر»، كان على الشرطة العسكرية - الكثير منها كلاب دمومة - أن تلاحق الجنود الذين لا يحملون أوراق مسير وتسوقهم، بغض النظر عن رتبهم، إلى أمام المحاكم الميدانية المتنقلة بوصفهم متمارضين وجبناء

Twitter: @ketab_n

وفارين من الجندية. ثم، باختصار وبوضوح، يشنقون. كانت عبارة «الصائد، البطل الباحث عن فريسة»، تفيد كإنذار. كان شورنر وأوامره يثيران من الخوف أكثر مما كان يثيره العدو.

لقد حملت شورنر على ظهري لفترة طويلة بعد حدوث الاختراق بين فورست وموسكاو. في منتصف الستينات كتبت مسودة مسرحية بعنوان *معارك خاسرة*، مخصصة لمعالجة الكلب الدموم القائد الذي كان يثير كثيراً من الخوف. في النهاية، لم يأت شيء من مشروع صندوق الرمل هذا: مرة أخرى، كان للخيال اليد العليا. لكن ذاك الوحش الجلاد اللامبالي في عبوديته أمسكني بلا رحمة، بحيث أنه في الرواية التي حلت محل المسرحية بعنوان *مخدر موضعي* ـ التي تدور حول الفك الناتئ لمعلم اسمه شتاروش، ومعالجته التقويمية، والآثار الجانبية الناجمة عنها، وحول طالب يرغب في إحراق كلبه الداخهوند المسمى ماكس احتجاجاً ضد حرب فييتنام ـ الفيلدمارشال شورنر هو واضح للعيان تحت اسم كرينغ. أصبح الخوف حملاً لا يمكنني التخلص منه. ولكوني، مثل الفتى في الحكاية، تقدمت لأتعلم الخوف، فقد تلقيت دروساً يومية في مشي البطة والمراوغة والجثوم ـ هكذا كانت التقنيات المهذبة للبقاء التي يجب تطبيقها بدون تدريب. الويل يصيب الإنسان غير الراغب في التعلم. في بعض الأحيان كان الشيء الوحيد الذي يساعد هو الحظ، ابن المكر والصدفة.

فيما بعد سوف أستدعي إلى الذهن بضعة أوضاع لم يكن الهرب منها ممكنا إلا بمساعدة الحظ والصدفة. لقد استجمعتها غالباً بحيث تحولت إلى قصص صارت، مع مرور السنين، أكثر صلة بالموضوع، وكلما صارت أكثر صلة بالموضوع صارت أكثر إلحاحاً على أن تكون قابلة للتصديق وصولا إلى آخر تفصيل. مع ذلك، يجب الشك في كل ما تم الاحتفاظ به

Twitter: @ketab_n

بوصفه خطراً ونجا في الحرب، حتى لو تبجح بتفصيل ملموس في قصص تزعم أنها حقيقية وملموسة مثل البعوضة في كهرماني.

في الحقيقة انتهى بي المطاف مرتين في منتصف نيسان خلف الخطوط الروسية كجزء من وحدة مرتجلة. لقد حدث ذلك في حالة التراجع؛ في المرتين كنت مرتبطاً بجماعة استطلاع غير واضحة المهمة، وفي المرتين أنقذني الحظ إن لم تكن الصدفة. مع ذلك فإن الوضعين شغلا أحلامي على مدى سنوات، التي قدمت تنويعاً تلو الآخر على هروبي.

كنت أعرف عن نداءات حميمة من الكتب التي التهمتها التهاماً أكثر مما قرأتها كتلميذ مدرسة. كان أحد المعلمين ـ واسمه ليتشفاغر ـ وهو الرجل الذي ثمن حالات الهروب إلى العبثية في مواضيعي الإنشائية ـ قد طبع طبعة رخيصة، سهلة القراءة من كتاب *Simplicissmus* وصلت إلى يدي مع التوصيات، «إنها واقعية باروكية، غير قابلة للتصديق، لكنها صادقة، مثل كل شيء كتبه غريملزهاوزن»، أما أنا نفسي فأقرأه سخيفاً.

هكذا كان بمقدوري أن آخذ قلبي من أسلافي. لو امتلك سيمبليكوس، الفنان الناجي، الحظ والمكر لتجنب الأخطار الكامنة وراء الأكمة على مدى فترة من الحرب دامت ثلاثين عاماً بالتمام، ولو أن رفيق روحه، هارتبروكر، مع حجته التي لا لبس فيها، لكان بمقدوره أن ينقذه في الدقيقة الأخيرة ـ كما فعل في معركة فيتشتوك ـ من براثن القاضي العسكري السريع الحكم وبذلك يمكن سيمبليكيوس من كتابة قلبه عندما يحين الوقت، عندئذ لماذا لم يساعده الحظ أو هارتبروكر آخر؟

برزت فرصتي الأولى للأنين تحت نار البندقية الآلية أو أؤخذ أسيراً وأتعلم البقاء على قيد الحياة في سيبيريا، عندما حاولت جماعة من ستة أو سبعة رجال يقودهم رقيب أن تنتقل من قبو بيت من طابق

Twitter: @ketab_n

واحد. كان البيت الواقع في الجزء المحتل من قبل الروس من قرية لا تزال موضع نزاع.

أما كيف صرنا خلف الخطوط الروسية وفي قبو هذا البيت، الذي كان في الواقع كوخاً أكثر من كونه بيتا، فهو غير واضح، لكن الانتقال منه والانطلاق إلى أحد البيوت على الجانب الآخر من الشارع الذي لازال محتلا من قبل الألمان كان من المفترض أن ينقذنا. أنا أسمع الرقيب، الشخص الطويل النحيل الذي تعلوه قبعة ميدانية مرفوعة إلى الأعلى، يقول: «الآن أو ليس أبداً!».

ربما لم أخبر باسم المحلة المتنازع عليها ـ كانت في المنطقة اللوزاسية الرملية، قرية من شارع واحد يمتد ويمتد ـ ربما لم أخبر به، أو ربما نسيته. من خلال نافذة القبو كان بمقدورنا أن نسمع أصوات الطلقات ـ الطلقات المنفردة ونار البندقية الآلية ـ تروح وتغدو بفواصل زمنية. لم يكن ثمة شيء صالح للأكل على رفوف القبو، لكننا عرفنا أن الرجل الذي يسكن هناك، والذي كان من الواضح أنه غادر في حينه، كان يمتلك محلاً لبيع الدراجات، لأنه استعمل القبو لإخفاء السلع المطلوبة كثيرا، فقد كان عدد منها معلقاً من عجلاتها الأمامية من حوامل خشبية، وإطاراتها منفوخة وجاهزة، وحتى متلهفة، للانطلاق.

لابد أن الرقيب كان ميالاً إلى القرارات المفاجئة، لأنه بعد القول «الآن أو ليس أبداً!» همس أكثر مما أمر، «قوموا بحركة، انتزعوا دراجة كل واحد منكم، وقوموا بجولة من أجل ذلك.....».

إن ردي المرتبك إنما المصاغ بدقة ـ «آسف، يا رقيب، لا يمكنني أن أركب دراجة» ـ لا بد أنه كان شبيهاً بنكتة سمجة بالنسبة له. لم يضحك أحد. لم يكن ثمة وقت للدخول في الأسباب الأعمق لفشلي المخزي. «أمي، التي لا تدير أكثر من بقالية تافهة الأرباح، كانت لسوء

Twitter: @ketab_n

الحظ تفتقر بشكل مزمن إلى الأموال بحيث أنها لم تقدر على أن تشتري لي دراجة، جديدة أو مستعملة، وهذا ما منعني من اكتساب مهارة من شأنها ربما أن تنقذ حياتي الآن....».

قبل أن يكون بإمكاني أن أتابع الثناء على مهاراتي السباحية، المكتسبة باكراً، مع ذلك، أصدر الرقيب قراراً مباغتا آخر. «تمام، إذا، التقط البندقية الآلية وقم بتغطيتنا. سنعود من أجلكم لاحقاً....».

ربما كان واحداً من العرفاء آو آخر، وفيما كان ينتزع دراجته من الحمالة مطيعاً كما يجب، حاول أن يهدئ خوفي. إذا كان كذلك، فقد مضت كلماته دون أن تثير الانتباه. كنت عند نافذة القبو أتخذ موقعاً بسلاح لم أكن قد تدربت على استعماله. لم يمتلك الجندي العاجز بشكل مضاعف الفرصة أبداً لإطلاق النار، مع ذلك، لأنه ما إن ظهر الرجال الخمسة أو الستة من القبو حتى كانت الدراجات ـ بما في ذلك دراجات الفتيات ـ وكل شيء قد قصف بنار البنادق الآلية من مكان مجهول، أي من جانب الشارع أو الشارع الآخر أو من كليهما.

أعتقد أنني أرى تسللاً، إلا أنه لم يكن سوى كومة تنتفض. إن شخصاً ما ـ الرقيب الطويل الهزيل ـ قد فتل رأسه فوق كعبيه وهو يقع أرضاً. ثم لاشيء يتحرك. قد أرى أيضاً دولاباً أمامياً يخرج من الكومة، وهو يدور ويدور.

لكن ربما يكون وصف الذبح ليس أكثر من الصورة التالية للحدث، المسرحة؛ لأنني تركت موقع نافذة قبوي أمام المقذوفات القاتلة ولم أر شيئاً، لم أكن أريد أن أرى شيئاً.

غادرت بيت صاحب محل الدراجات بدون البندقية الآلية الخفيفة، لكن مع بارودتي، وقمت بالجري من أجلها عبر الحديقة الخلفية والبوابة ذات الصرير. في الخلف وبين الحديقتين أخفيت نفسي

Twitter: @ketab_n

بالأغصان التي تبرعمت، وغادرت القرية وهي لا زالت تدوي بنيران المدافع على الـ .Q.T: فجأة وصلت إلى عوارض سكة قطار ضيقة تحفها على الجانبين الشجيرات على امتداد الجسر بارتفاع إنسان. ركضوا مباشرة في الاتجاه المفترض لجبهتنا. صمت. وحدها عصافير الدوري والقرقف كانت في الشجيرات.

ليس معنى ذلك أنني كنت قد تعلمت درساً من ذاك الرقيب الذي لم عجزي عن ركوب دراجة سوى نكتة سمجة بالنسبة له، لكن دافعي لمتابعة العوارض مثل تعليمات نبوئية أثبت أنه القرار الصائب.

بعد أكثر قليلاً من كيلومتر من الحصى والوصلات الخشبية رأيت جسراً غير متضرر يقوس العوارض تعبره سيارات الجيب التي تحمل جنود المشاة، ثم مدفع قذاف تجره أحصنة، ثم جماعات صغيرة من جنود المشاة الألمان الذين لا يخطأون وهم يجرجرون أقدامهم. انضممت إلى طابورهم بشكل أعمى، بما أن جندياً بلا شهادة على كونه جريحاً من عدو وبلا أوامر مسير سيكون مرشحاً محتملاً لحبل المشنقة.

تأكد لي أن قصة النجاة هذه من الصعب تصديقها وتفوح منها رائحة المكر بقوة. ودعماً لنواة الحقيقة هذه دعوني أشير إلى أنني بعد سنوات، كلما حاول أبنائي وبناتي أن يقنعوا والدهم ـ عميقاً في الغابة دون وجود أحد في المشهد ـ أن تعلم ركوب الدراجة هو لعب أطفال، لم أكن أغامر بأكثر من محاولة سريعة. لأنني عندما استسلمت ـ في Ulveshale Skov في الدانمارك ـ لإغراء الركوب على دراجة بصيحات من قبيل «لا تكن جبانا!» و«هلم، بابا!» من مالته وهنشن وهيلينه، الذين كانوا مدربين على ركوب الدراجة في سن مبكر، انسحب الابن الذي كانت أمه قد أنقذت حياته بشكل غير مقصود بالإلحاح على أنه لا يوجد مال كاف من أجل واحد من تلك «الحمير السلكية»، كما كانت تسمي ثنائيات العجلات.

Twitter: @ketab_n

كانت زوجتي هي الشخص الوحيد القادر على إغرائي للانخراط بقليل من الشجاعة ـ وذلك بصفتي شريكها على دراجة ترادفية هولندية ـ وهي التي أخبرتني في أوائل الثمانينات أنني في حاجة إلى مزيد من التمرين . فجلست هي في المقدمة ووجهت المقود، في حين جلست على المقعد الخلفي استمتع بمنظر شعرها المفلوش وهو يتطاير مع الريح. هكذا تأكدت من أنني أستطيع ترك أفكاري تسرح دون أن أتعرض للخطر عن طريق القرارات المفاجئة.

من سياق نهاراتي ولياليي ـ كيف أمضيتها؟ ـ بعد الثغرة في خط اودر ـ نايسه، لا يحمل الفيلم المشروخ في معظمه سوى القليل لإظهاره. فلا قشرة البصلة الفصيحة سابقاً ولا الكهرمان الشفاف الذي يحمل حشرة بدائية تبدو كما لو كانت تنتمي إلى عالم اليوم يمكن أن تكون ذات فائدة. يجب أن أعود إلى غريملزهاوزن، الذي ساعدته فوضى حرب مماثلة على تعلم الخوف، واستحضار مغامرات صياد سويست Soest . مثلما يتركز وصفه لمعركة فيتشتوك على نهر دوسه وأراضي المستنقعات التي وقع فيها رجال القيصر في محنة ـ حمام الدم المزخرف ببراعة بمخزون الكلمات الباروكية لزميله الكاتب مارتن اوبيتس ـ كذلك تعكس مشاهد معركتي تصوراً لمنطقة لوزاتيا بين كوتبوس وشبرمبرغ.

من الواضح أن الهدف لم يكن تحقيق استقرار الجبهة، بدءاً بالبقعة التي كنت أتجول فيها في دوائر وأخترق الحلقة الدائمة التضيق حول برلين مع الوحدات المشكلة حديثاً. فهناك، كما كان يقال، كان الفوهرر يبيت في الشتاء.

لكن الهدف ولد أوامر متناقضة وأدى إلى مزيج من حركات الجنود المعيقة بشكل متبادل. وحدها طوابير اللاجئين السيليزيين حاولت أن تحافظ على اتجاه واضح: نحو الغرب.

Twitter: @ketab_n

أوه، كم كانت الكلمات تأتيني بسهولة في أوائل الستينات، عندما كنت غافلاً بما يكفي للظن بأنني يمكن أن أكذب الحقائق وأثبت التفسيرات القاطعة حول كل أصناف السخافات. فتحت بوابات الطوفان، فتدفقت الصفحة تلو الصفحة من الكلمات المحبوسة، وسفحت الأشكال السردية التقليدية عمرها أولاً في حمامات الكلمات الساخنة، ثم الباردة, واستصرخ التعذيبُ صرخات الاعتراف من شفتين مطبقتين بشكل يثير التحدي. كان لكل صرخة صداها. كل نقطة تم استيعابها جيداً تساوي ثلاث حقائق مضحى بها. وبما أن كل شيء كان يسير وفقاً لمنطق الحقيقة، فقد كان العكس ممكناً بشكل منطقي أيضاً.

لهذا، كان الهدف من الفصل الذي يختتم الجزء الثاني من رواية *أعوام الكلب* هو الخروج بشيء من الفهم للمخبأ السري للفوهرر، وبطبيعة الحال للمعركة من أجل برلين، التي اتخذت مسارا من الجنون الكلي. إن البحث عن راع ألماني مفقود، يرد على اسم برينتز وقيل إنه المدلل المفضل للفوهرر، قد أوحى لي بلغة تجمع مابين ألمانية هايدغر الملتوية - «العدم ينفي بشكل غير متوقع» - والكتابة الغامضة المثقلة بالأسماء لقيادة فرماخت العليا، التي جرف فيضها اللفظي بعيداً حتى أوهى الاعتراضات: «بحسب أوامر الفوهرر، تؤمر فرقة المشاة المدرعة الخامسة والعشرون بسد ثغرة جبهة كوتبوس والتأمين ضد الاختراق الكلبي.... التمظهرات الأولية للفوهرر ــ الكلب قررتها المسافية distantiality من البداية إلى النهاية»، «.... العدم الذي تقرره المسافية من البداية إلى النهاية يُقر به في فضاء مجموعة شتاينر».... العدم يظهر إلى حيز الوجود بين الجيش المدرع وحرابنا.

لكن حيث كنت، أو كان يفترض بي أن أكون - ثغرة جبهة كوتبوس؟ - لم يكن ثمة حراب أو، فيما يتعلق بهذه المسألة، تماسك عسكري ممكن

Twitter: @ketab_n

إدراكه. كان بإمكان فرقة فروندنسبرغ أيضاً أن تحظى بالاعتراف بها مجموعة شتاينر المشؤومة بوصفها عدما (رغم أنها ربما تكون قد ارتبطت به): لقد اختزلت إلى قلة من الباقين المرصوفين معاً على عجل يستجيبون لأوامر متناقضة. كان كل شيء يتداعى، لاشيء يسير كما خطط له حتى - والآن يبدأ الفيلم مرة أخرى ويدخلني إلى الصورة - منح رامي مدفع الدبابة الوحيد منصباً جديداً في نزوة من سلطة عليا.

أما وقد عالج هذه اليد أحد معارفي القديمين، القدر، فقد وجدت نفسي في مجموعة من اثني عشر إلى خمس عشر رجلاً، بلا مدفعية ثقيلة ولذلك يصنفون كفريق مغير، ينتمون إلى كوماندو الصعود إلى السماء - لفظة عامية يستخدمها الجنود بمعنى كتيبة الانتحار. بما أنني كنت قد نجحت في فقدان بارودتي بالإضافة إلى مشمع التربولين الذي حماني من المطر، فقد أُعطيت بندقية نصف آلية من صنع إيطالي، لو سنحت لي فرصة لأستعملها لكانت في يدين غير أمينتين.

أتذكر لقاء خوذات فولاذية تظلل وجوه رجال كئيبين وصبين خائفين، كان وجهي الثالث بينها من اليسار لو أن أحداً التقط صورة للجندي المفقود. مرة أخرى كان يقودنا رقيب متمرس، ذو كتفين عريضين لكنه ذو سيرة أقل بريقاً. كانت أوامرنا بأن نتقدم وأن نسعى إلى الاحتكاك مع العدو.

كان الغسق يهبط، وبعد عدد من الانطلاقات الكاذبة تجولنا على طريق غابة حولته مسارات جنازير الدبابات إلى مخاضة. كانت المسارات قد أحدثها قبل ذلك بساعات فقط، كما علمنا، رتل من دبابات التايغر وناقلات الجنود المدرعة التي تتسابق نحو الأمام لتخدم كطليعة أمامية متقدمة. لكن عندما حاولنا بصعوبة أن نجعل جهاز الراديو يتصل بهم، كان كل ما جاء عبر جهاز الراديو النقال كلاماً غامضاً وتشويشاً.

Twitter: @ketab_n

كان [مشهد] جذوع الأشجار على جانبي الطريق مكرراً إلى حد كبير، الصنوبرة تلو الصنوبرة، من الصنوبر الشامخ يمينا ويسارا. ربما لم تكن لدينا مدفعية ثقيلة لترجح الكفة لصالحنا، لكننا التقطنا رجلا عجوزاً على الطريق - كان شريط ذراعه يعرفه بأنه عنصر من جيش جبهة الداخل - بالإضافة إلى جنديين مصابين بجروح طفيفة، كانا كلاهما، مثل توأمين، ذوي ساقين يسراويتين عرجاويتين. كان الرجل من جيش جبهة الداخل يثرثر باستمرار حول شيء، يتصارع مع الله أو يشتم جاره؛ الجريحان كان يجب مساعدتهما طوال الطريق وهما شبه محمولين. أحرزنا تقدماً بطيئاً.

بعد مزيد من المحاولات العبثية للاتصال بكتيبة الدبابات، أمر الرقيب بالتوقف. قرر مستخدماً معرفته الواضحة بخط الجبهة أن ينتظر ناقلات الجند المدرعة التي كان متوقعاً أن تتراجع، على أمل أن تؤمن نقل العرجان على الأقل ورجل جبهة الداخل. سنقوم بذلك هذا اليوم بأي حال. لحسن الحظ أنه أفردني لكي أقف حارسا وأمرني بأن أبقي عيني مفتوحتين.

أرى صورة أخرى. أرى نفسي في مخيلتي. أرى نفسي تحت خوذتي المنزلقة. أرى نفسي أطيع أمراً. متحمساً للقيام بعمل صالح.

وهذا ما فعلته، إذ كنت متعباً. لأنه لم يمض وقت طويل حتى لمحت بقعة ضوء في الطريق المار عبر الغابة الذي سوده الليل آنذاك. كان يتفرع إلى اثنين عندما صار أقرب. بعد تسليم تقريري المطلوب - «عربة ذات محرك، ربما ناقلة جنود مدرعة، تتقدم مباشرة!» - وضعت نفسي في منتصف الطريق لكي يكون من السهل تحديدي وأكون، وفقاً لأوامري، مستعداً لإيقاف الدبابة بيد يسرى مرفوعة - نظراً إلى أنني يسراوي.

ربما أتى إعلاني الأول عن الدهشة من حقيقة أن العربة، المقتربة بسرعة، كانت ذات أضواء كاشفة على شعاع كامل، وعندما توقفت

Twitter: @ketab_n

على بعد خطوتين أمامي تحققت من السبب: وحدهم الروس الذين يهدرون أضواء كهذه ....

«إنهم الإيفانات!» صرخت بالمجموعة على جانب الطريق لكنني لم أجد الوقت لأميز رماة البنادق الجالسين وخدودهم ملصقة بأخمص البندقية وهم يسددون على الدبابة المعادية وهكذا قابلت أول جندي سوفييتي وجها لوجه. أخفضت نفسي قبل أن يتمكنوا من إطلاق النار، فغصت في كتلة من أشجار الصنوبر الفتية على يمين الطريق، خارج نطاق الرؤية، وإن ليس خارج نطاق الخطر.

سمعت صراخاً بلغتين طغى عليه فوراً صوت نيران البنادق، إلى أن كان للبنادق الروسية نصف الآلية ما تقوله.

وفيما كنت أزحف شاقاً طريقاً طويلاً عبر أجمة الصنوبر الكثيفة وأزيد مسافتي عن الطريق على نحو بطيء، أطلقت النار علي من اليمين واليسار لكنني لم أصب، وهذا لم يكن هو الحال مع المجموعة الملتفة حول الرقيب: الرجل العجوز لم يعد يشتم الله أو جاره أو يطالب بالانتقام. كانت الأصوات الوحيدة التي سمعتها أصواتاً روسية، صارت الآن بعيدة تماماً. كان شخص ما يضحك. لا بد أنه كان في مزاج جيد.

لأن الأماليد الجافة أحدثت مثل هذا الصخب، توقف رامي الدبابة المعزول وهو يتقدم ببطء نحو الأمام على مرفقيه كما كان قد تدرب على القيام به، ومثل دور الميت، كما لو كان بمقدوره أن يهرب من مسيرة التاريخ ولازال بالإمكان اعتباره، ببندقيته الإيطالية نصف الآلية ومخزنين من الذخيرة، جاهزاً للمعركة. ولم يبدأ بالزحف إلى الأمام مرة أخرى إلا بعد أن بدأت دبابة العدو، التي تبعتها دبابة أخرى، بالتحرك. وتابع الزحف إلى أن تحول غطاء الصنوبر إلى خشب معتق مع صفوف من أرتال الثيران الروسية. لا، لم تكن لدي أية رغبة في أن

Twitter: @ketab_n

أعود وأجد الجثث فقط؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن الأضواء الخافتة وضجيج أصوات المحركات القادمة من الطريق قد أكدت تقدم العدو.

توغلت أكثر فأكثر في الغابة، وكان القمر نصف بدر يشع عبر سماء غائمة بشكل معتدل، فعلاً وبشكل مفاجئ ـ وليس فقط بشكل مرغوب ـ ما يعني أن الجندي المنفرد لم ينطلق بأقصى سرعة في جذوع الأشجار على الأغلب. على كل، كان محاطاً برائحة الراتنج بحيث شعر أنه محوصل فيها، مثل الحشرة التي تناهت إلى الحاضر في قطعة الكهرمان التي أملكها وأزعم الآن أنها تجسدني. فهناك ترقد على الرف مع أشياء أخرى كهذه عثرت عليها، بانتظار أن ترفع إلى النور وتخضع للفحص. فالعنكبوتة أو القرادة أو الخنفساء ستقدم رسالتها، إذا كنت صبورا بما يكفي.... لكن ما الذي أراه عندما أعرض رامي الدبابة الوحيد تحت ضوء الهلال وأنظر إليه كطبعة مبكرة من الإنسان القادم؟

يبدو مثل شخصية خرافية هربت من حكايات الأخوين غريم. إنه على وشك أن يبكي. فمن الواضح أنه لا يحب القصة التي يظهر فيها. إنه يشبه كثيراً شخصية العنوان لكتاب قريب منه يشعر دوماً أن يستطيع أن يمد يده ويلمسه. صحيح: إنه يشعر كأنه بطل من أبطال أسطورة غريملزهاوزن، الرجل الذي يرى العالم متاهة متعرجة من مشفى مجانين لا يمكن الهروب منه إلا من خلال القلم والحبر مثل شخصية تدعى سونوتر. حيلة استخدمها منذ أيام المدرسة: صنع الكلمات لتساعده على الاستمرار في الحياة.

لذلك فإن كل ما يحدث الآن قد تم إنباته في دفيئة الفرضيات. ربما كان ذلك بهذا الشكل أو ذاك، لكن كل ما يمكنني رؤيته هو جوال لا هدف له، يظهر ويختفي بشكل غامض بين جذوع الأشجار ذات المقاس الموحد وخلفها، إلى أن يعاد القبض عليه مرة أخرى من قبل الباحث عن المطلوبين بالصور، بوصفه الجندي ذي الخوذة التي تظل تنزلق فوق عينيه.

Twitter: @ketab_n

لازال مسلحاً، لا زال يمسك ببندقيته نصف الآلية في حالة استعداد. قناع الغاز يتدلى منه بلا فائدة مثل طبل مستطيل. كل ما تركه في جرابه كسرات خبز قليلة من جرايته الأخيرة. مزودة الماء [المطرة] نصف فارغة. ساعة اليد ذات القرص المدرج المضيء من ماركة كينتسله، هدية عيد الميلاد من أبيه، توقفت منذ زمن طويل.

ليته كان يمتلك فنجان النرد الجلدي وثلاث أحجار نرد عاجية زعم أنها كانت بحوزته بعد وقت قصير من نهاية الحرب، ولو كان له صديق من عمره اعتاد أن يقرأ الطالع عندما كانا سجينين معاً في معسكر باد أيبلينغ. كان الصديق يدعى يوزف، كان كاثوليكياً مخلصاً للغاية إلى درجة أنه كان يتمنى أن يصبح كاهناً، أسقفاً، وربما حتى كاردينالاً... لكن هذه قصة أخرى، أصولها مفقودة ولا شغل لها هنا في الغابة المظلمة.

إنه نائم الآن، مستنداً إلى شجرة. ها هو يستيقظ مجفلاً، مع أنه بدون المعطف الذي فقده في ڤايسڤاسر، فإنه لا يشعر بالبرد. الآن يلقي ظلاً مثل جذوع الأشجار لأن الوقت نهار، لكنه لا يستطيع أن يجد مخرجاً من الغابة فيترنح حوله في دائرة دون أن يدري ذلك، يخرج بعض خبز البقسماط من جرابه، يحل غطاء مطرته ويشرب، وهو يرجع الخوذة إلى الوراء فوق رقبته. لا يعرف كم مر من الوقت حتى الدقيقة، وليس لديه أي شيء يساعده في التنبؤ بالمستقبل، لكنه يشتاق إلى صديق، لا اسم له بعد، ويحاول عبثاً أن يكون السيمبليكوس الذي يستطيع الخروج من أي خطر ولذلك يصبح الصائد المشهور عالمياً للسويست، الذي تثمر حملاته الغازية غنيمة دسمة كخبز الرز وفخذ الخنزير الڤستڤالي. الآن ها هو الظلام يحل مرة أخرى وثمة بومة تنعب، وهو، الجائع تحت سماء الليل الغائمة بشكل معتدل، يعلك كسرات خبزه الأخيرة.

Twitter: @ketab_n

سجين الظلام، يتعلم درساً آخر في الخوف: يشعر به جاثماً على ظهره، ويحاول أن يستذكر الصلوات التي كان يرتلها وهو طفل ـ «أتوسل إليك، أيها الإله العزيز، أن تقف إلى جانبي، علني أسكن في الجنة» ـ ويمكن حتى أن ينادي «ماما، ماما» ويسمع صوت أمه المنذر يغريه بالعودة إلى البيت من بعيد ـ «عد يا ولدي، سأطعمك صفار بيضة ممزوجاً بالسكر في كأس!» ـ لكنه يبقى حيث هو، وحده كالعادة، ثم يحدث شيء ما ـ سمعت خطوات أو شيئاً يمكن تصوره على أنه خطوات. أما ليد تتقصف تحت الأقدام. حيوان من نوع ما؟ خنزير بري؟ ربما حتى وحيد قرن. وقفت بلا حراك ولم أصدر أي صوت؛ كان هو أو هي ـ الحيوان ـ إنسان أو وحش خيالي يدب عبر الغابة ـ يتبع المجموعة.

ثم ظهر شبح، اقترب، تراجع، ليقترب مرة أخرى. صار قريباً أكثر مما ينبغي. حاذر لئلا تمضغ بصوت أعلى مما ينبغي. اختبئ خلف جذوع الأشجار. دروس من التدريب العسكري. حرر مسمار أمان السلاح حالما يكون مسمار أمان الرجل الآخر من شبه المؤكد أنه محرر.

رجلان يفترض كل منهما الآخر عدواً. بشكل يمكن تخيله، مضت أعوام عديدة على فكرة لأجل مشهد باليه أو فيلم سينمائي.

مثل المشهد الذي يؤسس الذروة في كل فيلم غربي [وسترن] كلاسيكي: الرقصة الطقسية قبل اللقطة الختامية.

يقال إن الصفير يساعد في طرد الخوف في غابة مظلمة. لم أصفر. شيء ما، ربما كان التفكير بأمي البعيدة، جعلني أغني بدلاً من ذلك. لم أبحث عن لحن من بين المارشات التي تعلمناها، مثل «»ريكا»»، أو أغنيات الأفلام الدارجة، مثل أغنية ماريكا روك بعنوان «لا أحد يجب أن يكون وحده في الليل». لا، كانت ترنيمة حجرة نوم الأطفال ذات صلة بوضعي جاءت إلى شفتي دون طلب مني، وغنيت الشطر الأول

Twitter: @ketab_n

مراراً وتكراراً ـ «هانز ترك البيت، بإرادته» ـ إلى أن سمعت أخيراً الشطر الآخر: «دخل إلى العالم وحده».

لا يمكنني أن أقول كم استمر هذا الغناء التجاوبي. الأرجح أنه استمر إلى أن كانت الرسالة وراء الكلمات ـ ناطقان أصلانيان بالألمانية يتجولان عبر الغابات شديدة الظلمة ـ واضحة بما يكفي لأن تسمح لكلي الجانبين بأن ينزلا غطاءهما، ويخاطبان أحدهما الآخر بلغة جنود ألمان، ومن ثم أصبحا أقرب حتى.

كان شريكي في الغناء مزوداً ببارودة، وكان أعمر مني بعدة سنوات وأقصر مني بعدة سنتيمترات. من رأيته تحت القبعة الميدانية لم يكن لديه خوذة ـ كان رجلاً صغيراً ضئيلاً، وما سمعته كان تشدقاً برلينياً يمكنك أن تقطعه بسكين. ازداد الخوف في اللحظة التي أشعل فيها ضوءاً: سيجارة في وجه متجهم لا يقول شيئاً.

علمت فيما بعد أنه في أثناء الحرب، التي بدأت بالحملة البولندية،لتنتقل إلى فرنسا واليونان، ووصلت بعيداً إلى شبه جزيرة القرم، نال رتبة وكيل عريف، فلم تكن لديه أية رغبة في إحراز أي تقدم آخر. لاشيء كان بمقدوره أن يصيبه، وهي خاصية مميزة لم يطل الزمن في وضعنا المحفوف بالمخاطر قبل أن تبرهن على قيمتها. أصبح ملاكي الحارس رفيق الروح الذي كنت قد رأيته يعمل في غريملزهاوزن، شقيق قلبي: تركني أخرج من الغابة وعبر الحقول وعبر خط الجبهة الروسية.

بما أن وكيل العريف، خلافاً لي، كان قد وصل إلى حافة الغابة في الحقل المفتوح وامتلك بضعة فرص لرصد نيران المعسكر المؤقت في الحقل المفتوح وراءها، الذي حكم عليه بأنه أرض معادية، فقد بحثنا عن مكان غير مضاء بالنار. أي: هو نظر، وأنا بقيت خلفه على بعد خطوتين.

في أثناء التوقف رغى وجهه بالصابون في ضوء القمر المتريث ليحلق

Twitter: @ketab_n

لحيته البالغ عمرها ثلاثة أيام. رفعت لأجله مرآة جيب تعود إلى من هو أعلى مني رتبة.

لم نتخل عن الحماية التي تؤمنها الأشجار قبل أن يقوي شجاعتنا حقل ذو أخدود يؤدي في اتجاه الغرب إلى الظلمة. كان الحقل يبدو مفلوحاً حديثاً وينتهي خلف نتوء في الأرض، تابعنا بعده طريقاً ريفياً محفوفاً بالأدغال يمر فوق جسر على ساقية، كان الجسر غير محروس. ملأنا مطراتنا، شربنا وملأناها مرة أخرى. دخن سيجارة.

بعد اجتياز جسرين في الأسفل ـ هل كان من الممكن أن يكونا رافدين لنهر شبري Spree ـ رأينا وميض نار في البعيد. ضحك، رشقات من الكلمات طفت في اتجاهنا، أشكال ظلية كانت تطير جيئة وذهاباً في الوهج. لا، لم يكن الإيفانات يغنون، ولا كان يبدو أنهم كومة من السكارى اليائسين. نصفهم كان ربما لا يزال نائماً، والنصف الآخر ...

بعد عبور الجسر، سمعنا *Stoi*! ثم آخر.

في الـ *stoi* الثالث ـ كان الجسر لا زال بعيداً خلفنا ـ أصدر وكيل العريف أمره: «اركض، ابتعد بقدر ما تستطيع!».

وهكذا ركضنا، لكننا ركضنا الركضة البطيئة التي كنت أركضها خلال أحلام ما بعد الحرب الكثيرة: عبر حقل،كانت كتله وأتربته تعلق بنعال أحذيتنا، تتناثر، تعاود الالتصاق عليها، ما يجعلنا نبدو كما لو كنا نجري بحركة بطيئة ـ مع أننا كنا آنذاك تحت نار البنادق نصف الآلية وسماء تنفجر بصواريخ الإشارة ـ من خلال تسلسل فيلم ممطوط انتهى أخيراً في غطاء خندق في الطرف البعيد من الحقل.

لم يبذل الروس أو الإيفانات، كما كنا نسميهم، أي جهد لإجفالنا، فانحسر إطلاق الرصاص، وتوقفت الصواريخ. عاود القمر احتلال السماء. قفز أرنب وهو يمر بكسل، كما لو أننا لم نكن مصدر خوف.

Twitter: @ketab_n

وهكذا تابعنا السير بكد عبر الحقول، فلم نعد نعبر جسوراً، وعندما أشرقت الشمس رأينا قرية يبدو أن العدو لم يحتلها بعد. كانت تقبع ساكنة في سديم الصباح، فالتجأنا إلى كنيسة، مسالمة، كما لو أنها سقطت خارج الزمن.

الغريب أنني لا أزال قادراً على تصوير الكابتن في سلاح الفرسان عديم العاطفة، أو بالأحرى الكئيب ذا الأصل النمساوي الذي قابلنا في مدخل القرية خلف متراس ضعيف الحراسة، ولذلك يمكن رسمه أو وصفه كاملاً بتجعدات تحت العينين وشارب مثل فرشاة الأسنان، حتى رغم أننا كنا مكشوفين له ولرجال جبهته الداخلية لدقيقة واحدة فقط. بدا قلقا بطبيعته وقاطع تقريرنا المفصل بعبارة «أروني فقط أوامر مسيركم» اللامبالية، كما لو كان مجرد شعار.

بما أننا بلا أوراق رسمية وكنا خارجين على القانون افتراضيين وكنا علفا للمجلس العسكري، فقد أمر ثلاثة رجال مسنين مسلحين ببنادق صيد وبازوكات بأخذنا بعيداً، فأظهر أحدهم عرضاً كبيراً لكونه عمدة ورئيسا لمنظمة المزارعين المحليين. حبسونا في قبو بيت مزرعة.

من الغريب بما يكفي، أنهم مع ذلك فشلوا في نزع سلاحنا. كان مع ضابط الفرسان كلب صغير ذو ياقة مرصعة باللؤلؤ كان يحمله بين ذراعيه وكان يتكلم إليه بمحبة بالغة كما لو أن لا شيء في هذا العالم، خارج الكلب الهجين الأجرب، كان جديراً بعطفه. قام أحد رجال الجبهة الداخلية الأعرج - ليكشف أين يكمن عطفه الخاص، بدس علبة سجائر مفتوحة لا أدري ما هو نوعها لوكيل العريف.

ولا أعرف اسم القرية التي وصلنا إليها، معافين رغم كوننا جائعين، على الخطوط الألمانية وسنحاكم ميدانياً بشكل مختصر على الفور إن لم يكن قريباً. هل كان من الممكن أن تكون قرية بيترلاين؟ أم ذاك التصغير الحلو لاسم يعود لقرية مررنا بها لاحقاً؟

Twitter: @ketab_n

بمحفوظات معبأة في قوارير، علاماتها مكتوبة بخط سوترلاين الذي تستخدمه الجدات: هليون، خيار غركين مخلل مع بذور الخردل، قرع، بازلاء خضراء، بالإضافة إلى يخنة التوابل بالدم والخل وقلوب وأكباد الإوز. لم تكن المرطبانات حتى مغبرة. كان ثمة أيضاً قوارير من عصير التفاح والخمان غير الصافي، وفي ركن كان ثمة كومة من البطاطا ذات الإنتاشات بحجم الإصبع الصغيرة.

كنا نغرف بالملعقة دهن الخنزير مع قطع صغيرة من لحم الخنزير مباشرة من المرطبان، ونمضغه على الخيار المخلل بصوت طاحن، ونشطفه كله إلى الأسفل بالعصير ولا نتوقف إلا عندما نصل إلى درجة التقيؤ. ثم دخن وكيل العريف سيجارة. كان يفعل ذلك بشكل نادر للغاية، لكنه عندما يفعله فإنه يفعله بمهابة. ومثل أمي البعيدة كان أستاذا في نفث حلقات الدخان. أخرجت قناع الغاز من علبته وملأت العلبة بمربى الفريز أو الكرز. سأعيش لأتأسف عليه.

بالنظر إلى كوننا قد انتظرنا ساعتين لكي يتم استدعاؤنا إلى محكمتنا الميدانية، فإن الحكم المرجح الذي أحجمنا عن مناقشته ـ ربما انزلقنا في غفوة قيلولة بعد الظهر لأنني لا أتذكر الفاصل الزمني كفترة من الوعي ـ جرب وكيل العريف فتح باب القبو. إذ كان غير مقفل. كان المفتاح يتدلى من ثقب الباب الخارجي. لا أحد كان يحرسنا. هل أجفلنا قطاً، إن كان القط موجوداً، أم أفسدنا نومه؟

تمكنا من رؤية المتراس من خلال نافذة المطبخ فوق القبو. كان ثمة رجل من رجال الجبهة الداخلية يدخن غليونه الأخير. فقد انصرف الضابط مع كلبه. لا بد أن القرية قد أجليت في تلك الأثناء، أو أن سكانها كانوا يتظاهرون بأنها غير موجودة، لم توجد أبداً.

كان الضابط إما نسينا أو يمر بنوبة من الكآبة فسلمنا إلى يدي قدر

Twitter: @ketab_n

نزوي. كانت عصافير الدوري تقوم بألعابها الجمبازية على قرم الصنوبر المقطوعة حديثاً على المتراس. كانت الشمس دافئة. فكنت تشعر أنك تود أن تنطلق في الغناء.

على أحد جانبي الكتلة كانت لدينا إطلالة على الحقول لا يعيقها عائق: كان العدو، كتيبة المشاة الروسية، يتقدم في صفوف وقائية. كان ذلك كله يبدو عديم الأذى من بعيد ـ عصبة من التميثيلات ـ لكنه كان لقائي الثاني مع الجيش الأحمر. لم أستطع أن أتبين أية وجوه، لمسافة كانت تقترب خطوة خطوة. ولم تسمع أية طلقة بعد. ربما كان بعض الأشخاص المقتربين ببطء تحت قلنسواتهم وقبعاتهم الفردية وخوذاتهم في سني. اللباس العسكري بلون التراب، الوجوه الطفولية. كان بإمكانك أن تعدهم من اليسار إلى اليمين. كان كل واحد منهم دريئة.

مع ذلك، لم أصوب بندقيتي نصف الآلية، ولا حاول وكيل العريف أن يدافع عن قرية بيترلاين ببارودته. قمنا باقتفاء مساراتهم بلا ضجيج. حتى الإيفانات لم يطلقوا النار بناء على إيعاز وإلا لكنا سنرد بإطلاق النار، بحكم العادة.

لم نتصرف بدافع الحب الأخوي ولم نكن نستحق أي تقدير. كان ما منعنا من التسديد والضغط على الزناد أكثر شبهاً بالمنطق أو بانعدام الضرورة. هذا هو السبب في الزعم الذي سقته غالباً ـ أي، في أثناء الأسبوع الذي جعلتني فيه الحرب واقعاً في قبضتها بشكل قوي. لم أنظر أبداً عبر جهاز التسديد، لم أتحسس زنادا أبداً ـ إنها في أفضل الأحوال طريقة للتخفيف بشكل ارتجاعي من العار، الذي ظل باقياً. مع أن شيئاً آخر يتبقى: حقيقة أننا لم نطلق النار. ما هو أقل يقينا أنني عندما استبدلت سترتي العسكرية بواحدة أقل إرهاقا، هل فعلت ذلك من تلقاء نفسي؟

كان الأكثر احتمالاً هو أن العريف الذي كانت عينه على الحروف

Twitter: @ketab_n

الرونية المكتوبة على الياقة، هو الذي نصح بتبديل السترة وجعل ذلك ممكناً. من غير الممكن أن يكون قد سر بعلاماتي: فمن خلالي، مع أنه لم يضعها بتلك الشروط، كان قد دخل في جماعة سيئة.

ما قاله في لحظة ما، إما في مكان حفظ اللحوم في قبو ما أو في أثناء إرغاء الصابون أو الحلاقة أو فيما كان ينفث دخان سيجارته، «اسمع يا غلام، إذا قبض علينا أولئك الإيفانات، فسوف تتورط في المتاعب بسبب ذلك. إذا رأوا تلك الزخرفات على ياقتك، سيطلقون النار عليك في العنق. لا أسئلة تطرح....».

لا أعرف كيف فعل ذلك، لكنه نجح في «تنظيم» ـ كما اعتاد الجنود أن يقولوا ـ سترة ڤرماخت في مكان ما. سترة بلا ثقوب رصاص أو بقع دم. كانت حتى مطابقة لمقاسه. بتلك الطريقة، ناقص الرون المضاعف، أحبني بشكل أفضل بكثير. صرت أحب نفسي أفضل، أيضاً.

لذلك تأملوا أنه كان ملا كي الحارس. فمثلما كان لسيمبليكوس رفيق روح إلى جانبه كلما كان في خطر، كذلك كان بإمكاننا أنا وصورة ذاتي المنمقة من جديد أن نعول على عريفي.

البعد هو دائماً قبل. ما نسميه الحاضر، هذا الآن الآن الآن العائم. يظلله بشكل ثابت ماض يهرب الآن بطريقة ما من المسار المعروف باسم المستقبل الذي يتم السير إليه بأحذية ذات نعال رصاصية فقط.

أنا المثقل على هذا النحو وعلى مسافة ستين عاماً، أرى ذا السبعة عشر عاماً مع علبة قناع الغاز المنتفخ بشكل غير لائق الذي لم يعد يؤدي وظيفته الأصلية، وسترة بذلة نظامية مفصلة مثل السترة الجديدة تفعل كل ما هو ممكن للالتحاق بالوحدات التي تتدفق عائدة عبر ألمانيا جنباً إلى جنب مع وكيل عريف سخيف جلف رأى ذلك كله ولن تخمنوا أنه حلاق بالمهنة. كلاهما يشقان طريقهما بشكل متكرر حول «الكلاب

Twitter: @ketab_n

الدمومة». ثمة دائماً حفر للعثور عليها. ليس من السهل التعرف على الجبهة. لكنهما ليسا سوى إثنين من بين آلاف الجنود الذين أضاعوا أفواجهم. وأي فوج يكون يائساً لدرجة أن يأخذهما بلا أوراق.

ثم، على الطريق من سفنتنبرغ إلى شبرمبرغ، المحتشد بالأحصنة والسيارات المليئة باللاجئين، كلاهما بنفس لباس المعركة الميداني الرمادي، مع أنهما غير منسجمين للغاية، يستغلان الزحام للتفاوض على شراء وثيقة رسمية، أوامر المسير المانحة للحياة، في مركز التجميع المرتجل، الذي يكون خارجاً في العراء على جانب الطريق ويتألف من طاولة وكرسي. وثمة بعض الورق المطبوع على الطاولة. الرقيب أول المنهك من الحرب على الكرسي لا يطرح أية أسئلة، يكتب بسرعة، يمهر ختمه. أنا أتقيأ الحكاية التي طبل بها العريف لي.

نحن محميون الآن: ننتمي إلى جماعة قتالية مشكلة حديثاً. صحيح، أنها لا توجد حالياً إلا على الورق، كوعد غامض، لكن يمكننا أن نرى مطبخاً ميدانياً متنقلاً، خرسانياً بالكامل - مدفع اليخنة، باللغة العامية للجنود - أقيم في المرج خلف الطاولة، يتصاعد البخار من ركوته، الذي تنطلق منه رائحة الحساء.

ننضم إلى الطابور. كلنا معاً. ولا يجوز حتى للضباط أن ينزعوا الرتب. تأتي النهاية، القدر يطفح في لحظات الفوضى الخالية من الرتب.

لدينا حساء البطاطا مع قطع اللحم العائمة فيه. يغرف الفتى المكلف بتوزيع الطعام لكل واحد منا مغرفة من القاع، ثم نصف مغرفة من الأعلى. صفيحة الطعام التي كان كل واحد منا يحزمها على حقيبة الظهر هي بالحجم المناسب تماماً. المزاج لا هو هابط ولا هو مرتفع. طقس نيساني نموذجي. الشمس محجوبة.

نحن الآن في موجهة بعضنا البعض. ملاعقنا تتحرك بإيقاع،

Twitter: @ketab_n

«هـاي»، يقول أحدهم على بعد خطوات قليلـة، دون أن يكسـر إيقاع ملعقته. «أليس اليوم هو عيد ميلاد أدولـف هتلـر؟ لـذلك فـأين الحصـة الإضافية من الطعام؟ والشوكولاته والسجائر، وجرعة من البرانـدي مـن أجل الخبز المحمص!». Heil، mein Fuhrer الآن يحاول شـخص أن يروي نكتة، لكنه يصبح كلـه مشوشـاً. ضـحكة معديـة. تنطلـق نكـات أخرى قليلة. مشهد سلمي. كل ما هو مطلوب هو عازف أكورديون.

«ماذا يسمون هذا المكان؟».

«لوزاتيــا!».

يلقى هذا صدى لدى شخص ما. «إنه مكان الفحم البني....».

في ربيع 1990 حظيت بالفرصـة لزيـارة بعـض البلـدات والقـرى في منطقة كوتبوس وشبرمبرغ، غير البعيدتين عن برلين. ولما كنت متحمساً لأن أدون على الورق كل ما حدث هناك في الآونة الأخيرة، فلم أستطع إبعاد أفكاري عن الماضي.

في أثناء ذلك بدا كما لو أن التوحيد يمكنه آنذاك، إذا لم يهـزم، في أثناء التقارب التـدريجي علـى الأقـل، أن يعـوض عـن إحـدى تبعـات الحرب، تقسيم ألمانيا إلى بلدين على مدى أربعين عاماً. الإمكانية، التي بدت معجزة، كشفت عـن نفسـها علـى الأقـل. وبمـا أن النـاس كـانوا يعتقدون أنه لم يحن الوقت لأجل العمليات الطويلة الأجل فقد كان على الشرق الفقير أن يقترب من مستوى الغرب الغني، وبأسرع مما يجب.

قمـت بـرحلتين إلى المنطقـة، في المـرة الأولى أقمـت بضـعة أيـام في كوتبوس، حيث كان حشد من ممثلي شركات الأعمال، رواد الاسـتثمار الرأسمالي، قد فرضوا حصاراً على الفندق؛ في المرة الثانيـة، عنـد قـدوم الصيف ـ في ألتدوبيرون حيث وجدت سريراً وفطوراً مع أرملة وابنتهـا. كانت البلدة المتباهى بها قلعة وأراض، مصنعاً لم يعـد يعمـل، ومخزنـاً

Twitter: @ketab_n

تعاونياً، وعيادة نسائية، ومقبرة في ساحة الكنيسة لأجل الجنود السوفييت، قبورها مرتبة في صفوف أنيقة. كان ثمة مطعم لا زال يقدم السوليانكا الروسية، لكنك تستطيع الآن أن تشطفها بالبيرة المجلوبة من بافاريا. لم يأتِ إصلاح العملة بعد، لكن بيع البلد المستولى عليه سلمياً كان جارياً: كانت أعلام الشركات الغربية ترفرف في كل مكان. لكنها كانت البيئة التي أهتم بها. فحيثما تطلعت، كنت أرى خرائب عشرات السنين من استخراج الفحم البني. فحيث كان الفحم عميقاً في الأرض كما هو خلف القلعة، ثمة الآن مشهد قمري: مشهد غيبي، تلال مخروطية من الأثقال بين برك ماء الأرض الراكدة. ولا طير في المشهد.

كان المقلع خلف العيادة النسائية يمنح إطلالة جيدة، فغطيت الصفحة تلو الصفحة برسوم قلم الرصاص والفحم. تابعت من ألتدوبرن الانتقال إلى ما تبقى من قرية بريتسن وفيما بعد إلى صفوف المداخن وأبراج التبريد العائدة إلى مجمع المضخة السوداء الصناعي المشؤوم.

سرعان ما امتلأت لوحة الرسم - عشرين طلحية من ورق اينغرز المقوى. فقد رسمت السيور الناقلة المحفورة بشكل عميق للغاية في الأرض بحيث كانت تبدو مثل الكرش. كانت مكاشط الفحم هنا وهناك، تجثم على حواف الحفر مثل الحشرات، فأمدتني بموتيف تلو الآخر.

كشفت لي هذه النظرة إلى الهاويات التي أحدثتها الأيدي البشرية أكثرٍ مما يبدو للعين وتعبر عنه الكلمات بحيث أنني فيما بعد، في **رواية بعيداً عن الميدان** Too Far Afield، رسمت الخطوط العامة لأفق تشريق الغرب والأفكار القاتمة الأخرى من الأعماق. مع ذلك، في حينه، بين لوحتين بدأ الفيلم يدور إلى الوراء، وكنت، كما أنا الآن، أرتد على أعقابي.

على الطريق من سنفتنبرغ إلى شبرمبرغ يجب أن تحدد موقع رامي مدفع دبابة عابر للزمن يقف إلى جانب عريف ذي تشدق برليني يمكنك

Twitter: @ketab_n

قطعه بسكين، يحدق مشدوها إلى المحيطين به ويكشر. لا يمكنني أن أحدد مكان فتى الإطعام وهو يغرف حساء البطاطا، لكن المجند والعريف يواجهان أحدهما الآخر بصفيحتي طعام نصف مملوءتين.

تحرقني الآن شمس حزيران كما كانت تحرقني نظيرتها النيسانية. أرانا الآن نلعق حساءنا في انسجام. نقف قرب شارع يوجد فيه رتل من الدبابات التي تحاول التقدم وصد الهجوم يعوقها رتل من اللاجئين الذين يتقدمون في الاتجاه المعاكس. لا يوجد متسع للمناورة على أحد جانبي الطريق. قشرة الأرض تتشقق.

في الأسفل، تمتد منطقة مناجم الفحم البني على طول الطريق المؤدي إلى المقلع المقابل، الذهب الأسود في انتظار أن يضغط إلى قوالب ويرسل إلى محطات الطاقة في الحرب كما في السلم. كانت لوزاتيا معقلاً للتعدين ذي الحفرة المفتوحة وبقيت كذلك حتى العام الذي هدم فيه الجدار وذهبت إلى هناك وشاهدت أكثر مما يبدو للعين.

ثم، خيم السكون على مخاريط الركام وبرك الماء الأرضي. كان كافياً تماماً، فيما كنت أجلس لأرسم منظر المنجم المفتوح في أكثر الحواضر حضوراً، بالنسبة لي لكي أعيد إدارة أذني إلى صراخ قادة الدبابات، وهدير محركات مايباخ، صراخ اللاجئين في عرباتهم، وصهيل خيولهم، وبكاء أطفالهم، بل أيضاً إلى ضربة الخاتم المطاطي للرقيب وقعقعة ملاعق الصفيح ـ كنا نكشط آخر النتف عن علب طعامنا الصفيحية ـ وأخيراً إلى الانفجارات الأولى لقنابل الدبابات السوفييتية. بين تلقيم واحدة وأخرى، قال العريف، «تلك هي T-34S». «T- 34S» قال صداه. أنا.

على الجانب المقابل من الطريق ظهر عدد من الدبابات من الغابة وبدأت تتسلق المقلع العميق. كانت صغيرة مثل الدمى، وقفت وأطلقت النار. كانت حركة المرور في الشارع قد توقفت، مقدمة لنا العدو هدفاً

Twitter: @ketab_n

سهلاً، صارت الطلقات أكثر قرباً. كان على دباباتنا من طراز ياغدبانتر أن تستدير قبل أن يكون بمقدورها أن ترد. الأوامر التي تتنافس مع الصرخات، دباباتنا تدفع السيارات الملزوزة بفعل الزحام وركابها والأحصنة فوق حافة الطريق إلى حفرة المقلع فتكوموا فوق بعضهم البعض مثل الأشياء الصغيرة.

الآن أرى ملازماً وسيماً يومئ وهو يتكلم خارج برج دبابة مفتوح كما لو أنه يحاول تغيير اتجاه السبطانات بيديه العاريتين، أرى الفلاحين السيليزيين يرفضون أن يدعوا أملاكهم تذهب؛ أرى الأطفال الذين يشبهون الدمى على عربات تنزلق عن الطريق، أرى النساء يولولن لكنني أفشل في سماع صرخاتهن، أرى القنابل اليدوية تنفجر، بعيدة أحياناً وقريبة أحياناً أخرى - تجد أهدافها بصمت - كي لا أرى، أحدق الآن في بقايا الحساء في صفيحة الطعام؛ فمن ناحية أولى، لا أزال رجلاً جائعاً، ومن الناحية الأخرى، أنا مراقب مشدوه، مجرد شاهد، لا مشارك في الفعل الشبيه بالفيلم الصامت؛ والآن، بجرة قلم أصبحت غريملزهاوزن الشاب، الذي ينسج قصة تلو الأخرى، معركة تلو الأخرى، عبر الأعوام الوحشية للحرب، ثمة همس غريب في أذني، أرى نفسي أراقب كل ما يحدث. أبدو كأنني أحلم لكنني مستيقظ وأظل مستيقظاً، إلى أن تطير الخوذة، ورباطها يرفرف الآن، عن رأسي الآن، هذه اللحظة بالضبط، وحواسي تتلاشى.

لمدة لا تتجاوز اللحظة، بقدر ما يمكن قياس الوقت، ما حدث لي وحولي بعدئذ بدقيقة يومض وينطفئ بصور حادة ثم غائمة بشكل مخيف. لقد ذهب كل شيء سوى صفيحة الطعام الفارغة، وذهبت أيضاً ساعة اليد من ماركة كينتسله.

أين عريفي؟ أين البندقية نصف الآلية، مخزناً الذخيرة؟ لماذا لا أزال واقفاً - أو أقف مرة أخرى؟

Twitter: @ketab_n

الجرح النازف بشكل سيء في فخذي الأيمن يبلل سروالي. الألم في ذقني الذي سببه رباط الخوذة. ذراع رخو يتدلى من كتفي الأيسر يرفض أن يمتثل عندما أحاول رفع عريفي، بمساعدة شخص آخر ـ ها هو!

تفتتت ساقاه إلى نتف. جذعه سليم ظاهرياً. عيناه مفتوحتان على اتساعهما، مذهولتان، غير مصدق.

ثم هبت دوامة من الرمل حولت نظري إلى المطبخ الميداني، الذي لا زال يتصاعد منه البخار، سالماً، حيث بقي إلى أن تم زجنا في سيارة إسعاف ميدانية ـ هو محمولاً وأنا مسنوداً. يصعد ممرض إلى الداخل. تُرك ضحايا آخرون، كانوا يشتمون، أحدهم يلح على المجيء معنا ويتعلق بالسيارة.... أخيراً يُغلق الباب ويرتج.

ندمدم على طول الطريق، المؤدي بشكل مفترض إلى مركز الإسعاف.

رائحة الليسول. لا بد أنني شعرت بالأمان في سيارة الإسعاف. كانت الحرب قد أخذت استراحة. بأي حال، لم يحدث الكثير من الأشياء، خصوصاً عندما كنا بطيئين للغاية في العثور على الطريق. استلقى العريف على ظهره. وجهه المتألق، الوردي، الأملس سابقاً ـ نتيجة للحلاقات المتكررة ـ مدبوغاً بالأخضر، وشعر اللحية قد بدأ بالظهور. كان يبدو أنه قد انكمش. كانت ساقاه مضمدتين، ملفوفتين بالشاش.

تمدد، مستيقظاً، على سرير من ألواح الخشب، وهو ينظر إليّ من زاوية عينه، ورأسه منتصب، يحاول أن يصيغ كلمات، وأخيراً، في نسخة لطيفة من تشدقه، نجح في طلب سيجارة. ناولته واحدة من العلبة المجعدة في جيب صدريته، مع ولاعته.

أنا، اللامدخن، أشعلتها لأجله وألصقتها بين شفتيه. توقفت الشفتان فجأة عن الارتعاش. أخذ مجات شرهة قليلة، أغمض عينيه، لكنه سرعان ما فتحهما برعب، كما لو أنه لم يفهم هذه الحالة إلا

Twitter: @ketab_n

عندئذ. آنذاك رأيت الخوف مكتوبا على وجهه، فصعقني ذلك. ثم، بعد فاصل زمني، سمعت في أثنائه أنات الجرحى وشتائم الممرضين.

كان قصيراً على الشاش - واستغربت حالتي الخاصة الخالية من الألم بشكل شاذ، سألني العريف، لا، أمرني أن أفتح سرواله وسرواله الداخلي أيضاً وأمد يدي وأتفحص ما بين ساقيه.

أما وقد تلقى إثباتاً بأن كل شيء موجود ومفسر، أطلق أنة هادئة، أخذ مجات أخرى، ثم أطلق نفثاً، تنفس بهدوء، وبدا ساكناً.

بعدئذ باثني عشر عاماً، حين كنت أصف الدفاع عن مكتب البريد البولندي، جعلت يان برونسكي يقوم بنفس فحص السروال، أي، أن يثبت الرجولة السليمة للحمال المحتضر بشكل ممانع بأصابعه الخمس.

فُصلنا في مركز الإسعاف: وضع هو في خيمة، فيمت تركت أنا في العراء. عندما حان الوقت لتضميد فخذي، أصبحت مادة للضحك للسبب الواضح التالي: علبة قناع الغاز، التي كانت لا تزال مربوطة بي، كانت قد انزلقت وانفتحت بفعل شظية قنبلة بطول إصبع وانفلشت محتوياتها وصنعت «خبيصة» من مربى التوت البري أو مربى الكرز على سروالي. منذئذ فصاعداً، كانت مؤخرة سروالي تلتصق بيٍ كلما جلست. مع مرور الوقت، اجتذبت النمل، الذي لم يكن أمرا مضحكاً. بقيت علية قناع الغاز المتأذية في مركز الإسعاف. أما شظية القنبلة السوفييتية، التي كانت قد وفرتني وبالتالي منحت الأب المستقبلي للأبناء والبنات منزلة الناجي، فقد كنت أود أن أريها بكل جلالها لأولادي ولأولادهم. فأنت ترى أمامك مثالاً واضحاً على ما كان علي أن أجتازه كرجل مجند لكي أنال طعم القلق، أتعلم معنى الخوف. انظروا، أيها الأولاد. انظروا ما أطول الشظية وكم هي مفرضة.

لم يضمدوا كتفي الأيسر إلا بعد أن ضمدوا الفخذ، فقد كان كتفي

Twitter: @ketab_n

بالكاد ينزف، مع أنه كان من المرجح أن جسما غريبا مصنوعا من المعدن، مهما كان صغيراً، قد استقر هناك. كان الثقب الذي أحدثه في سترتي العسكرية الجديدة غير مرئي. وكان الذراع المتدلي الآن مسنوداً بمعلاق. بما أن مركز الإسعاف صدف أنه في الجوار المباشر لساحة الصف، فقد فاتني أن أحتفظ بصورة للمراكز الوسيطة. من المؤكد أن الحرب في كل مكان حولي قد توقفت بشكل مفاجئ لي.

نقلنا على متن القطار في ذاك المساء. لا بد أنها كانت ليلة العشرين إلى الحادي والعشرين من نيسان، لأن طبيب الجيش والمرضين وزملائي الجرحى السائرين كانوا يطلقون نفس الشكاوى التي كنت قد سمعتها تنتقل من شخص إلى آخر حول المطبخ الميداني في عصر ذاك اليوم: أين كانت الأشياء الإضافية التي كانوا يوزعونها كل عام في عيد ميلاد الفوهرر؟ لا سجائر، لا سردين، لا زجاجة دوبلكورن لكل أربعة رجال، لاشيء. وجد كل الجنود ـ حتى أنا، اللامدخن ـ هذا الوضع أكثر إزعاجاً وذا أهمية أكبر من سقوط الرايخ الألماني الذي يحدث بشكل واضح من حولنا. كانت التأوهات والأنات متبلة بشتائم لم أسمع مثلها من قبل.

لم تكن لدي أية فكرة عن وجهة قطار الشحن الذي كنت أستلقي فيه مع كل الجرحى. كان القطار يقوم بتوقفات متكررة طويلة لانهاية لها وقصيرة أحياناً وقد حول مساره بضع مرات إلى سكك مختلفة. سرعان ما حل الظلام في الخارج. كان الضوء الوحيد الذي كان لدينا يأتي من مصباح أستيلين بدائي.

استلقينا على قش عفن تفوح منه رائحة البول. الرجل على يساري، وهو عنصر من القوات الجبلية يضع عصبة حول رأسه. كان يقرأ كتاباً دينياً على ضوء وميض مصباح الجيب. كان يحرك شفتيه. أما الرجل على يميني فقد أصيب بطلقة في المعدة وكان يتلوى ألماً ويصرخ إلى أن

Twitter: @ketab_n

يتلوى ألماً ولم يعد يصرخ. لم يكن ثمة ماء لنحصل عليه. لا ممرض ليرعى الجرحى. أصوات ونشجات، سواء كان القطار يتحرك أم لا. سكتات مفاجئة بعد الأنة الأخيرة.

صلى جاري إلى اليسار بصوت يكاد لا يُسمع. رجل جننه الألمٍ فمزق ضماده، قفز، سقط، عاود القفز ليسقط مرة أخرى ويبقى هامداً. أما الرجل إلى يميني فقد توقف عن الحركة دفعة واحدة.

بدا أن الليل لا ينتهي أبداً؛ فقد استمر في أحلامي عبر السنوات الأولى بعد الحرب. لا، لم يعد لدي ألم بعد، لكنني نمت بشكل متقطع، وأنا أجفل في كل مرة أستيقظ فيها، حتى غططت أخيراً في نوم عميق، لا أعرف كم استمر.

عندما جاء قطار الشحن إلى موقفه النهائي، أُنزلت البضائع، والأحياء والموتى (جاري ذو المعدة المجروحة)، وقام طبيب عسكري بتدقيق أسمائنا على اللائحة، فارزاً المجروحين بشكل خطير عن الباقين. كانت نظرة واحدة منه تكفي. لم يستغرق الأمر وقتاً على الإطلاق.

كانت مايسن بلدة الكاتدرائيات القديمة وغير المتضررة بشكل إعجازي تستلقي مستحمة في ضوء الصباح الربيعي. صحيح، كما تقول الأغنية الشعبية، أن العصافير كانت كلها هناك. أولئك الجرحى، بمن فيهم أنا، الذين كان بمقدورهم أن يتناولوا بنهم كؤوس العصير التي كان يمررها ممثلو رابطة الفتيات الألمانيات، هم الذين كانوا معتادين بشكل واضح على القطارات ذات هذا الصنف من المحتوى.

نقل الجرحى ذوو الجروحِ الخطيرة في شاحنات؛ أما الباقين منا، الذين كنا نسند بعضنا بعضا، فقد عرجنا على امتداد الطريق المؤدي صعوداً إلى القلعة، التي حولت إلى مستشفى عسكري. اصطف المحليون، وغالبيتهم من النساء، على جانبي الطريق، وكان الكثيرون منهم

Twitter: @ketab_n

يساعدون العاجزين. أتصور نفسي وأنا أصعد التلة بمساعدة امرأة شابة.

في العام المنصرم، كان ابني الأكبر فرانتز لازال يغامر منذ حوالي أربعين عاماً بحيث ظلت أهدافه متغيرة، وبنتي الصغرى نيله، التي كانت في درسدن تتعلم المهارات التي تحتاجها لتصبح قابلة قانونية في حين تحاول إبقاء شؤون قلبها طي الكتمان. قاما برحلة حج عائلية إلى مايسن المستعادة حديثاً. أرسلا لي منظراً على بطاقة بريدية متألقة للبلدة مرفقة برسالة يمكن قراءتها كعلامة حب بنوي: لقد أشعلا الشموع في الكاتدرائية تخليداً لذكرى نجاتي بالصدفة.

لقد فعل بي أي شيء سوى العناية هناك في القلعة. فقد كان المستشفى مليئاً حتى الانفجار، ممراته مكتظة بنقالات الطوارئ. الأطباء المنهكون، المرضات المستعجلات. كل شيء كان ناقص المخزون وخصوصا الدواء. كل ما كان بوسعهم فعله لي هو أن يضعوا ضمادات جديدة على فخذي الأيمن وكتفي الأيسر، الذي استقرت فيه شظية قنبلة صغيرة ـ وكان ذلك في ذاك الوقت رسمياً، مثبتاً بوثيقة موقعة ومختومة. لم يروا أنني أستحق أية عملية، ولم يضيعوا علي حقنة مضاد للكزاز.

أعطينا مخصصات طعام للمسير كافية لملء الحقيبة التي نجحت في تعليقها..... الشيء الوحيد الذي خسرته هو ساعة اليد. لكنني كنت آنذاك أرتدي قلنسوة ميدانية. قلنسوة لائقة. ما كنت لأفكر بتبديل السروال، فقد كان أسفله اللزج يشكل إحراجاً.

أخيراً، بالتوازي مع وثيقة تعدُ بالحقنة وبسروال، جرى تسليمي أوامر مسير جديدة، إلى وجهتي الأخيرة مارينباند. ثم مركز مستشفى ميداني، كان فيما مضى منتجعاً لأجل الأغنياء والمشاهير، اشتهر كثيراً في الأدب ـ كان غوته، عندما كان عجوزاً، قد وقع فيه في حب فتاة صغيرة هناك، فصُد بفظاظة. وقد صعد حزنه في «مرثية مارينباند» ـ كانت تقع على الطرف البعيد من جبال أوره، الممتدة عميقاً في الزوديتنلاند.

Twitter: @ketab_n

فيما كنت أنتظر الأوامر ـ كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها إثبات هويتي ـ فقد أخرج العريف من غرفة العمليات على كرسي ذي عجلات. صار أنفه أكثر تدبباً. كانت المرة الأولى التي أرى فيها ملاكي الحارس غير حليق. جذع بلا ساق ملفوف بالشاش تدحرج وهو يغط في النوم، تاركاً خلفه السؤال عما إذا كان خروجه من ذاك النوم مرغوباً أم يُخشى منه.

سيق إلى كوريدور جدرانه مزينة بأسلحة يعود تاريخها إلى العصور الوسطى: مطارد، أقواس نشابية، فؤوس حربية، سهام، نبوتات، سيوف محزومة معاً، وبنادق مسكيتات ربما يعود تاريخها إلى عصر غريملزهاوزن الذي مزقته الحروب ـ ترسانة من المصنوعات اليدوية التي اخترعها الإنسان لأجل التعامل مع زميله في لحظات شتى من التاريخ.

راقبت عريفي وهو ينصرف. إن صورته وهو يُدفع بصمت على عجلات، التي يمكنني استحضارها متى شئت، تتوقف فجأة عند السؤال عما إذا كان لازال حياً وإن كان كذلك، أين يسكن. أما فيما يتعلق باسمه فهو لم يخبرني به أبداً، ويجب أن يبقى مكتوما.

كنت جندياً حسن التدريب، فلم أكن أخاطبه إلا كعريف: الهر اوبرغفرايتر، سواء كنا في غابة الصنوبر الداكنة أم في القبو المملوء بالأغذية المحفوظة. كان أعلى رتبة مني، وكلما تهت عن الطريق المستقيم والضيق كان يعيدني إلى الصواب باستعمال الضمير الرافع للكلفة du، لكنه يخاطبني بوصفي رامي مدفع ـ لم تكن نبرة صوته تحتمل أية ألفة.

هذا هو السبب في أنني أتردد في الوثوق بذاكرتي، التي تجعل اسمه هانز تيمناً ببطل أغنية الأطفال التي كنت أغنيها له في الغابة المظلمة إلى أن يرد علي غناء، وهو ما كان يجعله يشير إلى نفسه باسم هاينشن

Twitter: @ketab_n

ويقول في سيارة الإسعاف، متلهفا لمعرفة وضع أعضاء معينة من الجسم غير قابلة للتعويض ووضعه الحالي كرجل. لا، لاشيء مفقود. لكن ملاكي الحارس لم يكن رفيق روح خاص به. لولاه لكنت قد اعتقلت. كلما كان الخطر يحوم في الجو، كان يقول «انتبه لئلا تعتقل، أيها الرامي».

في أثناء أعوام ما بعد الحرب الأولى وحتى فيما بعد، طالما كان الأبترون في كراسي ذات عجلات جزءاً من مشهد شوارعنا أو يمنحون وظائف وهم جالسون إلى طاولات يختمون أوراقاً، لم أستطع أن أتمالك نفسي عن التساؤل، هل هذا هو نفسه؟ هل كان من الممكن لذاك الضئيل ألا يسري على بيروقراطي يتشدق بالأسئلة دون أن يتطلع إلى الأعلى ويصدر لك جواز المرور الذي تحتاجه للذهاب إلى برلين - شارلوتنبورغ، هل يمكن أن يكون هنشن ذا اللكنة البرلينية؟

ليست لدي أوهى فكرة كيف سافرت عبر جبال اوره. قطعت بعض المسافات بالقطار وبالعربة والحصان - نظراً إلى أن القطارات كانت نادرة آنذاك - عبر القرى التي تهرب أسماؤها مني الآن.

ذات مرة كنت جالساً في شاحنة مفتوحة تشغل بالحطب والغاز كانت تشق طريقها صعوداً إلى التلة عندما انقضت طائرة مقاتلة قاذفة أميركية فجأة واشتعلت الشاحنة باللهب بعد ثوان من قفزي منها وتدحرجي إلى خندق على جانب الطريق: كنت قد رأيت الطائرة قادمة. لو صور المشهد من أجل فيلمٍ متحرك عنوانه /عندما تداعى كل شيء/ لكان عليهم أن يستعملوا قزماً من أجل دوري.

ثم - فراغ مطلق - لا شيء لربطه بالحبكة. فقد نجحت بشكل ما في إحراز تقدم. ولم أنحرف أبداً عن أوامر مسيري. كانت الطرق الجانبية خارج المسألة. أمضيت ليلة واحدة في الجبال مع زوجين كانا يربيان الأرانب خلف المنزل. كان الرجل وزوجته معلمين. كنت قد بدأت

Twitter: @ketab_n

أصاب بالحمى فعرضا علي أن يعتنيا بي، وأن يعطياني ثياباً مدنية ويخفياني في القبو إلى «أن ينتهي كل شيء»، كما قالا. إن ابنهما، الذي رأيت صورته المدبوغة بالأسود في صندوق كتب، قد سقط في معركة سيفاستيبول. كان شاباً في حوالي العشرين من عمره. كانت ملابسه من مقاسي. استطعت أن أمد يدي وأنزل كتبه. كان مثلي، كما استطعت أن أرى من الصورة، يفرق شعره إلى اليسار.

لم أمكث. أردت أن أذهب إلى حيث كانت أوراق سفري تأمرني بالذهاب، أن أعبر الجبال بسروالي الخاص، الذي كف عن جذب النمل إليه بعد غسيل شامل. وقف الزوجان أمام كوخهما ذي السقف المصنوع من ألواح الخشب وراقباني وأنا أختفي.

وقمت بالرحلة، السماء تعرف كيف، طوال الطريق إلى كارلسباد، ذاك المنتجع الآخر ذي الدلالات الأدبية والسياسية - نظراً إلى صلته بمترنيخ - وحيث سقطت على ركبتي في الشارع ولم أقدر على النهوض.

أصبت بالحمى. ربما كانت ناتجة عن شظايا القنابل في كتفي أو عدم وجود حقنة من مضاد الكزاز. كان ذراعي الأيسر في ذاك الوقت متيبسا حتى أناملي، لكنني لا أتذكر أنني كنت أتوجع.

كان شيئاً حسناً أنني كنت أحمل وثيقة مختومة بشكل نظامي، لأنني سمعت أن أحد الكلاب الدمومة السيئ الصيت كان معروفاً عنه أنه يصعد إلى الجنود المستلقين في الشارع ويدقق فوراً في أوامر مسيرهم، الورقة الوحيدة التي يحملونها. الشرطي العسكري الذي التقطني تتبع أوامر مسيري حرفياً حتى رغم أن محطتي الإقامة كانتا مركزي استشفاء معروفين - كما يبدو فإنه طواني فوق المقعد الخلفي لدراجته النارية - كنت واعياً. وثقني وقادني إلى مارينباد المجاورة، حيث كانت الحرب بالنسبة لرامي دبابة بانزر قد انتهت بالفعل، والخوف تبخر منه؛ مع ذلك، عاد الخوف ينتاب نومي، حيث اتخذ إقامة طويلة الأمد.

Twitter: @ketab_n

ضيوف على المائـدة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في الوقت الذي أنزلني الشرطي العسكري في مارينباد ووُضعت، وأنا لا أزال محموماً، في سرير معد حديثاً، لم يعد الفوهرر موجوداً. كان الخبر المتناقل هو أنه قد سقط في المعركة الأخيرة من أجل الرايخ، من أجل برلين. اعتُبر رحيله متوقعاً فقط. ولم أفتقده بشكل خاص، نظراً إلى أن هيبته التي يحكى عنها غالباً ولا يُشك فيها كانت لا تساوي شيئاً تحت أيدي الممرضات الأكثر انشغالاً دوماً، اللواتي لم تنحرف أصابعهن خارج ذراعي الأيسر الذي تحسس مع ذلك كل عظمة من جسدي.

ولم أعان فيما بعد من أعراض الانسحاب ـ فقد شفي جرحي وكنت واحداً من الآلاف في الشبكة المترامية بعيداً من معسكرات أسرى الحرب، أولاً في بالاتيناته العليا، ومن ثم تحت السماوات البافارية. لقد ذهب كأنه لم يكن، لم يوجد أبداً وسينسى الآن، كما لو كان بمقدورك أن تعيش جيداً بشكل كامل دون الفوهرر.

بالمحك نفسه، ضاع «موته البطولي» في زحمة الميتات الفردية وسرعان ما صار ليس أكثر من هامش. الآن بات بمقدورك حتى أن تؤلف النكات عنه، عنه وعن عشيقته، التي كانت كل شيء سوى أن تكون مرئية حتى ذاك الوقت لكنها الآن جيدة من أجل شائعة أو اثنتين. كانت أكثر ملموسية من شخصيته، حيثما كان من الممكن أن يكون، كان الليلك المزهر في حديقة المستشفى في أوائل شهر أيار.

Twitter: @ketab_n

كان كل ما حدث في المستشفى العسكري أو بعد ذلك بوقت قصير في معسكرات أسرى الحرب يبدو أنه قد نجا من تكات الزمن. كنا نتنفس داخل فقاعة من الهواء وكل ما كان حتى وقت قريب للغاية مقبولاً كحقيقة كان بالكاد موجوداً فقط. كان ثمة يقين واحد فقط: أنني كنت جائعاً.

كلما سألني أولادي وأحفادي عن التفاصيل حول نهاية الحرب: «كيف كان ذلك إذاً؟» أجبت بدرجة قصوى من الثقة بالنفس: «منذ اللحظة التي كنت فيها خلف الأسلاك الشائكة، كنت جائعاً». لكن ما ينبغي أن أقوله في الواقع هو أن الجوع احتلني مثل بيت فارغ، متمسكاً بمكانه سواء كنت في الثكنة أم في العراء تحت السماء المفتوحة.

إنه ينهش. إننا نتحدث عن الجوع الذي ينهش. والشاب الذي هو أنا أحاول أن أتصوره كنسخة مشوهة مبكرة عن نفسي كان واحداً من الآلاف الذين ابتلوا بالجوع القارض. كجزء من قسم من الجيش الألماني المجرد من السلاح الآن لكنه ممرغ بالوحل منذ زمن طويل، المخون، كنت منظراً مثيراً للشفقة، وليس حتى لو كان ذلك ممكنا كنت سأرسل إلى أمي صورة لابنها.

حولتنا الأحرف الأولى المطبوعة بطريقة الستنسل على ظهور ستراتنا بطلاء أبيض متعذر محوه إلى أسرى حرب. في ذاك الوقت، كان نشاطنا الوحيد من الفجر إلى الغروب وفي أحلامنا هو «تنشق البخار من قدر الملفوف».

بالطبع، بقدر ما عضني جوعي، لم يكن شيئاً بالمقارنة مع ما علمت لاحقاً انه كان الصنف الموصوف في معسكرات الاعتقال أو معسكراتنا المقامة لأجل أسرى الحرب الروس، التي تسببت في تضور مئات الآلاف جوعاً، الموت جوعاً. لكن الجوع الوحيد الذي يمكنني أن أعبر عنه بالكلمات هو

Twitter: @ketab_n

جوعي؛ إنه الجوع الوحيد المنقوش فيَّ إذا جاز القول. أنا الوحيد الذي يمكنه أن يسأل. كيف كان ذلك الشعور؟ كم طال الشعور به؟

حالما ظهر ذلك، فإنه طغى، محدثاً صخباً علق في أذني منذ ذاك الوقت والذي لا تنصفه عبارة «قعقعات المعدة».

تحب الذاكرة أن تحيل إلى بقع عمياء. ما علق يتبين أنه غير ضروري، تحت أقنعة مختلفة. إنه يتمتع بالتنكر. في اغلب الأحيان لا يعطون سوى معلومات غامضة. علاوة على ذلك، تكون شبكته كبيرة في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان صغيرة. فتسقط من خلالها نتف من الشعور والفكر.

لكن ما الذي كنت أسعى بالإضافة إلى ذلك للتفكير فيه؟ ما الذي كان يحرك الشاب الذي يحمل اسمي حالما ولى إيمانه بالنصر النهائي؟ هل هو فقط نقص الطعام فقط؟

وكيف يمكن تذكر عضات الجوع المقيم؟ هل يمكن ملء معدة فارغة بعد الواقعة؟

ألا توجد حاجات أكثر إلحاحاً، مثل جعل جمهور مغالى فيه مدركاً للجوع في مخيمات اللاجئين الأفارقة اليوم، أو إعطاء وصف كامل للجوع، كما فعلت في روايتي *التخبط*، لكيف «انتشرت في الطباعة» ورفضت أن تلغى، بعبارة أخرى، إخبار قصص الجوع التي لا تنتهي.

مرة أخرى تشق أناي طريقها إلى الواجهة، سائلة كم دام ذلك، هذا الجوع الذي لم أعرفه من قبل والذي نادراً ما سيبتلى به. هل كان ذلك منذ منتصف أيار إلى آب؟

لكن ما الذي نكسبه بتعريف حدوده الدقيقة؟

عندما أقول «أنا» بعد كل تجربتي ورغم كل هواجسي - أعني عندما أحاول أن أستذكر كيف كانت حالتي منذ ستين عاماً - قد لا تكون

Twitter: @ketab_n

أناي في ذاك الوقت غريبة كاملة ومطلقة، لكنها ضائعة وبعيدة مثل أحد الأقرباء البعيدين.

ثمة شيء واحد أكيد: وجدت معسكري الأول، في بالاتيناته العليا قرب الحدود التشيكية، مخيفاً. كان حراسه، الكثيرون منهم حسنو التغذية، ينتمون إلى الجيش الأميركي الثالث. اليانكيون، بطرقهم غير المبالية، من الممكن أن يكونوا قد جاؤوا من الفضاء الخارجي. على الأقل تلك كانت الكيفية التي رآهم بها الأسرى ـ الذين بلغ عددهم، إن كان بوسعي أن أخمن بشكل تقريبي، عشرة آلاف أو أكثر. كان الجو العام مشابهاً لجو مخيم غرافنفوير العسكري القديم: إنه، أيضاً، حالما تعبر الأسلاك الشائكة، تكون محاطاً بمنطقة مشجرة.

المؤكد بالشكل نفسه هو التالي: كنت صغيراً جداً في زمن جوعي اللاسع، وكنت حتى وقت قريب قد خدمت كرامي مدفع دبابة من أدنى رتبة في فرقة كانت قد وجدت، تحت اسم يورغ فون فروندسبرغ، كأسطورة فقط.

عندما تحسب كجزء من عملية إزالة قمل على امتداد المعسكر، تعرفت في أثناءها لأول مرة على مسحوق اسمه د ي دي تي DDT، لم يكن من الممكن أن يجمع جلدي وعظامي أكثر من مائة وعشر باوندات، وهو شرط كنا نعتقد انه يتناسب مع خطة مورغنتاو التي لفقت لأجلنا.

كانت هذه الوسيلة لمعاقبة كل أسرى الحرب الألمان، وهي من اختراع السياسي الأميركي الذي سميت باسمه، تتطلب الاقتصاد الأكثر صرامة من كل شخص متأثر بها. بعد اجتماع تفقدي، كان علينا أن نتجنب أية حركة زائدة، لأنه حدد لنا أن نتناول 850 كالوري [حريرة] يومياً فقط، المقدار المحسوب في ثلاثة أرباع لتر من حساء الشعير مع وجود حبيبة من الدهن هنا وهناك طافية على السطح، ربع رغيف من خبز الجيش،

Twitter: @ketab_n

وحصة صغيرة من المرغرين أو الجبن القابل للدهن أو مزيج من المربى. كان ثمة الكثير من الماء. ولا نهاية للدي دي تي.

لم تكن كلمة كالوري جزءاً من قاموسي قبل أن أجرب جوعي اللاسع. كان الجوع معلمي الأول. ولأنني كنت أعرف القليل والتقطت الكثير من المعلومات الخاطئة وأصبحت الآن فقط ـ على نحو متقطع ـ مدركا لمدى غبائي. بدأت أمتص الأشياء مثل الإسفنج.

كلما طرحت علي أسئلة المراسلين الروتينية حول نهاية الرايخ الثالث، كممثل لتلك الأقلية التي سرعان ما ستنقرض والتي تجمعها تسمية «شهود عيان»، أعود فورا إلى تجربتي في المعسكرات وتحصيص الحريرات المقتصد جداً، لأنني حتى رغم أنني كنت قد علمت باتفاقية الاستسلام غير المشروط للرايخ الألماني ـ أو «انهياره»، وهو مصطلح سرعان ما راج استعماله ـ كجندي مجروح في مركز مارينباد للاستشفاء العسكري، يبدو أنه تسجل لدي بشكل عابر فقط، أو أصابني في جهلي بوصفه شيئاً مؤقتاً، وقف إطلاق نار من نوع رديء. لقد فشلت بشكل ما في إدراك أن كلمة (غير المشروط) التي تسبق كلمة (استسلام) تعني (نهائي)، (لا يمكن الرجوع عنه).

في مارينباد، كان لاجتماع طقس الربيع والقرب الجسدي للممرضات تأثير مثير علي. لما كنت مركزاً على اضطرابي البلوغي، شعرت بأنني محاصر أكثر مما شعرت بأنني محرر. كان السلام مفهوماً فارغاً، كلمة حرية لازالت خرقاء. صحيح أنني لم يعد علي أن أخشى الشرطة العسكرية أو المشنقة، لكنني لم أشعر بانطلاقة جديدة من النوع الذي شعرت به فيما بعد بوصفه حقبة جديدة كاملة، جواز للبدء مرة أخرى من نقطة الانطلاق.

ربما كان للمكان نفسه تأثير على رد فعلي. فالمكان الذي كان في السابق منتجعاً يذهب المرء إليه لتناول المشروبات، وفي أثناء إقامتي في

Twitter: @ketab_n

شهر أيار كان منعزلاً مزيناً بالخضرة النضرة، كان أيضاً إطاراً مكانياً لإحياء ذكرى يوم هام بوصفه نهاية حقبة وبداية حقبة تالية. عندئذ أيضاً، كان الأميركيون البيض والسود البشرة ـ مثل الروس في كارلسباد المجاورة ـ في المدينة لأيام، وانتظرنا ظهورهم بلهفة.

جاؤوا بصمت على نعال مطاطية. كم كان ذلك متناقضا مع الجزمة العسكرية. لم يكن بوسعنا أن نتغاضى عن ذلك. ترك علك المنتصرين للعلكة الذي لا يتوقف انطباعاً لدي، أيضاً، كما تركت ممانعتهم حتى للسير مسافات قصيرة: كانوا دائماً يتسكعون بسيارات الجيب. كان ذلك مثل فيلم سينمائي يحدث في المستقبل البعيد.

كان ثمة حارس GI موضوع أمام الفيلا التي خدمت كمشفى لنا. لم يكن بإمكاننا تماماً أن نفكر به واقفاً يحرس لأنه غالباً ما كان يجثم على عقبيه يلاطف بندقيته نصف الآلية. ولم يكن بمقدورنا أن نتمالك أنفسنا عن التساؤل ما إذا كان هناك لمنعنا من الفرار أو لمنع الميليشيا التشيكية، التي أذلها لوقت طويل الوجود الألماني في بلادها، من الانتقام. عندما جربت عليه إنكليزيتي التي تعلمتها عندما كنت تلميذاً، وهو الغازي، أعطاني، أنا المغزو، علبة علك.

لكن ما الذي كان يجري فعلاً في رأس الشاب ذي السبعة عشر عاماً الذي زعم أنه ناضج جسدياً وكان تحت رعاية المرضات الفنلنديات في ما كان في الماضي بيتاً خشبياً ممجداً؟

لوهلة، لا شيء محدد: إنه هناك ظاهرياً فقط، يضطجع بهدوء في صف من الأسرة. سرعان ما سمح له بالوقوف والقيام بخطواته الأولى على امتداد الكوريدور ثم أمام البيت. كان الجرح في فخذه الأيمن جيداً كأنه اندمل؛ ويده اليسرى ـ كانت شظية القنبلة قد تسببت في تيبس ذراعه من الكتف إلى الأسفل ـ ينبغي تحريكها، ثنيها، تدليكها، إصبعاً إصبعاً.

Twitter: @ketab_n

لكن ذلك كله سرعان ما كان وراءه ومنسياً. ما يتبقى هو رائحة اللوتات الفنلنديات، كما يطلق على المرضات: مزيج من الصابون العادي وغسول [لوسيون] الشعر المصنوع من عصارة البتولا.

كانت الحرب قد أبعدت الشابات عن غاباتهن الكارلية. كن قليلات الكلام، ويقدمن لي معالجة ليست عديمة الأهمية وهن يبتسمن بتعاطف في أثناء ذلك، وربما هذا هو السبب في أن دفعاته وجذباته تركت أثرا على الشاب الذي لا زال أبتراً تحت أيديهن الشافية أعمق من خبر الاستسلام غير المشروط لكافة الوحدات المقاتلة الألمانية.

مع ذلك كلما ظهر التاريخ المشؤوم على الروزنامة وسئل شاهد العيان ماذا يعني له «عيد التحرير»، ترك السؤال يملي الجواب. بدلاً من الرد بإدراك مؤخر لمعرفة كل شيء ـ «فجأة تحررت من كل أسباب قلقي، رغم أنني كانت لدي فكرة واهية عما كانت ستعنيه الحرية لنا وقد تحررنا الآن» ـ سيكون علي أن أنبري وأقول «كنت وبقيت أسير ذاتي لأنني طوال اليوم وكل يوم وفي أحلامي كنت جائعاً إلى الفتيات، و«عيد التحرير» بالتأكيد لم يكن استثناء. كان كل تفكيري بشيء واحد وشيء واحد فقط. مسست بأصابعي وكنت أتوق إلى أن أُمس بالأصابع».

هذا الجوع الآخر، القابل للإشباع على المدى القصير باليد اليمنى، قد دام بعد زوال النوع الناهش الذي لم يستحوذ علي حتى ـ بعد الشبع ووجبات المشفى غير المثقلة بالذكريات مما يجب أن يكون حساء ومرق اللحم والخضار مع المعكرونة الشريطية و، في أيام الأحد، اللحم المفروم meatloaf المطهو بيخنة البصل والبطاطا المهروسة ـ مخصصات مورغنتاو للموت جوعاً اضطلعت بمعيشتنا المحاطة بالسياجات.

لكن قد يكون أيضاً أن الصور الفوتوغرافية عملياً التي التقطتها للممرضات في الجوار الشديد القرب، أو الوجه المحبوب لتلميذة المدرسة

Twitter: @ketab_n

ذات الضفائر، قد خدمت كصور نذرية votive في معسكر أسرى الحرب وتهدئ الجوع الناهش قليلاً.

بأي حال، شعرت بنقص هذا وذاك، وكان الجوع الواحد للاثنين على الدوام مستيقظاً على اتساعه. مع ذلك عندما أعيد النظر إلى ذلك كله، لا أرى نفسي في ألم دائم. مثلما كنت أعالج إحدى الحاجتين يدوياً، رغم أن الصورة هنا غائمة قليلاً ـ أولاً باليد اليمنى ثم باليسرى، لما كان الجرح قد اندمل وكان من الطبيعي فقط بالنسبة لشخص أعسر مثلي ـ اتخذت الحيطة تجاه الحاجة الأخرى إلى حد ما بالحفاظ على مؤونة من السلع من أجل المقايضة. كانت المرة الأولى التي أضعها في السوق عندما نُقلنا من بالاتيناته العليا إلى معسكر أرحب، في الهواء الطلق، في باد آيبلينغ، حيث قسمنا إلى مجموعات يمكن إدارتها ونقلنا إلى براكات مسيجة. وعندما كنا نخرج للعمل، كنا نحتك بشكل منتظم مع حراسنا. عرضت خدماتي كمترجم وأوضحت أنني أمتلك مخبأ صغيراً للمواد المتاحة للتبادل. مرة أخرى نجحت إنكليزيتي المدرسية الرديئة جداً في الامتحان، إذ مكنتني من تطبيق استراتيجيات البزنس التي تعلمتها عند ركبتي أمي وإحراز الصفقة تلو الأخرى.

من المذهل كم من الأشياء يمكن أن تدخل في جراب مؤونة الجندي. كان مخزوني يأتي من اليومين القصيرين من الفوضى التي أتيحت لنا في مارينباد عندما تبخر النظام الألماني، لم يكن الأمريكان قد دخلوا بعد بنعالهم المطاطية، وفشلت الميليشيا التشيكية غير المسلحة بشكل كاف في ملء الفجوة والسيطرة على الأمور.

فجأة انفتح فضاء لأولئك الذين لم يعودوا طريحي الفراش. طفنا في الجوار من أجل السلب. كان الباب التالي لفيللتنا صرحاً شبيهًا بالفيللا، مكتملاً بالبرج عند المدخل، والنافذة المشربية والشرفة والفناء

Twitter: @ketab_n

المرصوف. قبل ذلك بساعات، كانت هذه المنشأة المشغولة جداً من الناحية المعمارية قد ضمت مقر المحافظة للفرع المحلي للحزب الاشتراكي القومي. أو ربما فقط فرع إدارة الحزب. بأي حال، أما وقد فر قادة المحافظة والأشخاص الهامون الآخرون، فقد كان المقر ينتصب هناك مفتوحاً. مع أن من الممكن أنه كان مقفلاً وأن شخصاً ما قد ساعد في فتحه باستعمال مخل.

ليكن ما يمكن أن يكون، كنا كل الجرحى السائرين، بمن فيهم أنا (كما أشرت، كان بإمكاني الآن أن أمسك الأشياء بيدي اليسرى)، نفتش المكاتب، وقاعة المؤتمرات وغرفة البرج المغزوة بالحمام، وأخيراً الطابق الأرضي، الذي كان يضم غرفة فرشها المسؤولون بالأرائك وكل ما يصنع من أماليد لجعل اجتماعات المساء مريحة: كانت صور جماعية لرفاق حزبيين باللباس الموحد تبطن الجدران. يبدو أنني أتذكر أنني رأيت ملصق إيمان وجمال Faith and Beauty يظهر فتيات بنهود عارمة وهن يؤدين التمارين الرياضية. وحدها صورة الفوهرر الوجهية (البورتريه) الإلزامية كانت مفقودة. والأعلام والرايات المعتادة. لم يكن ثمة مادة واحدة تستحق الإزالة. عندما دخلنا هناك، كانت المخازن عارية، حرفياً. «لا شيء لنشربه» شتم رقيب، أذنه اليسرى المفقودة مكبسلة في الخليط الجامع لذكرياتي.

ثم اصطدمت بالذهب على الطابق العلوي. في الدرج الأسفل من طاولة مكتب لابد أن زعيماً حزبياً جلس إليها خارج وقت الحرب عثرت على علبة سيكار تحتوي تقريبا على خمسين دبوساً فضياً براقاً، كانت رؤوسها إعادات إنتاج أمينة في شكل مصغر من تحف مزخرفة. النقش المختومْ تحت كل تحفة صغيرة أثبت ذلك بما لا يدع مجالاً للشك: كانت تذكارات سيغفريد لاين، مواد جامعي تحف ما قبل

Twitter: @ketab_n

الحرب الشعبيين. أعدت تنظيمها من رؤية التحف في نشرات الأخبار.

في أثناء طفولتي، قدم تعزيز الحدود الغربية للرايخ بحواجز دبابات مترنحة وتحف من كل المقاساات الزخم المنتظم لأجل تقارير مصورة خفاقة والتعليقات اللفظية الهشة المترافقة بحقد هجومي بشكل إيقاعي. في ذاك الوقت كان للتذكارات النيكلية ـ الفضية نوع من العبث البطولي فيها: تم ابتكارها لتكريم العمال الفاضلين الذين بنوا التحصينات على طول الحدود الفرنسية، إذ ضمت قوة العمل بعد عام 1938 بلا شك متطوعين ألمان Sudeten. لازال بمقدوري أن أرى صور النشرات الإخبارية: رجال يرفشون، جبالات اسمنت تتحرك بعنف، كتل خرسانية هائلة.

ارتعبنا، أصدقائي وأنا، من رؤية هذا المتراس ينهض ضد عدونا الماكر التقليدي، فرنسا. ظننا أن الكيلومترات من حواجز الدبابات التي تندمج في الريف المتموج لا تُقهر. لعبنا على أهداف تصويب من خلال شقوق رصد: لو لم نُرسل إلى الغواصات، لكان بمقدورنا على الأقل أن نحصن التحف بشكل بطولي.

بعد ذلك بست سنوات، لا بد أن تلك الدبابيس قد ذكرتني بألعابي وأحلامي قبل الحرب كما تذكرني الآن ـ أستطيع تقريباً أن أعدها في علبة السيكار ـ بسنوات بعد الحرب مباشرة.

وجدت القليل مما له أهمية في الأدراج، رغم أنني كنت قادراً على ملء كيسي بمفكرتين فارغتين، بعض ورق الكتابة الأنيق والقليل من أقلام الرصاص، إن لم يكن قلم الحبر من نوع بليكان الذي طالما كنت آمل فيه. لست متأكداً ما إذا نجحت في انتزاع ممحاة ومبراة قلم رصاص.

أخذ الآخرون ملاعق الشاي، وشوكات المعجنات وأشياء مختلفة عديمة الفائدة مثل حلقات غطاء الطاولة. أخذ البعض الآخر حتى

Twitter: @ketab_n

الأختام المطاطية ومحابر الأختام، كما لو كان بمقدورهم أن يصدروا أذوناً للمغادرة ورحلات الأعمال.

أوه، نعم فزت بثلاث نردات عاجية وفنجان نرد جلدي. هل كان لدي الوقت لأجل رمية حظ؟ ستتان، ثلاثة واحدة أو حتى خمسة؟

لاحقاً بعد أن نقلنا من بالاتيناته العليا، استعملتها للعب النرد مع صبي في سني، الصديق الذي كنت قد تقت طويلاً لامتلاكه في غابة الصنوبر الداكنة، الذي كان له آنذاك اسم بشكل فعلي هو جوزف، ويتكلم ألمانية كتب ذات صبغة بافارية. أمطرت السماء كثيراً. حفرنا حفرة وكنا سنربض تحت قماشه المشمع لأجل الاحتماء. تحدثنا عن الله والعالم، عن خبراتنا كصبيان مذبح ـ خبرته مستمرة، خبرتي احتياطية كثيراً جداً. كان يعتقد أنني لا أرى شيئاً مقدساً. أصبحنا كلانا منزوعي القمل. لم يسبب ذلك لنا أدنى إزعاج. وهو مثلي كان يكتب القصائد، لكننا كانت لدينا خطط مختلفة للمستقبل، الذي أصبح تاريخاً فيما بعد، إنما بشكل تدريجي. أما في ذاك الوقت فقد كانت دبابيس سيغفريد لاين أكثر أهمية.

في البداية كنت مدركاً بشكل غامض فقط لقيمة كسبي غير المتوقع المفاجئ، لكن حالما نقلت من باد ايبلينغ إلى معسكر عمل وكنت قد انضممت إلى مفرزة عمل مسؤولة عن قطع أشجار البتولا الفتية، كنت قادراً على استعمال إنكليزيتي مرة أخرى: «هذا تذكار من السيغفريد لاين» لأجد مشترين لثلاثة من الدبابيس اللماعة.

كان الحارس المخصص لنا، وهو عامل مزرعة فرجيني طيب القلب لم يكن لديه بعد أية تذكارات ليريها للناس في الوطن، راغباً في التخلي عن طرد كامل من سجائر لوكي سترايك مقابل دبوس واحد. ولما عدت إلى المعسكر بادلته برغيف من خبز الجيش. بالنسبة لغير المدخن كان هذا يعني أربع حصص يومية ممتلئة.

Twitter: @ketab_n

عندما باعني حارس آخر، وهو سائق شاحنة أسود لم يتبادل معه صبي المزرعة ذو البشرة القرنفلية كلمة واحدة، كمسألة مبدأ، رغيفاً عجينياً نوعاً ما من خبز دقيق الذرة مقابل دبوسي سيغفريد لاين، نصحني معمر في المعسكر بتحميصها. قطعتها إلى شرائح وقطع كل شريحة إلى اثنتين، ثم وضعها فوق مدفأة الحديد الصب الاسطوانية التي تبقى مشتعلة حتى في أشهر الصيف، لأن في المساء يأتي الرجال في كوماندو قطع الغابات وسيطبخون كل ما يمكن أن يجدوه ـ النباتات الشائكة، والهندباء البرية وما شابه ـ في السبانخ من كل الأنواع. والبعض حتى كان يرمي الجذور فيه.

أخرج NCO، كان قد رسم بالطباشير، على حد تعبيره، بعض السنوات الرائعة في فرنسا بوصفها محتلاً، من كيسه دزينة من الضفادع المتلوية، قطعها وهي حية، ورمى الأرجل في السبانخ.

كانت الثكنة، التي حل فيها صفان من الأسرة المصنوعة من الألواح الخشبية محل الأسرة المعلقة التي اعتدنا عليها، قد احتلت حتى نهاية الحرب من قبل عمال العمل الإجباري. وجدنا نقوشاً سيريلية محفورة في خشب الألواح والعوارض، وبعض الجنود الذين عادوا من سمولنسك وكييف كانوا يعتقدون أن الرجال أوكرانيين.

كانت المدفأة قد جلبت إلى هنا لأجل العمال. كان شيئاً ظريفاً أننا رأينا أنفسنا ورثة لهم: نحن، أيضاً، حفرنا نقوشاً في الألواح والعوارض ـ أسماء الفتيات اللواتي كنا نتوق إليهن زائد الكلمات البذيئة المعتادة.

خبأت خبزي المحمص المصنوع من دقيق الذرة في ورق الجرائد المغطاة بعناوين الـ Stand Firm المنضدة بحرف مطبعي أسود للأيام الأخيرة للحرب وأدخلته بين لوح خشبي وفراش القش لإكمال حصتي الغذائية اليومية. بمثل هذه الاقتصاديات فقط استطعت أن أحصر جوعي ضمن حدود معينة.

Twitter: @ketab_n

عندما عاد طابورنا من قطع الخشب، في الليلة التالية، لم يكن ثمة أثر للخبز أو ما يلفه. أبلغ الجندي الذي أراني كيف أحمص الخبز وتلقى ربع الرغيف من أجل معاناته عن الاختفاء إلى الرقيب المسؤول عن الثكنة، رقيب من المدرسة الانضباطية التقليدية.

في أية لحظة كانت تفتش فرشات القش وملابس أي شخص بقي في الثكنة ـ لأنهم كانوا مرضى أو أسندت إليهم مهمة مرهقة بدلاً من قطع الخشب أو إزالة حجارة الدبش.

وجدت بقايا الخبز المحمص مع ورق الجرائد تحت قش ضابط طيران [من] سلاح الجو ـ كان المعسكر يخلط الجنود العاديين مع الضباط حتى رتبة نقيب ـ كان حتى ذاك الوقت قد تظاهر بكونه مرحاً بشكل لا يخطأ.

في قوانيننا غير المكتوبة، ما فعله كان يدعى سرقة رفاق. لم يكن ثمة ما هو أسوأ. كانت جريمة تستدعي الإدانة الفورية والعقاب. رغم كوني متورطا بشكل شخصي كضحية وشاهد عيان، لا يمكنني ولن أتذكر ما إذا شاركت حالما أصدر الحكم فيما مضى من قبل محكمة ميدانية معينة في حينه، جسدياً في تسديد الجلدات بحزام فرماخت إلى الجذع العاري.

صحيح، يمكنني أن أصور آثار الضرب على اللحم المتقيح، لكنها ستكون قد رسمت بعد الواقعة. لأنه حالما تزدهر خبرات من هذا النوع إلى قصص، فإنها سوف تكتسب حياة خاصة بها وتزدهي بتفصيل أو بآخر.

بأي حال، فإن الغضب الذي يشعره الجنديٍ العادي تجاه كل ضابط عرفه قد حُول إلى اللص، وكان الجلد شديدا: استحقاق حرب من الكراهية كان ينفس ذاته. فيما يتعلق بي، أنا الذي لم أكن حتى وقت قريب أعرف شيئاً سوى الطاعة غير المشروطة، كوني قد تمرست فيها منذ أيامي في شبيبة هتلر. فقدت آخر أثر من احترامي لضباط فرماخت الرايخ الألماني العظيم.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك بوقت قصير، نقل «فتى سلاح الجو»، الذي حول إلى المشاة كمساهمة من صندوق هرمان غورينغ الخندق الأخير، إلى ثكنة أخرى.

لم يكن طعم خبز دقيق الذرة رديئاً، إذ كان حلواً قليلاً، يشبه قليلاً الخبز المحمص المحلى. كانت دبابيس سيغفريد لاين مسؤولة عن كسر كثيرة أخرى من الخبز المحمص، التي كنت أغطسها في حساء الفطر.

كنت قد وجدت فطوراً ذهبية في مصطبة من الصنوبريات القصيرة الجذع، لما كنت ضليعاً في الفطور وخواص الفطور الكاشوبية منذ الطفولة، صنعت حتى طبقاً من المواد الهلامية من صنف الفطر الحليبي وفيما بعد من الفطر النفاث، فقليتها مثل الفطور الذهبية على المدفأة في مزيج من المرغرين الذي استلمناه كجزء من حصتنا الغذائية اليومية. كذلك صرت أحب السبانخ الشوكي. تلك كانت الأطباق الأولى التي صنعتها بنفسي. ساهم العريف بالملح، وتشاركت معه وليمة الفطور.

لقد استمتعت بالطهي لأجل الضيوف منذ ذاك الوقت. وليس فقط لأجل أولئك الذين يدخلون الآن والهنا إلى البيت بل أيضاً لأجل الشخصيات التي اخترعتها أو استحضرتها من التاريخ. هكذا كنت في الآونة الأخيرة قد استضفت ميشيل دو مونتين وهنري نافار الشاب والأخ مان الأكبر ـ بوصفه مؤلف سيرة هنري البالغ، هنري الرابع ـ كضيوف على مائدتي. كانت جماعة صغيرة لكنها ثرثارة انغمست في العبارات المقتبسة.

تحدثنا حول حصيات الكلية والمرارة، ومجزرة القديس بارتولوميو، والأخ مان الآخر وخلفيتهما الهانزية [الألمانية السفلى]، ثم عدنا إلى المجزرة والمحاكمات التي لا نهاية لها للهوغونوت، وأخيراً عن التشابهات بين بوردو ولوبيك. كنا على طول الخط نشتم المحامين بوصفهم وباء المجتمع، كنا نقارن الكرسي stool القاسي مع اللين،

Twitter: @ketab_n

استحضرنا دجاج الأحد في كل قدر فرنسي، وتحسرنا ـ حتى عندما ابتهجنا بالخبز الحلو المطهو بالمادة الهلامية للفطر الذي تلا حساء السمك. الحالة المحزنة للتنوير بعد الكثير جداً من التقدم. تجادلنا أيضاً في السؤال المطروح في حينه دوماً وهو ما إذا كانت باريس تستحق قداساً. وإلى جانب آخر نتاج لشجرة جوز بلندورف ـ التي رافقت طبق الجبن ـ طرح على الطاولة موضوع الكالفينية بوصفها القابلة القانونية للرأسمالية.

ضحك هنري اللاحق. استشهد مونتين بليفي أو ببلوتارك. سخر مان الأكبر من لايتموتيفات [لازمات] أخيه الصغير البالية. امتدحت فن الاقتباس.

على كل، حكى لي ضيفي الأول، العريف الذي قدمت له طبق الفطر الذهبي، عن آثار المعابد على الجزر اليونانية، وجمال الفيوردات [الخلجان] النرويجية وأقبية الخمور في القلاع الفرنسية وأعلى الجبال في القوقاز، وعن رحلته إلى بروكسل ـ حيث أقسم أنه توجد أفضل بطاطا مقلية يمكن الحصول عليها. لقد اجتاز نصف أوروبة سيراً على القدمين ـ أي كم طال ارتداؤه للبذلة العسكرية، كم كان متمرساً في المعارك، وكم كان مقاوما للحدود. بعد أن أفرغنا صحوننا، أبهج مضيفه بمارش الأيام الخوالي، «بلدة صغيرة في بولندا».

مثلما ساعدت نشرات قيادة فرماخت العليا في تقوية معرفتي بالجغرافية، كذلك فإن خبرة ضيفي بالحرب قد أمدته بالكوزموبوليتية الهاذرة التي قدمت لنا في أثناء حقبة السلام المستدامة في عروض السلايدات المنزلية للسواح الذين يطقطقون مصاريع كاميراتهم. وألم يقل عندئذ «أريد أن أسافر إلى كل مكان مع إرنا، فيما بعد، بعد أن يهدأ دخان المدافع؟».

صحيح أن طبق الفطر والسبانخ الشوكي قد جعل مني طباخاً

Twitter: @ketab_n

ومضيفاً، لكن المتطلبات الأساسية لأجل المتعة التي لازلت أنالها بدمج هذه المرقة مع تلك، من خلط هذا مع ذاك، مضيفا هذا أو ذاك المكون للحصول على الطعم الذي أسعى إليه، وأتخيل ضيوفاً أحياء وموتى وأنا أطبخ ـ هذه المتطلبات الأساسية كانت موجودة قبلئذ في الفترة المبكرة من الجوع الناهش، عندما انتزع الجندي الجريح، وقد شفي، من أيدي الممرضات اللطيفة وعندما أرسل إلى مستعمرة الجوع، بالاتيناته العليا، وقد تلقى العلاج في مارينباد.

من بين عشرة آلاف وأكثر من أسرى الحرب وبعد سبعة عشر عاماً من الأكل حتى الامتلاء ـ نادراً ما كان علينا أن نشد أحزمتنا في البيت ـ تعلمت ماذا يعني أن أكون جائعاً. فالجوع، لأنه كانت له الكلمة الأولى والأخيرة، كان مصدراً للألم الناهش، لكنه كان أيضاً مصدراً للإلهام المتألق: كلما تقلصت معدتي، اتسعت مخيلتي.

لم يتضور واحد من العشرة آلاف جوعا حتى الموت، بالطبع، لكن فاقة الطعام منحتنا مظهراً زهدياً. حتى أولئك الذين لا يميلون إلى ذلك خضعوا لتحول روحي. لا بد أن منظري الروحي الجديد كان يلائمني: عيناي المتضخمتان شهدتا أكثر مما كان يوجد أمامهما، جوقات تبتهج أبعد من الحواس. وبما أن الجوع قد دجن الحكمة القائلة بأن «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» ليس فقط بوصفها كليبية معسكرات بل أيضاً بوصفها عزاء، شعر كثيرون منا برغبة زائدة في الغذاء الروحي.

حدث شيء ما في المعسكر. فالنشاطات المخصصة لإبعاد الضجر الاضطهادي الجماعي قد خرجت عن المألوف. انتهى التجوال الكسول والسرنمة [السير أثناء النوم]. كان المهزومون ينسحبون معاً. في الحقيقة، حررت الهزيمة الشاملة قوى كانت قد غرقت في سبات في أثناء سنوات الحرب الطويلة وكانت تستيقظ الآن، كما لو أن النصر لازال ممكناً ـ وإن يكن في إطار مختلف.

Twitter: @ketab_n

تسامحت السلطات المحتلة مع النشاطات، التي كانت تعتبر برهانا على الموهبة الفطرية للألمان في التنظيم.

نظمنا أنفسنا في جماعات وجماعات فرعية، لكل واحدة حقلها الخاص بها لعزقه، ورعاية التعليم العام، وتقييم الفنون، الفلسفة، تجديد الايمان، أو المعرفة العملية. كل شيء سار وفقا لجدول زمني، كل شيء كان كاملاً ودقيقاً.

أقيمت دورات في اللاتينية واليونانية الكلاسيكية ولغة إسبرانتو. كان ثمة زمر دراسة لأجل الجبر والرياضيات العالية. فمن أرسطو مروراً بسبينوزا وانتهاء بهايدغر، كان ثمة متسع لأجل التفكير المحلق في الخيال والتأمل العميق.

ولم ينل التدريب المهني غفران التقصير: فقد لُقن حانوتيو المستقبل مبادئ مسك الدفاتر المزدوجة الفهارس، ولُقن المهندسون المدنيون مبادئ علم الإحصاء، والمحامون مبادئ الذريعة، واطلع اقتصاديو الغد على قوانين السوق الموجهة الهادفة إلى الربح وأفكار مفيدة من مضاربين موثوقين في سوق الأسهم [البورصة]. كل ذلك والعين على السلام والإمكانيات التي يفتحها.

ثم كانت هناك حلقات الكتاب المقدس، ومدخل شعبي إلى البوذية. ولأن عدداً من الآلات الموسيقية بحجم الجيب قد نجا من الضياعات التي كثرت بأشكال أخرى في أثناء التقهقر، كانت اوركسترا هارمونيكا تلتئم كل يوم من أجل التمرينات في العراء وتقدم عروضاً حضرها حتى الضباط الأميركيون والصحافيون الأجانب. كان برنامج عروض الفرقة من «النشيد الأممي» للجنود، و«ليلي مارلين» والصرعات الحديثة وقطعاً موسيقية مثل A Petersburg Sleigh Ride والرابسودية الهنغارية لفرانز ليست يقابل دوماً بالتصفيق الحار.

Twitter: @ketab_n

كان ثمة أيضاً بضع فرق غنائية، بما فيها جوقة كابلا التي أبهجت جماعة صغيرة من عشاق الموسيقى بمنوعات موسيقية ومقطوعات شعرية قصيرة كل أحد.

كل هذا وأكثر كان متوفراً بشكل يومي: كان لدينا الوقت لحرقه. في معسكر بالاتيناته العليا لم يكن مسموحاً لنا أن نعمل خارج المعسكر؛ ولا حتى سمح لنا بأن نزيل الدبش في نورمبرغ المجاورة. لم يكن ثمة شيء لنا لنفعله سوى أن نجلس متحلقين في خيامنا وبراكاتنا وأكشاكنا الفسيحة ـ لا بد أن الثكنة كانت في الأصل حامية لفوج خيالة ـ نتعلم بشجاعة أن نصارع الجوع ولسعاته.

اختارت برنامجنا قلة، فقط أولئك الذين استمتعوا بالنواح على حظهم والتفجع على المعارك الخاسرة. اعتقد البعض حتى أنه كان بمقدورهم أن يكسبوا المعارك ـ مواجهة الدبابات في كورسك أو حتى معركة ستالينغراد ـ بعد الحقيقة مع تكتيك صندوق الرمل. على كل، لقد تسجل كثيرون آخرون في أكثر من دورة ـ كأن يأخذوا، مثلاً، الاختزال في الصباح والشعر الألماني بعد الظهر.

وما الذي جعل مني طالباً؟ بالنظر إلى أنني كنت قد أدرت ظهري تماماً للمدرسة ردحاً طويلاً منذ أن تشرف إطاري بالبذلة الأنيقة لاحتياطي سلاح الجو، فقد كان الشيء المعقول الذي يتعين القيام به هو الذهاب [إلى المدرسة] من أجل الرياضيات واللغة اللاتينية، المادتين اللتان أعاني ضعفا فيهما، وأن أطور معرفتي بالفن بحضور سلسلة محاضرات «النحت الغوطي القديم في قلعة نورمبرغ». سأستفيد أيضاً من مجموعة علاج تتعامل مع ظاهرة «الاضطرابات السلوكية في أثناء البلوغ» الواسعة الانتشار في المعسكر. لكن الجوع دفعني إلى دورة في فن الطبخ.

وجدت الإعلانات المغرية على لوحة الإعلانات أمام مبنى إدارة

Twitter: @ketab_n

المعسكر. لقد برز ذلك بسبب شخصية الفتى الذي يرتدي قبعة شيف. كانت هذه الدورة الأكثر حساسية يتعين الخضوع لها لجلستين مدة كل واحدة ساعتان يومياً في الجناح البيطري السابق. اجلب معك ورق الكتابة الخاص بك.

كم كانت صدفة سعيدة أنني عندما كنت أسرق دبابيس سيغفريد لاين الفضية لأقايض بها لم أكن قد ترفعت عن فنجان النرد وفنجان العاج أو، على نحو أكثر أهمية، كومة من ورق الطابعة النموذجي ومفكرتين صغيرتين وحفنة من أقلام الرصاص.

رغم أن ذاكرتي مثقوبة في منطقة أو أخرى ولم أعد أعرف، على سبيل المثال، ما إذا كان زغب مراهقتي بحاجة للحلاقة في أثناء إقامتي في المعسكر أو حتى عندما حظيت لأول مرة بموس وفرشاة حلاقة خاصين بي. لا حاجة بي للجوء إلى حيلي المعتادة للتصوير الحي للغرفة المقفرة والفارغة للجناح البيطري. كانت الجدران من البلاط الأبيض المؤطر على مستوى النظر بحد مصقول أزرق. رغم أنني لا يمكن أن أقول شيئاً حول معظم الملحقات التدريسية، يمكنني أن أرى اللوح مقابل النافذة العريضة وأتخيله يخدم تدريب متطوعي الجيش المستقبليين بوسائل إيضاح كل الأشياء المتعلقة بالخيول ـ القناة المعوية، العرقوبات، القلب، الحوافر، الشكيمة ـ والأسئلة حول أمراض وعادات رباعي الأرجل: كيف يعالج المرء المغص لدى الحصان؟ متى تنام الخيول؟

لما كنت واثقاً كما الآن من مظهر الغرفة، فلست متأكداً مما إذا كانت تترك شاغرة بعد «جلسات الطبخ للمبتدئين» التي تستمر ساعتين أو ما إذا كانت تُدرس هناك مواد أخرى ـ اللغة اليونانية الكلاسيكية أو، لنقل، الهندسة المدنية. ربما كانت السبورة هي الموقع لأجل حسابات هامش الربح الأولى للمعجزة الاقتصادية القادمة، أو التلميحات

Twitter: @ketab_n

المبكرة إلى الاندماجات المبكرة في صناعتي الفحم والفولاذ، أو التطبيق الحالي الشعبي للاستيلاء المشترك العدائي، رغم أن الفضاء المتقلب ربما يكون قد استخدم بسهولة من أجل الخدمات الكنسية لطائفة أو لأخرى، لكون النوافذ العالية البارزة تمنح مستطيل الغرفة أضعف صدى له وتضفي صفة قدسية على الليسول بدلاً من الرائحة الخيلية.

بأي حال، لقد خدمني المكان على نحو متكرر كستارة خلفية للمشاهد التي تتوزع في كل أنواع الاتجاهات: لم أكن أفتقر إلى الشخصيات. ففي رواية *مخدر موضعي*، على سبيل المثال، ترسم قصة ما حدث هناك رسما أكثر مما تحكى بكل مجدها من قبل المعلم الذي يدعى شتاروش، الذي ينقل منهاج الطبخ للمبتدئين إلى المعسكر في باد آيبلينغ ـ بعبارة أخرى، إلى بافاريا العليا ـ ويستغني عن السبورة.

إن ما يلي هو محاولة لاستخدام الحقائق القابلة للتصديق لدحض هذه الرواية التخيلية، التي يظهر فيها الهر برهوزام عديم الوجه بوصفه كبير الطباخين. بعد كل شيء، أنا الذي دفعه الجوع إلى أخذ دورة الطبخ النظري.

يمكنني أن أراه بوضوح، كبير الطباخين ـ واحد من نوع، مع أن اسمه يهرب مني. أراه واقفاً عند السبورة، فارع الطول ونحيلاً، شخصية رسولية في منتصف العمر، طلب وهو يرتدي اللباس العسكري بأن يناديه تلاميذه بالشيف. لكن لم يكن ثمة شيء ذو نزعة عسكرية في طلب ذي اللحية الرمادية الأجعد الشعر. كانت رموشه طويلة للغاية بحيث أنك ترغب في تمشيطها.

كان أول شيء يقوم به هو إعطائنا نبذة عن سيرته المهنية. فقد ذهب من بوخارست إلى صوفيا إلى بودابست ووصل إلى فيينا شيفاً مطلوباً، رغم أنه أهمل أسماء الفنادق الفاخرة في مدن أخرى أيضاً وزعم أنه كان

Twitter: @ketab_n

الشيف الشخصي لكونت كرواتي أو هنغاري في زغرب أو سيغيد. حتى أنه استشهد بفندق (زاخر) في فيينا كبرهان على مؤهلاته الفنية. لا يمكنني أن أكون متأكداً ما إذا طبخ أيضاً لأجل المسافرين المشهورين في عربة طعام قطار الشرق السريع الأسطوري وبذلك شهد المؤامرات المتشابكة الخيوط والجرائم المعقدة التي وجد حتى المحققون البوليسيون ذوي الأوراق الثبوتية الأدبية الصحيحة والقدرات البوليسية السرية المفرطة الذكاء الذكية عناء في فك خيوطها.

ما أعلمه علم اليقين هو أن شيفنا الأستاذ كان ناشطاً فقط في جنوب شرقي أوروبة، أي في إقليم ذي شعوب كثيرة تطبق فيه التمييزات الحادة على أكثر من المطابخ، مع أن الاختلاط ظاهر أيضاً.

إذا كان ينبغي الوثوق بخلفية معلوماته، فإنه ينحدر من بيسارابيا البعيدة. وهذا ما جعله ما كان يدعى في حينه ألمانياً تذكارياً، الذي كان يدعى، مثل الألمان من بلدان البلطيق، «بيتاً للرايخ» heim ins Reich كنتيجة مترتبة على معاهدة عدم الاعتداء بين هتلر وستالين. رغم ذلك ما الذي كان يعرفه هذا الجاهل الشاب عن النتائج المترتبة، الجلية إلى هذا اليوم، لمعاهدة هتلر ـ ستالين؟

بعد اندلاع الحرب بوقت قصير، كما كان الجميع يعرفون، حتى أنا، كان الفلاحون البولنديون من الأراضي الخلفية لمدينتي الأصلية، التي تبدأ في المنطقة الكاشوبية لكنها تمتد بعيداً إلى مرج توخل، قد أخرجوا من مزارعهم لخلق متسع من أجل ألمان البلطيق التذكاريين. كانت لكنتهم العريضة سهلة التقليد، فقد كانت شديدة القرب من ألمانيتنا السفلى؛ بالإضافة إلى ذلك، كنت قد تشاركت لفترة قصيرة مقعد الدراسة مع صبي من ريغا.

لكن ألمانية Deutsch أستاذنا الشيف ـ أو دايتش، كما كان يلفظها

Twitter: @ketab_n

ـ لم تكن تشبه أية ألمانية سمعتها: فقد كان يعاني مشكلة مع أداة التعريف، على سبيل المثال، وكان يستخدم مفردات نمساوية ـ مثل bisserl بدلاً من bisschen (قليلاً)، وKapuster بدلاً من Weisskohl (ملفوف)، وعندما يصوغ فكرة على السبورة، ملوحاً ذراعيه بفصاحة في الهواء، كان يتكلم من خلال أنفه مثل نجم السينما هانز موزر.

هذا الشيف الأستاذ ـ الذي خفضت مرتبته، على حد تعبيره، «من رامي مدفع إلى مدفعٍ مرقة» وحكم عليه بأن يبقى عريفاً إلى النهاية المرة ـ ربما كان يبدو سادياً إلى حد تعذيب تلاميذه المجوعين بمشاهد الأطباق الفاخرة مثل الضلع الرئيسي مع صلصة الفجل الحار، وسمك الكروكي المقلي، والشاشليك [الكباب]، والرز البري مع الكمأة، وصدر الدراج المصقول مع الكرنب المخمر المعالج بالنبيذ، لكن بالنسبة له كنا فلستيي اللحم والبطاطا البدائيين الذين نحتاج إلى التنوير. إن ملذات الحنك الرديئة قد أحيلت إلى هوامش شروحاته، التي كانت تشدد على مبادئ الطبخ، رغم أنها أيضاً كانت تميل إلى تخيل ذبح الحيوان المراد استهلاكه.

نحن، المجوعون، استوعبنا ذلك كله، صفحة مخربشة تلو الأخرى، أولاً ضع... ثم أضف... دعه يغلي على نار خفيفة لمدة دقيقتين ونصف...

ليتني نجحت في الاحتفاظ حتى بواحدة فقط من المفكرتين من إرثي في مارينباد. لكن من كل الجلسات المهذارة المستمرة لمدة ساعتين، التي حضرها أكثر من رب أسرة مبجل إلى جانبنا نحن التافهين، لم ينج منها سوى اثنتين أو ثلاث على السجل، مع أنه نجا، حتى آخر قطرة من الدهن المذاب.

كان أستاذاً للتصوير الحي. فقد كان يدفع الأحلام المغذاة بالقوة بيد واحدة تحت السكين. كان بإمكانه أن يستخلص النكهة من اللاشيء، يخفق الحساءات الأكثر قشدية من الهواء. كلمتان أو ثلاث من كلماته

Twitter: @ketab_n

الأنفية من شأنها أن تلين أي حجر. لو كنت قادراً على دعوة النقاد الذين شاخوا معي للجلوس معه إلى المائدة، لسألته، كضيف شرف، أن ينورهم عن معجزة التخيل الحر، أي، شعوذة الورقة البيضاء، لكن مدعيي المعرفة الكلية غير القابلين للشفاء هم الذين سيلعقون بكسل مرقتي بالحمص مع قطع لحم الخروف ويحاولون الوصول فوراً إلى عدادات كولسترولهم الأدبي.

«موضوعي لهذا اليوم»، كان يقول من قبيل التمهيد، «هو الخنزير»، وبيد واثقة لكنها كثيرة السحق للطباشير يغطي اللوح بالإطار العام لخنزيرة مكتملة النمو. ثم يقسم البهيمة إلى أجزاء مرقمة بالأرقام الرومانية. «رقم واحد هو الذيل، الأفضل قيمة عندما يطبخ في حساء العدس المعتاد».

انتقل إلى الأرجل، من الأقدام صعوداً إلى مفصل الركبة ـ وهذا أيضاً كان يتلاءم مع الغلي على نار هادئة مع الحساء. بعد ذلك ينتقل من مفصل الساق الأمامية إلى ورك الساق الخلفية، ثم من العنق إلى الخاصرتين والأضلاع والمعدة، مبهراً تعليقه بنتف لا يمكن دحضها من الحكمة: «العنق أكثر عصارة من الضلع». «ينبغي لف فيليه لحم الخنزير بالعجين وخبزه في الفرن». وملاحظات صغيرة لازلت أتبعها إلى هذا اليوم.

نصحنا، نحن الذين لم يكن لنا أن نتطلع إلى أكثر من ملء مغرفة من الملفوف المائي أو حساء الشعير، أن نشق كل مفصل من لحم الخنزير بالطول والعرض بسكين حادة لكي يخرج الدهن و«يصنع قشرة مقرمشة ظريفة».

عند هذه النقطة جال بنظره، ناظرا إلى كل واحد منا في عينه، دون أن يوفر أحداً، بمن فيهم أنا، وقال: «أنا أعرف، أيها السادة، فمي يسيل لعابا كما أفواهكم»، عند ذلك، بعد وقفة محسوبة بدقة سمع

Twitter: @ketab_n

أثناءها كل واحد منا نفسه والآخرين يبتلعون، أعلن بدافع الشفقة واعترافا بحاجتنا المشتركة، «لكن يكفي بخصوص الدهن، دعونا الآن نتحول إلى شق الحنجرة».

حتى رغم أن المفكرات قد ضاعت، فإن البصلة تؤسس ذاكرتي وتساعدني على تلاوة الأقوال المأثورة للأستاذ، المدوية كطرقات المطرقة. باسترجاع [الأحداث] أرى كيف استخدم البانتوميم [الرقص الإيمائي] أيضاً، مبرهنا بذراعيه الحاجة الملحة إلى جمع الدم حين يكون لا يزال دافئاً (الدم الحار دم جيد)، أهمية تحريكه بلا كلل لمنعه من التخثر (يجب أن تحرك، استمر في التحريك!).

كنا نجلس على كراس بلا مساند أو على صناديق أو على الأرض المبلطة نحرك الدم إلى اليسار وإلى اليمين وبالعرض في أوعية تخيلية وهو ينسكب متدفقاً من جرح الطعنة التخيلية ويتناقص تدريجياً إلى قطرة. كان بإمكاننا بالكاد أن نسمع صرخات ذعر الخنزير وهي تتلاشى، ونشعر بحرارة الدم ونستنشق رائحته.

كان الذهاب إلى ولائم الذبح في الأعوام اللاحقة دوماً مصدر إحباط بالنسبة لي: تراجعت حقيقة ذلك بعيداً وراء التصويرات الحية للأستاذ. كان ذلك مجرد مسلخ، صدى باهتا لكلماته.

تعلمنا أن نقلل الدم بغليه مع الشوفان المتبل بنبات العترة ونحشو الأمعاء المنظفة حديثاً بالعجينة الطرية الناتجة بحيث يمكن تحويله إلى نقانق. كانت نصيحته الأخيرة من أجل ملء النقانق هي «تذكروا أيها السادة، ثلاثين غراماً من الزبيب لكل خمسة لترات من الدم».

كانت حليماتي الذوقية معدة هكذا بشكل استباقي بحيث أنني التهمت نقانق دقيق الشوفان والدم مع البطاطا المهروسة والكرنب المخلل منذئذ، وليس فقط لأنني كنت صلباً بشكل ثابت في الخمسينيات

Twitter: @ketab_n

وكانت وجبة رخيصة: حتى في هذا اليوم في باريس بار الـذي لا يمكـن تجنبه في برلين فإنني ألتهم الـفصيد boudin الفرنسـي. إن طبـق لحـم الخنزير الألماني الشمالي المحفوظ بالدم المكثف بالكلى المقطعة هو أحـد أطباقي المفضلة. وإذا كان عندي ضيوف، لاعبو ورق مختلفون ومتعددون من أزمنة مختلفة ومتعددة في حياتي، فإنني أستمتع بوضع هذا الطعـام الرديء على المائدة.

أوه، ما ألذ لعبة بـوكر double or nothing hand تليهـا وجبـة نقانق مقلية يتصاعد منها البخار أو مسلوقة، أو مشاهدة الغلاف ينفجـر أو ينشق مفتوحاً وتنز منـه حشـوة الزبيـب والشـوفان، سميكـة ومكتلـة بالدم. نعم، ذاك الشيف البيسارابي في معسكر بالاتيناته العليا قد شـرط حليماتي الذوقية مدى الحياة.

قال: «لكن ثمة شيء آخر أيها السادة، إمكانية أخرى. لم نمر على لحم الخنزير بعد».

كما تشير سالومي بإصبعها الطويلة إلى رأس يوحنا المعمـدان، هكـذا أشار بإصبعه إلى رأس الخنزير الذي رسمه بالطباشير ورقمـه، بالطريقـة التي رقم بها العنق والفخذ ولفـة الـذيل. «الآن نقـوم بصـنع لحـم رأس الخنزيـر الشـهي، لكـن أرجـوكم، أيهـا السـادة، لا جـيلاتين مـن المصنع...» كانت قضية مبدأ أن لحم الخنزير ينبغي أن يولد هلاما مـن تلقاء ذاته من الخـد المـدهن والخطـم وشـحمتي الأذنـين. ثـم انطلـق إلى الاحتفال بالعملية التي يُشق بها الرأس إلى اثنين، ويوضع في قدر كبير، ويُغمر بالماء المملح، ويغلى علـى نـار هادئـة لـمدة سـاعتين مـع القرنفـل وأوراق الغار وبصلة غير مقطعة لإضفاء النكـهة.

في أثناء أواخر الستينات، أيام الاحتجاجات، عنـدما كـان الغضـب والسخط والحنق رخيصة مثل عناوين المقالات والكرنب المخلل، كتبـت

Twitter: @ketab_n

قصيدة طويلة بعنوان «رأس الخنزير الهلامي»، فيها كل شيء يُطهى مع المرقة بالبهارات التقليدية، لكنني أضفت «مقدار رأس سكين من السخط المتخثر، المسمك، المترسب»، ونسباً صحية من النقمة التي اهتاجت لأن الناس كانوا يشعرون بالعجز البالغ إزاء العنف-المجاز من الحكومة، ومن الغضب الذي أدى إلى الهتاف بالشعارات الحمراء لثوريي 68.

عندما جاء دور تجريد الرأس من العظام، الأكثر إثارة للملل، فإن التلميذ قد تابع الأستاذ، رغم ذلك. فقد أومأ شيفنا، مستخدماً يديه، كيف يزيل اللحم والدهن عن العظم والخطم عن الغضروف عندما تكون قد بردت وكيف يكشط الهلام عن شحمتي الأذنين الغنيتين بالهلام - لكل إيماءة منه هدف. قام بحركة سريعة لعظم الفك، جرف الدماغ المتخثر خارج تجويف الدماغ، أفرغ محجري العينين، انتزع اللسان أولا، بعد فصله عن الحنجرة، ثم الكتلة الضخمة للخد، بعد تحريره من طبقة دهنه، ثم، وفيما كان يقيس حجم الغنائم كلها ببراعة، انطلق إلى ترقيم ما كان يؤلف المخزون الغالي على نار هادئة، الذي كان يسبح فيه اللحم الهبر من الصدر أو العنق: الكرات المفرومة بشكل ناعم، الخيار المخلل المشروح، بذور الخردل، ثمار الكابر capers، قشر الليمون المبشور، والفلفل المطحون بشكل خشن.

بعد ذلك أضاف مقادير ضئيلة من الفليفلة الخضراء والحمراء - «لكن ليس من النوع الحار» - وأوصل كل شيء - مكعبات اللحم وأكوام التوابل - إلى الغليان مرة أخرى، وعندئذ أعلن إنهاء الطقس بخاتمة مهيبة وذلك بسكب ما يمكن أن يكون ماء مقدساً، لكنه في الحقيقة كان خلاً، من دمجانة وهمية إلى القدر شبه الملآن: تحتاج إلى الكثير من الخل لأنه يفقد طعمه عندما يبرد الشراب المخمر. «الآن، أيها السادة، نسكب في القصعات الفخارية، نضعها في بقعة باردة وننتظر بالصبر الذي نملك الكثير منه».

Twitter: @ketab_n

في توقف مديد، ولد في أثنائه المثالُ لرأس خنزير صار هلاماً من تلقاء ذاته، دون جيلاتين المعمل، وأقحم الجنود لمرة واحدة كلمات لاتينية وصيغا رياضية في هواء الربيع العليل خارج الجناح البيطري السابق، نظر إلى كل فرد من الحاضرين على حدة، كل ضحية من ضحايا سحره، في العين. قبل أن يتمكن أي شك من طرفنا من إبطال السحر، رفت عيناه رفات قليلة كما لو أنه، أيضاً، يستيقظ من حلم غني بالحريرات، وقال بصوته الأنفي، بصوت نجم السينما، «الآن صار جاهزاً، جامداً في القصعات. يمكنكم قطعه بالسكين. قدموا الطعام أيها السادة».

بعد توقف آخر وجولة أخرى من الرمشات، التفت إلى المستقبل: «جيد لأجل الفطور أيضاً. عندما ستكون الأمور أفضل وتوجد خنازير كافية في السوق مرة أخرى».

أكثر ما أفتقده من كل ما ضاع هو مفكراتي: سأكون أكثر مصداقية لو كان بمقدوري أن أقتبس منها.

أم هل كنت مأخوذا أكثر مما ينبغي بأداء الأستاذ للطقوس - الغلي البطيء، التجريد من العظام، فصل اللحم وتحويله إلى مكعبات، تكويم التوابل - لتدوينه كله؟

هل كان ورق الكتابة من مخزوني المارينبادي، الذي استعملته من أجل خربشة القصائد التي تتعامل مع تشكيلة أخرى من اللحم من أجل رسم الوجوه الذابلة للجنود المتطوعين، الأنيقة أكثر مما ينبغي من أجل وصفات دنيوية؟

لا يتأخر الجواب في المجيء: بالنظر إلى الوراء، أرى قلمي الرصاص يطير عبر ورقة ضائعة من صنف أو آخر، مع محوات أو بدونها؛ أسمع نفسي أبلع لعابي، كما أفترض أن التلاميذ الآخرين قد فعلوا ذلك، لخنق الصوت الدائم للجوع القارض. بالفعل، أصبحت دروس الأستاذ إلى حد

Twitter: @ketab_n

كبير جزءاً مني بحيث أنني فيما بعد، كما تنبأ قارئ حظ الشيف البيسارابي، عندما «وجد لحم الخنزير في السوق مرة أخرى»، لم أكتب قصيدة احتفالاً برأس الخنزير المهلم فحسب، بل أمتعت ضيوفي، الأحياء منهم والأموات من الماضي، بقدور طافحة بالهلام الطبيعي. ونادراً ما فوتت الفرصة لإمتاع أصحابي ـ ذات مرة دعوت ناشري مجموعة الأغاني الشعبية *Des Knaben Wunderhorn*، والأخوين غريم، والرسام الرومانتيكي فيليب أوتو رونغه ـ مع حكاية دورة الطبخ المجردة إنما الخانقة للجوع، في واحدة أو أخرى من تنويعاتها.

كنت أستمتع بتنويع أصول الشيف: في بعض الأحيان كان يأتي من منطقة بانات الهنغارية؛ ثم جعلته يولد في بوكوفينا النمساوية، في مدينة تشيرنوفيتش، حيث زعم أنه قابل الشاعر الشاب باول سيلان Celan، الذي كان لازال يسمى باول أنتشل Antschel في ذاك الوقت؛ سينتقل مكان ولادته من بوكوفينا إلى بيسارابيا الروسية.

في بعض الأحيان كنت أقدم البطاطا المقلية مع الشراب المخمر، وفي بعض الأحيان الخبز الأسود العادي. كان ضيوفي المنوعون ـ الذين كانوا يضمون شخصيات هامة من بعيد، الديمقراطيون الاجتماعيون الأوروبيون الثلاثة الكبار (براندت، بالمه، كرايسكي)، دون أن نذكر شيئاً عن الأصدقاء من عصر الباروك، مثل أندرياس غريفيوس، الذي أحب أن ندعو كل شيء تفاهة التفاهات، ومارتن اوبيتز، قبل أن ينال منه الطاعون، والأم كوراشه والدة غريملزهاوزن وغريملزهاوزن نفسه، عندما كان لايزال غلنهاوزن ـ نادراً ما يتركون شيئاً في صحونهم. في بعض الأحيان كنت أقدم الخمر كدورة أولى، وفي بعض الأحيان بوصفه الدورة الرئيسية، لكن الوصفة لم تتغير أبداً.

كان لدى الأستاذ أيضاً الكثير ليقوله حول طبيعة الخنزيرات

Twitter: @ketab_n

والخنــازير والخنــانيص [صــغار الخنــازير] وفضــائلها في أثنــاء ذينــك الجلستين اللتان دامتا ساعتين انقضتا بسرعة: علمنا أنه في البلد الـذي كان ينحدر منه كانت [الخنازير] جميعها تُسمن بأكواز الذرة، لكن كان ثمة أيضاً أشجار بلوط تغرس خصيصاً لتغذيتها بثمار البلوط التي تصلح لأجل اللحم الهبر وغير الدهني بشكل زائد، لكن بحيث لا تكون طبقة الـدهن ظـاهرة عليـه، لأنهـا يمكـن أن تتحـول في المقـلاة إلى تقطـرات وطشطشات؛ وبحيث يمكـن وضـع كبـد الخنزيـر وقلبـه ورئتـه داخـل طاحونة لحم - مثل الدم في أثناء عملية الذبح - يتحول إلى نقانق (لكـن أرجوكم أيها السادة أضيفوا نبات العترة!)؛ وأن تدخين فخذ الخنزيـر ولحم الخنزير المقدد كان فناً راقياً.

عندما اعتقدنا جميعاً (وأنا ضمناً)، أننا قد أحرزنا الدرجة الضرورية مـن التقـوى والتخمـة اللفظيـة، قـال بطريقـة الاختتـام، «الآن، أيهـا السادة، انتهينا من الخنزير. لذلك سأتكلم بعد غد عن شـيء مختلـف. موضوعي ليوم بعد الغد هو الطيور الداجنة. لكن دعوني أقول مقدماً: لا إوزة بلا عشبة التمساح!

هل كان ذلك حقاً بعد يومين فقط أن أصبح قولـه المـأثور هـو المثـال لإوزة محشوة لذيذة لأجلنا جميعاً؟ الأرجح أنه قد مرت أيام وأيام قبـل أن أعود إلى الغرفة المبلطة من الجناح البيطري السابق الذي لازال يرجع الصدى في ذاكرتي، أيام لا تصلح لشيء سوى القصة التي لانهايـة لهـا للجوع المتبقي، بعيداً عن الإشاعات التي تنتشر عبر المعسكر.

أوقعت إشاعة مفادها أن كل الأسرى من الجزء الشـرقي مـن ألمانيـا سوف يسلمون إلى قوات الاحتلال السوفييتية الخوف في قلوب الكثيرين. ثم كانت هناك الإشاعة حول كيف أن الأفواج الكاملة من القوزاق الـتي حاربت إلى جانبنا قد سلمها الإنكليز إلى الروس وكانت ترتكب الانتحار

Twitter: @ketab_n

الجماعي ـ أي شيء للنجاة من الانتقام السوفييتي. كانت ثمة أيضاً إشاعات عن إطلاق جماعي لسراح الأسرى، مترافقة في أحيان قليلة مع الحديث عن شحن أصغر النزلاء سناً من أجل إعادة تربيتهم: إلى أمريكا! سيخرجون شبيبة هتلر منكم، هكذا سخر الجنود الأكبر سناً.

لكن الإشاعة ذات الانتشار الأطول حول «عريشة المرحاض» هي عن إعادة تسليح خطط لها طويلاً، وتمت الموافقة عليها الآن، وستنفذ عاجلا، لأسرى الحرب العزل. وبتجهيزات أمريكية: «دبابات شيرمان وهلم جرا....».

«معقول»، سمعت رقيبا يجادل، «من الآن فصاعداً سنكون فيها مع الأميز» ـ كنا آنذاك قد بدأنا نسمي الأميركيين أميز Amis ـ مقابل الإيفانز [الروس]. إنهم يحتاجوننا أيضاً. لن يذهبوا إلى أي مكان بدوننا...

اتفق الكثير من الرجال معه. الأمور ستندلع مرة أخرى مع الروس ـ كان ذلك واضحاً وضوح النهار. كان ينبغي أن ينفذوا ذلك قبل أن يدخل الإيفانات إلى بولندا، لكن ذلك استغرقهم حتى الآن، عندما خرج هتلر من الصورة وكذلك الشخصيات الهامة الأخرى، مثل غوبلز وهيملر وهلم جرا، أو قيد الاعتقال مثل غورينغ.

«صحيح، خبرتنا على الجبهة كمتراس ضد المد الأحمر. نعرف ماذا يعني قتال الإيفانز، خصوصاً في الشتاء. أما الأميز فليس لديهم أية فكرة...».

«استبعدني. كنت سأجعل نفسي نادراً بصعوبة. عامان في لينينغراد، مسيرات البريبيت Pripyet، جبهة أودر، لقد نلتها».

حتى هذه الرؤى النبوئية ـ نبوئية في أنه في أعوام قليلة بعد ذلك، تارة أديناور هنا وتارة أخرى أولبريشت هناك كانا قد دخلا منظومات المنتصرين، أعيد تسليح الألمان وكان لهم جيشان بدلاً من الواحد ـ

Twitter: @ketab_n

بهتت مع مرور الزمن، وإن دون أن تختفي كليا؛ حتى عندما انتشرت أسطورة عريشة المرحاض الأطول عمراً وكان لها مؤمنون بها ـ بدأ بعض الضباط يلمعون ميدالياتهم ـ لم يكن بمقدورها أن تصمد ضد حاجة المعسكر برمته إلى التعليم، العام والمتخصص، إلى التثقيف التوراتي، إلى الثقافة. لا أنا ولا أي من زملائي التلاميذ كنا نرغب في إنقاذ الغرب ـ أو أي شيء آخر ذا صلة ـ باللباس العسكري الأميركي. لقد خضعنا بهدوء للمخدر الطبخي بسبب جوعنا الناهش.

ربما كان هذا هو السبب في أنني أستذكر جلسة الإوز لمدة ساعتين، بُعيد أو بعد وقت قصير من الجلسة المكرسة للاستفادة القصوى من الخنزير، التي كانت مفيدة بشكل خاص لتطوري الطبخي لاحقاً. بالنظر إلى الوراء، أرى نفسي كصبي يخرج لإشباع رغباته المطنبة، من ناحية أولى، وككلبي ملطف خبير في الجثث المشوهة المتدلية من الأشجار، من الناحية الأخرى. أما وقد حرقت أصابعي فلم أكن متسامحاً مع أي إيمان، سواء كان بالفوهرر أو بالله. السلطة الوحيدة التي كنت راغباً في الاعتراف بها، بالإضافة إلى العريف الذي استجاب لعبارتي «هانز غادر البيت»، هي ذاك الرجل الشائب النحيل الذي كان حاجباه يطالبان بمشط: كان يمتلك القدرة على إسكات جوعي، ولو لساعتين، بكلماته وإيماءاته.

هذا هو السبب في أن شيفنا ـ الذي لابد أنه قد حول مكونات أخرى إلى نقانق، جلب حيوانات أخرى إلى الذبح، وأرانا كيف نصنع من الأسماك والمخلوقات السرطانية الشكل مأكولات لذيذة ـ قد بقي حضوراً مثيرا للذكريات على هذا النحو في حياتي بحيث أنه حتى الآن، عندما أضيف دهن الخنزير إلى ساق خروف مع الثوم والمريمية أو أسلخ لسان العجل الخشن، فإنه يكون موجوداً، يحدق في أصابعي.

Twitter: @ketab_n

وهذا هو السبب في أن إشرافه الأستاذي كان يعني لي الكثير جداً لي، على سبيل المثال، في أواخر الستينات، عندما أصبحت الثورة ملموسة - على الأقل بعلامات التعجب - وعندما كنت أعد إوزة مارتنماس لأجل الفيلسوف إرنست بلوخ في شقتي في شارع نيدشتراسه في ناحية فريدناو في برلين، وواجهني الاختيار بين الحشو بالتفاح أو بالكستناء. إن التلميذ، الملقح بالنصيحة «لا إوز بلا عشبة التمساح»! قد اختار الكستناء، توصية الأستاذ. أخذ بلوخ نصف الصدر وجناحاً زائد عظم الترقوة على صحنه، حيث كان الأخير يحثه فوراً على كتابة بحث مطول. فقد امتدح الحشو بالكستناء وحكى لآنا ولي وللأولاد الأربعة المدهوشين حكاية لانهاية لها ظاهرياً حول «رجال غير منجَزين»، من توماس مونتسر إلى كارل ماركس، ومن رسالة الأخير المسيحانية إلى شاترهاند العجوز، بطل كارل ماي، الكاتب الألماني الغربي الاستثنائي، الذي يرعد مثل موسى من جبل سيناء تارة، ويدندن بموتيف لفاغنر تارة أخرى، وتارة يستذكر الأصول الشفهية للأدب، وتارة أخرى يزيل المستقيم والضيق من بعض الكتل العائقة في همسة، وأخيراً، بعد الانفراد بحكاية خرافية - هل كانت حكاية هانزل وغرتل - كان يرفع عظم الترقوة المعلوك في الهواء، يأمر النور بأن يشع على محياه، يستحضر مبدأه المستشهد به غالباً، وينطلق في أنشودة شكر للحكايات الطويلة عموماً وخصوصاً.

كان الأولاد على المائدة - فرانتز وراؤول ولاورا وبرونو الصغير - يصغون فاغري الأفواه إلى ضيفنا غير المألوف، بنفس الإيمان بكلماته الذي أؤمنه بكلمات أستاذي، الشيف البيسارابي، عندما أوصيت باستعمال تابل مستورد كعشبة التمساح من أجل أي حشوة وكل حشوات الإوز.

Twitter: @ketab_n

ذهب فجأة. لم يعد هناك شيف. لا أحد ليهدئ جوعنا بإيماءة «لكن أرجوكم، أيها السادة». تقول الإشاعة إنه نقل بأمر من السلطات العليا وأنه كان يجلس في الآونة الأخيرة بين شرطيين عسكريين ذوي خوذة بيضاء لامعة.

تلت تلك مباشرة الإشاعةُ القائلة إن الجنرال باتون، الذي كان يقود الجيش الأميركي الثالث والذي تطفح خطاباته بالروسوفوبيا [الكراهية للروس] كان قد عزز تخمين عريشة المرحاض أننا سيعاد تسليحنا وإرسالنا إلى جبهة شرقية جديدة، نعم، كان هذا الجنرال البعيد النظر قد جند شيفنا المشهور عالمياً كشيف شخصي خاص لكي يطعمه وضيوفه ذوي الرتب العالية بالأسلوب الذي اعتادوا عليه.

وعندما روي أن الجنرال باتون فقد حياته في حادث، بدأ فيضان جديد من الإشاعات ينتشر: لقد قتل، والأرجح أنه قد تم تسميمه. وبما أن شيفه الشخصي وأستاذنا في الطبخ التخيلي قد تم توريطه في المؤامرة، فإنه، الشيف، قد اعتقل مع عدد وافر من العملاء الآخرين والشخصيات الغامضة. أعلنت المحاكمة ضد المتآمرين بالإضافة إلى كل الوثائق ذات الصلة، سرية للغاية بناء على نصيحة خبير ألماني. ارم ذلك كله دفعة واحدة، فتحصل على وقائع رواية أو فيلم.

ما كان يعنيه لي اختفاء الأستاذ والشيف التجريبي للجنرال باتون في ذاك الوقت هو ازدياد فوري في وخزات الجوع، لكن الآن بعد كل هذه السنوات لدي توق إلى كتابة نص من أجل تلك القصة المثيرة. إن المطبخ الجنوبي الشرقي الأوروبي يضع الجنرال باتون في مزاج استفزازي، مغرور، يضع بدوره أستاذي المعلم في خطر لأن شهوة الحرب لدى الجنرال العالي الصوت هي ذو أهمية بالنسبة لأكثر من الـ NKDV: وكالات الاستخبارات الغربية، أيضاً، تشعر بالحاجة إلى عمل

Twitter: @ketab_n

علاجي. فباتون يتحدث بصوت أعلى مما ينبغي، أكثر مما ينبغي، أعجل مما ينبغي. باتون استنفد صلاحيته. باتون يجب أن يذهب. فلماذا لا يكون ذلك إذا بواسطة إوزة تكون حشوتها متبلة بتابل مختلف تماماً عن عشبة التمساح......

هكذا هي تقريباً الشروط التي ستختبر فيها كتابتي قواعد لعبة الحرب الباردة وتقدم رواية دقيقة لولادة منظمة غيلن Gehlen، منبت الاستخبارات الألمانية الفاعلة قبلئذ.

لم يخف جوعي حتى أُغلق جزئياً معسكر أسرى الحرب على أرض مركز غرافنفور للتدريب العسكري ـ كان ذلك في أواخر شهر أيار ـ وكنا قد نُقلنا في شاحنات إلى معسكر باد آيبلينغ في العراء في بافاريا العليا، حيث تم إسكاننا في حفر في الأرض تحت الخيام لعدة أسابيع، ثم قُسمنا وأُرسلنا إلى معسكرات العمل. عندئذ نجحت في زيادة حصتي من مخصصات مورغنتاو الفقيرة بالحريرات وذلك عن طريق المقايضة بدبابيس سيغفريد لاين الفضية اللماعة.

لقد قايضتها بالسجائر الأميركية التي كانت مربحة تماماً لأن التبغ لم يكن يغريني بعد ويمكنني أن أقايض السجائر بالخبز و زبدة الفول السوداني. إن صفيحة كبيرة من لحم البقر المملح قد استقرت في المقطورة الخلفية من ذاكرتي. وتوجد بعض أصابع الشوكولاته الضخمة أيضاً. وأظن أننا أعطينا مؤونة مؤثرة من شفرات جيليت للحلاقة، وإن كانت بالتأكيد ليست من أجل استعمالي الخاص.

ذات مرة، حين كنت لا أزال في معسكر باد أيبلينغ، حصلت على كيس من بذور الكروياء مقابل ثلاث علب من سجائر الجمل Camel ومضغتها إحياء لذكرى وصفة الكرنب المخلل بالكروياء لأستاذي المفقود، مع أنني قدمت البعض منها للصديق الذي كونته في أثناء تلك المطرات التي لانهاية لها تحت القماش المشمع، عندما كنا نقرأ بخت

Twitter: @ketab_n

بعضنا البعض بأحجار النرد الثلاثة. لازال بمقدوري أن أراه ـ جوزف ـ وأسمع صوته الناعم وحتى اللطيف الذي لا يمكن أن تخطئه. لا يمكنني إخراجه من ذهني.

أردت أن أكون هذا، ذاك هو.

قلت، ثمة حقائق كثيرة.

قال: ثمة حقيقة واحدة فقط.

قلت: لم أعد أؤمن بأي شيء آخر.

ركب عقيدة على العقيدة التالية

جوزف، صرخت، تبدو مثل محقق كبير. أم أنك تطمح إلى أعلى من ذلك؟

كان يغلبني دوماً بالنرد، مستشهداً بالقديس أوغسطين عندما يرميها، كما لو كان يضع كتاب ***الاعترافات*** باللاتينية إلى جانبه.

وهكذا كنا نروح عن أنفسنا وندحرج أحجار النرد أياماً بطولها، حتى أرسل إلى بيته ـ لأنه كان يقطن في بافاريا، قريباً ـ أما أنا، الذي لم يكن لي عنوان أعود إليه وبالتالي فقد كنت بلا مأوى، فقد تم تطهيري من القمل أولاً ثم أرسلت إلى معسكر للعمل.

دار الحديث هناك حول حدثين، أثرا علينا، نحن أسرى الحرب، بطرق مختلفة. أحدهما كان إسقاط قنبلتين ذريتين على مدينتين يابانيتين لم أسمع بهما. تقبلت هذه الضربة المزدوجة لأن الحدث الآخر كان له تأثير فوري وملموس أكثر منه علينا: في أواخر الصيف ألغي علاج مورغنتاو المنحف. فصرنا نتلقى أكثر من ألف حريرة. حتى صار بإمكاننا أن نحصل على أوقيتين أو ثلاث من النقانق كل يوم.

كان هذا يعني أننا كنا أفضل تغذية بشكل لا جدال فيه من أولئك الموجودين خارج الأسلاك الشائكة، الذين جلبوا جوعهم إلى السوق السوداء. سمعنا أن مواطني أوغسبورغ وميونيخ قد جندوا لإزالة حجارة

Twitter: @ketab_n

الدبش وكان على المدنيين أن يقفوا برتب شبه عسكرية للحصول على القليل الذي يملكه الخبازون والجزارون لتقديمه. كانوا يوزعون الحصص الغذائية في حالة السلم بمقادير أصغر فأصغر؛ أما نحن، حبيسو المعسكر، فقد كنا نتحسن بشكل أفضل: صرنا معتادين على وضعنا، إذ كنا نشعر بالأمان خلف سياجنا.

كان كثير من أسرى الحرب، خصوصاً أولئك الذين كانوا يسكنون على الأراضي المحتلة آنذاك من قبل الروس والبولنديين، حتى يخشون أن يطلق سراحهم. ربما كنت واحداً منهم. بسبب شح الأخبار ـ هل نجح والدي ووالدتي في الهروب إلى دانتسيغ مع شقيقتي أم غرقاً على الباخرة غوستلوف؟ـ تصورت نفسي بلا والدين، بلا مأوى، منقطعاً عن جذوري. تخبطت في الشفقة الذاتية وجربت أدواراً مختلفة، كالصبي اليتيم الصغير، على سبيل المثال. وخصوصاً على فراشي القشي.

لحسن الحظ أنني كان لي أصدقاء في سني في ظروف مشابهة. لكن ما كنا نفتقده أكثر من الأم والأب هو شيء لم يكن بمقدور أحلام المعالم الخارجية الأنثوية أن توفره. كان ذلك كافياً لجعل المرء شاذاً. وفي بعض الأحيان ـ لا، غالباً ـ كنا نمد أيدينا إلى بعضنا البعض، ونلمس ونتحسس أحدنا الآخر.

ثم تحسن الوضع مرة أخرى. فيما كنت أمارس إنكليزيتي المدرسية في كل مناسبة لجعلها أكثر أميركية، عينت في مفرزة مسؤولاً عن جلي الصحون في المطعم الخاص بالقوى الجوية الأميركية المتصل بثكنة مطار فيرشتنفلدبروك. كنا مسؤولين عن تقشير البطاطا والجزر أيضاً. ويجري توصيلنا كل صباح بالشاحنة إلى أرض الحليب والعسل.

تبين أن مجموعة من الـ DPs، كما يسمى المشردون من جنسيات مختلفة، كانت تعمل هناك، إذ كانوا يغسلون ويكوون [الثياب]. كانت

Twitter: @ketab_n

المجموعة مؤلفة من نصف دزينة من اليهود الشباب الذين ابتسم لهم القدر ونجوا من الموت في معسكر اعتقال أو آخر. كانوا يريدون الذهاب إلى فلسطين، لكنهم لم يُمنحوا الإذن.

لقد كانوا، مثلنا، مذهولين من كمية الفضلات - جبال من البطاطا المهروسة، ودهن الخنزير المقدد، واللحم المتروك على ذبائح الدجاج، بعد أن قدمت الصدور والسيقان فقط - التي كانت تنتهي إلى الزبالة يوماً بعد يوم. بما أننا لاحظنا الهدر دون أن ننطق كلمة واحدة، لم يكن بالإمكان سوى تخمين مشاعرنا المشتركة. هل يمكن أن تكون المرآة التي لم أر فيها حتى ذاك الوقت سوى صورة مهندمة لمنتصرينا قد أظهرت تصدعا بشكل مفاجئ؟

كان الشيء الوحيد الذي كنا نشترك به مع اليهود من سننا هو أننا جميعاً نأكل الفضلات. لكن التشابه انتهى هنا. أرخي الإشراف علينا، فكنا ننخرط في معارك لفظية معهم كلما أخذنا استراحة، رغم أنهم كانوا يتكلمون اللغة اليدية أو البولندية إلى بعضهم البعض وكانت ألمانيتهم محصورة في الأغلب بعبارات مثل *Raus\ Schnellschnell\ Ab ins Gas \Fresse halten\ Stillgestanden* - *تذكارات لغوية لتجربة لم نكن نريد أن نعترف بها.* كان معجم مفرداتنا مجمعاً من «ألمانية الثكنات»: «أنتم أيها الكلاب المقوسة الأرجل! أنتم يا مبللي السرير! سأجعلكم تسيرون على الخط على رؤوس أصابعكم!».

في البداية ضحك الأميركيون على حرب الكلمات التي انخرطنا فيها. كانوا حراس GI وكانوا يطلقون على الرجال في الجماعة المجاورة اسم niggers. تجاوزنا نحن واليهود الشباب ذلك بصمت لأننا حصلنا على سمكة أخرى لقليها.

ثم اتخذ الأميركيون مسلكاً تعليمياً، لكن «ضابط التربية» الأمريكي، بنظارتيه وصوته الرخيم وقمصانه المكوية حديثاً، لم يتماد كثيراً معنا؛

Twitter: @ketab_n

فقد رفضنا، بمن فينا أنا، أن نصدق الأدلة التي وضعها أمامنا، الصور البيضاء والسوداء لبرغن ـ بلسن، رافنسبروك.... رأيت أكوام الجثث، الأفران؛ رأيت المتضورين جوعاً والمجوَعين، الأجسام الهيكلية العظمية للناجين من عالم آخر. لم يكن بإمكاني أن أصدق ذلك.

«هل تقصد أن الألمان فعلوا ذلك؟» بقينا نسأل.

«الألمان لا يمكن أن يكونوا قد فعلوا ذلك».

«الألمان لا يفعلون ذلك».

وفيما بيننا كنا نقول: «دعاية. دعاية خالصة».

ذهب معلم بناء معنا في جولة إعادة تربية قصيرة لداخاو ـ فقد صُنفنا نازيين شبان ـ قال بعد أن أدخلنا عبر المعسكر من محطة الصليب إلى المحطة التالية، «هل تذكرون غرف الدوش؟ ورؤوس الدوش؟ من أجل الغاز كما هو مفترض. حسناً، لقد تم تجبيرها بالجص. الأميركيون نصبوا أنفسهم بعدئذ...».

انقضى بعض الوقت قبل أن أفهم تدريجيا وأعترف بشكل متردد بأنني قد شاركت دون أن أعرف ـ أو، بشكل أدق، غير راغب في أن أعرف ـ في جريمة لم تخف مع مرور السنين ولن يطبق من أجلها أي قانون للمهل القانونية، جريمة لا زالت تحزنني.

يمكن القول إن الذنب والعار الذي ولده، مثل الجوع، يلسعان بلا توقف. الجوع كنت أعاني منه بعض الوقت، أما العار....

لم تكن حجج ضابط التربية ولا الصور الفوتوغرافية النابضة بالحياة بشكل مفرط التي أرانا إياها هي التي اخترقت عنادي؛ لا، لم أتجاوز عقبتي إلا بعد عام، عندما سمعت صوت قائدي الشبيبي الهتلري السابق بالدور فون شيراخ، لا أتذكر أين، صادراً من المذياع. كان مسموحاً للمتهمين من قبل محكمة نورمبرغ بكونهم مجرمي حرب أن يفترشوا الأرض للمرة الأخيرة قبل أن يتلى الحكم. في محاولة لتبرئة

Twitter: @ketab_n

شبيبة هتلر، أكد شيراخ جهله بها، زاعماً أنه هو، وهو فقط، كان مدركاً للإبادة الجماعية بوصفها الحل النهائي للمسألة اليهودية.

كان علي أن أصدقه. تابعت تصديقه. لكن طالما خدمت كغاسل صحون وكترجمان، كنت عنيدا. كنا قد خسرنا الحرب بكل معنى الكلمة: المنتصرون كان لديهم جنود أكثر ودبابات وطائرات أكثر مما كان لدينا ولم يكونوا يهتمون بالحريرات. لكن ماذا عن الصور؟

عندما تجادلنا مع أندادنا اليهود، صرخوا «نازيون، أنتم نازيون!».

أجبنا: «اخرجوا من هنا، اذهبوا إلى فلسطينكم!» لكننا عندئذ كنا نضحك معاً على الأميركيين المجانين، وخصوصاً ضابط التربية، الذي كنا نحرجه بالأسئلة حول معاملة بلده الوضيعة «للزنوج».

عندما كنا نتعب من الشجار، كنا نحول الموضوع إلى النساء، اللواتي ندعوهن أولاً بالعاهرات، ثم نضعهن على قاعدة تمثال. لأن الأبناء الناجين للآباء اليهود المقتولين كانوا جائعين إلى صورتهم للنسوة كما كنا نحن أسرى الحرب جائعين إلى صورنا. وكنا كلانا نجد الأميركيين وصورهم المعلقة على الجدران مثيرين للسخرية.

ذات مرة أو مرتين، دفع أحد اليهود، الذي كان يناديه الآخرون باسم بن، بصمت علبة صفيح مترعة بدهن اللحم الكثيف والعصائر في اتجاهي بعد الفحص وقبل أن نصعد إلى ظهور شاحناتنا. لقد كان مخالفا للقواعد أن نعيد الفضلات إلى معسكرنا.

أتذكر أن بن كان ذا شعر أحمر مجعد. وقد تحدثت عن بن وديتر في آذار من عام 67 في تل أبيب. إذ كنت قد دعيت من قبل الجامعة. كنت في التاسعة والثلاثين من عمري وكنت ذا سمعة سيئة لكوني مشاغباً بسبب نزوعي إلى فضح ما كان مخفياً طويلاً أكثر مما ينبغي.

كانت محاضرتي بعنوان «حديث حول الاستيعاب». ألقيتها باللغة الألمانية لأن الجمهور كان يتألف بشكل رئيسي من اليهود من أصل

Twitter: @ketab_n

ألماني. كان جزء منها يتطرق إلى بن وديتر، وطواقم المطبخ وغسل الملابس وضابط التربية الذي حاول أن يكون حكماً بين الطرفين المغربين.

أسميت ضابط التربية هرمن ماوتلر. كان عليه أن يفر إلى النمسا في عام 1938، وهاجر إلى الولايات المتحدة، نال درجة في التاريخ، وكان يؤمن بالعقل. كانت القصة التي أقحمتها في الحديث من أجل جمهور الناجين [من المحرقة] هي قصة فشله، وعندما أقرأها اليوم، على مسافة حوالي أربعة عقود، يصدمني فشله إذا قورن بإخفاقاتي.

صحيح أنني اختلقت اسم هرمن ماوتلر، لكن الشخص الهش الذي لم أعد أعرف اسمه الحقيقي هو أكثر امتلاء بالحياة بالنسبة لي من الشاب العنيد الذي أحاول التعرف عليه في صورة ذاتية مبكرة. لأن ديتر في القصة ليس سوى جزء مني.

كيف تبقى القصص طازجة؟ بما أنها تكون غير منتهية على نحوٍ ثابت، فإنها تتطلب أكثر من معدل الذكاء المعتاد للابتكار. إنها دوماً بانتظار الفرصة للتحرك نحو الأمام أو نحو الوراء. مثل قصة جوزف، الشاب البافاري الذي أطلق سراحه باكراً من معسكر باد أيبلينغ، والذي قضيت معه بضعة أيام طويلة أسحق القمل، وأعلك بذور الكاروياء تحت القماش المشمع في المطر، وأقرأ البخوت بأحجارٍ النرد. شيء جميل أن أعرف ذلك كله. إن قصته يجب أن تروى دوماً، لأنه رغم أننا كانت لدينا خطط مختلفة لأجل المستقبل، إلا أنه كان، مثلي، قد كتب الشعر منذ الوقت الذي كان فيه فتى المذبح....

إن قصة بن وديتر وحدها يجب أن تنتهي، لأن طاقم المطبخ موضوع الحديث تم استبداله بمجموعة من الجنود الأكبر سناً في الخريف بعد أن أكملت الثامنة عشر. لقد مكث اليهود لفترة أطول قليلاً، ربما إلى أن نجحوا في إيجاد طريقة للذهاب إلى فلسطين، حيث كان ينتظرهم الوعد بإسرائيل دولة ذات سيادة والحرب تلو الحرب.

Twitter: @ketab_n

ربما يكون ضابط التربية في وقت لاحق قد كتب كتاباً حول مشاكل نزلاء المعسكر من مختلف الأصول في أثناء البلوغ وحول هزيمته المجيدة. أما بالنسبة لي، فقد منحني تغيير المعسكر شيئاً لم أكن أعرفه. كان يدعى الحرية.

عندما نقلت إلى لوينهبورغ هيث في وقت مبكر من الشتاء كنت فقيراً بدبابيس سيغفريد لاين لكنني كنت لا أزال أحتفظ بمخزون جيد من شفرات الحلاقة. سافرنا في شاحنات الجيش عبر طرق سريعة خالية من خلال تضاريس متموجة ثم منبسطة تمتد أمامنا بسلام. لقد نقلنا، كما تم إخبارنا، فقط لكي يتم إطلاق سراحنا. من حين لآخر كان وجود جسر مقصوف بالقنابل على الطريق السريع أو دبابة محروقة يذكرنا بالأهوال التي نجونا منها. ما إن وصلنا حتى أدخلنا إلى الثكنة في معسكر مونستر.

اهتم الحرس الإنكليزي بإحدى موادي المتبقية من أجل المقايضة: دبابيس سيغفريد لاين الصغيرة. لكنهم في نهاية المطاف ختموا أوراقي، وعقموني، وأعطوني حصتي الغذائية الأخيرة وأطلقوا سراحي في منطقة الاحتلال البريطاني. هناك وجدت محمية شاسعة مفروشة بالدبش، وهناك كنت سأواصل تجريب ذاك الكم المجهول: الحرية.

إنه مخيب للآمال للوهلة الأولى: تقشير البصلة يجعل العينين تدمعان. فما كان واضحاً للرؤية الصافية سيكون مكفهراً. كهرماني يأسر محتواه بتعريف أكبر: إنه يبدو لفترة من الزمن بعوضة أو عنكبوتة صغيرة. لكنها عندئذ تستحضر إلى الذهن شيئاً آخر، مثل شظية القنبلة المغلفة في كتفي الأيسر كتذكار ـ إذا جاز القول.

ما الذي أحتفظ به من الحرب وتجربة المعسكر بالإضافة إلى الأحداث التي دمجت معاً في نوادر أو الرغبة في بقاءها متحولة كقصص حقيقية؟

أولاً، الشكوكية، عندما صعقتني صور معسكرات الاعتقال بسوادها وبياضها؛ ثم الصمت.

Twitter: @ketab_n

أحتفظ كذلك بالدروس التي علمني إياها الخوف والجوع. والقدرة، بفضل دورة الطبخ بلا تجهيزات سوى سبورة وغبار الطباشير، على استحضار ما أشتهيه بشكل متحمس، وحتى المتعذر مناله، بكل روائحه وأصواته الصاخبة. تعلمت أيضاً أن أدعو ضيوف الغداء من أمكنة وأزمنة بعيدة، أصدقاء أفتقدهم، ماتوا شباناً أو يتكلمون إلي من الكتب فقط، أصدقاء أُعلنوا أمواتاً مع أنهم أحياء كثيراً جداً.

إنهم يجلبون الأخبار من نجم آخر، يواصلون شجاراتهم على المائدة، أو يلتمسون الخلاص في الحكايات الطويلة التي تضج بالتقوى لأنها تجمدت في صور حجرية قروسطية.

فيما بعد مددت فترتي الزمنية وكتبت رواية *التخبط* التي أرحب عبرها بضيوف من كل قرن إلى مائدتي، فأقدم لهم سمك الرنة من نوع /سكاني/ في أثناء العصر الغوطي لدوروثيا، والكرشة التي أعدتها رئيسة الدير مارغريته روش لأجل الوجبة الأخيرة لوالدها، الوجبة التي سبقت إعدامه، وسمك القد مع صلصة الشبث الذي طبخته آغنس لأجل الترويح عن الشاعر مارتن اوبيتز، وحساء البطاطا الذي أعدته أماندا لأجل اولفريتز، بالإضافة إلى تابل الفطر الذي استعملته صوفي لحشو رأس العجل الذي هرب حاكم نابليون، الجنرال راب، بجلد أسنانه، والكلى مع صلصة الخردل التي قدمتها لينا شتوبه لأوغست بيبل، عندما أرته كتابها بعنوان *الطبخ البروليتاري*.....

في أيام الجوع اللاسع أوليت انتباهاً شديداً إلى أستاذي. حالما توفرت المكونات بسعر معقول، وضعت حساءات الهواء وزلابيات الغيوم وديوك الطقس على مائدتي. لابد أن الأنا التي اختفت في تلك الأعوام المبكرة كانت إناء فارغاً. من بين أولئك الذين ملأوها، كان شيف بيسارابي يستحق كل المكان له. ما كنت أعطيه لأجد مكانا على مائدتي لأجل الجنتلمان الذي قال، «لكن أرجوكم، أيها السادة....».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لم يعد هناك سلك شائك يملي خطوط النظر الأفقية والشاقولية. بأخف الأمتعة فقط، بما فيها باوندان من الشاي حصلت عليهما بالمقايضة، نُقل هو أو أنا إلى حالة تدعى الحرية، مع أنها كانت محدودة بمنطقة الاحتلال البريطاني.

لكن من منح الحرية لمن؟ كيف تتم الاستفادة من هذه الهبة؟ ما الذي كانت تعد به هذه الكلمة المؤلفة من مقطعين التي يمكن شرحها أو توسيعها أو تخفيفها أو حتى إلغاؤها، بأي عدد من الألقاب.

قصاصات من الذاكرة مرزومة معاً ـ تارة في هذا الاتجاه وتارة أخرى في ذاك الاتجاه ـ لكن دوماً ذات فجوات. أقتفي أثر الصورة الظليلة لشخص صدف أن نجا، لكن لا، أرى طلحية ورق ملطخة ولكنها فارغة من الجهة الأخرى هي، أو من الممكن، أو تود أن تكون، الإطار العام غير الدقيق لوجود قادم.

إن شخصا لازال يفرق شعره على اليسار ولا زال طوله خمسة أقدام وستة ونصف. شخص بالزي العسكري المصبوغ يحلق لحيته بنفسه مرة في الأسبوع ويرى الحرية المعروضة عليه كطريق من الصعب سلوكها. مع ذلك يخطو الخطوة الأولى.

بالإضافة إلى ذلك، تأتي المثل العليا لتصرخ ـ إنه شاب متأمل جاد يبحث عن المعنى بين الأنقاض ـ فتُرفض بشكل متلعثم.

Twitter: @ketab_n

في الوقت الحالي على الأقل، لا يمكنني أن أرسم صورة عن حالتي في تلك اللحظة. فالحقائق هي أقل مما يجب وغير واضحة. أنا في الثامنة عشرة. عندما يطلق سراحي، لا أعود أخف مما يجب. أنا خال من القمل. أرتدي بوطاً أمريكياً ذا نعل مطاطي، وأبدو على خير ما يرام في المرآة.

من غير المؤكد ما إذا كانت الحياة في المعسكر قد شفتني من تكشيري الشبابي. مقتنياتي الوحيدة هي الشاي الإنكليزي المعبأ بشكل غريب الذي تمون به اللامدخن حتى حينه مقابل السجائر، والدبابيس الفضية والمؤونة الهائلة من شفرات الحلاقة. بغض النظر عن القليل من النثريات والخربشات، فإنها هي كل محتويات كيسي. وماذا عن الصورة التي تكشفها حياتي الجوانية؟ يبدو أن الكاثوليكي الملحد كان مطلعاً على كل أسئلة الإيمان الخبيثة وفي الوقت نفسه لم يطلق شتيمة. كان الشك بوجود ملحد كامن في بداخله سيعني أن ينسب إليه ديناً آخر.

إنه يتأمل. لا ينتج شيء يمكن الاستشهاد به. ظاهرياً ثمة أشياء قليلة لم تبهت: سروال الجيش الألماني، سترة الفراء الأميركية ذات القلنسوة، المبطنة والمصبوغة باللون الأحمر العتيق. قلنسوة صوفية، هي أيضاً قطعة امريكية، تؤمن دفئا أسمر زيتونياً. إنه يبدو شبه مدني. وحده الكيس لازال رماديا ميدانيا.

لكي يطلق سراحي ينبغي أن أعطي عنواناً. زودني به فيليب، صديق من عمري، مع التحيات إلى أمه. كان فتى وسيماً ذا وجه ملائكي وذا غمازات وابتسامة معدية. كان، مثلي، يمتلك موهبة العبث، النوع الذي جعل منا متطوعين.

كان عليه أن يتخلف في معسكر مونتسر فنقل لاحقاً بالسفينة إلى

Twitter: @ketab_n

بريطانيا مع كتيبة سفن في مهمة. سُمح لي بالخروج لأن صورة الأشعة السينية (المعروفة بأشعة رونتغن) أظهرت وجود شظية قنبلة بحجم حبة الفول متكلسة في كتفي الأيسر. بقيت هناك إلى هذا اليوم، تذكاري الصغير مشابه للخنفساء التي صمدت أمام الزمن في سجنها الكهرماني. عندما كنت أعيد سحب ذراعي الأيسر، محاولاً التباهي ـ أولاً لآنا، والآن لأوته ـ بكوني أعسراً، لأرمي حجراً أو كرة، كانت ترسل لي إشارة ملموسة: هاي، توقف! دعني أنام!

لذلك اعتبرتُ، خلافا لفيليب، غير لائق للعمل تحت الأرض في مناجم الفحم الولزية. وعدته بطمأنة والدته بأنه سيعود إلى البيت قريباً. تلك هي الكيفية التي أصبح بها مكان إقامتي الأول المسجل رسمياً كإنسان حر هو كولونيا ـ ميلهايم، كومة من الأطلال مع لافتة شارع عرضية ناجية بشكل إعجازي ملصقة على ما تبقى من واجهة، أو معلقة على عمود يبرز من بين حجارة الدبش، التي كانت تتفرع منها بقع مورقة من الدفلى الذي كان على وشك أن يزهر.

فيما بعد، فيما كنت أجوب مناطق الاحتلال الأميركي والفرنسي مثل كلب شارد بحثاً عن الطعام، أو عن مكان أنام فيه، أو عن احتكاك الجلد على الجلد، مدفوعاً بذاك الجوع. فاهتديت أو ضُللت إلى لافتات شوارع مشابهة مروراً بخرائب أخرى وفوق أحجار دبش تؤوي أشخاصاً مفقودين.

لازلت أطأ هذه الدروب البديلة المؤقتة، مستيقظاً أو حالماً، بين المباني المتضررة، أقف على كومة من الحطام من أجل إطلالة أفضل، وأسناني تصر، غبار الحجارة والملاط يملأ الهواء...

عرفتني والدة صديقي،وكانت امرأة رشيقة ذات شعر أزرق داكن مصبوغ أو طبيعي وسيجارة متدلية دوماً من شفتيها، بشكل غير رسمي

Twitter: @ketab_n

على السوق السوداء. فما يسمى بتعبير ملطف مربى الفواكه الأربع والعسل الاصطناعي، وزبدة الفول السوداني الأميركية وإبر الغراموفون، والقداحات وبطاريات المصابيح اليدوية كانت تعبر طاولة المطبخ لكي أزنها أو أعدها. كان بإمكاني أيضاً أن أحقق ربحا من شفرات الحلاقة التي بحوزتي بطريقة مشبوهة. وسرعان ما صرت أملك مالاً. ومنذ الصباح حتى الليل كان ثمة موكب متصل من الزبائن الذين يحملون سلعاً للمتاجرة بها. كان الفراء ـ أتذكر أنه كان ثعلباً فضياً ـ يساوي وزنه من الزبدة.

كانت شقيقة فيليب تتبختر مرحاً خلال جولة المعاملات اليومية مثل دمية رشيقة، كما لو أنها تتبختر أمام جمهور متخيل. كانت صورة عن أمها. فقد كانت ترتدي جوربين حريريين، وتبدل القبعات بشكل منتظم، وتفوح منها رائحة الربيع، لكن لا يمكن مغازلتها إلا في الأحلام المستغرقة طويلاً. هل يمكن أن تكون تلك ـ التي تطوف مارة مثل ملاك ـ هي التي مسدت شعري؟

من قبيل التعويض، كنت أهرب إلى السينما. لا يزال بمقدوري أن أرى قصر السينما المحلي سليماً بين الخرائب. في السلم كما في الحرب، كانت فتنته الرئيسية هي فيلم ***قصة حب في مفتاح صغير*** *Romance in a Minor Key*، الذي يمثل دور البطولة فيه هؤلاء المفضلين فيما مضى، مثل ماريان هوب، بول دالكه، وفرديناند ماريان، الذي يفقد الآن سمعته الحسنة بسبب دوره في فيلم Jew Suss.

لقد خدم فيلم ***قصة حب في مفتاح صغير*** في إثارة الشهوات، قبلئذ ببعض السنوات، عندما كنت في احتياط سلاح الجو. كلما استدعت «ساعة بين النهار والأحلام» [الممثلة] هوب Hoppe إلى الشاشة.... هي أمام واجهة محل.... هي تكافح بإغراء.... هي وحدها مع حزنها....

Twitter: @ketab_n

وجهها المنظف بشكل نقي.... الحلي على عنقها.... ابتسامتها الزائلة، جمالها، جمالها الدائم....

توفيت خفقة قلب شبابي منذ ثلاث أو أربع سنوات فقط. كان عمرها يتجاوز التسعين. إن أسئلتي، مثل الجائعين خارج محلات هوهه شتراسه في كولونيا، تشكل الآن طابوراً:

هل كان البائع الأسود بلا هدف الذي كان يحمل اسمي يستعمل حيله كعذر لتمديد زمن تغيبه عن قاعة الدرس وتأجيل امتحاناته النهائية؟ هل كنت أفكر في التمرن على حرفة، وإذا كان كذلك ففي أية مهنة؟

هل افتقدت والدي ووالدتي وشقيقتي بهذا الشكل الرهيب بحيث قمت برحلات منتظمة إلى المكاتب التي كانت تعلن عن لوائح اللاجئين؟

هل كانت مكابداتي محصورة بشخصي أم كانت تمتد إلى حالة العالم؟ بشكل أكثر تحديداً، هل شاركت فيما كان البداية لما يسمى، بعلامتي اقتباس وبدونهما، الشعور الجماعي الألماني بالذنب؟ هل كانت بليتي تشمل فقط خسارتي للبيت و الوطن والأسرة ولاشيء أكثر؟ أية خسائر أخرى كان من الممكن أن أندبها؟

البصلة تقدم الأجوبة التالية، وإن ليس بلا بقع فارغة:

لم أقم بأية محاولة للتسجيل في مؤسسة أكاديمية في كولونيا ولا أغراني التمرن على مهنة.

لم أقدم أي طلب إلى المكتب المسؤول عن تسجيل اللاجئين من القسم الشرقي من البلاد أو الذين هدمت بيوتهم في الغارات بالقنابل. بقيت أمتلك صورة لأمي، لكنني لم أفتقدها بشكل رهيب. لم أكتب شعراً مريضاً بالحنين إلى الوطن.

ولا شعرت بأي ذنب.

Twitter: @ketab_n

هكذا يظهر المتسكع بلا هدف وسط الخرائب والدبش أنه كان مهتماً بنفسه: لا هموم أخرى يمكنني أن اتذكرها. أم هل كنت أهرب بألم يفوق الوصف إلى حرم كاتدرائية كولونيا؟ كاتدرائية؟ كان الصرح وبرجاه يبدو الأسوأ إلى حد ما من أجل القدرة على البقاء والاحتمال عندما كانت المدينة التي تضخمت حوله تمتد مدمرة وخربة.

ما أعلمه علم اليقين أن شقيقة فيليب في الربيع ـ ربما كنت أضغط على أعصابها ـ ساعدتني في إيجاد عمل في مزرعة في مقاطعة برغهايم ـ إرفت من الراين الأسفل. لابد أن ذلك كان في الربيع لأنني أستطيع أن أرى نفسي بعد قليل من تدريب اللحظة الأخيرة أتعثر وراء محراث أو أقود حصاناً باللجام في حين يقوم الفلاح بشق الأخاديد. في الحقول من الغسق إلى الشفق. كان ثمة ما يكفي من الطعام. لكن آنذاك كان ثمة الجوع الآخر، الذي لم يتهافت؟ ولابد أنه لم يكن بإمكانه أن يهدأ، الجوع الذي كان يغذي حاجتي، يضخمها، يلهبها.

تقاسمت غرفة ضيقة مع عامل مزرعة معاق. ثمة فتاة من شرق بروسيا تشتغل في المزرعة كحلابة ـ كانت هي ووالدها الكهل، الذي لم يكن يصلح لشيء أكثر من تعليف الخنازير، قد فُرضاً رسمياً على المزارع ـ لكن المزارع، الذي كان يربي إلى جانب الخنازير اثنتي عشر بقرة وأربعة أحصنة، كان قد جندها لنفسه. الشيء الوحيد الذي كان يفعله مع زوجته هو الذهاب إلى الكنيسة. الأحد تلو الأحد. كان كاثوليكياً صالحاً.

على خشبة مسرح ذهني صورت إلزابه، لأن هذا هو اسمها، وهي تقف كبيرة وثقيلة العظام عند سياج الحديقة أو في الظل عند بوابة المزرعة أو مضاءة بشكل ساطع بين علبتي حليب. حيثما وقفت، مشت، انحنت، يظهر خيال. كانت رائحة الاسطبل نفاذة للغاية

Twitter: @ketab_n

تنبعث منها بحيث أنني كتبت بين تخفيف كثافة صفي اللفت وتقطيع الحطب عشر قصائد جيدة ضعيفة القوافي في أعقابها.

كان ثمة القليل من الشاعرية في البيئة المحيطة بي: المزرعة تلو المزرعة في ضوء الشمس، لطخة كبيرة واحدة من الريف في المطر، المسطح باستثناء أبراج كنائس القرية.

شخير عامل المزرعة ليلاً، صيحات المزارع نهاراً، ومن خلال ذلك كله رؤى دزينة من البقرات التي تحلبها ربة بيت ذات رموش شقراء رمادية. كان ذلك أكثر مما ينبغي بالنسبة لي. واصلت التحرك، نهماً، رغم أني كنت قد أكلت كفايتي. كان الجوع الذي بقي، قشرة بصلة مكتوبة بكثافة لتكون شاهدي، ذا طبيعة مختلفة. ذهبت بعيداً حتى السارلاند، حيث كان العنوان الذي أعطاني إياه صديق حميم آخر من معسكر مونتسر يؤمن لي فراش ريش حقيقياً في سقيفة بيت صغير كان يسكن فيه مع والدته، التي عاملتني مثل ابن ثان.

قد يبدو السارلاند مريحاً، لكن الجوع ضربه بشكل أقسى من الأمكنة الأخرى. إذ بدا أن قوات الاحتلال الفرنسي تعاقب كل السارلانديين بمفعول رجعي، وليس ببساطة أولئك الذين صوتوا لصالح العودة إلى الرايخ في استفتاء عام 1935.

ركبت وصديقي ـ لم أعرف اسمه أبداً: كنا جميعاً نناديه كونغو ـ هو كان يريد الانضمام إلى الفيلق الأجنبي الفرنسي وكان يحب تصوير نفسه وهو يقاتل البربر المتمردين تحت سماء الصحراء ـ قطاراً مكتظاً إلى الريف، قاطعين كل الطريق المؤدي إلى منطقة هونسروك الجبلية، التي كانت تبدو لنا كأنها نهاية العالم.

كانت رحلات القطار من هذا النوع شائعة تماماً، وكانت تُعرف باسم «رحلات الهامستر». من مزرعة إلى مزرعة، قايضنا الباقي من

Twitter: @ketab_n

شايي الإنكليزي، وشفرات الحلاقة والقداحات المطلوبة دوماً التي أعطيت لي كدفعة مقابل البطاطا والملفوف في السوق السوداء بكولونيا. وقد حصل في بعض المرات أن خرجنا خاليي الوفاض. لكنني كنت أمتلك ما أعرضه أكثر من السلع التي يمكن وزنها أو عدها.

ذات يوم قمت بقراءة كف تافهة لكنها تعاطفية لأجل فلاحة حامل بشكل ظاهر تشاركت المائدة والفراش بسعادة مع «العامل الأجنبي» الفرنسي المعين لها في أثناء الحرب. سُرت المرأة للغاية بقراءتي ـ تنبأت بأن زوجها سيبقى غائباً إن لم يكن إلى الأبد فعلى الأقل في المستقبل المنظور ـ فكافأتني بكتلة كبيرة من لحم الخنزير المقدد المدخن بالإضافة إلى مكافأتي الشرفية بشريحة من جبن حليب الغنم. وقد روي أن الرجل فقد في عملية على الجبهة الشرقية في عام 1945 لكنه كان لايزال ظاهرا كثيراً في صورة فوتوغرافية مؤطرة.

أين اكتسبت هذا الفن المشكوك فيه؟ هل ولد معي؟ هل كنت قد تعلمته على ركبتي المرأة الغجرية التي كانت تروح وتغدو عبر حدود الدولة الحرة وتقوم بأكثر من شحذ المقصات وإصلاح الغلايات [الركوات] لأهل لانغفور الطيبين؟ لا، ربما كان ذلك في بالاتيناته العليا، في المعسكر الذي كنت أقتل الوقت فيه وأعاني جوعاً حقيقياً جداً بأخذ دورة طبخ نظرية: لابد أنه كان ثمة دورة في قراءة الكف اجتذبت أمثالي.

سواء كانت مهارتي فطرية أو من تلقين غجرية أو تعلمتها في المعسكر، فلا بد أنني كنت متدني الخبرة لأكون قد أجريت تنبؤاً حرفياً إيجابياً في أعمق أعماق هونستروك: كلما كان مجزياً خط حياة المرأة بالنسبة لها وللفلاح الفرنسي المتقاعد الذي كان يقاسمها المائدة والفراش، كانا مجزيين بالنسبة لي، أي مولدين للحريرات. ومع ذلك

Twitter: @ketab_n

لم يكن لحم الخنزير المقدد المكافأة الأهم التي جنيتها من الرحلة إلى هونستروك. إن شقيقة زوج الفلاحة، التي اقتلعت من مسكنها في الرور ووجدت ملجأ وعملاً في المزرعة، قدمت لي خدمة تتجاوز قيمتها المقياس المعتاد للوزن أو الكمية.

لكثرة ما تعقب صديقي كونغو خطواتها، لم يصل معها إلى أي مكان: حالما خرج مترنحاً من حظيرة الأغنام، مخدوشاً وهو يشتم. لذلك سرعان ما عاد مبتسماً مرة أخرى: كان صنفاً دمثاً، عريض الكتفين، يتقبل الأشياء كما هي.

كانت الحرب أقصر مما ينبغي بالنسبة له: كان مغامراً كبيراً. ربما كان هذا هو السبب في أنه أقام معي. كانت مسرحيتي الأولى، المكونة من فصلين بعنوان *الطوفان* التي قدم العرض الأول لها في منتصف الخمسينات في مسرح طلابي بفرانكفورت، تصور شخصية تشبهه كثيراً، جندياً عائداً من الفيلق الذي يسميه رفيقه في السلاح كونغو. كلاهما ذهبا إلى لاوس والهند الصينية وهما الآن يلعبان دور الابن المبذر....

كانت لدي فكرة غامضة عما سيأتي على الطريق إلى أقرب محطة. فقد ساعدتنا أخت الزوج على نقل الأشياء التي ادخرناها جانبا لحين الحاجة في عربة يد: كيس بطاطا، ملفوف، قالب من جبن حليب الغنم، كتلة من لحم الخنزير المقدد، وربما كيس من الفول المداد.

كان القمر ينير طريقنا عبر الحقول، حيث كان الدرب يرتفع قليلاً في البداية، ثم ينحدر في الكيلومترات الثلاثة أو الثلاثة والنصف الباقية. المسافات والأوقات هي تقريبية فقط في الذاكرة.

كان كونغو يجر العربة ولم يدع أياً منا يستلمها، لذلك التزمنا المؤخرة، ساكتين في البداية، ثم أصبحنا ثرثارين. كنا نسير جنباً إلى

Twitter: @ketab_n

جنب لكن دون أن نمسك الأيدي أو أي شيء، كنا نتحدث حول الأفلام واكتشفنا أننا كلانا كنا نحب ممثلة شابة اسمها هيلدهغارد كنف Hildegard Knef، أصبحت بعد زمن قصير واحدة من ألمع نجمات السينما الألمانية. أما الفيلم، الذي صدف أن شاهدته مرة أخرى على التلفزيون في الآونة الأخيرة، فهو ***تحت الجسور***.

بما أن القطار المحلي الذاهب إلى باد كرويتسناخ لم يكن متوقعاً وصوله في غضون ساعتين أخريين أو أكثر، فقد استلقى كونغو على مقعد في صالة الانتظار. وقد غط في النوم فوراً. وقفنا في الخارج إلى جانب السقيفة التي كانت لافتتها المتقشرة هي الإشارة الوحيدة إلى أنها كانت محطة. كان القمر أو الغيوم تتبعثر بعيداً. ما الذي كان هناك لنراه أو لنقوله أو لنفعله أو حتى لنتمناه؟

فجأة، طلبت المرأة الشابة، أو الفتاة كما رأيتها، مني أن أرافقها مع عربة اليد، ليس لأنها كانت خائفة، بل لمجرد أنها....

لابد أن ذلك كان في أوائل الصيف وكان القمر شبه بدر. إن الأكوام على جانبي الطريق، الذي كان يمتد عبر حقل محصود حديثاً، لم توح لي بشيء على الطريق هناك. فقد كانت تقع على مسافات متساوية عن حافة الغابة، التي كانت تزين السماء مثل شريط داكن. في بعض الأحيان كانت الغيوم تظلل ترتيبها، ثم تضيئها بألق فضي. ربما قدم لنا القش المكوم عرضاً تلو الآخر على الطريق إلى المحطة. كان لدي الشعور بأن رائحة القش المحصود حديثاً قد صارت أقوى.

وما أن وصلنا إلى المحطة، بالتوازي مع الصديق النائم والحمولة، على مرمى حجر- أم كنا نسير أبعد؟ - حتى تخليت عن العربة فأمسكت هي يدي، وخرجنا كلانا عن الطريق إلى أقرب كومة قش.

لابد أنني كنت الذي ترك نفسه يُستدرج إلى القش. لقد بقيت إنغه

Twitter: @ketab_n

واضحة في ذاكرتي، في أكثر من تفاصيل قليلة، وليس فقط لأنها كانت الأولى. فقمر وجهها الواسع المسطح شبه المكتمل كان منقطاً بالبقع، لكنها لم تكن تعد في القش. من المؤكد تماماً أن عينيها، اللتان لم تغمضهما، كانتا خضراوين أكثر مما كانتا رماديتين. أتذكر يديها الكبيرتين والخشنتين من العمل في الحقول. أتذكر يديها عموماً لكنهما كانتا تعرفان كيف تهبان إلى مساعدتي.

بالطبع كانت رائحة القش حلوة بما لا يدع مجالاً للمقارنة. ولما كنت متلهفا جداً أكثر مما ينبغي، لأنني كنت جائعاً، كان عليها أن تعلمني ألا أندفع، ألا أثب، أن أستخدم أصابعي، أن أستخدمها كلها وبلطف، بالطريقة التي تفعل ذلك بها. كان ثمة الكثير لاكتشافه. الرطب واللاقرار له. كله هناك، بانتظار أن يُجس. الناعم والمدور. اللين. الضجات، الأصوات الحيوانية التي أصدرناها.

عندئذ تغلبت علينا رائحة القش. كنا مسكرين فلم نسع إلى المزيد. أم هل كانت المرة الواحدة كافية؟ أملي الوحيد هو أن يكون المبتدئ قد أثبت أنه متعلم جيد.

ثم؟ ماذا بعد ذلك؟ هل كنا نهمس في القش، أم هل كنت أنا فقط؟ ليس لدي أية فكرة أية كلمات همس يمكن ايجادها في كومة قش. كل ما أعرفه هو أن إنغه كانت تتكلم بصدق: القصة المألوفة للحرب. البيت المصطبي المقصوف بالقنابل في ضواحي بوخوم، الخطيب الذي سقط في عملية عسكرية قبل عامين في البلقان «لأن الأنصار كانوا في كل مكان». وبصفته عامل منجم فقد أعفي من الخدمة العسكرية، كما قالت، لكنهم أرسلوه بعدئذ مباشرة إلى ستالينغراد وحتى وضعوه في سلاح الهندسة. أرسلوه إلى غروس ـ بوشبول من أجل التدريب، ثم إلى الجبهة، وفيما بعد، كما كتب هو، إلى الجبال، لإنشاء الجسور...

Twitter: @ketab_n

قالت أكثر من ذلك، لكن ذلك مضى الآن، كما اسم خطيبها، الذي ظلت تردده، بدافع العادة، بدافع الألفة، كما لو كان يستلقي قربها.

وهل كان ذاك حقاً أنا، أهمس بهذا وذاك وتلك في القش؟ أشياء عميقة حول السماء؟ حول شروقات القمر وغروباته؟ ربما حاولت أن أكون أصيلاً وغنائياً، لأنه كلما قذفني شيء خارج السياق، تعودت أن أصبح شاعريا، بالشعر المقفى أو الحر.

أم هل كنت أتأتئ عندما سألتني بدافع الاهتمام أو الفضول البسيط ماذا أريد أن أكون، عندما أكبر، إذا جاز القول؟ هل قلت هناك في القش: «فنان. لا توجد طريقتان في ذلك»؟

لا تعرف البصلة شيئاً من الألق اللحمي للقشرة تحت القشرة. لا توجد سوى فجوات في نص محرف. ما لم أحاول بنفسي فك رموز مايبدو غير مقروء، وأقوم بتركيب قافية....

في ذاكرتي المحملة بشكل زائد بالأطلال الدائمة التحول، أنني أضحكت إنغه، أو أردت إضحاكها، لا أعرف كيف. هي لم تضحكني ولا حاولت إضحاكي. فجأة صار المبتدئ الغر إلى جانبها، تحت القمر شبه البدر، حيواناً ـ حزيناً دون أن يعرف لماذا، ولم يكن باستطاعة أي قدر من الملاطفة والتملق أن يخرجه من ذلك. الأنكى من ذلك، أنه لم يعد باستطاعته أن يتحمل رائحة المرج المحصود.

كان قشنا مسطحاً عندما نهضنا واقفين، كانت تبحث عن سروالها القصير، كنت أتلمس بارتباك أزراري الفالتة. قمنا بنزع القش عن ثيابنا ـ كل واحد منا عن ثيابه، كما هو مفترض ـ رغم أنني ربما ساعدتها على إعادة كومة القش إلى الوضع النظامي. فكنا إذا نظر إلينا من بعيد زوجين يعملان في حقلهما ليلاً.

بعد ذلك، ولى الشعور الكئيب بالعزلة. ليس معنى ذلك أنه كان ثمة

Twitter: @ketab_n

أي غناء أو دندنة عندما ساعدت إنغه على جعل فراشنا متراصفاً مع كومات القش الأخرى. أربع أيد مشغولة.

لست متأكداً ما إذا قالت: «ارسل لي بطاقة بريدية» عندما أخبرتني باسم عائلتها الذي كان ينتهي بالمقطع البولندي ـ كوفياك أو ـ سكي مثل أسماء لاعبي كرة القدم عندنا في حوض الرور.

وهذا ما كان. أم هل كان ذلك؟ ربما كان ثمة توقف صغير. ثم خرجنا في اتجاهين متعاكسين، حيث أخذت معها عربة اليد.

لابد أنني كنت الذي لم ينظر إلى الوراء، حتى في هذه المرة الأولى. ما حدث صار يقبع خلفي. «لا تلتفت حواليك» هو بيت من أغنية للأطفال، وعنوان قصيدة كتبتها لاحقاً، بعد وقت طويل.

لكن في طريق العودة القصير، أم كان طويلاً في الواقع، كان شخص ما يتنشق رائحة أصابع يده اليسرى، كما لو كان يضمن لما كانت تمسك به قبل دقائق قليلة مكانا في ذاكرته.

كانت رائحة إنغه ورائحة كومة القش لازالتا عالقتين بي عندما جلست في غرفة الانتظار المجاورة لغرفة نوم صديقي، الذي كانت قد خدشت وجهه. كان كونغو لازال يبتسم مكشراً بابتهاج عندما ركبنا في اتجاه باد كرويتسباخ مع «غنيمة الهامستر»، لكنه لم يدل بتعليقات قذرة.

حتى الآن، ينوء الرحيل المتعجل بثقله علي. لماذا العجلة؟ تظنون أنني كنت أركض مبتعدا بدافع الخوف. لقد دام ذلك حتى جاء القطار أخيراً. لقد مر الوقت شاغراً.

بعد فوات الأوان، أقول لنفسي: كان بإمكانك أن تحظى بالفتاة المسماة إنغه في كومة القش التالية أيضاً و ـ ستجوع مرة أخرى قريباً ـ في الكومة التي تليها. ماذا كان الهدف من العودة إلى سارلاند المتدنية

Twitter: @ketab_n

الحريرات؟ كانت هونسروك ـ البائسة، الكاثوليكية، والهضابية بطبيعة الحال ـ ستبدو في نهاية المطاف كأنها الوطن، مادة لمسلسل تلفزيوني مصغر طويل.

سيذهب صديقك الحميم كونغو قريبا، آخذاً معه البطاطا والملفوف وقالب الجبن والنظير لمهارتك في قراءة الكف: كان ينوي الذهاب إلى الجزائر أو المغرب لأنه لم يخض ما يكفي من الحرب وأراد أن يذهب إلى الكلاب باسم الأمة العظيمة La Grande Nation. لم يكن من الممكن أن تكون قد قمت بقراءة كف تفاؤلية عرضية لأجل الفلاحة، لمساعدتها على النوم والولادة اليسيرة. وإذا ظهر الزوج المفقود في روسيا ذات يوم على عتبة بابها.... عودة متأخرة إلى البيت.... الرجل في الخارج ....

غالباً ما رجعت في ذهني إلى أكوام القش يساراً ويميناً، أقله بسبب المرأة ذات الوجه الواسع المنبسط المضاء بنور القمر والمغبر ببقع لاحصر لها، أكثر مما هو بحثاً عن الذات، عن الأنا المتلاشية من الأعوام المبكرة. مع ذلك لم أذهب أبعد من صوت ورائحة محاولتي الأولى، المستعجلة أكثر مما ينبغي، لجعل جسدين جسداً واحداً، في مسعى يعرف أيضاً بالحب.

ثم تأتي فجوات، تشويش. لا شيء من غزوة أو مغامرة. كل ما يتبقى، غائصاً، هو الفصل، أوائل صيف 1946.

أنا على الطريق دائماً، أولا في الفزربرغلاند، ثم على طول الحدود الهسية لمنطقة الاحتلال الأمريكي، وأخيراً، بشكل قانوني مرة أخرى، مع البريطانيين في غوتنغن، بعد أن قضيت أياماً قليلة مع عائلة رفيق آخر، فتى فلاح ذي إعاقة طفيفة في النطق، في منطقة نورتن ـ هاردنبرغ.

لا أكوام قش أخرى، مع ذلك. لاقراءات كف مجزية. إقامة ثابتة

Twitter: @ketab_n

بلا هدف، غير مستقرة، خالية من الإغراء. ومع ذلك لابد أنني سجلت اسمي لدى البوليس هنا وهناك لأحصل على بطاقات الحصص الغذائية الكلية الأهمية.

ماذا كنت بعد أن صرت في غوتنغن؟ ليس في الجامعة، هذا أكيد. فأي نوع من السجل المدرسي كان بإمكاني تقديمه؟ إذ لم أكن قد رأيت مدرسة من الداخل منذ سن الخامسة عشرة.كان المعلمون يتجنبونني. هذا هو السبب في أن معلمي المدرسة الابتدائية مثل الآنسة شبولنهاور في الفصل الذي يحمل عنوان «الجدول الزمني» من رواية ***الطبل الصفيح***، ومعلم المدرسة الثانوية مالنبرانت في رواية ***القط والفأر*** والمعلم شتاروش في رواية **مخدر موضعي**، قدر لهم أن يملأوا صفحات مخطوطاتي. انظروا كم كان المعلمون هامين بالنسبة لي. تعالج إحدى مسرحياتي أيضاً، عنوانها **إثنتان وثلاثون سنا**، ليس فقط الصحة السنية بل الهستيريا التربوية أيضاً.

حتى رغم أنني تعلمت أن أفك البندقية 98 وأعيد تركيبها في أسرع وقت لتكون سلاحاً جاهزاً تماماً للمعركة. حتى رغم أنني كنت أستطيع تشغيل آلية الصمام للمدفع المضاد للطائرات من عيار 8.8 وكنت رامي مدفع دبابة متمرساً، حتى رغم أنني كنت قد تمرنت في فن البحث عن المخبأ بسرعة البرق، وأنا أقول «Jawoll» وأسير في التشكيل؛ حتى رغم أنني تعلمت أن «أنظم» الطعام، أن أشتم الخطر، أن أسوق [في طرقات] خالية من الكلاب الدمومة للشرطة العسكرية، وحتى أن أتحمل منظر الجثث المقطعة إلى أشلاء والجثث المعلقة على صف من الأشجار؛ حتى رغم أنني كنت أبول في سروالي من الخوف وتعلمت أن أغني في الغابة، أن أنام واقفاً، أن أحدد طريقي إلى السلامة، أن أخترع المشاوي والحساءات بلا دهن، أو سمك أو لحم أو خضار، أن أجعل مائدتي

Twitter: @ketab_n

مأهولة بالضيوف من أزمنة سحيقة، وحتى أن أقرأ البخوت من الأكف، فقد كنت بعيداً على مسافة عالم من الامتحان الذي سيدخلني إلى الجامعة.

ذات يوم أمام محطة غوتنغن ـ كان من عاداتي أن أجول تخوم المحطات الصاخبة ـ التقيت زميل دراسة من حياتي السابقة. لست متأكداً مما إذا كنت أجلس على مقعد إلى جانبه أو خلفه في ثانوية الكونراديوم أو ثانوية القديس بطرس أو ثانوية القديس يوحنا.

ألح علي إلى أن وافقت على عبور المدينة، التي كانت قد نجت إلى حد كبير، إلى حيث كانت أمه، لكن لا أخت ناضجة له، تسكن في مقر الطوارئ لأجل اللاجئين من الشرق.

كانوا جميعاً في ثكنة نيسن، وهي صف من منشآت الحديد المموج، الدهليزية، النفقية الشكل، مع الغسيل المعلق بينها. كان حساء الشعير مع سيقان الملفوف هو كل ما لديها لتأكله، وكان فراش المعسكر هو المكان الوحيد الذي تملكه للنوم عليه. كان ابنها الأكبر قد سقط في المعركة من أجل دير مونت كاسينو، وزوجها الذي اعتقله الروس ثم جر من مكان إلى آخر، قيل إنه مفقود. كان عمل الابن الباقي هو التعويض عما فقدته.

بعد أيام قليلة تركته، زميل دراستي المفترض، يأخذني إلى مدرسة متخصصة في مساعدة الطلاب الذين في عهدتها على إنعاش ذاكراتهم حول مانسوه أو افتقدوه في أثناء الأعوام التي غابوها. قال لي المرة تلو الأخرى، بإمكانك أن تعود إلى روتين المدرسة هناك، ثم تجرب يدك في الأبيتور Abitur. لأن اجتياز هذا الامتحان، كما قال، كان هاماً لي، أنا الذي لا زلت أحمل جراب مؤونة الجندي، مثلما كان هاماً له، هو الذي كان يتباهى بمحفظة جلدية، وإن كان جلدها اصطناعياً. بدون

Twitter: @ketab_n

الأبيتور تستحق النصف. كان الكثير من الآخرين في القارب نفسه. «متى ستفهم؟ بدون الأبيتور لا قيمة لك!».

بالكاد قمت بذلك بعد الفترة الأولى. كانت الفترة الأولى هي اللاتينية، واللاتينية هي اللاتينية، ما كنت تتوقعه. لكن الفترة الثانية كانت التاريخ، مادتي المفضلة لمرة واحدة. كانت أرضيته المكانية والزمانية تؤمن فراغات وافرة من أجل مخيلتي لملئها وتأهيلها بشخصيات حلمت بها، كان معظمهم يرتدي ملابس قروسطية ومنخرطاً في حرب لا نهاية لها. ما هو الإنسان؟ مجرد جُسيم، شريك، رفيق سفر، سن في العجلة المسننة للتاريخ. كرة ملونة يتم رفسها ـ تلك هي الكيفية التي رأيت بها نفسي أعود إلى قاعة الصف مرة أخرى. رغم أن قدراً لا بأس به مما حدث في أثناء أعوامي [التي قضيتها] على الطريق، أعوام تجوالي ***Wanderjahre***، قد مضى إلى الأبد ـ على سبيل المثال، عدد الطلاب الذين تبعونا من صف اللغة اللاتينية إلى صف التاريخ، مع أنني أتذكر أنهم كانوا جميعاً أعمر منا بأعوام الحرب ـ لازال بإمكاني أن أرى معلم التاريخ كما لو كان ذلك البارحة: قصيراً، نحيلاً، مقصوص الشعر بشكل شديد القصر، لا نظارات، يرتدي ربطة عنق متقوسة، يعدو صاعداً نازلاً صف المقاعد، يدور على عقبه، ثم يتوقف فجأة، كما لو كان ذلك بناء على الإيعاز الذي لا يلغى لروح العالم *Weltgeist*، ويفتتح حصة الدرس بالعبارة الكلاسيكية، «أين انتهينا البارحة؟» لنجيب فوراً، «آه، الـ Ems Dispatch».

أنا متأكد من أن ذلك هو ما كان يتطلبه المنهاج الدراسي. لم أكن أريد أن أكون مخدوعا ببسمارك ومكائده. ماذا كانت تهمني الحرب الفرنسية البروسية؟

كانت دورتي المتسرعة فيما تسمى تجربة الحرب أحدث عهداً:

Twitter: @ketab_n

كنت قد أتممتها قبل البارحة.

كنت لاأزال أختبر ارتداداتها في أحلامي وكوابيسي. لم أستقر في أي مكان.

ما الذي كانت تملكه حرب صنعت ألمانيا موحدة من الـدم والحديـد لتقدمه لي؟

ما الذي كان يهمني في الرسالة ـ Em Disapatch؟

ما الذي كان ينبغـي الـتفكير فيـه، مـاهي الـتواريخ الـتي ثبتـت في ذاكرتي؟

أية فترة من الزمن ـ زمني؟ ـ كان سيمحوها ذاك المتحذلق، ينكرها، يموهها بوصفها مصدر إحراج؟

كنت كما لو أن الرسالة المشؤومة قد أعطت تلميحاً: وقفت، تلمست جراب المؤونة الجاهز دوماً وانصرفت، متجاهلا توبيخ البروفسور، تاركاً ليس فقط قاعة الصف لرجال خدمة سـابقين يرغبـون في التعـويض عـن زمن ضائع، لا، تركت المدرسة ونزعتها المحافظة على المبـدأ إلى الأبـد أيضاً. من الممكن أيضاً أنني حتى استأذنت بالخروج.

فيما يتعلق بزميلي، الذي أكمل أمتحان الأبيتور بلا شك ولذلك كان قادراً على خوض الحياة بوصفه شخصاً جديراً تماماً، فلم أره مرة أخرى أبدا. لكن بما أن دار النشر والمطبعة يقعان في شارع دوستيره بغـوتنغن، فإن المدينة لازالت تستحق رحلة، لأكثر من سبب واحد.

رغم أن النقاط الدقيقة من الحدث السابق غامضة، حصل لقاء آخر، بعدئذ مباشرة، وهو واضح كما يمكن أن يكون.

كنت في صالة انتظار المحطة. إلى أين كنت متجها؟ هل كان لـدي أي مخطط سفر؟

هل كنت أشعر بنداء الجنوب؟ صعوداً وبعيداً، بشكل غير قانوني أم

Twitter: @ketab_n

لا، إلى المنطقة الأميركية، حيث يمكنني أن أعثر على صديقي جوزف في مدينة بافارية ما بين ألتوتينغ وفرايلاسينغ وأقرا البخوت مرة أخرى بأحجار النرد؟

نظرت في أرجاء صالة الانتظار في محطة غوتنغن يائساً: كل المقاعد مشغولة. حقائب السفر والصرر في كل مكان. الهواء الفاسد من الاكتظاظ. أخيراً وجدت فسحة. الرجل الذي كان إلى جانبي من الممكن أن أكون قد اخترته للجلوس إلى جانبه، النوع الذي أشعر بالألفة معه: العريف الأبدي بلباس فيرماخت المصبوغ. كان بإمكاني أن أحزر رتبته حتى بدون رؤية الشارتين على كمه الأيسر.

كان يبدو أن قدري هو أن ألتقي بهذا النوع. هذا الشخص ـ مثل العريف الآخر الذي قادني إلى خارج الغابة بقناع هانز الذي غادر البيت، مع أن هذا كان أطول وأقوى عضلياً، وأقوى بنية منه ـ هذا الشخص كان واحدا يمكنك الوثوق به. يمكنك الاتكال على شخص لايحتاج لإيصالها إلى العريف، قلت في نفسي. بارع، ماكر، خبيث، سيطفو على السطح دوماً. تقدم، حرب موقعية، اشتباك بالأيدي، هجوم مضاد، تراجع ـ لو كان لذلك علاقة بالعمليات العسكرية لكان متآلفا مع ذلك. لوجد الثغرة، لفر، جريحاً أو لا. يمكنك التعويل عليه.

كانت ساقه الخشبية ممدودة أمامه، يدخن غليوناً مملوءاً بمادة لا يمكن تعريفها لاعلاقة لها من بعيد بالتبغ. يبدو كما لو أنه قد نجا ليس فقط من آخر حرب بل من حرب الأعوام الثلاثين وحرب الأعوام السبعة أيضاً: كان بلا زمن. كان يرتدي قبعة ميدانية على قفا رأسه.

«لذلك، يا ولدي، أنت لا تعرف إلى أين تذهب، أليس كذلك؟». كانت بداية نقاشنا.

لم يكن بوسعك أن ترى الساق الخشبية فعلاً، لكن يمكنك أن تميزها

Twitter: @ketab_n

تحت القماش، وهذا أصبح هاماً منذ فترة طويلة. «ما قولك في أن نلقي نظرة على هانوفر؟ فيها محطة أيضاً. ربما سنجد شيئاً هناك».

هكذا واصلنا جولتنا المحلية وشققنا طريقنا عبر عشرة أو خمسة عشرة محطة. بعد قليل من التجوال وجدنا مقاعد في مقصورة يمنع فيها التدخين، وهذا لم يتعارض مع غليون عريفي بأدنى حد. فقد كان الدخان يتدفق منه.

وهو ينفث الدخان، أخرج من كيس المؤونة قطعة من الخبز وعليها كتلة من النقانق. قال إن النقانق جاءت من أيكسفلد، التي، كما يعرف الجميع، تصنع أفضل نقانق في البلاد.

بسكين مظلي قطع الخبز إلى قطع بسماكة الإصبع، وأعطاني أكثر مما ترك لنفسه. كان يعاف أن يخرج الغليون من فمه. أراد أن يطعم صديقه، كما كان يدعوني.

كانت نقانق دم معالج بالهواء، إذا كنت أتذكر بشكل صحيح، مع أنها كانت لاتزال تحمل بقايا طعم لحم الخنزير. بأي حال، كان يدخن فيما كنت أمضغ وأحدق خارجاً إلى الريف التلالي الذي يمر أمامنا على الجانبين وأقلب في أفكاري المختلطة.

اشتكت امرأة عجوز تجلس قبالتنا في قعر قبعة من ما قبل الحرب من الغليون، أشارت إلى لافتة «ممنوع التدخين»، وسعلت من قبيل التظاهر، ثم استأنفت نواحاتها، حتى أنها صاحت طلباً للمرشد وحضت زملاءها المسافرين بلكنتها الهانوفرية المألوفة على الانضمام إلى احتجاجها على «الأبخرة البذيئة». رفع صديقي، الذي كان يدعوني صديقا حميما، سكينه مهدداً ـ كانت تلمع بالدهن ـ وهو يمسك بغليونه في يده الحرة، تجمد على تلك الوضعية لثوان قليلة لانهاية لها. ثم، وهو يطعن النصل عبر جيب سرواله في فخذه الأيسر، حيث بقيت،

Twitter: @ketab_n

وهو يرتعش، ضحك ضحكة مجلجلة.

فرت المرأة مذعورة من المقصورة وهي تمسك بقبعتها. فاحتل مكانها فوراً رجل يقف في الممشى.أرخى العريف السابق لمرة واحدة السكين، فرقع النصلة وهي مغلقة، أعادها إلى جراب المؤونة، ونقر غليونه عدة مرات. كنا نتجه نحو هانوفر.

ما يتبقى هو لقطات حظ خالصة، تختزنها الذاكرة. كان لازال بمقدور ماضغ النقانق الصامت أن يرى السكين المرتعشة تبرز من الساق الخشبية، رغم أنه لا يستطيع أن يتيقن تماماً مما إذا كان الحدث قد حدث في أثناء رحلة القطار من غوتنغن إلى هانوفر أم أثناء سفرة إلى الاتجاه المعاكس، إلى كاسل ومابعد، في الطريق إلى ميونيخ، حيث ذهبت لزيارة صديقي البافاري جوزف في /ماركتل آم إن/ أو في مكان آخر ـ الصديق الذي مضغت معه في العام السابق بذور الكراوياء و رميت أحجار النرد وتجادلنا حول الحبل بلا دنس. لم أجده في بيت والديه: لابد أنه كان خارج البيت في معهد تعليمي في مكان ما، يتغلب على العوائق السكولاستية، يجتاز الامتحانات بألوان طائرة مرفرفة، في حين كنت....

كان من الممكن أن يكشف الحدث بالسهولة نفسها «صديقاً» حميماً آخر ذا ساق خشبية ـ فقد كان ثمة الكثيرون للغاية. نقانق الدم أو لحم الخنزير، سكين ذات نصلة مطوية أو نصلة ثابتة، على الطريق ذهابا أو إيابا: ما تختزنه الذاكرة وتحفظه في شكل مكثف يمتزج مع القصة بأية طريقة تروى بها، ولا يهتم بالأصول أو بقضايا مشكوك فيها كهذه.

تبقى الحقيقة أن العريف الجالس إلى جانبي في قاعة انتظار محطة غوتنغن ذا الساق الخشبية بشكل ممكن تماماً لم يكن قد نصحني بأي مكان في الوقت الذي دخلنا فيه إلى هانوفر لأقدم نفسي في مكتب صانعي

Twitter: @ketab_n

البوتاس بورباخ ـ كالي ليمتد وأسأل عن عمل. «إنهم بحاجة لرجال تحت الأرض. ستحصل على بطاقات حصص غذائية خاصة ـ كل الزبدة التي يمكنك أن تأكلها ـ وسقف فوق رأسك. ما قولك، يا فتى؟».

صديقان يقفان أمام محطة هانوفر المركزية قرب النصب التذكاري لإرنست أوغست أمير تاج هانوفر على حصان مشوه بشظايا القنابل.

فعل الصديق الأصغر ما نصح به الصديق الأكبر، لأنه مهما كان شكله في ذاك الوقت أو مهما كان الزمن قد فعل به، فإن تجربة واحدة قد وسمته: لم يكن يثق بأي شخص يدعي منزلة البالغ، باستثناء واحد فقط: النمط الذي لا يُخطأ للعريف. كان نمطا يعرفه منذ أن قاده رجل، حلاق بالمهنة، إلى خارج الغابة وعبر خطوط الجبهة الروسية. عندما أطلقت دبابات T -34 النار على الشارع الذي كان الجنود يتراجعون على امتداده، نسفت ساقا العريف إلى قطع، ما جعل بقاءه على قيد الحياة مستبعدا إلى أقصى درجة. ظهر صديقي في قاعة الانتظار بساق خشبية. كان يعرف ما الذي يجب فعله أو عدم فعله وأين. كانت نصيحته تستحق الاتباع.

بالإضافة إلى ذلك، أحببت كلمة تحت الأرض. أحببت فكرة الزحف عبر أحشاء الأرض، حيث لاشيء يمكن أن يتغير فجأة، معزولاً، مبتلعاً، بعيداً عن البصر، منسياً لفترة طويلة. كنت حتى راغباً في العمل عميقا تحت قشرة الأرض، لأتعرق في العمل الشاق. ربما أملت في أن أجد شيئاً تحت الأرض غير مرئي في ضوء النهار.

أعطيت صديقي بقية قسائم السجائر، امتناناً لفكرته المفيدة، وذلك قبل أن أتبع نصيحته، لأنه كان علي أن أتذوق السجائر، التي كانت تمتلك قوة العملة المستقرة في ذاك الوقت. لقد كانت ثروتي، نقودي الجاهزة.

Twitter: @ketab_n

هكذا ذهبت إلى المكتب، جرت مقابلتي مباشرة. سألت عن عمل، وتم تشغيلي على الفور من قبل بورباخ ـ كالي ليمتد، بصفة مقرن «coupler boy». كان المنجم الذي سأعمل فيه، منجم سيغفريد الأول، يقع قرب قرية غروس غيزن، في مقاطعة سارشتات. استلمت قبقاب عمل ومصباح كربيد عندما صرت هناك. شعرت بالارتياح تماماً. لقد كنت «الرجل الأعلى» في سرير معلق لسنوات.

كانت القرية تقع في منتصف الطريق بين هيلدزهايم وهانوفر في منطقة منبسطة مثالية لزراعة الشوندر السكري. على الأفق الجنوبي الغربي كانت تلوح تلال الفزربرغلاند الزرقاء. ومن خضرة السهول في أوائل الصيف كان يبرز البرج اللولبي للمنجم، ومطحنة الحجر وبيت المرجل وملاحقه ذات الغرف المقفلة، ومبنى الإدارة الشبيه بالفيلا، وكومة الخبث التي تعلو فوق كل شيء آخر، والذي ينسكب جزء منه على شكل مخروط أبيض، وينتثر جزء آخر حوله، المتسلم اليومي للأحمال الجديدة من نفايات الصخور الآتية من عربات تسير على سكة من الكابلات. كانت العربات تصعد مترعة وتهبط متدحرجة عندما تفرغ. لقد بقي انتفاخ وخبو صريرها في أذني، وحتى هذا اليوم أظل أترقب أكوام الخبث المائل إلى البياض الآخذة في الارتفاع فوق السهول المزروعة، مرئية من القطار الذي يقلني من راتسهبورغ عبر ليندهبورغ وهانوفر إلى ناشري، دار شتايدل، في غوتنغن. لقد تجاوزت عصرها وأصبحت جزءاً من المشهد الطبيعي: الحفرة إلى جانب منجم سيغفريد الأول بكامله تم إغلاقها وتنظيفها منذ عقود.

كانت البراكات تؤوي ستة رجال لكل غرفة. كان طعام المطعم الصغير يفيض إذا كان بشكل ما عديم الطعم، وكانت قسائم المخصصات الغذائية لأجل عمال المنجم تسمح بزيادات وافرة: نقانق، جبن، قوالب

Twitter: @ketab_n

زبدة، وبيض لأجل الفطور أو قبل الوردية المتأخرة. كنا نحصل على حصة خاصة من الحليب يوميا لمنع اسوداد تفحم الرئة، وعلى قباقيب لارتدائها تحت الأرض. في الغرفة المقفلة كنا نبدل ملابسنا، نرفع ملابس الشارع إلى السقف في أكياس، ونأخذ حماما بعد وردياتنا.

بصفتي مقرنا، عملت على أرض منجم على عمق 950 متراً تحت السطح. كانت قطارات العربات المشغلة بالكهرباء إما فارغة أو مملوءة بالبوتاس الخام تقطع كيلومترات من السكك، انطلاقاً من الطوابق العليا وإلى رافعة مدخلنا الرئيسي، التي كانت ترد أيضاً، عند قرع الجرس، لتأخذ عمال المنجم إلى وردياتهم ومنها.

كان عملي هو أن أقرن عربات التفريغ، الفارغة أو المملوءة، ثم أفصلها عند المدخل الرئيسي، وأفتح وأغلق باب الحماية من العوامل الجوية عند الانتقال إلى صالات السطح، حيث كان الفلز الملحي يُفجر بالديناميت ويُفتت. كان ذلك يعني الكثير من الجري عبر الأنفاق الجافة، الكثير من الارتحال فوق السكك، الكثير من الركب المتأذية.

كنت قد لُقنت حيل المهنة من قبل فتيان مقرنين أخرين. عندما تتباطأ القطارات، كان علي أن أقفز من العربة الأخيرة، وأمشي الهوينى إلى جانب القطار، وأسحب جانباً رفاريف باب العوامل الجوية، المصنوعة من الجلد الاصطناعي، وأدع القطار يمر، وأغلق باب العوامل الجوية، وأجري وراء العربة الأخيرة وأقفز عائدا عليها. في العادة كان سائق القاطرة الكهربائية على ورديتي يعطيني زمناً كافياً، لكنني تأخرت عن القطار مرة أو مرتين وكان علي أن ألحق به سيراً على القدمين. وحدي، لقد كان طريقاً طويلاً.

التزاحم يجعله يبدو مثل عمل مرهق يستحق تلك الحصص الغذائية الخاصة، في حين أنه في الحقيقة لم يكن عسيراً كل هذا المقدار لأن

Twitter: @ketab_n

تغذية القدرة [الكهربائية] ستنفد في خلال كل وردية تقريباً، ولم تكن انقطاعات الكهرباء لساعة أو ساعتين أمراً غير مألوف. إذ كانت الانقطاعات جزءاً من الوجود من يوم إلى يوم، وتقبلها الناس ببساطة.

كنا نقضي هذه الأوقات جالسين خارج المنجم قرب رافعة المدخل الرئيسي أو، إذا غافلنا الانقطاع عندما نكون في جولاتنا، في إحدى صالات السطح العملاقة، التي كانت كبيرة بما يكفي لتخزين كل نفايتنا الذرية الحالية والمستقبلية وتركها تشع وتشع....

فيما بعد وضعت الفصل الأخير من رواية *أعوام الكلب* في إطار منجم بوتاس سابق استولت عليه فزاعات الطيور، التي كانت تصنع من أجل التصدير على كافة مستويات المنجم، بما في ذلك صالات السطح. كانت الفزاعات إما مجمدة في وضعيات خاصة أو متحركة بأشكال أخرى، بفضل آلية داخلية مبيتة، فكانت تظهر كإعادات إنتاج للمجتمع البشري وكان المقصود منها أن تنقل الرغبات والأحزان البشرية، وبوصفها سلعاً فقد كان لها سعر. كان بالإمكان طلبها مباشرة من المصنع وتباع جيداً في أنحاء العالم. وبما أن الإنسان يقال إنه خلق على صورة الله، يمكن القول إن الله هو فزاعة الطيور الأولى.

كان الضوء الوحيد الذي بحوزتنا في أثناء انقطاعات الكهرباء يأتي من مصابيح الكربيد، التي تحدث ظلالاً شبحية عملاقة على جدران الصالات السقفية الشاهقة. إلى الخارج كانوا يأتون من الأنفاق المحفورة حديثا، من المزاريب المهتزة المسكتة الآن، من أعماق الأرض: عمال المنجم، مفجرو المتفجرات، المفتشون، عمال الإكساء، والفتيان المقرنون مع سائقيهم ـ خليط من المدربين بسرعة، العمال الفتيان في غالبيتهم والكبار في السن، البعض منهم يقترب من سن التقاعد، وكل هؤلاء يجمعهم انقطاع التيار.

Twitter: @ketab_n

لم يطل الوقت كثيراً قبل أن تتحول ثرثرتهم إلى السياسة وتعلو الأصوات وتصبح أكثر جدالاً إلى أن فشل القتال الذي كان يختمر في الاندلاع فقط لأن التيار عاد مرة أخرى، وأضيئت الصالات، وبدأت المزاريب تخشخش، والقطارات تهمهم، وانتخعت الرافعة متحركة. ثم خمد الشجار الملون باللهجات وعاد الجميع إلى العمل، ساكتين أو بالعين كلماتهم الأخيرة، فتصبح ظلالهم أصغر فأصغر في أشعة مصابيح الكربيد المتأرجحة.

أما أنا، الذي لم أفعل أكثر من الإصغاء والتقاط الحجج والحجج المضادة بشكل منفعل بلا تمييز، كما لو أني أصبت بالكزاز، فقد عوضتني هذه الفترات الخالية من التيار عن الدروس التي فاتتني في المدرسة. ورغم الحر ـ كنا نتعرق حتى عندما نكون عاطلين عن العمل ـ حاولت متابعة السجال. لم أفهم الكثير، شعرت بالغباء، **كنت** غبياً، أردت أن أسأل الكبار في السن، لكنني لم أجرؤ على ذلك. بقيت أشعر بالتمزق لأن مختلف النزاعات الحزبية سوف تتجسد في سياق النقاش. أتكلم بشكل تقريبي، فقد كان ثمة ثلاث جماعات متنازعة.

كانت أصغر هذه الجماعات تمثل الوعي الطبقي الشيوعي.فقد كان أعضاؤها يتنبأون بزوال الرأسمالية وانتصار البروليتاريا، وكان لديهم جواب جاهز على كل سؤال ونزوع إلى القبضات المسكة بإحكام. كان رئيس عمال المنجم، الذي ينتمي إلى صفوفهم، شخصاً ودوداً بما يكفي فوق الأرض، حيث كان يمتلك بيتاً مستقلاً لأسرة واحدة غير بعيد عن المنجم، ومن حين لآخر كنت أصطحب أخته الكبرى إلى السينما.

الجماعة الثانية والأكبر كانت منتفخةعلى خطاب نازي وتزعم أنها تجر وراءها المسؤولين عن انهيار النظام القديم. كان أعضاؤها يدندنون بنشيد هورست ڤسل وينغمسون في تأملات وشتائم من نوع «لو كان

Twitter: @ketab_n

الفوهرر حيا اليوم، لجمع الكثيرين منكم...».

الجماعة الثالثة حاولت أن تهدئ السجال بتسويات رثة بشكل زائد. فمن ناحية أولى، كانت تعارض مصادرة شركات مثل بورباخ - كالي ليمتد؛ ومن الناحية الأخرى، كانت تطالب بتأميم الصناعات الكبرى تحت إشراف النقابات. كان أفراد هذه الجماعة، التي ستخسر الأرض لفترة ثم تستجمع قواها، يشار إليهم باستخفاف بوصفهم ديموقراطيين اجتماعيين، وحتى الشيوعيون يشيرون إليهم بوصفهم فاشيين اجتماعيين.

حتى رغم أنني كنت أجد صعوبة في فهم القضايا التي كانت تغيظهم على هذا النحو، فقد تحققت، أنا الفتى المقرن والأبله على الهامش، من أنه عندما وصل الزخم فقد شكل الشيوعيون بشكل حتمي فريقاً واحداً مع النازيين لإسكات البقية الديموقراطية الاجتماعية. لما كانوا أعداء لدودين، فقد شكلوا جبهة حمراء وبنية ضد الاجتماعيين.

كان ذلك من الممكن التنبؤ به إلى درجة تدفع إلى الجنون. في كل مرة ينقطع فيها التيار الكهربائي، تبرز الشقاقات. لقد وجدت صعوبة في الاصطفاف مع أحدهم. ولكوني أفتقر إلى المعتقدات الصلبة، فقد كنت محاصراً من كافة الجهات و من الممكن أن أتخذ أي اتجاه.

كان سائق قاطرتي، وهو عامل إكساءات سابق أصيب في حادث تفجير، اجتماعيا؛ لقد شرح لي تحالف رفاق المهجع الغريبين عندما كنا نغادر الغرفة المقفلة بعد ورديتنا ذات مساء. «الشيء نفسه حدث للسلطة في عام 1933: تآمر الشيوعيون والبنيون علينا. في ذاك الوقت خرج البنيون لتصفية الشيوعيين، ثم تحولوا إلينا. وتلك كانت نهاية التضامن. متى سيتعلمون؟ كل شيء أو لاشيء. هذا هو ما يريدونه، وهم يكرهوننا نحن الاجتماعيين لأننا سنأخذ النصف فقط إذا دعت

Twitter: @ketab_n

الحاجة....».

حاشى أن أزعم أن محاضرة مصباح الكربيد هذه في الأيديولوجيا قد نورتني إلى حد أنها شكلت آرائي السياسية الأولى بعد الحرب، لكنها ساعدت الفتى المقرن على فهم كيف أحبطت شراكة خبيثة نظاما كان العنصران، الشيوعيون والنازيون، قد شوها سمعته بوصفه النظام وكيف أنها في نهاية المطاف أسقطت ذاك النظام.

حتى رغم أنني لم أصبح اجتماعيا مسفسطا تحت السطح، فقد تشربت بعضا من مبادئه فوق السطح عندما أخذني سائق قاطرتي إلى كومة الدبش السابقة، هانوفر، ذات صباح أحد للاستماع إلى رئيس الحزب الديموقراطي الاجتماعي، كورت شوماخر، وهو يتكلم إلى جمهور في الهواء الطلق مكون من عشرة آلاف شخص.

لا، لم يتكلم، بل زعق، بالطريقة التي يزعق بها كل السياسيين - وليس فقط فورستر، زعيم فرع الحزب النازي في مقاطعة دانتسيغ. ومع ذلك فإن الديموقراطي الاجتماعي المستقبلي والمؤيد الحازم الذي لا يخاف من ناحية ومن ناحية أخرى تلقف إلى الصميم الكلمات التي كان الشخص السهل الانقياد ذو الكم الفارغ، المرتعش، يرعد بها إلى محازبيه العشرة آلاف تحت الشمس الملتهبة.

جعلته سنواته في السجون النازية زاهداً. كان ذا أسلوب صار عمومياً. كان يطالب بتجديد الأمة، بألمانيا اجتماعية وديموقراطية لتنهض من الخراب. كانت إرادته صلبة، كل كلمة منه مطرقة تطرق الحديد.

رغم أن إلقاء الرفيق شوماخر كان منفراً لي إلا أنني اقتنعت به.

اقتنعت بماذا؟ بأية تبعات؟ لم يكن قبل مرور سنوات كثيرة أن بدأ الفتى المقرن في الماضي - بعد عدد من المساعي المضللة إلى انضباط

Twitter: @ketab_n

يوتوبي ـ يسير على خطوات الديموقراطيين الاجتماعيين بمفهوم ڤيلي براندت «لسياسة الخطوات الصغيرة». ولم يحدث إلا بعد سنوات في كتابي *مفكرة حلزون* أن وصفت الحذاء الزاحف لأجل أمراض التقدم. إنه مسار الحلزون وليس المسار السريع. إنه طريق طويل مرصوف بحصى الشك، نظرا لكون الدكتور شك هو الاسم المستعار الذي اخترته لأجل بطل *المفكرة*.

لكن حتى تحت السطح، أظهر تكبسلي السياسي، صدفتي الفارغة، بعض التصدعات. كنت أحاول الاصطفاف إلى أحد الأطراف. لقد كان للتعليم الخصوصي الذي قدمه لي منجم سيغفريد الأول نتائج متنوعة: كنت غريب الأطوار كما اللعب بالضوء والظل في الصالات السقفية المرتفعة كبرج الكنيسة، فضلت هذا وعارضت ذاك، ناصرت طرفاً واحداً ثم الآخر، مغلقاً أذني فقط عندما حاول النازيون أن يستميلوني بشعار (لاتقل مات أبداً).

تحت السطح، كلما برزت قضية اندماج الشيوعيين والاجتماعيين في حزب واحد في النطاق السوفييتي، كنت أردد كالببغاء كلمات سائق القاطرة، الذي كان يحذر من الوحدة الإجبارية وكان ينطلق ببطء وحذر عندما كان فتاه المقرن يفتح باب الحماية من العوامل الجوية ويغلقه ليمنحه الوقت للقفز على متن العربة الأخيرة؛ على السطح، في واقع ما بعد الحرب المتدني الحريرات، كنت أغذى بمقتطفات من البيان الشيوعي من قبل رئيس ورشة المنجم والأب الدمث لثلاث بنات.

حققوا درجات متفاوتة من النجاح معي. لابد أن حقيقة أنني كنت مستمعاً جيداً قد شجعت جهودهم. لكنني عندما أستحضر الفتى المقرن اليوم ـ أي في زمن التفوق المطلق لرأس المال وفي وعي تام لانعدام قدرتي ـ عندما أستدرجه تالياً إلى مقعدي الواقف وأجبره، مراوغاً بالفطرة، عبر

Twitter: @ketab_n

درجة ثالثة أكثر عنفواناً، واضعاً إياه أكثر فأكثر تحت بقعة الضوء بأسئلتي المحتالة، فإن ما أجمعه من العبارات الثانوية للشاب الذي يرتدي نسيجاً قطنياً خشناً، هو أن ما أغراه فعلاً إلى بيت الأسرة الواحدة برواقه وحديقته كانت البنت الكبرى للمفتش: لقد استمالته بدون كلمة دعاية واحدة.

مع أنها لم تكن حسناء فإنها لم تكن بلا فتنة. كانت قد أصيبت بإعاقة في ساقها اليسرى منذ الطفولة. حادث؟ لم تتكلم أبداً حول ذلك. أم أنني ببساطة صممت أذني عن مناحاتها حول سبب محنتها؟

كان ثمة صفة خشنة، مصحوبة بأنفاس مسموعة في حديثها، وكانت تتكلم بسرعة، كما لو أنه لا يوجد وقت كاف. أرى وجها متطاولا بيضاويا، عينين بنيتين، شعراً داكناً سابلاً، جبينا دائم التفكير وبالتالي مغضنا. كانت ذكية وتستطيع تشكيل جمل منطقية مدروسة بعناية. كانت إحدى كلماتها المفضلة هي [دقيق] precise: الطريقة الدقيقة للتحدث، للتفكير.....

كانت تتدرب لتصبح سكرتيرة في المكتب، فنضدت قليلاً من قصائدي المقفاة المنظومة على عجل على الآلة الكاتبة للمكتب. وهذا ما جعلها مقروءة بسلاسة وتبدو هامة، جاهزة للطبع، وإن بشكل افتراضي فقط، خصوصاً لأنها صححت أخطائي الإملائية بهدوء.

أمضينا وقتاً طويلاً قدر المستطاع معا. لم تكن ساقها تزعجني. كان الوجه واليدان النشيطتان جذابة بما يكفي. كانت تقف في مدخل المنجم، صغيرة وصغيرة النهدين، تنتظر والدها وربما تنتظرني أيضاً. كانت بالغة الأناقة والخفة بحيث كان بمقدوري أن أرفع جسمها المسطح تماماً إلى الارتفاع المناسب وأدخلها واقفة، حالما كنا نعود من السينما في سارشتت ونمضي دقائق قليلة في الرواق، أو بداخل الباب،

Twitter: @ketab_n

لنلتحم معاً.

لم يكن مسموحاً لي الصعود إلى الطابق العلوي إلى حجرة البنات؛ رفضت أن تذهب إلى غرفتي ذات الأسرة المعلقة. لكنها كانت مهتمة بي وكانت دوماً تدع السمة النهائية على تذكرة السينما تأخذ مجراها، حتى لو كنت الوحيد الذي يشعر مثل ذلك. وامتثلت لطلبها أن أكون حذراً.

لكن الأكثر حيوية من لحظاتنا في الرواق كانت الأوقات التي قضيناها على الدروب بين حقول الشوندر السكري. كلامها الدقيق. تنادي كل شخص باسمه. في مواجهة كومة خبث المنجم الشامخة التي تومض بيضاء في سماء غائمة، كنا نتابع ونتابع الحديث حول الأفلام التي كنا نشاهدها: فيلم *مصباح الغاز* *Gaslight* وهو حكاية مجمدة للدم عن انغلترا الضبابية؛ وفيلم *القتلة بيننا* *Murderers Among Us*، من بطولة هيلدهغارت كنف.

كنا نتحدث أيضاً حول الله، الذي لم يكن موجوداً. كنا نبز أحدنا الآخر في تمزيق مفردات الإيمان. تلميذان من تلاميذ الوجودية لم يعرفا بعد أو بالكاد سمعا بذاك المفهوم الدارج من جديد. كلاهما انغمسا في كتاب ***هكذا تكلم زرادشت*** وانتزعا بشاعات فلسفية متغطرسة مثل «جوهرية» «essentiality» وحقيقية «faciticity». لم يكن ثمة أكوام قش في المنطقة.

عندما كان الشوندر السكري جاهزا للحصاد بعد الصقيع الأول، كنا نسارع إلى الحقول بعد هبوط الظلام ونحن نحمل الأكياس والسلال والمجارف ذات القبضات القصيرة. لم نكن الوحيدين الذين نقوم بالحصاد ليلاً. كان أعداؤنا هم الفلاحون مع الكلاب.

في غرفة غسيل بيت رئيس ورشة المنجم ـ كانت زوجته قد توفيت

Twitter: @ketab_n

في أثناء العام الأخير من الحرب وغالباً ما كان يبدو خاسراً عندما تعلق الأمر ببناته الثلاث ـ فقد كنا نقشر الشوندر ونفرمه، ثم نغليه محولين إياه إلى شراب في غلاية مخصصة لغسيل الثياب. لايزال بمقدوري أن أتذكر المغرفة الخشبية الكبيرة التي كنت أستعملها من أجل التحريك، ورائحة وطعم العجينة اللزجة، الحلوة بشكل متخم، وضحكة الشقيقات الثلاثية الأجزاء وهن يقطعن الشوندر. كنا نسكب الشراب في القوارير البصلية الشكل المخصصة لذلك، ونحول ما كان يتبقى في الغلاية إلى معينات الملت، كوننا قد أضفنا إليه قليلاً من اليانسون.

كنا نغني فيما كنا نعمل. كان الأب قد علم بناته بعض أغاني العمال. لا الوقت الذي قضاه في معسكر الاعتقال ولا تجربته في كتيبة العقوبات على الجبهة أخمدت ما كان يفتخر بتسميته وعيه الطبقي.

ماذا كانت أسماء البنات؟ إحدى البنات ـ لا يمكنني أن أتذكر أيهن تماماً ـ كانت تدعى إلكه. كان من الممكن أن تصبح نقاشاتنا حامية. لكن في أثناء جلسات صنع الشراب كنا نتجع إلى التحرر من السياسة.

بعد عيد ميلادي التاسع عشر بوقت قصير، كذلك يوم تنفيذ قرار إدانة مجرمي الحرب الذين سيتم شنقهم في نورمبرغ البعيدة، والذي احتفلت به مع عدد قليل من أصدقائي المقربين على الأرضية البالغة 950 متراً وذلك قبيل بدء جني الشوندر السكري ـ حددت اسم وعنوان قريب بعيد كان قد التجأ في لوبك مع زوجته وبناته. هل كتبت فوراً أم بعد قليل من التردد؟

في المدن والقرى في كافة أنحاء مناطق الاحتلال، علقت في ممرات الأبنية البلدية أسماء المفقودين، والموتى غالباً، وتواريخهم. كان الصليب الأحمر والمنظمات الأخرى مسؤولة عن توزيع اللوائح وصيانتها. كانت الصور الضوئية الصغيرة للأطفال تعرض على أحد الجانبين. كان

Twitter: @ketab_n

اللاجئون والمهجرون من بيوتهم في شرق بروسيا وسيلزيا وبوميرانيا وزوديتنلاند ومدينتي الأصلية، دانتسيغ، وجنود من كل فرع ورتبة، والمرحلين والمقصوفين بالقنابل، ملايين من الناس كانوا يبحثون عن بعضهم البعض. كانت الأمهات يحتجن إلى العثور على الأبناء والبنات الذين فصلوا عنهن في أثناء فرارهن؛ الأطفال بلا أسماء كانوا بحاجة إلى العثور على والدين. وغالباً ما كانت صور الأطفال الصغار معنونة فقط باسم المكان الذي عثر عليهم فيه.

البحث والعثور. النساء لازلن يأملن في عودة خاطبيهن أو أزواجهن. العشاق والعشيقات يفتقدون بعضهم بعضاً. فكان كل شخص يفتقد شخصاً ما. أنا، أيضاً، كنت أطوف مسرعاً على اللوائح، التي تنشر أسبوعياً، بحثاً عن إشارات على والدي وشقيقتي الصغرى البالغة ثلاث سنوات.

خلافاً لكل المنطق بقيت أتصورهم في البيت ـ الأم لا تتزحزح أبداً من خلف طاولة البيع، الأب يخلط العجين في المطبخ، الأخت تلعب بضفائرها في غرفة المعيشة ـ لم يكن بمقدوري أو لم أشأ أن أتخيل أسرتي بعيدة عن البيت: مطرودة، بدون الأثاث واللوحات الزيتية المزيفة المألوفة، بعيداً عن المدفأة القرميدية التي تدفئ كلا من غرفة المعيشة وغرفة النوم.

هل كان المذياع لازال منتصباً على الأريكة ومن كان يستمع إلى أية محطة؟ ماذا حل بخزانة كتب الأم، ذات الواجهة الزجاجية التي كانت في الواقع لي؟ من كان يقلب صفحات الألبوم المليء بصور بطاقات السجائر الملصقة بشكل دقيق؟

بأي حال، لقد كتبت، فوراً أو بعد تردد قصير، إلى الأقارب البعيدين الذين عاشوا فيما مضى في دانتسيغ ـ شيدليتس. لكن قبل أن

Twitter: @ketab_n

أسمع الردود منهم، تزوج أحد زملائي في الثكنة، وكان من سيلزيا العليا. أما العروس فكانت أرملة تنحدر من القرية المحلية.

تقف أمامي بكل بهائها، شقراء مستعدة دوماً للضحك. في البدء تكون بعقصات شعرها، ثم بفستان عرس مصنوع من حرير المظلات الذي تم الحصول عليه مقابل مئة كيس من ملح البوتاس. كان على فتى مقرن آخر وأنا أن نخدم كشاهدين لأن لا أحد في القرية شاء القيام بذلك. إن العريس، الذي كان يتكلم الألمانية البولاكية المتوقعة من أحد سكان كاتوفيتس الأصليين، قام بالعزف على ألة هارمونيكا وضيعة و أدى أغنية ذات مقاطع لانهاية لها، لا أستطيع أن أتذكر منها سوى الأبيات التي تقول: «إذا وجد برغوث / على ركبة أنتك، / أراد أن يركض/ ويجد بندقية».

كان الاحتفال في غرفة أرملة الحرب صاخباً إلى حد ما. لم يكن يوجد منا سوى أربعة: لا أحد من غروس غيزن أو من القرى المحيطة أو من ستارشتت ـ لم يأت أقارب ولاجيران. لا أخت العروس ولا حتى والديها كلفوا أنفسهم بالجلوس إلى نفس الطاولة مع من كان، وفقاً لفهمهم الساكسوني، الأدنى أجنبياً، وبالتالي غير صالح. ومن كان فيما مضى أجنبياً سيبقى على الدوام أجنبياً.

أفرطنا في الشرب، كما لو كنا نطفئ ظمأ الضيوف المفقودين. الإشبين، الشاهدان، والعروس ـ أكثر من الجميع ـ صمموا على رفع العقيرة، على أن يكون ذاك اليوم من أيامهم الخوالي المجيدة. غسلنا رقبة الخنزير بالكحول من البراميل الدوارة . لا أذكر من شرب أكثر ومن شرب أقل. كان ثمة الكثير من شنابس البطاطا وغيره مما كان متوفراً في السوق السوداء، حتى ليكور البيض. لقد تجرعنا الكثير من السوائل المريبة بحيث أننا الأربعة انتهى بنا الأمر إلى العمى: كان ثمة

Twitter: @ketab_n

تقارير عن تسمم جماعي نتيجة لاحتفالات عائلية، والسبب هو وجود الكحول الميتيلي في الشنابس الممدد بغيره. لكننا بقينا نشرب نخب العروس ونلعن الضيوف الغائبين بصوت عال.

في لحظة ما تعثرنا، نحن الأربعة، بسرير زواج أرملة الحرب الماضية. لم نكن عمياناً بل متعامين. أما ما حدث فيما بين هذا الكثير من اللحم البشري فلم ترغب قشرة بصلة ولاترغب في تذكره. ربما تكون العروس هي الوحيدة التي عرفت أو شعرت أو أحست بما حدث وبما لم يحدث في أثناء بقية الليل ومع من تحديداً، ومع من ليس ربما أو تحديدا، ومع من مرات كثيرة.

على الجدار عند رأس السرير الزوجي علقت لوحة زيتية تصور بجعتين جميلتين أو زوجين أو ذكر حيوان أعزب يخور.

عندما استيقظنا في الصباح التالي، لا، كان أقرب إلى الظهر، كانت الشقراء المزفوفة من جديد قد مدت المائدة لأجل الفطور. كانت تنبعث من الغرفة رائحة البيض المقلي ولحم البقر المقدد المحمر. كانت تبتسم ابتسامتها الشقراء، تشع بها على زوجها وعلى الفتيين المقرنين الآخرين، الثلاثة الذين كانوا يحدقون في فضاء بعضهم البعض، بالكاد يتكلمون، وفي تلك التي فعلوا بها، حان وقت الوردية التالية أو المتأخرة.

هكذا كانت النهاية المحزنة والغامضة لليلة زفاف، على السطح في مأوى برج المنجم وفي إطلالة من نافذة غرفة النوم على كومة الخبث التي تطغى على الريف، الأمر الذي كان نتيجة أكثر من كونه حدثاً. تحت السطح، في أثناء انقطاعات التيار، كان عمال المنجم يواصلون سجالاتهم. ولكوني قد سئمت من سماع الأشياء نفسها مراراً وتكراراً، حافظت على مسافتي. كان يبدو أنني قد تخلصت من عواطف النازي

Twitter: @ketab_n

الشاب فيما مضى مرة واحدة وإلى الأبد ولم أكن أريد أكثر من ترك هذا الماضي المزعج الذي يعلق بي ورائي. لكنني لم أجد فكرة مغرية من الأفكار المبتذلة لعمال المنجم، حتى رغم أنه في المكان الذي كانت فيه الفكرة السليمة الوحيدة قد ربطت كل شيء بكل شيء، فقد انفنح ثقب منفرج.

ما الذي كان بمقدوره أن يملأ هذا الفراغ، رغم كونه غير مرئي؟

الأساس لعملية الإنقاذ الذاتي للفتى المقرن يبدو أنه كان بحثاً متواصلاً، وإن كان مسهباً، عن المعنى في أثناء فترات الصمت القسري عندما استذكر، منزوعاً من رفاقه الجداليين ولايضيئه سوى مصباحه الكربيدي، المعجم والقواعد الحديدية للغة ميتة، يصبح بها باحثاً في النهاية.

ظل هذا الوضع العبثي واضحاً للغاية طالما أنني لازلت أستطيع سماع نفسي أصرف الأفعال. ليس ثمة شك في أن الفتى المقرن يحاول باجتهاد، بعناد، أن يحسن لاتينيته البائسة على عمق 950 متراً تحت سطح الأرض ليس سوى أنا. كما في أيام المدرسة، لايزال يكشر عندما يكر قائلاً qui quae quod، cuius cuius cuius ....

أسخر منه، أدعوه شخصية فكاهية، لكن لاشيء يردعه: إنه خارجاً لملء الفراغ ولو فقط بخبث اللغة التي كان يعرفها صديقه في معسكر باد آيبلينغ معرفة جيدة للغاية ويدعوها سائدة عالمياً إلى الأبد. حتى أن جوزف كان يزعم أنه يحلم وفقا لقواعدها التي لا تقبل الجدل.

أعارتني معلمة مدرسة ثانوية بالشكل الأكثر لطفاً كتاب نحو وقاموس، وكانت هذه المعلمة تقيم في أبرشية هيلدزهايم، التي دمرت بلا رحمة في نهاية الحرب، والتي علمتني مقابل سجائر اللامدخن في غرفتها البسيطة.

Twitter: @ketab_n

كنت قد قابلتها بالصدفة، لا أتذكر أين. كانت ترتدي نظارات سميكة وكانت تجلس، وفي حضنها هرة، في كنباية منجدة بلون أحمر خمري. «قليل من اللاتينية لا يضير»، كانت تقول.

كلما قضيت يوما في الخارج، سأثب على حافلة إلى هيلدزهايم. لم تقدم لي أكثر من فنجان من شاي النعنع بعد الجلسات.

لكن بعدئذ وضعت سلسلة من البطاقات البريدية من الأقارب القريبين والبعيدين حداً لعودتي إلى المنحة الدراسية. كانت الرسالة نفسها دائماً: والداك وأختك نجوا من الحرب والطرد من دانتسيغ بدون أي ضرر ظاهر. لقد نجحوا مؤخراً في الانتقال من منطقة الاحتلال السوفييتي إلى منطقة الاحتلال البريطاني. كانوا يقيمون في ميكلنبورغ وعبروا الحدود لا يحملون سوى حقيبتي ملابس. بعد إقامة قصيرة في لونبورغ، حيث كان جداك قد التجأا، تم إرسالهم إلى بلاد الراين، قرب كولونيا (الشمال كان مكتظا منذ زمن طويل) وإسكانهم في مزرعة كبيرة في مقاطعة برغهايم ـ إرفت.

كان لدى الأقارب المنتشرون على نطاق واسع أشياء أخرى لقولها أيضاً. حول المدينة المنهوبة التي جاؤوا منها ـ «دانتسيغنا لم تعد كذلك» ـ وكل الأشياء الرهيبة التي عانوا منها. كان ردهم على «الجرائم المشهورة» التي لم يكن من الممكن أن يكونوا قد عرفوا عنها هو: «لكن لا كلمة واحدة حول المظالم التي أصابنا بها البولنديون».

لقد كتبوا أيضاً حول العنف الذي تحملوه، حول المفقودين، الموتى. فقد ذكروا أن الجد كان يشكو طوال الوقت. لم يكن بوسعه أن يتقبل خسارة ورشة النجارة: «المنشار الدائري، آلة التسوية [الفأرة]، كل تركيبات الأبواب والنوافذ التي خزنها في القبو».

واشتكوا حول الفقر العام، الذي كان يزداد بشكل مضطرد. «أولئك

Twitter: @ketab_n

المطرودين مثلنا هم الأسوأ حالاً. لا أحد يريدنا. ولكننا ألمان مثل أي شخص هنا....».

لابد أن مكتب محافظ غروس غيزن هو الذي أعطاني عنوان والدي في بلاد الراين. بأي حال، انطلقت بالباص ذات يوم بعد الوردية الباكرة بدون أن أترك عملي. كان ذلك قبل عيد الميلاد بوقت قصير أو بالأحرى في وقت مبكر من العام الجديد. شيء ما كان لجمني حتى ذاك الوقت. هل كانت ابنة رئيس عمال المنجم الحنون؟

كانت الطرقات مغطاة بالثلج وظل الثلج يهطل. كانت أمتعتي تتضمن كيلو من الزبدة كنت قد ادخرته وقارورتين كبيرتين من البرومين، رفعتا من مخبر المنجم، وشراب الشوندر، حصتي من الجني. لا، لا أذكر أية دموع من البنت الكبرى لرئيس عمال المنجم أو كلمات وداع من والدها للفتى المقرن المرتحل على عجل. حتى هكذا، فإن قطعة أخرى من ملكية المنجم لا بد أنها شقت طريقها إلى حقيبة عدة التخييم التي كنت أستعملها كحقيبة ملابس، لأنني عندما كنت أسافر بعد أكثر من عشرين عاماً عبر المنطقة للمساعدة في تقديم مبادرات مقترعين استعدادا للانتخابات إلى البوندستاغ [البرلمان الألماني] ـ كانت القضية الجاهزة «كتلة الشرق الجديد والسياسة الألمانية» لبراندت ـ وأخبرت المرشح الاجتماعي الديموقراطي بعد اجتماع حاشد في هيلدزهايم حول ماضي السري وسجالات فترات انقطاع الكهرباء، كاشفاً بذلك إلى أي مدى بدأ الشك الاجتماعي الديموقراطي بتلوين نظرتي السياسية، لابد أنه قد وجد استئنافي مشكلاً بشكل مصطنع أكثر مما ينبغي قليلاً، نوع من التكملة لفصل في رواية *أعوام الكلب*، وألقيت نظرة على بيانات شركة بورباخ ـ كالي ليميتد العالية الربحية، التي أعلنت أن شخصاً يحمل اسمي كان قد ترك منجم سيغفريد الأول «قد فر مع زوج من

Twitter: @ketab_n

قباقيب الشركة».

لم يعد البوتاس يستخرج هناك, ويزرع من اللفت أكثر مما يزرع من الشوندر، لكن كومة الخبث الأبيض كانت لاتزال تبرز من الحقول المنبسطة ولم تبد أية علامات على الاختفاء، وهو ما يذكر بزمن كانت فيه سرقة الشوندر السكري وانقطاعات التيار هي نظام اليوم، كان العمل المجد يعني قسائم حصص غذائية خاصة، فتاة ذكية صححت الأخطاء الإملائية لشاعر غر، استمرت الحرية في التجريب في معارك لفظية، وفتى مقرن غبي تلقى تعليماً في حفرة منجم سيغفريد الأول.

من هانوفر أخذت القطار إلى كولونيا، من كولونيا أخذت الباص مرة أخرى عبر بلاد الراين سفلى مألوفة جديدة، يرافقني الطقس البارد طوال الطريق. لم يجرب أحد ذلك ونسي ذاك الشتاء المبكر: بدأ في أواخر تشرين الثاني واستمر واستمر، جالباً الثلوج الكثيفة والصقيع القارس. تجمدت الأنهار، انفجرت أنابيب المياه. انخفض توزيع الفحم والفحم الحجري. لم تكن توجد أمكنة عامة دافئة. كان المتجمدون يتضورون جوعاً، الجائعون تجمدوا.

كان شتاء 46 ـ 47 مميتاً بشكل خاص للأطفال والمسنين الذين يعيشون وحدهم. لقد نهبت إمدادات الفحم، قطعت الأشجار، اقتلعت جذوع الاشجار. زوارق السحب المحملة بالفحم الحجري العالقة في القناة المتجمدة كان ينبغي حراستها ليلاً ونهاراً. أصبحت الفكاهة وقوداً بديلاً. هذا ربما يفسر لماذا كانت المسارح البلدية لهانوفر وكولونيا تعرض مسرحية *حلم ليلة صيف*، حيث المثلون يثبون برشاقة والجمهور يصفق باهتياج وذلك ليبقى دافئاً.

وعلى الرغم من إنعدام الدفء والحريرات، فقد استمرت الحياة. أنا أيضاً، الذي كنت قد هربت مؤخراً من دفء الـ 950 متراً تحت

Twitter: @ketab_n

الأرض، تجمدت أيضاً في القطار غير المدفأ والباص البارد الرطب.

تجمد كل الركاب، لكنني شعرت أنني تأثرت بشكل أسوأ من أي واحد منهم رغم حرارة المنجم الواقية وحريرات القسائم التي كنت قد ادخرتها كفتى مقرن والقفازات التي حاكتها لي البنت الكبرى لرئيس عمال المنجم كهدية افتراق.

ربما كان البرد الجسدي فاقمه في حالتي الخوف الداخلي، الكامن خلف التوقع المبهج لالتئام شمل العائلة، أن اللقاء مع الأب والأم سيكون مخيباً للآمال، ولأن الوالدين والأخت قد باتوا بعيدين، سيكون البرد حتى أكثر حدة، والابن والأخ سيقف أمامهم غريباً.

في هذه الأثناء تمسكت بشدة بحقيبة معدات التخييم ومحتوياتها، كيلو الزبدة التي ادخرتها، وقوارير شراب الشوندر.

لم أعلن عودة الابن المبذر: أردت ذلك أن يكون مفاجأة. لكنني عندما ترجلت من الباص، من كان ينتظر في موقف فليستن، كما لو كان يريد أن يفاجئني، سوى الأم والأب والأخت؟ كانوا في طريقهم إلى برغهايم ليحصلوا على أوراق اللجوء مختومة. هل كانت مصادفة؟

فيما بعد، ستقول الوالدة إن ذلك كان قدراً. كانت تؤمن بذلك إيماناً راسخاً. كل ما حدث، حظاً سعيداً وحظاً تعيساً، بقائي على قيد الحياة / نجاتي ذاته - في الحقيقة كان من المفترض أن أكون ميتاً - كانت ترده إلى القدر: حدث ذلك كله وفقا لمشيئة عليا، العناية الإلهية. علاوة على ذلك، كانت امرأة غجرية قد تنبأت بعودة الابن: «مدلل الماما سيأتي محملاً بالهدايا»، كما قالت، الأمر الذي لا يمكن أن يعني سوى الزبدة والشراب.

كان الابن مرعوباً. هناك كانوا يقفون، يرتدون معاطف كبيرة أكثر مما ينبغي عليهم. كانت الأم تبدو مهمومة. كان الأب قد نجح في إنقاذ

Twitter: @ketab_n

قبعته اللبادية طوال فترة الحرب. والأخت، بدون ضفائرها، لم تعد طفلة.

يخبرونني أنني حييتها بعبارة «انظري إليك، داداو! لقد أصبحت سيدة شابة». وبما أنه كلما وجد متسع لأجل الشك تتذكر أشياء بشكل مختلف من أخيها «أقرب إلى الحقيقة»، تقول، تلح إلى هذا اليوم على أن قارئ البخت كان موجوداً. «بالشرف، تنبأت....».

منذ زمن غير طويل عندما كنا في زيارة إلى مدينة أصلانية مغربة مع أحفاد قلائل، كنا نحن الاثنان نسير على امتداد الشاطئ بين غلتكاو وتسوبوت غارقين في حديث أخ وأخت حول هذا وذاك، بما في ذلك البابا الجديد، عندما قالت فجأة، في حين كان الأطفال يفتشون زبد الموج من أجل الكهرمان، ««حتى رغم أننا لم نستطع إعطاء المرأة الغجرية أي شيء لتأكله ـ إذ لم نكن نملك أي شيء ـ فقد قرأت كف الماما قبل أن تأتي وتعد، «ابنك العزيز سيكون في البيت في خلال ثلاثة أيام».

قبلئذ بحوالي عامين ـ رغم أن ذلك كان يبدو عمراً ـ في شهر أيلول من عام 1944، عندما كانت دانتسيغ لاتزال تحتفظ بأبراجها وأبراج كنائسها، اصطحبني الوالد إلى المحطة المركزية. كان قد حمل حقيبة ملابسي الكرتونية بصمت. كانت شارته الحزبية المدورة مثبتة بالدبابيس إلى سترة طقمه. كنت لا أزال في السادسة عشرة، وقفت إلى جانبه على المنصة أرتدي سروالاً يصل إلى الركبتين، وسترة باتت قصيرة أكثر مما ينبغي، كانت رسالة تجنيدي في جيب الصدرية. كانت الأم قد رفضت أن ترى ابنها يرحل إلى برلين و، كما كانت تعتقد، إلى حتفه. الآن أعادنا القدر معاً.

تعانقنا، بشكل ملزم، مراراً. بدون أي كلمة، وبعبارات عديمة

Twitter: @ketab_n

المعنى. حصل الكثير، أكثر مما يمكن التعبير عنه بكلمات في سياق زمن لم تكن له بداية ولا يمكن أن تكون له نهاية. تكشف بعض الأشياء لاحقاً، فيما كان البعض الآخر أفظع من أن يعبر عنه بكلمات.

كان العنف المتكرر الذي مورس على أمي قد أخرسها. لقد باتت الآن عجوزاً ومتوعكة. بقي القليل من حيويتها ولسانها السليط.

وهل كانت قوقعة الإنسان تلك هي أبي؟ هو الذي أقام مثل هذا المخزن الكبير بالكرامة ورباطة الجأش.

وحدها أختي بدت غير متضررة بما حدث. فقد كانت تبدو شبه ناضجة أكثر مما ينبغي، تتطلع إلي، «أخاها الكبير»، بعينين لامعتين، فضوليتين.

لم أكن حتى ذاك الوقت قد بدأت أرى ما لم يكن واضحاً بما يكفي في أثناء الأعوام الأخيرة من الحرب، في المستشفى، في معسكرات أسرى الحرب، وفي حريتي العابرة، المتنقلة، عندما كان همي الوحيد هو نفسي وجوعي المزدوج. كان كل شيء مختلفا، كل شيء تبدل بالفقدان. لم يسلم أحد. ليست البيوت وحدها هي التي أحيلت إلى خرائب. بنظرة ارتجاعية، كانت الجرائم المتكشفة تحت الضوء مع السلام، الجانب الآخر من الحرب، تجعل من المرتكبين ضحايا.

كان الأشخاص الواقفون أمامي مطرودين من وطنهم كأفراد، لكنهم بين الملايين كانوا ذوي قيمة إحصائية محضة. عانقت الناجين الذين، كما يقال، كانوا قد انصرفوا مذعورين. استمروا في حياتهم بشكل ما، لكن...

لم نكن نعرف شيئاً عن بعضنا البعض. «فتانا عاد» هتف والدي للناس النازلين من الباص أو الصاعدين إلى الباص المتجه إلى برغهايم. لكنني لم أعد الفتى الذي كان قد ودعه في محطة دانتسيغ المركزية،

Twitter: @ketab_n

عندما كانت كل كنائس مدينة بنيت من أجل الخلود تقرع أجراسها وداعاً.

كان الموظفون المسؤولون عن الترحيل قد أسكنوا والدي وأختي مع مزارع. هذا الشيء كان مألوفاً في حينه، لأن المتطوعين الراغبين في إيواء اللاجئين والمهجرين كانوا قلة وبعيدين بينهما. على وجه الخصوص حيث لم يكن ثمة أذى منظور ـ حيث سيستمر المنزل والإسطبل في الانتقال من الأب إلى الابن ولم تمس شعرة واحدة من رأس الأب أو الابن ـ رفض المزارعون أن يقبلوا فكرة أن الهزيمة، بدلاً من النصر النهائي الذي أعلن عنه بشكل صاخب، كانت تنطبق عليهم بقدر ما تنطبق على اللاجئين البائسين.

لأن صاحب المزرعة كان قد أجبر على ذلك من قبل السلطات فقط فإنه سمح لوالدي بالبقاء في الغرفة المقسمة بحاجز ذات الأرضية الإسمنتية، وهي مطبخ علف سابق لأجل إطعام الخنازير. الشكوى لا تودي بك إلى أي مكان. «عد من حيث جئت!» رد الرجل، واثقاً من نفسه ومن بلاده وككاثوليكي مثل المزارع الذي هربت منه في العام السابق. الناس هنا كانوا متشككين دوماً، وحتى عدائيين، تجاه الغرباء وما كانوا يسمونهم آنذاك المتطفلين؛ لم يكن ثمة أي مبرر للتغير الآن.

بات البرد العام أسوأ بفعل الأرضية الاسمنتية، التي لم يكن لها قبو تحتها.عاني التموين الضئيل من البطاطا الشتوية من أذى الصقيع. وعندما ذاب الصقيع كانت تتكهف إذا وخزتها بإصبعك، وعندما تطبخ، مقشرة أم غير مقشرة، كانت مائعة وشمعية وحلوة بشكل مفرط على اللسان. كانت زريبة الخنازير نتنة، وكان جدار مطبخ العلف مغطى بالجليد.

كنا ننام في غرفة واحدة. الأخت مع الأم في سرير واحد، الابن مع

Twitter: @ketab_n

الأب في السرير الآخر. كنا حتى أكثر اكتظاظا مما كنا في طفولتي، عندما كنا ننام أربعة أيضا في غرفة واحدة، في شقة لانغفور المكونة من غرفتين، إلا أننا آنذاك كانت لدينا تلك المدفأة الآجرية البيضاء. أما هنا فلم يكن ثمة سوى مدفأة من الحديد الصب في الغرفة الخلفية. كنا نجتمع حولها في المساء، ملتزين قدر المستطاع، نقول ما يمكن قوله، ثم نهرب إلى الصمت البليغ.

كنا نغذي النار بقطع من قوالب الفحم الحجري التي كان الأب يجلبها إلى البيت من العمل في حقيبته الظهرية. كان قد وجد عملاً في مأوى الحمالين لتشغيل استخراجِ الفحم من المنجم المفتوح، حيث خدمه أسلوب خطه الأنيق المقروء جيداً. كان يحفظ أثر من يأتي ويذهب في أثناء تغيير نوباته ويؤشر على الزوار الداخلين والخارجين. كانت قوالب الفحم الحجري دفعة على الحساب. عندما وجد والداي أخيراً مكاناً يسكنون فيه، في أوبراوسم، وهي قرية قرب عمله، خصصت لهما حتى كمية أكبر من «الذهب الأسود»، على شكل قطع مستطيلة وقوالب.

كان المكان الذي يعمل فيه والدي الآن هو منشأة صناعية تضخ كميات ضخمة من البخار في الجو من خط من المداخن. كانت تدعى فورتونا نورث كما كانت لاحقاً عنوان فصل في رواية *طبل الصفيح*، الذي يعاد فيه دفن جثة في مقبرة قرية المنجم أوبراوسم، وعندما تتكشف الجثة قطعة قطعة يلقي أوسكار ماتسرات تنويعه على سؤال هاملت: «أن نتزوج أو لا نتزوج؟».

لابد أنه بعد مرور أسبوع على وصولي المفاجئ آنذاك، إن لم يكن مجيئي إلى البيت، عاد والدي من العمل محملاً بقوالب الفحم الحجري وما كان يدعوها «أنباء سعيدة». «لقد وجدت لك منصب متدرب رائع». في الإدارة. في الطابق العلوي، في المكاتب التنفيذية. إنه ظريف ودافئ

Twitter: @ketab_n

هنا....» قال أكثر، وليس بدون افتخار، غير مدرك للتوقعات العليا لابنه. لم تكن عيناه الزرقاوان السماويان تلمعان.

ربما حاول أن يعارضني بالشعار الذي غالباً ما كان يتم الاستشهاد به في أقسام الأعمال من الصحف الواسعة الانتشار. «المستقبل هو في الفحم البني». والحجج التي لا يمكن دحضها مثل «يجب أن تبتهج بعثورك على عمل كهذا دون أن تكون قد أنهيت دراستك». لكن في ذاك الوقت لابد أن والدي حسن النية قد كان مخيب الآمال عندما كان الشكر الوحيد الذي تلقاه من ابنه هو ضحكة. نعم، كان التوقع بعيداً للغاية عن أحلامي بحيث أنه بدا مضحكاً، وأخشى أن أكون قد سخرت منه [الأب].

«أنا، معقب معاملات ورقية؟ مضحك! خلال ثلاثة أسابيع سوف أتمكن من كل الوثائق الرسمية. أنت لا تريد أن تجعل مني محتالاً، أليس كذلك؟».

إذ ذاك أفصح الابن الجاحد بالضبط عما استقر قلبه عليه.

لكن ما الذي كنت أريده بالضبط؟ هل يمكن أن يكون ذلك التوقع من عمل مكتبي هددني به والدي بمحبة شديدة هو ما منح توجهاً دقيقاً لرغباتي؟

بباقة من أنصاف أبيات الشعر المقفاة وعديمة القافية ـ بعضها في النسخ الجميلة التي نضدتها ابنة رئيس ورشة المنجم ـ زائد دزينة جديدة من رسوم «الأصدقاء» الجديي المظهر من أيامي كأسير حرب زائد أي عدد من رسومي الغرافية لأشكال مصغرة أو مضخمة من كافة الأنواع، عراة أو مرتدين، يقفون طويلي الأرجل، واقعين على الأرض، منقلبين في حزن، بالإضافة إلى بعض الأشكال نصف الحيوانية نصف البشرية ذات الاضطرابات المجازية في رؤوسها ـ وبما أنه بقدر ما

Twitter: @ketab_n

أستطيع أن أتذكر كان عالمي الداخلي غنياً بالشخصيات ـ كنت أريد أن أصبح نحاتاً، شخصاً يحول الصلصال الخالص إلى أشكال تطغى على الفضاء بسبب حضورها الملموس.

ثمة شيء يسير في موازاة ذلك هو أنني، إذ لم أعد أضحك، أخبرت والدي، الذي سرعان ما انفجر في خطب مسهبة ضد الفنانين الذين يتضورون جوعاً» و«الأفكار الوسواسية». لقد كان جانباً منه نادراً ما رأيته.

ولم يجافي الصواب في تحذيره أو، بالأحرى، تنبؤه بمستقبلي القريب: «اختيار مهنة يمكن أن تدخلك إلى الملجأ في أفضل الأوقات، ناهيك عما يحصل عندما لا أحد يعرف ما الذي سيحمله الغد. أخرج ذلك من رأسك».

أما فيما يتعلق بأمي، التي لم تكف عن التحسر أبداً، وهي تحدق في الجدران غير المجصصة من حولنا، على حقيقة أنها لم تقم بإزالة لوحتها الزيتية المزيفة المنسوخة عن لوحة **جزيرة الموت** لبوكلين Bocklin عن جدار شقة لانغفور، وتخرجها من إطارها، وتدرجها على شكل لفافة، وترميها بين أمتعتهم، وهي التي كانت، رغم كونها امرأة الأعمال الوقورة، تبجل كل الفن بوصفه مقدساً، والتي رأت إخوتها، الذين ماتوا جميعاً وهم شبان، مستمرين في الحياة في ابن انتزعه القدر من بين فكي الموت، كانت تشاطر هموم زوجها من ناحية أولى، لكنها من الناحية الأخرى لم يكن بمقدورها أن تتخلى عن الحلم بأن صبيها المدلل سيبدع ذات يوم شيئاً جميلاً، جميلاً وسوداوياً، شيئاً يجمع مابين الحزين والجميل. كان أملا يجلب البسمة دوماً إلى شفتيها، أملا كانت تغذيه عميقاً بداخلها كلما صرت أنا وخططي الوهمية ووعودي الخلبية موضع نقاش.

Twitter: @ketab_n

قبل وقت طويل جاءت بسمة لتمحو القلق الذي نشأ عن الأهوال التي مرت بها، لكنها وهي تجلس إلى نار قوالب الفحم و تحيك الجوارب من صوف الغنم غير المصبوغ من أجل أطفال الفلاحة مقابل دقيق الشيلم ورقاقات الشوفان، لم تغامر بالسؤال عن مستقبل يمكن في ذاك الوقت تصغيره بشكل معقول كفطيرة في السماء. «أخبرني، يا ولدي، هل تظن حقاً أنك ستكون قادراً على العيش من فنك؟».

في صحيفة ـ أم هل من الممكن أن يكون في مجلة مصورة ـ وجدت مقالة تقول إن أكاديمية دوسلدورف للفن، التي لم تكن بعيدة جداً عن المكان الذي كنا فيه، قد بدأت التدريس مرة أخرى. كان تاريخ المقالة يعود إلى الصيف السابق وكانت تتضمن صورة لبروفسور النحت مع إضافة صورة باسم ايفالد ماتاري محاطا بالطلاب.

أظهرت صورة أخرى قطعة رسمها الأستاذ، بسيطة في الشكل، بقرة تستلقي على العشب، شيء يمكن أن تحبه أمي. «لكن ما الذي يجعلك تعتقد أنهم سيقبلونك في أكاديمية فنون محترمة bona fide إذا لم تكن قد أنهيت المدرسة؟ سيضحكون عليك! لن تدخل».

لم يزعجني ذلك. لاشيء كان يزعجني. بعد ذلك بعقود، عندما انطلق أبنائي وبناتي في دروبهم المستقيمة والملتوية المتنوعة ـ لاورا، مثلاً، تتجاهل نصيحة والدها وتختار أن تكون، ولا تزال، صانعة خزف بدلاً من أن تكون فنانة، رغم كونها موهوبة ـ سأتذكر كيف أنني تملصت بشكل متهور من عوائق حفرياتنا الطارئة، أرض تنشئة ممكنة لأجل النزاع بين الأب والابن، دون الاهتمام بذلك مرة ثانية.

هكذا انتهى الظهور القصير للضيف الذي جعل الجميع يعانون، وخصوصاً «مدللة البابا»، شقيقتي فالتراوت، التي أراها بإعادة النظر لمسة ظريفة، مبهجة على الفراغ، ومتحررة ظاهرياً من النزاع الداخلي.

Twitter: @ketab_n

الغمازة التي ظهرت في اللحظة التي ابتسمت فيها. الشعر المموج بطول الكتف الذي حل محل الضفائر. ما الذي سيحل بها؟ كانت تبدو صغيرة وبريئة للغاية. لم تكن ثمة أية إشارة مهما كانت على ما كانت قد رأته أو ربما عانته في دانتسيغ عندما جاء الروس، لم يكن ذلك شيئاً تحدثنا حوله.

بعد أسبوعين من الحياة العائلية كنت أمشي مجهدا عبر الثلج العميق في ضوء الفجر الرمادي، مع الأمتعة القليلة، والرقائق تدور تارة وتعوم تارة على حقيبة معدات التخييم. كان هدفي هو محطة شتوملن، على بعد أربعة كيلومترات. وحدها أعمدة التلغراف هي التي هدتني. كان التقدم بطيئاً على الطريق إلى إشباع جوعي الثالث، الجوع إلى الفن.

Twitter: @ketab_n

الجوع الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

منذ سن مبكر كان من المستحيل معالجته، سواء بممارسة الاعتدال الزهدي وتقييد نفسي بالأسود والأبيض أو بالاستسلام للإدمان وتلويث كل ورقة تقع تحت بصري. ولا حتى حشو نفسي بالكتب إلى درجة الغثيان اللفظي كان بمقدوره أن يدرأه. لم يكن يوجد ما يكفي. كنت دوماً شرهاً إلى المزيد.

الجوع العادي الذي يعرفه كل شخص يمكن تسكينه لساعات بحساء اللفت مع قليل من حبيبات متفرقة من الدهن أو حتى بالبطاطا التي لفحها الصقيع، والرغبة في الحب الجسدي، ذاك الهجوم الضاري، المتلهف، التلقائي، غير المستسلم، للشهوة الدائمة التجدد، يمكن إطفاؤه بلقاء مصادفة أو بنقرات قليلة للمعصم. مع ذلك فإن جوعي إلى الفن، الحاجة إلى أن أصنع لنفسي صورة من كل شيء ينتصب ساكناً أو يتحرك وبالتالي لكل جسم يلقي ظلاً وحتى للأشياء غير المنظورة، الروح القدس وعدوه الحميم، ذاك الرأسمال الزائل دوماً - ولوفقط بتزيين المقر المالي البابوي، البانكو دي سانتو سبيريتو، كهيكل للفاحشين بأشكال بابية - هذه الرغبة في غزو كل شيء بالصور كانت غير قابلة للإشباع، ملازمة ذاتي الواعية نهاراً وأحلامي ليلاً، حتى عندما كنت أغذيها بالوعود عندما قررت أن أدرس الفن - أو ما كنت أعتبره برؤيتي المحدودة فناً. لكن لفترة من الزمن، وقفت ظروف شتاء 1946 - 1947 في طريق رغباتي.

Twitter: @ketab_n

أما وقد قمت بالرحلة إلى محطة شتوملن عبر الثلج الذي يصل إلى الركبتين، المجمد والمعرق بآن ما، إذ اشتريت تذكرة في اتجاه واحد اعتقادا مني بأنني قد هربت من عائلتي المكتشفة حديثاً، فقد كان علي أن أقبل حقيقة أنه في نهاية الرحلة التي لانهاية لها بالقطار الثلجي لا أحد ينتظرني في دوسلدورف بذراعين مفتوحين.

وكنت أسأل في طريقي عبر المدينة، التي قصفت، وإن ليس بشكل سيء مثل كولونيا أو هانوفر أو هيلدزهايم، إلى المبنى الضخم لأكاديمية الفن - لم يكن ثمة ترامات سواء بسبب الثلج أو بسبب انقطاع التيار الكهربائي - وجدت الصندوق الداكن على حافة البلدة القديمة مفتوحا لكن لا أحد في مأوى الحمالين ليهتف بمودة «أهلا بك!» أو «كنا ننتظرك!».

طرقت الأبواب أولاً، ضغطت قبضات الأبواب، تجولت ماراً بالاستوديوهات المغلقة على امتداد الكوريدورات في الطابقين العلوي والسفلي.

لايزال بمقدوري سماع خطواتي، أرى زفيري يتلاشى في القبو الثلجي المتعدد الطوابق الذي آلت إليه البناية. لأمنع فقدان القوة والشجاعة، ربما واصلت حواراً مع نفسي: «لا تستسلم! اصمد! فكر بما قاله صديقك جوزف ذات يوم: النعمة لا تسقط في حضنك.... وكل ذلك في وقت واحد، عندما كنت على وشك أن أنصرف، التقيت الفن في شخص رجل عجوز كان يبدو أنه لا يشبه شيئاً أكثر مما يشبه كليشيه فيلم صامت لفنان. استطعت أن أرى زفيره أيضاً.

لم أعرف المزيد عنه إلا بعد عامين من ذلك. الرجل الذي طلع علي ملفعاً برداء خارجي أسود مع شال أسود حول عنقه وقبعة لبادية سوداء عريضة الحواف على رأسه كان يبدو في منتصف الخمسينات من عمره. كان اسمه هو إنسلينغ، كان بروفسوراً للفن وكان بإمكانه أن يتكل على

Twitter: @ketab_n

مزايا التقاعد الكاملة. ربما كان هناك ذاهباً إلى مرسمه، حيث كانت تنتصب أشكال متجمدة، عارية، من الجنسين، بيضاء بشكل رهيب وبالحجم الطبيعي من الجص الباريسي. مع أنه ببساطة ربما أراد أن يستبدل برد شقته ببرد الأكاديمية.

«ما شأنك هنا، أيها الشاب؟» استفسر على الفور.

«أريد أن أكون نحاتاً»، قلت من غير تفكير. أو هل قلت شيئاً من قبيل: «قررت أن أكون فناناً»؟

امنحوني لحظة لأعيد التفكير، لأستشير البصلة. فالقضية في هذا المفصل الحرج كانت ما إذا كنت أتصرف أم أكف عن ذلك. لا، أن أكون أكثر أو لا أكون. ما الذي تقوله البصلة على قشرتها المتعرقة؟

ربما أثقلت الشخص الملفع كله بالأسود بمعرفة الفن المكتسبة من بطاقات السجائر في أيام شبابي، لكن بغض النظر عن كيف كنت غالباً ما أستحضر لقاء الدرج يجب أن يكون مجمداً بشكل دائم، فإنه لا يقدم أية اقتباسات. كل ما يمكنني سماعه هو الرد الرصين للبروفسور، «أغلقنا بسبب نقص الفحم».

في ذاك الوقت كان ذلك يبدو نهائياً. لكن شخصاً ما، هو أنا بالتحديد، رفض أن تثبط همته أو يتم التخلص منه، إذ لابد أنني كررت رغبتي في أن أصبح نحاتاً بمثل هذه الشدة في تلك الغرفة المرددة للصدى، بحيث أن البروفسور، الذي لا يمكن سوى وحدهما للعينين الفتيتين أن ترياه رجلاً عجوزاً، قد آمن ظاهرياً بجوعي.

طرح أسئلة. كان عمري، تسعة عشر، يبدو حيادياً أو مقبولاً. ابتلع مكان ولادتي الشديد الدلالة بلا تعليق ولم يفوت أية همسة حول الدين. إن حقيقة أنني عندما أنجزت في المدرسة رسماً لموديل مع الرسام الفروسي المشهور فريتس بفوله Fritz Pfuhle، الذي كان يقدم دورات

Twitter: @ketab_n

مسائية في معهد دانتسيغ للتكنولوجيا، لم تظهر للعيان كثيراً بوصفها a-ba. فهو لم يكن مهتما بسماع شيء حول نهاية خبراتي الحربية الأكثر من كافية في حينه. و ـ من المحتمل ـ لم يطرح أية أسئلة حول الأبيتور، الامتحان الذي يفتح كل الأبواب.

بدلاً من ذلك أعطاني تعليمات واضحة ـ اتجه يساراً، ثم يميناً، ثم تابع على الجانب الأيمن من الشارع ـ إلى مكتب هيندنبورغاله المجاور لأجل التشغيل.

أخبرني أن علي أن أتمرن كبنَاء حجر وكنحات حجر. كانت مهنة غير مرغوبة للعمل. فقد كان ثمة طلب دائم على بلاط الأضرحة.

ختم، المتنبئ الأجرودي بالمستشار المهني، بالترنم قائلاً: «حالما تنهي تدريبك، أيها الشاب، يمكنك تقديم طلب القبول. عندئذ سنحظى بالفحم بالتأكيد».

لا «إذا» ات ولا «لكن» ات. فأنا، الذي كنت منذ نهاية الحرب أجفل من أية أوامر باستثناء نصائح العريف الذي يحمل ندوب المعارك، أنا، ابن الحرب المحروق بشكل سيء وبالتالي كنت مدوزناً على التناقض، أنا، الذي تعلمت مع مرور الزمن أن أحترم أي وعد وكل الوعود، أنا ـ أو أياً كنت في ذاك الوقت ـ اتبعت توجيهاته، وإن ليس بشكل أعمى. كانت كلمات المتنبئ قد زودتني بالطريقة الوحيدة للتقدم، وربما لم يكن بإمكانه أحد أن يجادلني خارج ذلك. هو تكلم، وأنا مضيت.

أوه، لو كانت لدي مثل هذه التوجيهات الواضحة لأعطيها لأحفادي اليوم، عندما يسألونني، وقد أنهوا للتو أو على وشك أن ينهوا المدرسة عن أي طريق سيسلكونه: «تأكدي من فعل ذلك، يا لويزا، قبل أن...». «سواء اجتزت امتحان الأبيتور أم لا، يا رونيا، أنت..». «لوكاس وليون، نصيحتي لكما..». وكذلك، يا روزانا، لو بدأت لاحقاً...».

Twitter: @ketab_n

بأي حال، في خلال نصف ساعة كنت قد نجحت في تدبير وثيقة رسمية بالعناوين المكتوبة بخط اليد لثلاثة أعمال قص حجر كانت كلها، بالنظر إلى زبائنها، تقع في جوار المقابر البلدية. لم يكن ثمة شيء بيروقراطي في العملية. لم تكن سجلات المدرسة مطلوبة.

الذاكرة متقلبة المزاج بشكل غريب: الثلج يذوب فجأة، الصقيع يضعف؛ انقطاعات التيار تنتهي، والترامات تسير مرة أخرى.

قررت أن أتعلق بأول شركة ذهبت لرؤيتها، قرب المقبرة الغربية، لأنني وجدت في ورشة الأستاذ يوليوس غوبل وجدت نحاتاً عجوزاً اسمه سينغر ينحت تمثالاً عضلياً بشكل رائع للمسيح برأس يلتفت يساراً. كان المسيح جزءاً من نقش نافر على جدار حجري عريض وهذا ينطبق على الحياة لدرجة أنك لا يمكنك أن ترفع عينيك عنه.

لكن لم يكن يسوع الديابيزي الرياضي هو الذي جذبني بقدر ما كان مستقبل تعلم الحرفة من نحاته. قلت نعم حتى رغم أن غوبل، الذي كان يرتدي ملابس رسمية بدلاً من زي النقابة ونادراً ما كان يمد يده إلى حجر أو إزميل، أوضح أنني لن أفعل شيئاً سوى العمل بالخط المستقيم في أثناء المراحل المبكرة من تدريبي.

إن غوبل الذي كان يبدو أكثر شبهاً ببائع بلاط أضرحة عذب الحديث منه بأستاذ معمار، أظهر للحرفي المستقبلي المنتجات الجاهزة المصفوفة أمام المؤسسة بانتظار الزبائن المفجوعين. كان ثمة متدرب يكنس قلنسوات الثلج الذائب لتوه عن قممها.

كانت أسماء الموتى وتواريخهم لما تأت بعد. وكانت الأسعار تختلف وفقا لكون [البلاط] كامداً أو لماعاً إلى عالي اللمعة، ارتفاعه متر، ذا شكل وسادي، أو العرض أكبر من الطول. لم يكن المحرومون الذين جاؤوا كي يشترو يملكون أكثر من خط غوبل بتصرفهم: كانت مؤسسته، بتفغ

Twitter: @ketab_n

Bettweg، تجاور بضع مؤسسات أخرى، سلعها معروضة بشكل متشابه. كان ثمة شغل ناشط في الصفة الزائلة للوجود البشري، العبارة الملطفة المستخدمة في المهنة للتعبير عن الموت، حتى في أوقات الحاجة.

نظم غوبل لائحة بضروب الرخام والغرانيت وأرانا الاختلاف بين الحجر الرملي والحجر الكلسي. لقد شكا من نقص المادة القابلة للتشكيل وأشار إلى كومة من ألواح الأضرحة المنبوذة في سرير عشبي منمق، نقوشها العتيقة الطراز في حاجة إلى إزالة قبل أن يكون بالإمكان إعادة استعمالها. أشار إلى كل جزء على حدة من أداة باسمه وشكا من أن إزميلاً مسطحاً سويدي الصنع ذا قلب فولاذي معالج خصيصاً، يعرف باسم فيديا، كان غير متوفر على مدى أعوام بسبب نقص العملة الصعبة.

فيما بعد، بعد وقت طويل، عندما تمكنت أخيراً من إخراجه كلمة كلمة من جهازي، كتبت فصلاً بأكمله عن الأدوات كالمطارق وأدوات الزخرفة، وأزاميل البنائين، وعن الرخام السيلزي والغرانيت البلجيكي، والترافرتين والديابيز [الدولوميت]. لم يكن بمقدوري أن أفعل ذلك لولا خبرتي المهنية المخيفة نوعاً ما. رغم كل شيء، ليس دم حياة الأدب شيئاً إن لم يكن زراً فالتاً، نضوة ركاب اولان المكشوطة الخالية من الصدأ، والفناء البشري، و، بالتالي، أضرحة القبور المعالجة بالعوامل الجوية.

يجتاز *طبل الصفيح* ـ وهو كتاب أحدثت محتوياته موجات قبل أن ينتهي به المطاف بين غلافين، من اللحظة التي تعلم فيها المشي ـ بشكل ثابت طريق المتجول المستقيم تارة، والملتف تارة أخرى، إلى الفن والسكة الضيقة بين الأدب والواقع، *Dichtung und Wahrheit*.

في هذا الكتاب، على سبيل المثال، حررت كورنف، الصحفي الكبير، من خدمة غوبل ووضعته في ورشته التافهة بحيث يمكنه أن يري البطل الأحدب لروايتي الأولى كيف يأخذ لوحاً خشناً لكنه مطواع من الحجر

Twitter: @ketab_n

ويحوله إلى نصب مصقول بارتفاع متر فوق قبر فردي باستعمال أزاميل مستقيمة الحواف مدببة ومسننة، وإزميل مقعر. البطل الثرثار، أوسكار ماتسيرات، الذي صار يمقت المتاجرة في السوق السوداء كوسيلة للعيش، متلهف للتعلم كما كنت آنذاك، عندما بدأت تدريبي، وإن كان ذلك بدون إجهاد النفس وتجارب الحياة الأخرى الجديرة بالرواية.

لا يعرف المرء أبداً ما الذي سيصنع كتاباً. على سبيل المثال، إن تحويل الحياة المعاشة، الحياة في شكلها الخام، إلى نص يخضع لتنقيح دائم ولا يصل إلى الاستقرار أبداً إلا بين غلافين، يمكن أن يأتي من لوح ضريح ينتمي إلى كومة قبيحة من ألواح الأضرحة المطروحة جانباً، التي مضى زمنها. لأن الحرفي الأستاذ غوبل هكذا أرادها، فإن النقوش المحفورة عميقا، ذات الشكل الإسفيني كان يتعين إزالتها جذرياً بحيث لا يحتوي وجه الحجر أي أثر لإنسان اسمه، مثلاً، فريدريش غيباور، ولد عام 1854، توفي عام 1923. عندئذ خدمت أدوات مختلفة لتحويل الدولرايت إلى سطح لماع يمكن فيه حفر الاسم والتاريخين الذين يشيران إلى فترة حياة جديدة بالكتابة المسمارية، الأبدية إلى أن ينقضي مرة أخرى التشريع المقرر رسمياً للتحديدات. يصبح الحجر المنقوش القابل للتجديد هو الأساس للمدة المحددة لحياتنا التالية. الأسماء تتنقل، فالنقوش - مثل: «الموت هو البوابة إلى الحياة» - لا داعي لإزالتها، لمسحها.

كما وصفت التداخل بين المادة المعتبرة ميتة والمادة المعاد إحياؤها، كذلك كان بمقدوري أن أخوض في التداخل بين أشخاص من لحم ودم. أما الآن فدعوني أحصر نفسي بشخص واحد، رجل رحلتي كورنف، رغم أنني غير متأكد مما كان اسمه حقاً. الشيء هو أنه كان يعاني من البثور. كان عنقه معرضاً لها بشكل خاص وكان محفراً بندوب سميكة. في كل ربيع، وبالتالي في ربيع 1947، ظهرت لديه تجاويف بحجم بيض

Twitter: @ketab_n

اليمام يمكنك حتى أن تشعر بها بالنظر إليها ويمكنها أن تنتج ملء كأس شنابس من القيح. حالما بدأت البثور تطفح، كان المتدربون الوقحون يستعرضون قواهم صاعدين نازلين البيتقْغ وهم ينشدون، بدلاً من «جاء الربيع ثانية، الفراق مؤلم»، «جاء الربيع مرة أخرى، كورنف يتألم».

أعلم علم اليقين أيضاً أن غوبل، الذي تدعى شركته فوبل في الرواية، أعلن اسم المشروع بالأحرف الكبيرة على لافتته. إنه رجل أعمال أكثر من كونه مهنيا، فقد كان مساعدا بعد بضعة سنين في إعطاء عدد من الأبنية الجديدة واجهات الترافرتي والأرضيات الرخامية بمساعدة منشار حجر كان قد اشتراه في هولتهاوزن المجاورة. إن صعوده السريع في أثناء المراحل الأولية للمعجزة الاقتصادية من شأنه أن يصنع رواية مثيرة للاهتمام.

عندما وقعت أوراق التمرن، انجذبت إلى شركة غوبل لسبب آخر: بالإضافة إلى الراتب الشهري المضحك البالغ مئة مارك، وهو نفس المبلغ الذي كان يدفعه كورنف التافه البخيل لمتدربه اوسكار، وُعدت بحساء لحم وخضار كاف مرتين في الأسبوع، مع حصص غذائية ثانية مكفولة.

ستطهو زوجة غوبل حساءات متبلة بمهارة في البيت المجاور للورشة. أتذكرها كمطرونة بعينين بقريتين ذات تاج من الضفائر على طريقة قائدة نساء الرايخ. كان ذلك يبدو حسناً عليها. رغم كونها بلا أولاد، فقد استحقت صليب الأم الذهبي الذي كان يمنح في الأزمنة القديمة للأمهات ذوات الأعداد الكبيرة من المواليد، كانت شديدة الاهتمام بحاجات الذين يكونون على مائدتها.

عند بيع ألواح الأضرحة إلى فلاحين من الضفة اليسرى للراين، كان غوبل يشحن عشر كيلوهات من البقوليات، وضلعاً من لحم الخنزير، وبضع دجاجات غير منتوفة علاوة على السعر المقبوض نقداً. مقابل

Twitter: @ketab_n

ضريح مزدوج من الحجر الرملي من نوع ماين ريفر كان بإمكان السيدة غوبل أن تتوقع نعجة، تنتهي أضلاعها وكرشتها المترهلة في حسائها. ولوح ضريح طفل بحجم الوسادة يجلب إثنتين من إوزات عيد القديس مارتن، اللتان تذوقنا منها القطع الصغيرة بشكل خاص ـ الجناحان، العنق، القلب، المعدة ـ في مرق دسم.

أطعمتنا جميعاً، كل من ابتلع غبار حجارة الورشة: ثلاثة متمرنين متوعكين، زوج من الرحالة السيليزيين شقيقان تخصصا في نقش النصوص، الرحالة الكبير كورنف، النحات سينغر، وأنا، المبتدئ الواثق بنفسه الذي نصحه أحد الأخوين السيليزيين فوراً بألا يكون مغروراً بنفسه، ليس كفنان على الأقل.

فيما بعد حكى لي عن برسلاو، التي لم تتضرر في البداية، ثم قاتلت بشراسة في نهاية الحرب، ثم دمرت كلياً. كان ما تأسف عليه أكثر من الموتى غير المبلغ عنهم الذين تم التخلص منهم من قبل طواقم التطهير في مقابر جماعية هي الفرصة المفوتة لصنع ألواح أضرحتهم.

كان الأخوان السيليزيان يعرفان أدبهما. إذ كان بمقدورهما أن يلقيا قصائد قصيرة خاصة بالأضرحة [إبيغرامات] من تأليف أنغيلوس سيليزيوم وينقشانها في الحجر: كن للروح صادقاً، لأنه عندما سيفنى العالم وتفنى الثروة، يقاوم الروح.

هكذا أصبحت متمرناً مع شركة غوبل وشركائه. كان السؤال آنذاك هو أين أسكن. كانت حقيبة معدات التخييم وجراب مؤونة الجندي المخلص يتكلمان مجلدات حول تشرد المتدرب. لكن بما أن أثراً من كاثوليكية أمي كان لازال عالقاً بي، وكان بمقدوري أن أسمي الكنيسة الحقيقية الوحيدة باسمها عندما سئلت عن ديني من قبل الهر غوبل، فإن المساعدة سرعان ما كانت في الطريق. فقد أطلق نداءاً من مكتبه إلى

Twitter: @ketab_n

الله الأب ظاهرياً، وكونه قد زكاني بوصفي مريدا للديانة، فقد أمن لي، على الفور، مكاناً للنوم، إن لم يكن في الجنة فعندئذ في فرعها المحلي، دار إحسان الكنيسة، في مقاطعة بلدة رات.

من موقف ترام بيتفغ، حيث يوجد، كما أشرت، عدد من مؤسسات قص الحجر المتاخمة لبعضها البعض، بما فيها شركة موغ، التي تخصصت في الحجر الرملي والبازلت وتظهر في رواية *طبل الصفيح* تحت اسم سي. شموغ، كان بيت المستقبلي ضمن مدى سهل بالترام: كان علي فقط أن أبدل في شادوفبلاتس. كان كما لو أن ملاكاً حارساً قد هبط، بفضل تدخل أمي، ونظر إلى كل شيء دون أن يتعين علي أن أرفع إصبعاً.

عند هذه النقطة تقدم الذاكرة عروضاً مجانية بالدزينة ـ فقد حدث الكثير في وقت واحد ـ وتترك الاختيار للراوي: هل سألتزم بقص الحجر أم أجري عبر حياتي الجوانية قطعة قطعة؟ هل هذا هو الوقت للقيام بمسح لمقابر دانتسيغ استباقاً لروايتي القصيرة *نداء الشرغوف*، أم هل يعقل أن أنطلق مباشرة ؟

كانت دار إحسان دوسلدورف ـ رات، غير البعيدة عن منشأة مانسمان المقصوفة بشكل رهيب، يديرها الفرانسيسكانيون. كان أبوان أو ثلاثة آباء ونصف دزينة من الرهبان يشغلون مؤسسة كانت ترعى فيما مضى الحرفيين الجوالين، ثم باتت شيئاً فشيئاً ترعى المشردين والعجائز الوحيدين. يقال حتى إن القساوسة قد آووا قاتلاً تسلسلياً اسمه كورتن في أثناء العشرينات. وبسبب الحاجة إليه لم يتم إغلاقه أبداً، مجمع الأبنية، الذي نهض من الحرب سالماً بشكل إعجازي، لا يزال قائماً فقط بجدران واطئة وسياج، قد بقي حياً بعد كل تغيير للنظام، يظل معتزلاً فعلياً للأعمال الخيرة: في السلم، كما في الحرب، كان ممتلئاً على الدوام.

Twitter: @ketab_n

كان رئيس المؤسسة هو الأب فولغنتيوس. كان في منتصف العمر، يرتدي رداء، وكان لديه نظرة فظة، لكنه بدلاً من الاستفسار مني حول منظومة معتقدي، كان ينقب في صندوق ملابس مستعملة عتيقة: ظن أن الوافد الجديد، الشاب باللباس العسكري المصبوغ، ينبغي أن يمتلك مجموعة من الملابس المدنية ليرتديها. أنا أيضاً كنت في حاجة إلى أفرول لائق من أجل ورشة غوبل: كان الصبي المقرن قد سدد لملابسه السرية هزيمة شديدة أكثر مما ينبغي.

كان مسموحاً لي أن أجهز نفسي من الرأس إلى القدم. حتى إن رئيس الدير انتشل سروالاً داخلياً وقميصين من الصندوق لكي أتمكن من التبديل بشكل منتظم. ثم كان ثمة كنزة من الواضح أنه حاكها من نهايات متعددة الألوان من الصوف لكنها كانت تدفئني لوقت طويل، طويل. أخيراً وليس آخرا، فرض الأب فولغنتيوس علي ربطة زرقاء مع نقط بولكا حمراء: «لأجل أيام الأحد»، على حد تعبيره، في تلميح صريح إلى إمكانية حضوري قداس كنيسة الإحسان.

كل ذلك كان ملائماً. فيما يتعلق بصورتي الذاتية الجديدة، فلا بد أنني قد بدوت خرافياً غير قابل للتصديق، لأن ما أراه عندما تنفتح ذاكرتي مثل باب خزانة ملابس ليس سوى سروال مكوي من أجل أيام العيد وسترتي الأولى بعد الحرب ـ مع نمط التطريز المسنن الواضح.

كان مهجع المبنى الرئيسي، الذي يدين بسلامته إلى الممارسات المعمارية لثمانينات القرن التاسع عشر، في أحسن الأحوال تنويعا على المألوف. فقد كان فرش نومي، مثلما كان عندما كنت احتياطياً في سلاح الجو، ورجل خدمة العمل، ورامي مدفع دبابة، وأسير حرب، وأخيرا فتى مقرنا، هو الطابق العلوي من سرير معلق. كان السرير واحداً من خمسة أسرة في غرفة بلا نوافذ، كانت، كما بات واضحاً في المساء،

Twitter: @ketab_n

مأهولة بطلاب ومتدربين إما أصغر مني قليلاً أو أعمر مني بسنوات قليلة. وكانوا، مثلي، يتحرقون إلى الفتيات ويتحدثون بلا نهاية حول النساء وصفاتهن الجسدية. في الأيام الأفضل حالاً كان من الممكن أن يصطحبوا سيدة شابة راغبة أو أخرى إلى غابة غرافنبرغ المجاورة، لكن في شتاء 1947 كانت الغابة، مثل كل شيء في الجوار، متجمدة بشدة.

وبالمناسبة، كانت الدروب التي تقطع تلك الغابة تؤدي إلى المصحة حيث سيسأل مريض بعد عدة سنوات ممرضه الذكر، برونو، من أجل خمسمائة طلحية من الورق البريء، وهو طلب كانت له تبعاته.

بعد غرفتنا،التي كانت بلا نوافذ لأنها محصورة في منتصف المبنى ولا تخلو أبداً من رائحة الشبان، مع أنها أنيقة ودافئة، كانت الصومعة لخدمة أخ، نسيت اسم راهبها، رغم أنني احتفظت بكل ملمح من ملامح إطاره الطويل الهزيل، المندفع دوماً إلى مكان ما في سلوكه.

كنا نتطلع إليه كظهور ملائكي: حتى عندما كنت أراقب أكثر العمليات دنيوية ـ توزيع حصص الخبز ـ عيناه، الحمراوان دوما، تبدوان أنهما تحدقان في مريم العذراء. كان لديه أيضاً حلقة مفاتيح تتدلى من حبل حول وسطه تعلن عن روحاته وغدواته من زاويتين بعيدتين. لم أره جالسا أبدا. كان على الدوام ناشطاً لا يكل. كان يجري هنا، ويجري هناك كما لو كان يرد على مكالمة. لا أحد كان يعرف كم عدد الأقفال التي يشرف عليها.

هذا الراهب، الذي كان يبدو خارج الزمن بحيث لا يمكننا أن نحدد له عمراً، أبقى عينا غير ملحوظة إنما ليست ودية ليس فقط علينا، نحن الذين كنا محرومين من «الزائرات» عن طريق لافتات مثبتة بالمسامير على أبوابنا، بل أيضاً على غرفة كبيرة مليئة بالرجال المسنين الدائمي الصفير، كأن عددهم يبلغ المئة، وإن لم يكونوا أقل من سبعين،

Twitter: @ketab_n

سريراً معلقاً فوق الآخر للزبائن المحتضرين الذاتيي التجدد الذين كانوا يؤلفون إرسالية الكاريتاس.

كان بوسعه أن يحدق في المهجع في أي وقت نهاراً أو ليلاً من خلال نافذة تشبه الباب المسحور في صومعته وهكذا يحتفظ بمتابعة ودائعه المحالين إلى التقاعد، سواء كانوا ضعفاء أم فاقدي الوعي، أو تتغلب عليهم بشكل جماعي نوبات السعال، أو يشتبكون في شجار مفاجئ. عندما كنا نتفرق، كنا نسمعه وهو يتحدث من خلال الفتحة، يهدهد الرجال ليناموا كما لو كانوا أطفالاً، إذ يحتفظ تنغيمه بأثر من جذوره الفستقالية.

في بعض الأحيان كان الراهب الذي لا اسم له يدعني أنظر من خلال الفتحة. إن ما كنت أراه، الهشاشة المتنوعة للوجود البشري، قد احتفظ بمباشريته بحيث يمكنني أن أرى نفسي وأسمع سعالي، سعال المدخن، الذي لا يمكن الشفاء منه في واحد من تلك الأسرة المعلقة المائة أو السبعين: حالة خطيرة في رعاية الراهب. وفي بعض الأحيان عندما أزحف خلافاً لكل القواعد تحت الأغطية وأشعل غليوني،كان يوبخني من خلال الفتحة، بشكل لطيف وإن يكن بشكل لافت.

كان الباب المؤدي إلى حجرة طعام المسنين، الذي كان هو وحده من يمتلك حرية الوصول إليه، على الجهة الأخرى من مهجعنا، وكانت النوافذ العالية لحجرة الطعام تطل على باحة تتمتع في الصيف بظل أشجار الكستناء. كانت المقاعد الخشبية / الحجرية تحت الأشجار مشغولة دائماً بالمسنين، الذين كانوا في معظمهم يعانون من السعال الدائم أو الربو.

في كل صباح كان راهبا المطبخ يضعان قدراً كبيرة من عصيدة السبيد على الطاولة في غرفتنا. كانت العصيدة تصنع بالحليب المجفف المسحوق الذي يساهم به الفرانسيسكان الكنديون. رغم الشكاوى

Twitter: @ketab_n

الصاخبة والمتكررة من طعمها المحروق فإنها لم تتحسن. في بعض الأيام لم يكن هذا الطعم يدوم طويلاً جداً. في أيام أخرى كان يعلق بشكل عنيد. لثتاي لم تنسياه أبداً.

بعدنا، كان المسنون يُطعمون عصيدة الصباح. كان راهباً المطبخ يسكبانها بالمغارف من خلال نافذة كافتيريا. كانا، أيضاً، يتكلمان إلى الرجال كما لو كانوا أطفالاً.

أما وقد زودتني دار الإحسان بغرفة رخيصة ومائدة على مدى سنوات، يمكنني أن أعلن أنه وصولاً إلى إصلاح العملة وحتى بعده، الذي غير كل شيء إلى حد كبير، كان فطوري يتألف من عصيدة السبيد والحليب، وشريحتين من خبز الدقيق الأسمر الكامل، وقليلاً من المرغرين [السمن] و، تبعاً لما كان متوفراً، مربى الخوخ أو العسل الاصطناعي أو الجبن الدبق من النوع الذي يفرش على الخبز.

في بعض الأحيان في أيام الأحد وبشكل منتظم في أيام عطلة الكنيسة، مثل عيد الجسد [عيد القربان] كنا نحصل على بيضة مسلوقة أيضاً. في عصر يوم الأحد كنا نتناول رغيفاً باللحم أو لحم الدجاج المحمر المفروم يليه بودينغ [حلوى] الهلام أو الفانيلا. كانت وجبة المساء مشابهة ويمكن نسيانها بالشكل نفسه.

في أيام العمل كان كل طالب في طريقه إلى المحاضرات أو متمرن في طريقه إلى العمل يلتقط قصعة صفيح صغيرة يمكن إغلاقها بعضة، تعرف باسم هنكلمان، تحتوي حصة من الحساء الذي يصعب وصفه بحيث لا يمكن كشف محتوياته.

كان المطبخ يحتفظ ببطاقات الحصص الغذائية، لكننا نأكل كفايتنا؛ البطاقات الوحيدة التي كنا نستلمها هي من أجل الملابس والسجائر.

ذهبت إلى العمل يوماً بعد يوم، ممونا على هذا النحو. بالمقارنة مع

Twitter: @ketab_n

البؤس العام خارج دارِ الإحسان، كنت في هيئة جيدة لكن للحقيقة صار جوعي الثانوي ملموساً، بشكل اعتيادي بإلحاح خاص، في اللحظة التي صعدت فيها على الترام.

كنت سأصعد على متن العربة المكتظة بشكل دائم قرب دار الإحسان وأستقلها، وهي تشق طريقها من موقف إلى موقف، إلى مكان بعيد مثل شادوفبلاتس، حيث كنت أنتقل إلى الترام الذاهب إلى بيلك والمقبرة الغربية.

لم أحظ بمقعد أبداً. كان الركاب شبه النائمين والصاحون، الصامتون والثرثارون، من الجنسين يقفون ملتزين. كنت أدخن، أراقب، أستمع إلى خرخرة لهجة الراينلاند. كنت أشم رائحة الملابس الرثة وأنظر إلى النساء اللواتي كان عددهن يفوق عدد الرجال بسبب الحرب. كنت نصف دافع، نصف مدفوع، أحشر نفسي بين فتاتين صغيرتين، أجد نفسي مقحماً بين امرأتين مسنتين. حتى عندما لم أكن محشوراً بينهما، كان سروالي يحتك بالملابس الأنثوية. مع كل توقف، مع كل إقلاع من الترام، كان الثوب يقترب من الثوب، واللحم يقترب من اللحم تحت الثوب.

تبخرت المعاطف الشتوية والسترات المبطنة، لكن عندما جاء الربيع، كانت الملابس الأرق تحتك معاً. فكانت الركبة تقابل الركبة. الفخذان عاريان، الأيدي تمتد صاعدة إلى الأحزمة، اللصيقة أكثر مما ينبغي.

لا عجب أن قضيبي، الذي كان له عقل خاص به وكان يثار بسهولة، كان إما نصف منتصب أو منتصباً بشكل كامل طوال الرحلة التي تستغرق نصف ساعة. ولم يكن يرتخي عندما كنت أبدل الترامات. فجعل سروالي مشدوداً. ولا حتى تفكيري المركز حول موضوعات حيادية استطاع أن يجعله يرتاح. ولكون الجوع الأول قد أشبع بعصيدة الصباح، فقد تنازل للجوع الآخر. وكان يفعل ذلك يوماً تلو الآخر.

Twitter: @ketab_n

كنت محرجاً دائماً، قلقاً بشكل دائم من أن يلاحظ أحد الشيء المنتفخ ويعتبره إساءة غير محتشمة أو، أسوأ من ذلك، يلتفت انتباهاً ساخطاً إليه.

لكن لم تتضايق واحدة من الراكبات ذوات التنورات، البلوزات، اللواتي كنت أقف قريباً منهن أكثر مما ينبغي. لا واحدة همست باستياء في أذن جامع التذاكر وعيناها مثبتتان علي. وحده صاحب الرغبة المتمردة كان مدركاً للثورة في سرواله الداخلي ولعجزه عن إخمادها.

في ذاك الوقت، بات الركاب يعرفون بعضهم بعضاً بالنظر. فقد كانوا يصلون في التوقيت المحدد من أجل ترام كان على العموم موجوداً في موعده. كانوا يغامرون بابتسامة، ويمحونها بسرعة، ويحاولون مرة أخرى. فكانوا يومئون برؤوسهم، ورغم كونهم لازالوا غرباء، يقتربون أكثر فأكثر.

من قهقهات النساء والفتيات وثرثراتهن، عرفت أو أحسست أنهن كن يعملن في مخازن القسم، أو مقاسم الهواتف، أو المكاتب، أو على القشاط الناقل في منشأة كلوكنر. كنت أشق طريقي بتصميم بين النساء العاملات ونادرا ما احتككت بخادمات المنازل.

عندما جاء الخريف، حطت بي زحمة الصباح بين طالبتين من مدرسة التمثيل، كلتاهما ترتديان الفساتين الزهرية. استمرتا، متأثرتين تماماً وغير منزعجتين من التنصت عليهما، في التحدث حول هاملت وفاوست والمشاهير الراهنين لمسرح دوسلدورف، إليزابيت فليكنشيلدت الشهيرة وحتى ماريانه هوبه الأكثر شهرة، لكن أشهرهم جميعاً كان غوستاف غروينِدغنز، الأستاذ الغامض لفن التنكر، التجسيد لفرع المسرح التقليدي، ومعبودي منذ رأيته لأول مرة على الشاشة الفضية عندما كنت تلميذاً في المدرسة.

Twitter: @ketab_n

شعرت فجأة، وأنا أسمع كل ذاك الهراء، بالجوع إلى الفن يستيقظ بعد الجوع الآخر. لقد جعلني أرغب في الانسجام مع أفكاري حول كتاب غرابه Grabbe بعنوان *الكوميديا والهجاء والسخرية والمعنى الأعمق*، الذي أؤمن بأنه كان جزءاً من مخزون الأدوار المسرحية في ذاك الموسم. لكنني اقتربت بصمت إلى ممثلتي المستقبل، المسطحتي الصدر والنحيلتين كما جعلتهما الأزمنة الفقيرة بالحريرات؛ كانتا، وهما أسيرتي ثرثرتهما الحماسية، غير مدركتين لما كانت تضمره لهما مخيلتي المفرطة النشاط: كلتاهما معاً وواحدة تلو الأخرى.

حاولتا كلتاهما أن تبدوا مثل «غرتشن» غوته أو «كتشن فون هايلبرن» كلايست، وكلتاهما مثلتا شذرات من مونولوجات كانتا ترتجلانها. لقد تمكنتا من الراء الملفوظة بأسلوب فليكنشيلدت، لكنهما كانتا تفتقران إلى السفسطة الكافية لتقليد شخصية هوبه Hoppe، التدفق المخرخر لإلقائها. لم نتبادل كلمة واحدة. فيما بعد رأيت مسرحية *الذباب* لسارتر من إخراج غروينديغنز في مسرح بديل، وظننت أنني لمحت شريكتي في الاحتكاك في الكورس الذي يرتدي أزياء حشرية.

لكن في معظم الأحيان كانت فتيات الهاتف أو مشغلات الهاتف هن اللواتي احتككت بهن واللواتي احتككن بي وسببن لي الكثير من التهيج المسبب للسعادة. بالكاد أتذكر الوجوه، لكن إحدى الفتيات اقتربت منها أكثر مما رمقتها بحيث مرت بي لامبالية. لم تخمد إثارتي الصباحية المنتظمة المستمرة نصف ساعة قبل أن ألتقي وجهاً لوجه بألواح الأضرحة أمام مؤسسات بيتفغ لقص الحجر، بانتظار الأسماء والتواريخ. وبالشكل نفسه، تلاشى الطعم المتبقي للعصيدة المحروقة.

كنت سأسلم علبة هنكلمان مملوءة بالحساء العصي على الوصف إلى زوجة الأستاذ، وستقوم هي بتسخينها في مقلاة من الماء الساخن ظهراً

Twitter: @ketab_n

مع (زوادة) سينغر النحات، وكورنف الرحالة الكبير، ونقاش النصوص السيليزي والمتمرنين السقيمين.

في أيام الثلاثاء والجمعة فقط كنت أغادر إلى العمل بدون علبة هنكلمان. فهذان كانا يومي حساء اللحم والخضار الشهي والمغذي. كان لهما سعرهما الخاص، مع ذلك، سعر كان يُنتزع بشكل مباغت بالقدر نفسه مني ومن المتمرنين.

إلى جوار المنطقة التي تخزن فيها الحجارة كانت توجد سقيفة حيث كانت زوجة الأستاذ، التي تنحدر من سلالة فلاحية من الضفة اليسرى للراين، والعاشقة الكبيرة للحيوانات، تربي خمس دجاجات من صنف ليغهورن وعنزة يفترض أن تعطي الحليب وتحتاج يومياً إلى مؤونة يومية من العلف الأخضر. كان للعنزة فراء أبيض أشعث وضرع قرمزي. لم يكن تعبيرها الوجهي خالياً من العجرفة. أنا غير متأكد من أنها كانت تعطي الحليب، لكن في اللحظة التي أسأل فيها البصلة أرى ضرعاً مليئاً حتى الانفجار يتطلب أن تحلبه زوجة الأستاذ.

يوما بعد يوم، كنت أنا والمتمرنون نتناوب بالدور على سوق العنزة المربوطة بحبل إلى بقعة توجد عليها مؤونة من الأعشاب. لم يكن ثمة علف أخضر لتناوله بين ألواح الأضرحة المعروضة، لأن دجاجات اللغهورن كانت تهيمن على المكان الذي أعطاني في نهاية المطاف مادة لقصيدة بعنوان «دجاج في المقبرة المركزية» ـ لكن كان ثمة الكثير من الأعشاب على الجانب الآخر من السياج.

عندما رُعي كل ما هو أخضر على امتداد بيتفغ، وصولاً حتى القراص، كان المرج الوحيد المتبقي هو سكك الترام المتجه نحو فرشتن وتباعاً حتى هولتهاوزن. كان يوجد ما يكفي لأيام على امتداد الجانبين.

كان المتمرنون، أو الصبيان، كما كان يطلق عليهم كورنف، سعيدين

Twitter: @ketab_n

تماماً بالنظر إلى التزامهم حتى لو حرمهم ذلك من جزء لا بأس به من استراحة الغداء. كان أحدهم، وكان صبياً يلبس نظارتين، قد قضى وقتاً عصيباً في شغل الحجارة، وانتقل لاحقاً إلى مكتب البريد، حيث يقال إنه قد صنع لنفسه سيرة مهنية، يبقى في الخارج أطول من المطلوب، أطول بكثير من الاستراحة، بحثاً عن الطعام.

أما أنا، فكلما كان علي عمل المزيد لأجل العنزة، التي كان اسمها غينوفيفا، كلما غضبت. بسببها ذاتها، وبسبب المتفرجين. أما السبب فهو أن أبنية العيادة البلدية كانت تمتد على طول السكك خلف صف من الأشجار. ليس من غير المألوف، رغم كل شيء، أن تكون المستشفيات واقعة في جوار المقابر ومؤسسات قص الحجر. كان ثمة دوماً سيل نشيط من حركة المشاة من البوابة الرئيسية وإليها، وكانت تضم أكثر من الزوار. فالمرضات كن يمشين تحت الأشجار، وحيدات أو في مجموعات بهيجة. آه، كم كن يغردن. كانت رؤيتي، شاباً مع عنزة عنيدة، تستثير أكثر من مجرد ابتسامة.

كان علي أن أتحمل كل أنواع التعليقات، الساخرة في معظمها. إن ثياب العمل، بمادتها الخشنة، الملوثة، والدابة العنيدة، التي تشد دوماً في اتجاه آخر وهي تثغو بملء رئتيها، قد تسببت في ضحكة علي، أو على الأقل هذا ما ظننته. كنت أجتذب التعليقات اللاذعة بالطريقة التي اجتذب بها القديس سباستيان السهام.

خجلت أكثر مما ينبغي في حينه أن أرد بالتهكم على المرضات في لباسهن الأبيض المنشى. بدلاً من ذلك، احمررت خجلا فحسب، وفي اللحظة التي اختفت فيها الألسنة الشريرة عن النظر، قمت برفس العنزة غينوفيفا.

عندما تعتقد أنك قد تم التشهير بك، فإنك تتوق إلى الانتقام. في العادة،

Twitter: @ketab_n

يحدث ذلك بشكل تافه أو كما في حالتي، يتخذ أشكالاً غير فعالة، كالإهانات المبلوعة والشتائم التي لابد أنها كانت ترافق الصياحات.

كان لغزواتي في وقت الظهيرة التبعة التالية: بطلي أوسكار ماتسيرات، الذي كان في حوالي الوقت الذي كنت فيه خارجاً أطعم العنزة يعاني من آلام ممضة ولذلك تم إدخاله إلى العيادة البلدية، ينجح في أول محاولة في جعل إحدى المرضات القائمات على رعايته توافق على تحديد موعد، وسرعان ما أطلق سراحه عندما عولج، ثم اصطحبها لتناول القهوة والكعك. لم يكن بمقدوري حتى أن أجبر نفسي على التكلم إلى ممرضة، ناهيك عن الخروج معها. كنت مجرد الصديق الحميم التراجيكوميدي لعنزة عنيدة ذات ضرع متهدل.

عرف أوسكار كيف يصوغ معظم الكلمات؛ كنت أبدو دائماً أفتقر إليها. إنه، هو الذي كان بمقدوره أن يسوق حتى نوبة غمه، كان يمتلك دزينات من الأفكار المختزنة؛ كل ما كان بمقدوري أن أطلع به ايماءات خرقاء وبالتالي مضللة. إن أقدم الحيل في فن الإغواء كانت تتدفق بسلاسة من شفتيه؛ كنت أسمع وأنا أبلع، أبلع الكلمات.

آه لو كنت وقحاً مثل اوسكار! لو كنت أمتلك فطنته!

لم يكن مفيداً. لم يسعفني أنني كنت أبدو مطارداً بالحظ السيئ. لأنني في المرة الوحيدة التي امتلكت فيها المزحة جاهزة، من أجل ممرضة ذات وجه شبيه بمادونا، كانت خارجة تتمشى وحدها، وبعض كلمات التملق في جعبتي، بدأت عنزتي، ألبطروسي، تتبول بصوت عال وطويلاً.

ماذا أفعل؟ أنظر في الاتجاه الآخر؟ ألتمس العون في ألواح الأضرحة التي تغطي الشارع المقابل للسكك؟ أتظاهر بتصديق أن ذلك لم يكن يحدث؟

كل ذلك لا طائل تحته. استمر بول العنزة الحلوب واستمر. لقد صنعنا ثنائياً معاً.

Twitter: @ketab_n

كان من الممكن أن أشعر بالدم يندفع إلى وجهي حتى الآن لولا ذكرى أخرى، ذكرى قادرة على إيقاف تدفق بول غينوفيفا: لم يطل الوقت بعدئذ حتى نجحت أخيراً، وإن كان ذلك في ميدان آخر: قاعة الرقص. فكانت صالاتي المفضلة هي الفيديغ واللويفنبورغ. كنت مطلوباً كراقص. والانتصار الأعرج لذاك الشاب الذي صرف من الخدمة للمرة الثانية منذ سنوات قليلة، في شعر رجل عجوز ظن نفسه أعرج بما يكفي من أجل «الرقصات الأخيرة» ـ ولو فقط بطول رقصة التانغو القاتل tango mortale.

عطل نهاية الأسبوع المجنونة بالرقص. في أيام العمل، رغم ذلك، تابعت، تحت توجيه كورنف، ممارسة تسديد الضربة بعد الضربة بالمطرقة الخشبية التي كنا نسميها النبوت، وحفر ونحت السطوحٍ على الحجر الكلسي الخشن والغرانيت البلجيكي. سرعان ما كنت قادرا على صنع ثلم حول قطعة من الرخام السيليزي الكبيرة بما يكفي من أجل ضريح طفل. حتى أنني جربت صنع حافة على شكل البيضة والسهم من أجل حجر ضريح بروفسور فخري.

علمني الرجل العجوز سينغر كيف أستعمل أداة ثلاثية الأرجل تدعى آلة تنقيط لنقل النقطة تلو النقطة من موديل للمسيح على الصليب مصنوع من جص باريس إلى مقادير كبيرة عديمة الشكل من الدوليريت. في حين بقيت أنحت، كانت إبرة متحركة تقيس أعمق وأعلى النقاط على موديل الجسم، عندما كانت الآلة تتحرك إلى الوراء والأمام بين الجص والحجر. لم يكن يتعين حفر السطح فحسب بل تخديده أيضاً لضمان دقة قراءات الإبرة. أي شخص يحاول قص الزوايا سوف يمسك بالجرم المشهود من قبل سينغر، الذي يحدق من فوق نظارتيه. لقد علمني سينغر، الذي نحت تمثال بسمارك في هامبورغ في شبابه، أن أمنح الحجر وجها.

Twitter: @ketab_n

لقد ظهرت لدي تقرنات جلدية [مسامير]: صار جلدي صلباً تحت حديد التنقيط. صارت عضلاتي صلبة أيضاً، وهو ما كان جيداً لأغراض الاستعراض. كنت أبدو مثل عامل يدوي وفي الأعوام القادمة غذيت الاعتقاد بأنه إذا دعت الحاجة، في حالة الارتداد السياسي - على سبيل المثال، عند عودة الرقابة والحظر الرسمي على الكتابة - فقد كان بمقدوري أن أعيل أسرتي كبناء حجر، وهي فكرة استرضتني ومنحتني ثقة بالنفس. لأن مهنة بلاط الأضرحة، كما يعرف الجميع، ناشطة حتى في أسوأ الأزمنة. الموت لا يأخذ عطلة. كانت معروضات غوبل من ألواح الأضرحة، الفردية أو المزدوجة، مطلوبة على الدوام.

وهكذا مضينا في قص الحجارة، مبتلعين الغبار الذي يتصاعد من الغرانيت البلجيكي، ذي الرائحة الكبريتية مثل فساء رجل عجوز. كانت المجلخة تؤمن اللمعة النهائية. وفي نهاية الأسبوع يهدأ الغبار: فيوما السبت والأحد كانا للرقص.

هكذا بدأ الأمر. كان الراهب الذي يشرف على العجائز وعلينا، شبان الأسرة [التخوت] المعلقة، الراهب المندفع حولنا برداء مرفرف ومفاتيح مخشخشة، يقف جامداً في الباب المفتوح لصومعته بعد ظهر يوم السبت، يطل بمهابة ورعة عندما كنا نجعل أنفسنا حسني الطلعة.

كنت أنسل في السروال الأسود الذي نبشته من صندوق الملابس المستعملة للأب فولغنتيوس. في غرفة الغسيل، كان الراهب الذي يخدم هناك قد كوى التجعدات الحادة فيه. هذا السروال مع سترة مطرزة تطريزا مسننا منحني مظهر الحارس الشخصي المحترف لامرأة. لسوء الحظ، لم تكن توجد مرآة في غرفتنا التي تضم عشرة أسرة.

علمني طالب هندسة كان متقدماً في العمر، يلائم صورة عريفي لكنه في نهاية المطاف أصبح مديراً لشركة مانسمان، حيث كون ثروة في

Twitter: @ketab_n

الأنابيب في أثناء الازدهار الاقتصادي، كيف أعقد العقدة الكبيرة المتوسطة. كان البعض يمنحون أحذيتهم لمعة مرآتية، فيما كان الآخرون يلمعون شعورهم بماء السكر. صار الجميع أنيق الهندام.

وفي أثناء ذلك كله سيقف راهبنا المبجل هناك، ويداه في كمي ردائه، يطل بلا حراك، إلى أن نتداعى إلى قاعة الرقص كما لو كنا قد اكتشفنا للتو كنزاً مدفوناً.

أمضيت وقتاً سلساً: فقد كنت راقصاً لوقت طويل كما أتذكر. في احتفالات لاكنسية شتى في تسينغلرز هوهه أو كلاينهامرباك أو مطعم حديقة لانغفور الشعبية، كنت أذهب هناك قبل الحرب وبعد بدايتها، ليس فقط كمتفرج ومدون ملاحظات لأجل الأعمال [الروائية] المستقبلية. كلما تجمعت البرجوازية الصغيرة المحلية بالملابس المدنية أو بلباس موحد بني - برازي للنزول إلى باحة الرقص، كان الفتى ذو الثلاثة عشر عاماً الذي كنته في ذاك الوقت، بقيادة عرائس الجنود المهجورات، يتعلم الرقص: الراينليندر، الفالس الإنكليزي، الأحادي الخطوة، الفوكستروت، وحتى أنني تعلمت التانغو، ولذلك اعتبرت مرغوباً على باحات الرقص لسنوات ما بعد الحرب. إن فرقة ديكسيلاند التي عزفت مقطوعات «الصبي ماسح الأحذية» و«خرقة النم» و«Hey Bob a Rebop» كان بالإمكان أيضاً إقناعها بإقامة حفلة تانغو.

كان ثمة وصلات رقص أيضاً في كل أنحاء المكان: في أقبية بلدة دوسلدورف القديمة، في غيريزهايم، وفي غرافنبرغ المجاورة، وهي ضاحية تقع على حدود الغابة التي اكتسبت مصحتها فيما بعد شهرة معينة بفضل مريض مصاب بهوس الذاكرة، والتي كانت دروبها المتعرجة يجدها الراقص المفرط الحماوة منعشة عندما يرافق عاملة الهاتف هذه أو تلك إلى مقعد الدعوات، أو البقعة الطحلبية المرغوبة كثيراً من الأرض.

Twitter: @ketab_n

بدل شركائك وعصا الرجل الضرير ـ ذكريات اللمس الغامضة المفقودة في ثقوب أكثر سواداً. لا أسماء لأسميها سوى هلما كبيرة الثديين، التي طلبت مني أن أرقص في اللوفنبورغ ذات ليلة عندما انطفأت الأضواء وأعلن عن اختيار السيدات، فالتصقت بي بعد رقصة فوكستروت.

كان زمناً مجنوناً بالرقص. فنحن، المهزومون، لم يكن بمقدورنا الحصول على ما يكفي من تحرر الاثني عشر باراً الذي كان يقدمه المنتصرون علينا عبر الأطلنطي. «لا تحبسني..» Do not fence me in

كنا في حاجة للاحتفال ببقائنا على قيد الحياة ونسيان مشاهد الحظ التي كانت الحرب مسرحاً لها. ما كان مخجلاً أو مخيفاً تركناه يكمن تحت السطح. الماضي، والتلال الناهضة فوق قبوره الجماعية، كانت تسوى أيام السبت والأحد بباحة الرقص.

لم أستطع إلا بعد سنوات عديدة أن أجعل شاغل مصحة غرافنبرغ يرقص خطوة واحدة على لحن «روزاموندە»، بحيث كان مسموحا لأوسكار كان أن يسمي الأشياء التي أغفلتها بصمت بأسمائها، ليصوغ في كلمات ما كنت قد كبته بوصفه مرهقاً. مع ذلك حتى الآن، بعد نصف قرن، تأتي الأشياء المرعبة لتطرق الباب، تستأذن بالدخول.

تقوم الذاكرة على الذكريات، التي تعود بحد ذاتها إلى الذكريات. في هذا، تشبه الذاكرة البصلة التي تكشف، مع انسلاخ كل قشرة على حدة، شيئاً منسياً منذ زمن طويل، وصولاً حتى الأسنان اللبنية للطفولة المبكرة. ثم تأتي السكين فتقوم بوظيفة أخرى: تقطيع القشور، تستثير الدموع التي تغبش البصر.

مع ذلك لا مشكلة لدي في تصور نفسي على المقاعد الخشبية تحت أشجار الكستناء التي تظلل باحة دار الإحسان. أجلس هناك في كل مرة مع رجل عجوز مختلف، أحاول أن أرسم وجهه على الورقة. أرسم

Twitter: @ketab_n

بقلم الرصاص خطوطاً عامة /اسكتش/ للعينين الضبابيتين، الجامدتين والمجاري الدمعية، والأذنين الجافتين، الباليتين، المفتتين حول الحواف، والفم المتذمر بشكل دائم. أرسم الجبهة، حقلاً مخدداً، البقعة الصلعاء محجوبة بكتلة من الشعر الأشعث، والجلد النابض بلطف فوق الصدغين، والعنق، الجلد المجعد اللماع.

بالبريق الخاص للرصاص الناعم يمكنني إعطاء نوعية ثلاثية الأبعاد للفك ومتن الأنف، الشفة السفلى المتدلية، الذقن المتراجعة. التجاعيد العرضانية والشاقولية تشكل الجبهة؛ خطوط قلم الرصاص تنتفخ وتختفي في الظلال خلف عدستي نظارتيه. فوهتا البركان: منخران يبرز منهما شعر رمادي. رمادي لا نهاية له يناغم بين الأسود والأبيض: عقيدتي.

منذ الطفولة كنت أرسم بقلم الرصاص. لقطات قريبة للجدران الآجرية القاسية. المحاة في اليد إلى أن تتفتت إلى لاشيء. فيما بعد، بعد ذلك بوقت طويل، تغنيت بمدائح ذلك، بانتظام قلم الرصاص، في دورة تدعى «المحاة والقمر، كلاهما يتضاءلان».

كان المسنون يجلسون على مقاعد دار الإحسان في نصف بروفيل، منتبهين إلى أمري لإبقاء أعينهم مركزة على شيء. أبقيتهم لساعة أو ساعتين، أصيب خلالهما الكثير منهم بنوبات الربو. كنت أسمع تنفسهم الصافر. في بعض الأحيان كانت ثرثرتهم تعود في خيوطها إلى الحرب العالمية الأولى، فردان، التضخم النقدي. كنت أكافئهم بالسجائر، عملتي الشخصية، التي سيدخنونها بالكامل بعد الجلوس - أو بعد نوبة سعال مديد - إلى آخر مجة. أنا، الذي كنت لا أزال غير مدخن، كنت أملك دوماً المال الكافي لدفع ثمنها. أعطيت الأولوية للرسم من الموديلات الحية وكنت حريصا على ألا استنزف مخزوني منها. في مرة واحدة فقط عرض رجل عجوز ذو جمة متموجة بشكل جامح أن يجلس مجاناً «كرمى للفن فقط»، على حد تعبيره.

Twitter: @ketab_n

كان الفنان تحت أشجار الكستناء، مهما عمل بكد، يفتقد إلى يد مرشدة. فما أعطي لي لأكون قادراً على إظهار عدد قليل من رسوم قلم الرصاص على الورق الخشبي التي رأى مساعد الحجار أنها ناجحة بشكل معقول بالنسبة إلى معلمة الفنون التي كانت تؤدي خدمتها المدنية الإجبارية بعد ستالينغراد فوراً، عندما بدأت الحرب الشاملة. كنت في الرابعة عشرة أو أكثر عندما قدمت فصلاً دراسياً في مدرسة القديس بطرس. في كل يوم سبت كان يتوقع منها أن تتعامل مع مجموعة من الأطفال المشوهين الخرقاء البذيئين الضجرين ظاهرياً، الذين نجح بعضهم في تدوين فروج مشعرة أو لصق أشكال ذات أقضبة طويلة بشكل مضحك على الورق.

لذلك تركت أولئك الكسالى جداً لحيلهم الخاصة، أي للعب السكات أو النوم على طريقتهم الخاصة خلال الفترة المضاعفة؛ أما الباقون فقد أعطيتهم دروساً في المنظور. كان ثمة اثنان أو ثلاثة فقط اهتموا بها، أولئك الذين كنت تشعر أنهم يمتلكون طبقاً فضياً من الموهبة.

كنت أحد أولئك الذين تمتعوا بكياساتها. ليس ذلك فحسب، فقد دعتني لزيارتها في مرسمها في الحديقة في تسوبوت. كانت متزوجة من محام يكبرها في السن كثيراً، كان ضابط تموين وراء الخطوط على الجبهة الشرقية، وكانت تسكن في كوخ محاط بالأعشاب. لا أعرف كم مرة ذهبت لأراها هناك.

بالشورت أو بالسروال الطويل من اللباس الموحد الشتوي لشبيبة هتلر، كنت أستقل الترام إلى غلتكاو عن طريق أوليفا وأسير من هناك، بكل الحدس، إما على امتداد الكثبان أو نزولاً حيث كانت تتدحرج الأمواج، لكن بدلاً من البحث عن الكهرمان وسط عشب البحر الذي يغتسل على الشاطئ، كنت ألتفت يساراً، قبل فيللات تسوبوت الأولى،

Twitter: @ketab_n

مروراً بالأسيجة التي بدأت تزهر للتو أو تمتلئ بثمار الورد، في أواخر الصيف. كانت بوابة الحديقة تصدر صريراً.

كانت من كونينغسبرغ، لكنها في مدرسة دانتسيغ للتكنولوجيا بدلاً من أن تكون في أكاديمية الفن في بلدتها الأم، وجدت معلمها، البروفسور بفوله، الرسام الفروسي المشهور، الذي حضرت دروسه المسائية فيما بعد.

كانت تصفف شعرها سابلاً وقصيراً، بأسلوب العشرينات، ومن نافلة القول إن تلميذ المدرسة، الذي يحمل اسمي كان يمكنك أن تدعوه بشكل بعيد واقعاً في حبها. لكن لم يكن ثمة نظرات مختلسة، لا لمس. اقتربت مني، فتلت رأسي، بطريقة مختلفة تماماً.

على «طاولة التدخين» ـ كانت مدخنة تسلسلية ـ وُضعت، بشكل غير مقصود أو بحكم التصميم، كومة من المجلات والكاتالوغات الفنية عمرها من عمري، أو أعمر، بعضها بالأبيض والأسود، والبعض الآخر بالألوان.

هكذا قلبها تلميذ المدرسة ورأى لوحات محظورة رسمها ديكس وكلي وهوفر وفايننغر، ومنحوتات نحتها بارلاخ ـ العلامة الراهب يقرأ ـ والمرأة الراكعة الكبيرة للنحات لمبروك.

رأيت أعمالاً أخرى أيضاً، لكن ما هي بالضبط؟ كل ما أتذكره هو الإثارة التي سببتها لي، كنت مفتوناً ومرعوباً. فقد كان الكثير منها ممنوعاً، بوصفه «فناً منحطاً».

كانت نشرات الأخبار قد عرضت لمرتاد السينما ما كان الرايخ الثالث يعتبره جميلاً: نحاتين مثل بيكر وتوراك يبزان أحدهما الآخر في إنتاج أبطال من الرخام أكبر من الواقع. ليلي كرونرت، المدخنة التسلسلية، التي كانت تنفرني منها نظرتها الشذراء قليلاً، المرأة الشابة ذات الشعر المقصوص قصيراً والزوج البعيد، معلمتي المحبوبة، التي كانت لديها دائماً لوحة أخرى من لمبروك لتريني إياها لكنها أشارت أيضاً إلى

Twitter: @ketab_n

نحاتين يتسامح معهم النظام مثل فيمر وكولبه ـ خاطرت ليلي كرونرت بأن يبلغ عنها هذا التلميذ الذي كانت ترى أنه لا يخلو من الموهبة. كانت الخيانة هي المعيار. كانت وشاية من مجهول كافية. في تلك الأعوام، لم يكن الطلاب المتعصبون أيديولوجيا يتورعون عن إرسال معلميهم ـ كما تشهد على ذلك حالة معلم اللاتينية المونسنيور شتاخنيك ـ إلى معسكرات الاعتقال.

نجت ليلي كرونرت من الحرب. في أوائل الستينات، عندما كنت أجول في شلسفغ ـ هولشتاين مع ابني التوأمين البالغين من العمر خمسة أعوام، فرانتس وراؤل، وتوقفت في كيل لإلقاء قراءة من روايتي *أعوام الكلب*، التقيت بها وزوجها ـ هو، أيضاً كان قد خرج منها حياً ـ في فلنسبرغ المجاورة في اليوم التالي. ابتسمت، وكانت لاتزال المدخنة التسلسلية، عندما عبرت عن امتناني لها لأجل دروسها الجريئة في الفن.

لو كان بمقدورها أيضاً أن تعطيني لمحات عندما رسمت بالرصاص اللين الرجال المسنين الذين يسعلون، وكنت لا أزال غير مدخن، رسمت الرجال المسنين الساعلين، ودفعت لهم أجرهم بالسجائر...

بعد تسكين جوعي الأول بحساء دار الإحسان الذي لا طعم له والذي ترك مع ذلك طعما متبقيا ومعالجة جوعي الآخر، الذي اشتد مع ذلك بفعل رحلات العمل بالترام، عن طريق شريكات الرقص في عطلة نهاية الأسبوع، بقي الجوع الثالث، شهوتي للفن.

أرى نفسي في المقاعد الرخيصة في مسرح غروندغنز ـ هل كان ذلك العام الذي عرضوا فيه مسرحية *تاسو* لغوته أم هل كان ذلك في العام التالي؟ ـ ومدوخاً بسيل الصور من معارض شاغال وكيرشنر وشلمت وماكه ومن غيرهم؟

في دار الإحسان، لقمني الأب ستانيسلاو ريلكه وتراكل ومجموعة

Twitter: @ketab_n

مختارة من شعراء الباروك، وأوائل التعبيريين. لقد قرأت كل ما نجح في حمايته في المكتبة الفرانسيسكانية عبر الأعوام النازية.

وبمرافقة ابنة مدرس ممكنة البلوغ ـ وكلاهما كانا قد فرا من بونتسلاو معاً ـ روضت شهوتي لكل ما هو مثير للأذن بالإضافة إلى العين على الأقل طوال أمسية في صالة روبرت شومان.

لكن هوسي بالقراءة اقترن بالاستهلاك السلبي للمنتجات الفنية قد صعد جوعي فقط ودفعني إلى إنتاج فن خاص بي.

ألقيت القصائد في الباحة. استقلابي الغنائي يعمل عملاً إضافياً. وبدلاً من العمل باجتهاد أكثر لأجل غوبل صنعت منحوتاتي الصغيرة الأولى بالحجر الكلسي: جذعين أنثويين، رأس فتاة تعبيري. تابعت أيضاً ملء مختمات البليكان بما كان لدى المسنين المصابين بالربو ليقدموه مقابل ورقة التبغ تلو الأخرى من الوجوه الضامرة الأكثر تنوعاً، المندبة، المسفوعة، المجففة. قصيري القامة أم ذوي لحى، العينان ترفان أم تدمعان، فقد كانت هي الوجوه الحقيقية للعصر. كلما أعدت استعراض الزمن، والمقاعد تحت أشجار الكستناء في الربيع الساطع أو الصيف أو الخريف يومض النور في الرؤية مرة أخرى، أراقب نفسي وأنا أرسم على مختمتي تلك الوجوه نصف الصاحية بانتظار الموت.

بما أن نتيجة جهود اللامدخن قد ذهبت هباء، فأنا غير متأكد مما إذا كنت أيضاً أتصور زملائي في الغرفة كموديلات. أو قد يكون الأب فولغنتيوس، رئيس دير دار الإحسان، هو ذو المحيا العابس، الذي يحمل علامات الجدري، أو الأب ستانيسلاو، عاشق ريلكه، محب الجمال الذي كان يدوس برفق ويستمتع باقتباس مقاطع من Die Trutznachtigal، من تأليف الراهب الباروكي شبي فون لانغنفلد، قد وجدوا طريقهم أيضاً إلى مجموعتي. لذلك أتمنى لو كان ثمة صفحة صور عليها راهبنا اليقظ دوماً

Twitter: @ketab_n

كملاك، الذي كانت نظرته تتوقع دائماً حدوث معجزة مريمية. رغم ذلك فإن اسكتشات المسنين هي الحقيقية بين الحشد المفقود من الاسكتشات.

بعد عام مع يوليوس غوبل وكورنف كبير العمال المهرة، وسينغر الحجار وآلة رسمه الثلاثية الأرجل، بعد أسابيع وأسابيع من حساء الخضار وقيادته لغينوفيفا العنزة الحلوب أبعد فأبعد بحثاً عن العشب، كان المتدرب يعتقد أنه قد حان الوقت للانتقال.

بعيداً عن الدابة الثاغية، عن جذوع الجص المثقبة للمسيح الرياضي على الصليب، عن الوضعيات الالتوائية contrapposto للمادونات الرخاميات على الأهلة، عن اللمعة البراقة ـ الممنوعة قانونياً ـ للغرانيت المصقول وعن الورود التي قمت بنحتها في ميداليات على أضرحة الأطفال، لم أكن أريد أبداً أن أرى دجاجة لغهورن أخرى تنقر بين بلاطتي أضرحة.

لقد جذبتني شركة أكبر، هي شركة موغ، في الطرف البعيد من بيتفغ. كانوا يتعاملون بالدرجة الأولى بالحجر الرملي والطوف tuff والبازلت الطري من مقالع ايفل. كان من غير الوارد أن يصنعوا نقوشاً جديدة من أجل الألواح القديمة العملاقة. ما كانوا ليعطوني عنزة لأرعاها.

مع ذلك، لم يكن من السهل أن أقول وداعاً لكورنف وسحره كعامل بارع. في الربيع صببنا بالإسمنت عدداً من الأضرحة الأحادية إلى الثلاثية الأجسام وقواعدها على الأساسات في مقابر تعج بالطيور. ونظرنا أيضاً إلى إعادة دفن الجثامين الراغبة في تغيير القبور. إن العمل معه قد جعل العمل مع الموت أكثر أو أقل قابلية للاحتمال. كان سليط اللسان.

بما أن كورنف قد امتلك الفرصة لاحقاً للدوران بتثاقل حول الرخام والدوليريت مع مساعده أوسكار ماتسيرات طوال الطريق المؤدي إلى جماعة رهبان «شمال فورتونا»، ليشهد إعادات الدفن وليسلم صفائح

Twitter: @ketab_n

هنكلمان المملوءة بحساء لا يمكن وصفه في محرقة المقبرة عند الظهر لكي يتم تسخينها (نصيحة أسداها لي كما أسداها لأوسكار)، سنفترض أننا قد استهلكنا ثيمة بلاط الأضرحة والمقابر، باستثناء ربما ما يتعلق بقضية الأدب والواقع: الذين يفصحون عما في فمهم: من هو الكذاب الأفضل، أوسكار أم أنا؛ من يصدق المرء في النهاية؛ ما هو المفقود هنا وهناك؛ ومن الذي أرشد قلم من.

بفرض أن السيد ماتسيرات لم يكن مستخدماً لمؤسسة موغ، مع ذلك، فإنني آمل الآن أن أتمكن من البدء بالولادة المتأخرة لسنواتي المبكرة دون مزيد من الضجيج.

قد يكون من المسلي أن يمسح المرء قشور بيض أطفال حضانته، فلقاطة الكناسة تظهر في العادة بقايا الأصل المشكوك فيه: تفاصيل المعلم أو الأفكار المنبوذة فيما مضى التي تنتظر أن يعاد إحياؤها ـ على سبيل المثال، الشائعة التي تقول إنني ما إن تركت مؤسسة غوبل بمباركة الأستاذ سينغر حتى انتفضت غينوفيفا بحبلها فأفلتت من المتمرن المسؤول عن حملتها منتصف النهار وأنها بدلاً من الخروج إلى العالم أطلقت ثغاءها الأخير تحت ترام في طريقه إلى بيلك. يقال إن زوجة غوبل، المطرونة ذات العينين البقريتين، اعتقدت أن غينوفيفا رمت بنفسها تحت عجلات الترام بدافع الحزن على فراقي.

في أثناء أشهري الأولى مع شركة موغ شاركت في مشروع مع المتمرنين والعمال المياومين كان المقصود منه أن يعالج أضرار الحرب التي كانت لا تزال ظاهرة جداً في منتزهات المدينة وكذلك في الهوفغارتن، بدلاً من تجميل المقابر المحيطة.

حيث كانت أشكال الحجر الرملي قد قطعت شظايا القنابل رؤوسها أو حولتها إلى أشكال عديمة الفائدة بذراع واحدة، كان عملنا هو تزويد

Twitter: @ketab_n

الإلهة ديانا أو القرغونة ميدوزا برأس مناسب جديد استناداً إلى نماذج فوتوغرافية أو جصية، استعادة الأطراف المفقودة وجناحي الملاك المشقوقين. لكن موغ كانت أيضاً مكلفة بخلق أشكال طفولية جديدة كلياً بأيد صغيرة جذابة، لفائف من الدهن، غمازات فوق المكان، وخصل شعر منمقة. كان السيد موغ المتطلع إلى الأمام قد وجد طريقه بوضوح إلى قلوب أهل السلطة.

وهكذا قضينا أيامنا نصلح أضرار الحرب، نرقع ونرمم. تعلمت من المتمرنين، الذين ينحدر كل واحد منهم من سلالة طويلة من بنائي الحجر، أن طرقة خاطئة من المطرقة على الحجر لا يمكن علاجها إلا إذا بالإمكان إخفاؤها بخدعة ذكية. كنت أدين بالوصفة من أجل المعجونة التي لا تكون سميكة أكثر مما ينبغي ولا رقيقة أكثر مما ينبغي إلى المعلم سينغر، الذي كان قد عهد بها إلي كهدية ـ فقد كان يعتبرها سراً مهنياً.

فيما يتعلق بالفن الحقيقي، سبب جوعي المستمر، فقد كونت فكرتي الأولى عما يستلزمه عندما يطلب زبون مغفل الاسم بضعة نسخ من جذع قياس تسعين سنتيمتراً. فكان السيد موغ يتصرف بشكل تآمري عندما ينزع البطانية الصوفية التي تم لفه بها.

كان من الواضح أن عمل النحات المعترف به على نطاق واسع، وحتى المصفق له، فيلهلم لمبروك، الذي كان فنه قد منع من كل المتاحف في أثناء الحقبة النازية والذي كنت قد قابلته عندما كنت تلميذا في المدرسة، وإن يكن بشكل عابر، في مجلات الفن الممنوعة التي أرتني إياها معلمتي ليلي كرونرت. كانت قد سمته واحداً من العظام حقاً.

لا أحد في موغ ذكر الاسم فعلاً، رغم أنه كان ثمة شائعات حول نسبه. «Hey Presto!» نكتت أحد العمال المياومين. «أولاً واحد ثم ثلاثة».

Twitter: @ketab_n

وهكذا كانت تصنع منحوتات كثيرة من الحجر الرملي. لا بد أن الأمر قد جاء من تاجر فنون كان يتاجر بالقطع التي كان يبيعها بوصفها أعمالاً أصلية في السوق الحرة. في سنوات ما بعد الحرب تلك، كان ثمة الكثير من المشترين الساذجين، الذين كانوا إما أغنياء جدد محليون أو من النوع الأميركي المجلوب. كان زمن الدجالين.

بأي حال، انتزعت النسخ الثلاث بالحجر الرملي الساطع قبل أن يكون بالإمكان وضعها في العرض.

كان الجذع عديم الذراعين كان يمتد من منتصف الفخذ إلى قمة رأس مفتول قليلاً. إن ميلان الحوض يعطي الوضعية الالتوائية تأثيراً. ثمة عمل للمبروك من الفترة الوسطى، قبل وقت قصير من اندلاع الحرب العالمية الأولى، ربما تم إنجازه في باريس.

كما هو معتاد، نقلنا النقاط الكثيرة التي رسمناها بقلم الرصاص على سطح الموديل الجصي إلى الحجر باستعمال الآلة الثلاثية الأرجل بإبرتها القابلة للتحريك.

كان المتحدرون من عائلات بنائي حجر يعرفون الكثير من الحيل، لكن في اللحظة التي اختار موغ الشخص البدين متدرباً أخفقت كل الحيل إخفاقاً كاملاً. فكان يرفع جفنيه المتداخلين بإصبعين، يدقق في كل تفصيل، ويدع الجفن الأول يهبط، ثم يدع الآخر. كان يبدو مثل بوذا. لم يلجأ أبداً إلى الإبرة الموصولة إلى نهاية الذراع المعدنية التي تدور على محور، لم يفوت خطأ واحداً.

أمام خجلي يجب أن أعترف أنني ارتكبت قليلاً من الأخطاء الفادحة على السطح الهادئ والمتنقل مع ذلك لظهر الجذع. وكان لا بد من إعادة شغلها، الأمر الذي كان يعني أن طبقة الحجر بين لوحي الكتفين يتعين تسويتها، لكن ما أزيل من السطح قد ذهب إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

أتساءل من الذي يستمتع بلمبروكي، إحدى النسخ، اليوم. زبون التاجر المغفل الاسم للماضي أو مالك جديد، لو أعيد بيعه منذئذ. لكنني لم أشأ أن أعطي أي شيء لكي أكون قادراً على سؤال فيلهلم لمبروك، الذي قضى حياته الخاصة بعد الحرب العالمية الأولى بوقت قصير، أن يغفر لي إثمي.

كان علي في الواقع أن أستخدم طريقتي الناجحة أحياناً في إطلاق دعوة «شرطية» إليه، وهو الذي امتدحته ليلي كرونرت بوصفه عظيماً بشكل لا مثيل له، وإلى الرسامين ماكه ومورغنر، اللذين شاركا في معركة في Perthes les Hurlus ولانغهماك، على التوالي، ليتقاسما الخبز معي على مائدتي التخيلية.

كنا سندخل في نقاش حول الأحداث الراهنة ـ كيف ذهبنا بحماسة إلى الحرب ـ ثم حول الفن فقط. ما الذي حدث له منذئذ. كيف ينجو من كل محاولة لتحريمه، مع أنه عندما كانت تُرفع القيود الخارجية كان ينكمش أحياناً إلى عقيدة جامدة أو يتلاشى إلى المجرد.

كان بإمكاننا عندئذ أن نضحك على الخردة المجمعة من أجل الإنشاءات، الضحالة المطابقة للزي الحديث، الهوس البصري القلق videomania، ركوب موجة الأحداث ـ معدن النفايات السعيد، أي، في الفراغ المفرط الامتلاء لمهنة الفن المعاصر دوماً.

عندئذ سيكون امتيازي كمضيف وطباخ أن أستضيف ضيوفي في إجازتهم من الموت إلى وجبة رائعة: مرق رأس سمك القد المتبل بالشبت الطازج، لأجل المبتدئين؛ ثم ساق خروف مزينة بالثوم والمريمية، العدس المغلي برفق في صلصة نبات العترة المبهرة؛ ولأختم ذلك كله، لحم الماعز الناعم مع الجوز. بكؤوس مترعة بالأكوافيت كنا نتبادل الأنخاب ونشتم العالم.

Twitter: @ketab_n

من لمبروك، الفستفالي العنيد، كنا سنأخذ أقصر الإعلانات فقط؛ من أوغست ماكه، الذي كان يحب الكلام، وصفا لأنماط الضوء والمغامرات الأخرى في الرحلة القصيرة إلى تونس مع باول كلي ولوي مواليه في نيسان 1914، قبل أشهر قليلة من اندلاع الحرب؛ وفيلهلم مورغنر سيدعنا ندخل أي نوع من الرسوم سيكون قد أنجزه ـ المجرد، ربما؟ ـ لو لم يكن في الخنادق في فلاندرز و....

لكن لا كلمة حول قصة حب لمبروك التعيسة مع الممثلة الجميلة والطفلة ـ المرأة إليزابيث برغنر. يقولون إنه قضى حياته بسببها، لكنني أشك في ذلك. كانت الحرب، التي في رأسه، في رؤوس كثيرة ما كانت لتنتهي....

بعد الوجبة كنت بالتأكيد سأجد فرصة لشكره، أستاذ الحظ لفترة تمرني الذي وضع المعيار الذي تعلمت به الفشل...

ومن ثم؟ ثم جاء إصلاح العملة. ألف وتسعمائة وثمانية وأربعون، تاريخ يفصل ما قبل عما بعد، يضع حداً لكل شيء ويتعهد بانطلاقة جديدة لكل شخص، ينزع القيمة عما كان ويمنح قيمة جديدة لما سيكون قريباً، تاركاً قلة ضئيلة من الأثرياء الجدد تتسرب من خلال كتلة الفقراء المتضورين جوعاً، يسحب البساط من تحت السوق السوداء، يعد بسوق حرة وبذلك يمنح الثراء والفقر مكانة قديمة، مكرساً المال وجاعلاً منا جميعاً مستهلكين ومانحاً البزنس جرعة عامة في الذراع ـ كما تشهد حالة بنائي حجر بيتفغ، الذين كانت أسعارهم حتى ذاك الوقت قد قررتها المقايضة، التجارة بالمبادلة.

قبل وقت قصير من التاريخ الخطير تلقت موغ عقداً من أجل تحديث مبنى مصرف لازال الأسوأ بسبب طابعه الحربي. كان الأشخاص البارزون يخجلون من واجهتهم. سيتم الاحتفال بالحدث

Twitter: @ketab_n

القادم بمظهر خارجي جميل، في التوقيت وحسب الميزانية.

إن أقسام كتل الكلس الصدفي المصابة بشظايا القنابل كان يتعين تجويفها وملؤها بمستطيلات من الكلس الصدفي، تصب بالاسمنت مباشرة بشكل كامل مع السطح. ماذا كان اسم زبوننا؟ دعونا نقول إنه كان المصرف الدرسدني، الذي سمي من جديد باسم مصرف الراين ـ رور.

نجت صورة فوتوغرافية واحدة فقط من هذه الفترة. إنها تظهر رجلاً شاباً يرتفع عالياً على سقالة فولاذية يتطلع إلى العالم كما لو كان يمتلكه. لكي يدل على مهنته يمسك مطرقة بنائين خشبية في يده اليسرى ـ إنه يسراوي ـ ومكواة تنقيط في يده اليمنى.

لابد أن زميلاً قد انتزع الصورة. إن ثلمة محفورة بالإزميل في الخلفية تكشف مدى قوة الواجهة الخارجية الحجرية الطبيعية للمبنى: بالرغم من أن داخل المبنى قد دمرته النار تدميراً كاملاً، فإن المبنى الشاهق نجا من وابل القنابل، وهو الآن شره لأجل رأس المال الجديد والأرباح المتجددة.

يقف الحجار الشاب وحيداً لأن هيئة مدراء هذا الحصن النقدي، الذي خدم كل الأنظمة في السلطة، بما فيها نظام الجريمة المنظمة، لم يكونوا يرغبون في أن يتم تصويرهم؛ كانوا يرغبون في البقاء وراء الستارة. اكتفوا بإزالة كل الضرر الخارجي من واجهة المصرف. كانوا مهتمين بإعادة تأكيد سمعتهم، خارجياً على الأقل.

كان الشاب الهزيل ذو القلنسوة المستدقة الرأس وملابس العمل يجثم واثقاً بنفسه على السقالة، متمكناً من كل ما يمسحه، ولم يكن سوى أنا، قبل وقت قصير من إصلاح العملة. صورة ذاتية الفعل.

لم تكن الطوابق العلوية من المصرف الذي أقف أمامه، الصغيرة مع أنها من الممكن تمييزها، في هذه الصورة بالأبيض والأسود، جاهزة بعد

Twitter: @ketab_n

للاستعمال بسبب الضرر الذي يتعين معالجته، لكن القاعة الرئيسية في الطابق الأرضي مناسبة لكي يتم افتتاحها للجمهور قريباً.

في الطابق الكائن فوقه جلسنا نحن البناؤون خلال استراحة الغداء نفرغ علب الهنكلمان بالملاعق. بما أنه كان ثمة ثقب مغطى بالألواح في السقف بين الطابق الأرضي وطابقنا، فقد كان بإمكاننا أن نرى من خلال الشقوق الضيقة.

وهكذا قبل بضعة أيام من اليوم العظيم رأيت العملة الجديدة ـ بالنقود الورقية [البنكنوت] والنقود المعدنية ـ وهي تفرز وتعد وتحزم وترزم في لفائف على مناضد طويلة من قبل المستخدمين المتأهبين لأجل تدفق النقود المجترح للعجائب. وهكذا صرت شاهداً.

ما كنا قد أعطيناه مقابل أسلحة أطول قليلاً ـ أو قصبات صيد السمك. أحدث بنود الإيمان، القريب للغاية مع أنه بعيد للغاية. كنا قد تحولنا، حسناً، ليس لصوص مصارف، بل روبن هودات، نسرق من الأغنياء لنساعد الفقراء.

في تلك الفترة كان أجري الساعي في مواقع البناء يبلغ خمساً وتسعين بفنيغا رايخيا بالساعة. مع العمل الإضافي، صار دخلي الأسبوعي حوالي خمسين ماركا رايخيا. قبل ذلك بوقت طويل كانت لا تساوي شيئاً.

هل كانت لدي أية فكرة عن أن ثمة في القاعة الرئيسية من المصرف الدرسدني، وفي ألف وأكثر من نقاط التوزيع على امتداد البلاد، كان المستقبل هو الذي سيسدد، مستقبل سيكون له ثمنه من ذاك الحين فصاعداً؟

فجأة كان كل شيء، كل شيء تقريباً للبيع. كانت واجهات الحانوت المكدسة بشكل رث البارحة تتباهى الآن بسلع ادخرت طويلاً.

Twitter: @ketab_n

مواد خرجت من اللامكان لتجذب العملة الجديدة. بدا فجأة أن كل النواقص قد تم تصنيعها، لتكون بقية خادعة من الماضي. وبما أن كل شيء ينتمي إلى الماضي قد فقد قيمته، فقد كان الجميع يتطلع بشجاعة ـ قاسية كما يمكن أن تكون ـ إلى المستقبل.

لا أعرف ما الذي اشتريته بالماركات الألمانية الأربعين الجديدة، النقود الصعبة التي استلمها كل مواطن باسم عدالة متعامية. أقلام رصاص أصلية من طراز فابر كاستل وممحاة جديدة، ربما. أم هل كان ذلك طقم ألوان مائية من طراز شمينكه مع أربع وعشرين محبرة صغيرة.

لا، ربما ذهب المبلغ إلى بطاقات سفر في رحلة إلى هامبورغ كنت قد دعوت الوالدة لمرافقتي فيها. كانت تريد أن تزور أختها بيتي والعمة مارتا، زوجة عمي الأكبر، العم ألفرد، وهو ضابط شرطة كان قد سكن مع أبناء عمه في بيت على سطح منزل في هوهنفريدبرغرفغ، وكان الآن في مكان ما في الشمال، في شتاده، غير بعيد عن هامبورغ.

كانت خرائب هامبورغ تمتد طولا وعرضا، كما الخرائب في كولونيا. لم أر المداخن الشاهقة التي بقيت منتصبة في حين انهار المبنى الشقفي تلو الأخر، طابقاً تلو الآخر على الأرض، إلا بعد أن نظرت مرة أخرى.

مما يثير الدهشة كفاية أنه كان ثمة مسرح مفتوح، وبما أن أمي كانت تنجذب دوماً إلى المسارح، إلى المسرحيات والأوبرات والأوبريتات، فقد أخذتني ذات مرة إلى إنتاج مسرحي لحكاية هانز كريستيان أندرسن الخرافية، *ملكة الثلج*، في مسرح دانتسيغ البلدي عندما كنت طفلاً ـ ذهبنا لمشاهدة مسرحية *الأب* لستريندبرغ، التي مثل فيها هرمن شبيلمانز. لقد بكت أمي عندما أسدلت الستارة. لا أملك أية ذكرى عن الأقارب الذين كنا نزورهم، لكنني أذكر الرحلة بالقطار إلى هناك ذهاباً وإياباً.

Twitter: @ketab_n

في الطريق إلى هناك مررنا عبر الرور المقصوف بالقنابل وأتينا إلى السهول الفستفالية، التي كانت تعطي الانطباع بأنه لم يحدث شيء يهز العالم. راقبت أمي وهي تجلس مقابلي بصمت.

لم تكترث بأسئلتي وكانت تحاول أن تجعلني أرى المشهد الطبيعي بوصفه «رؤية لعينين متألمتين». «انظر إلى تلك المروج! كل ذاك العشب! كل تلك البقرات!».

لكنني ثابرت. «كيف كان عندما جاء الروس؟ ما الذي حدث فعلاً؟ لماذا تروي داداو قصصاً مضحكة؟ لماذا يضرب حول الدغلة؟ كيف كان ذلك بالنسبة لداداو، وبالنسبة لك؟ هل جاء الروس و.... ومتى جاء البولنديون....».

لم يكن بمقدورها أن تجد الكلمات. كان أقصى ما أفلت منها هو: «كل ذلك بات في الماضي الآن. وخصوصاً بالنسبة لأختك. لا تسأل أسئلة كثيرة. فذلك لا يجعل الأمور أفضل. في النهاية امتلكنا قليلاً من الحظ... نحن لا زلنا أحياء.... الماضي هو الماضي».

ثم طلبت مني في طريق العودة أن أكون لطيفاً مع أبي. فقد عانى كثيراً وخسر كل شيء. كان الحانوت يعني له كثيرا بقدر ما كان يعني لها. ليس معنى ذلك أنه كان يشكو. لا، فكل ما كان يهمه هو الابن. كان يستمتع بزياراته حتى لو كانت نادرة ـ «لا شجار في المرة القادمة، من فضلك». الماضي انتهى وولى. «كن ظريفاً معه فحسب، أليس كذلك؟ أو دعونا نلعب لعبة تزلج هادئة. إنه يسر دائماً برؤيتك...».

لم يحدث مرة في أثناء السنوات القليلة التي غابت فيها أمي أن سقطت منها إلماحة أو تفوهت بكلمة قد تشير إلى ما حدث في الحانوت الفارغ أو في القبو أو في الشقة، لا شيء كان من الممكن أن يشير إلى أين وكم اغتصبت غالباً من قبل الجنود الروس. لم أعلم بذلك إلا بعد أن

Twitter: @ketab_n

توفيت ـ وعندئذ علمت بشكل غير مباشر عن طريق أختي ـ علمت أنها لكي تحمي ابنتها قدمت نفسها لهم. لم تكن هناك أية كلمات.

ولم يكن بوسعي أن أتحمل أن أخرج أشياء كانت تكمن طويلاً بداخلي: أسئلة فشلت في طرحها.... رغبتي في أن أموت ميتة بطل مثل الرائد البحري برين من سلاح الغواصات ـ وكمتطوع.... رجل خدمة العمل الذي كنا ندعوه نحنلانفعلذلك.... كيف أن القدر أنقذ الفوهرر.... قسم الولاء لسلاح الـ إس إس في البرد المصلصل: «إذا ثبت أن الآخرين كاذبون، مع ذلك سنكون صامدين».... وعضو ستالين وكل الوفيات التي سببها، بشكل رئيسي بين الشبان والأغرار مثلي... الأغنية التي غنيتها بدافع الخوف في الغابة إلى أن جاء الجواب.. العريف الذي أنقذني لكنه فقد ساقيه بفعل قنبلة يدوية روسية فيما أنقذت أنا.... إيماني بالنصر النهائي إلى النهاية المريرة.... الأحلام المحمومة للجندي المصاب بجرح طفيف بفتاة ذات ضفائر سوداء.... الجوع اللاسع... لعبة النرد.... الكفر في لوحات برغن ـ بلزن، في أكوام الجثث ـ انظر إليها، اذهب وانظر إليها، لا ترحل، لأن ذلك يفوق الوصف، بتعبير ملطف...

لا، لا أتطلع إلى الوراء، أو بالأحرى ألتقط فقط نظرة خاطفة مرعوبة من فوق كتفي. منذ قبضت فيه أجرتي الساعية كحجار بالعملة الجديدة وبعدئذ بوقت قصير بزيادة قدرها سبعة بفنيغات في الساعة، عشت حصراً في الحاضر أو، كما ظننت، تطلعت إلى المستقبل. ولم يكن ثمة تقصير في العمل.

حالما سقط مارك الرايخ، بدأت موغ تجتذب عقوداً أكثر من أجل المشاريع غير المتصلة بالمقابر. فالواجهات في كل أنحاء المدينة كانت في حاجة إلى الإصلاح. كانت الواجهات عملاً مربحاً. كانت السقالات

Twitter: @ketab_n

ترتفع في كل مكان، وآثار الحرب كانت تختفي قطعة قطعة. إن الشواذ الأولى لفن الواجهات الشعبي رأت نور النهار، مع كون المادة المطلوبة خصيصاً هي حجر الترافرتين، الرخام المفضل للفوهرر.

كنا نعمل بوظيفتين أخريين بعد العمل أيضاً، نورد ألواحا كبيرة من الرخام المرقط إلى حانوت جزار افتتح حديثاً كان مالكه يريد جدرانا وطاولات بيع ساطعة ملونة أو بناء جدران طف عالية حول المساكن الخاصة التي يشتريها الأغنياء الجدد.

لكنني لم أكن قادراً أبداً على ممارسة الفن. كل تماثيل الحجر الرملي التي أصابتها الحرب أعيدت إليها الرؤوس والركب وطيات أثوابها؛ كان جذع لمبروك، الذي كان يحمل توقيعي المزور، قد وجد شارياً اعتقد أنه أصلي؛ عجائز دار الإحسان، الذين بات بمقدورهم الآن أن يشتروا السجائر بدون قسائم الحصص الغذائية، لن يعودوا موديلات لي تحت أشجار الكستناء.

بغض النظر عن اللغط الذي أثاره النقد الجديد عندما اشتريت هدايا مفاجئة من أجل أمي وأبي، لم يكن بمقدوره، حتى مع العمل الإضافي، أن يسكن جوعي الثالث. كانت الواجهات، الواجهات والمزيد من الواجهات. إلى أن سمعت أخيراً عن أكاديمية الفن.

قبل انتهاء الموعد النهائي، كنت قد قدمت إضبارة من الاسكتشات المرسومة بقلم الرصاص ـ صالة عجائز كانوا يأخذون وضعيات بين عطستين ـ وثلاث منحوتات صغيرة، والجذعين الأنثويين، كلاهما مرسومان بحرية على موديل لمبروك، والرأس المعبر، مذيلة بشهادة تشهد على تدريبي وموقعة من قبل الأستاذ موغ. بالإضافة إلى ذلك، كما طمأن صاحب مسكنه المفضل، كان الأب فولغنتيوس قد ضمن كلمة طيبة لصالح طلبي في صلاته الصباحية إلى القديس أنطوني، الذي كان

Twitter: @ketab_n

بالحجم الطبيعي في كنيسة دار الإحسان بكل مجده الجصي وكان مسؤولاً عن كل أصناف الأشياء.

عندما أخبرت الأب الطيب كم كانت المنافسة شرسة - قبل اثنان فقط من المتقدمين السبعة والعشرين - وأنه بالرغم من أن لجنة القبول قد اعترفت بالجهد الواضح في البورتريهات فقد أشارت إلى أن خبرتي في نحت الحجر كانت حاسمة لكن البروفسور ماتاري كان لسوء الحظ غير راغب في قبول تلاميذ جدد، ما يعني أنني لن أكون قادراً على دخول برنامج النحت حتى الفصل الدراسي الشتوي ومن ثم لن أكون مع البروفسور ماتاري بل مع بروفسور يدعى ماغز، لم أكن أعرفه، اقترح رئيس دار دوسلدورف - رات للإحسان إمكانية أخرى، طريقة أخرى يمكنني بها أن أخدم الفن.

غالباً ما كنا نعقد نقاشات كان يشرح في أثنائها معجزة النعمة الإلهية، أو على الأقل يجعلها أكثر معقولية، والمعنى الأعمق للثالوث وألغاز أخرى، والبهجة التي يجدها الرب في نذور الفقر الفرنسيسكانية.

كانت هذه الثرثرات - في بعض الأحيان كان يسكب لكل واحد منا كأسا صغيرة من الليكور- تذكرني بالنقاشات التي كنت أجريها فوق طاولة النرد مع صديقي البافاري جوزف حيث كنا أسيري حرب معاً: هو أيضاً حاول أن يستكشف إيماني الطفولي بالقلب المقدس والعذراء المقدسة أم الرب وحتى عندئذ كان لديه دزينة أو أكثر من الحيل اللاهوتية في كمه.

ومثل جوزف في المعسكر قرب باد آيبلينغ، حاول الأب فولغونتيوس أن يستميلني، مع أنه كان أقل ادعاءاً بمعرفة كل شيء وأكثر مكراً وذا خبث فلاحي أكثر. في النافذة المشربية الكبيرة للمبنى الرئيسي، الذي كان يسميه مكتبه، رسم مشهداً للمستقبل الذي كان لأبعاده القروسطية

Twitter: @ketab_n

سحر جذاب نادر وذكرني باستيهاماتي في أيام المدرسة.

في الآونة الأخيرة أخبرني أن أخاً نحاتاً، اسمه الأب لوكاس، توفي في سن متقدمة في الدير الرئيسي للرهبنة الفرنسيسكانية. كان مرسمه ذو المنور، ومشاجب عرض الموديلات والصندوق المليء بالصلصال، مع حرية وصوله إلى الهواء المفتوح وحديقة الدير، جاهزاً وينتظر، ينتظر يداً مبدعة لوضع مجاله الكامل من الأدوات ومخزونه من الحجر قيد الاستعمال. بفضل المساهمات الخيرية، كان ذاك المخزون يتضمن حتى الرخام من مقالع كارارا، الرخام المفضل لميكيلأنجلو العظيم. لم يكن علي سوى أن أذهب إليه بروح البهجة. الإيمان سيزداد بالتأكيد، يكتسب القوة كما عندما اشتغلت على المادونات، وكلفت أخيراً بإنجاز [تماثيل] القديس فرنسيس والقديس سباستيان. الإخلاص التقي والاجتهاد المثابر اللذان يتطلبهما العمل سيقودان حتماً إلى الاستنارة. كانت البقية، كما كان يعرف من تجربته الخاصة، هي نعمة إلهية.

في البداية نبذ شكوكي تجاه رؤيته لمستقبلي والنتيجة التي كان يرغب فيها، لكن عندما بدأت أشير إلى جوعي الثانوي ودعوته جوعاً مزمناً لا يمكن شفاؤه، عندما رسمت إدماني على الفتيات الصغيرات، النساء الناضجات، على جنس الإناث في حد ذاته بكل جسديته اللعينة، متفوقاً على إغراءات القديس أنطوني بالرسم على الاجتماع مع الحيوانات والوحوش الخرافية من الورشة الفلمنكية لهيرونيموس بوش، تخلى الأب فولغنتيوس عن المحاولة. «آه، نعم»، قال «اللحم» وأدخل يديه في كمي ردائه. هذا هو الشيء الوحيد الذي يفعله الرهبان عندما يغريهم الشيطان.

على كل، بعد ذلك بعقود، عندما أصبح النجاح عادة، والشهرة مضجرة، والاستياء الشعبي منفراً ومثيراً للسخرية، عندما همد الصراع

Twitter: @ketab_n

مع الخصوم السياسيين على اليمين وعلى اليسار مؤقتاً، عندما كنت، كفنان ذي مهنة مزدوجة، بوصفه زوجاً، أباً، مالك منزل ودافع ضرائب، وحائزاً على جوائز ومعيلاً لأسرة متنامية واقعة في شرك في شغل الحياة من يوم إلى آخر، أختلق الأعذار ليلاً ونهاراً، تساءلت كيف سيكون شكل حياتي لو أصغيت في أثناء ألعاب النرد إلى صديقي الحميم في باد آيبلينغ، جوزف، الذي أصبح منذئذ أسقفا، وبلع حباته المضادة للشك مثل ولد صالح، أحيا إيماني الطفولي، ومع أو دون تدريب أكاديمي اتبع نصيحة رئيس الدير، قبل عرضه، والتجأ ـ كونه الأول تحت الاختبار الصارم، كمبتدئ ثم أقسم اليمين كمنتظم ـ في مرسم الدير الذي كان قد امتدحه....

بوصفي راهباً. أي اسم في المسيح سيعطونني؟ ما الذي سيحدد لي لكي أنحته بالإضافة إلى القديسين المكرسين؟ هل كنت، مثل معلم ناومبورغ، قد أفسدت شخصيات هامة من رجال الأعمال والسياسة على قاعدة التمثال: المستشار أديناور مع السيدة المستفتية التي صفق لها كثيراً، السيدة نويله ـ نويمان؟ أم خلفه كبير الكرش لودفيغ إرهارد مع نجمة السينما طويلة الساقين، هيلدهغارد كنف؟ أم صنعت النحوت النافرة من أجل أبواب الكاتدرائية: السقوط إلى الجحيم أو آدم وحواء المشغولين تحت شجرة المعرفة، مطوراً تذوقاً لأجل الجحيم أم آدم، لأجل «الخطيئة الأصلية؟».

لم يكن علي أن أقلق حول الجوع الأول، وبحسب ما وصل إليه الجوع الثالث، كنت سأصبح رساماً تقياً بشكل معتدل، لكن الجوع الثاني، الصريح، إلى لحم من نوع آخر، سيضللني، كلما سنحت الفرصة، سواء عرضت علي أم سعيت وراءها، ولذلك يجرجرني فيعيدني إلى العالم.

Twitter: @ketab_n

كيف أصبحت مدخناً

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يتعلم الأشخاص الذين تتطلب مهنتهم أن يستغلوا أنفسهم على مر السنين أن يقدروا الشذرات. لم يتبق الكثير. مهما مكنتني المادة الملموسة من أن أشكل وأشوه وأخيراً أموت ـ وأنا أقفز نحو الأمام ثم نحو الوراء ـ فقد تم ابتلاعها وتبرزها في شلالات صغيرة من الكلمات من قبل الوحوش الملتهمة لكل شيء التي تدعى الروايات. لقد أفسح الشاعري المجال للملحمي. بعد كل ذاك التبرز ـ كل الحنطة إلى الطاحون ـ كان المرء يأمل في أن يكون قد أفرغ الجهاز، أفرغ نفسه كتابة.

ومع ذلك توجد بقايا أغفلها الحظ: بطاقة هوية يعود تاريخها إلى الفصل الدراسي الشتوي 1948 ـ 1949 وتحمل ختم أكاديمية الدولة للفن، دوسلدورف. كانت مطوية، بالية الحواف، متفتتة، عليها صورة بحجم صورة جواز السفر لشاب ستدفع عيناه البنيتان وشعره الأسود المرء إلى الظن بأنه ينحدر من الجنوب، بلقاني أكثر من كونه ايطاليا. لقد بذل قصارى جهده لكي يظهر حسن الهندام بارتداء ربطة عنق، رغم أنه يبدو في المزاجِ الذي كان شائعاً بعد الحرب بوقت قصير تحت اسم الوجودية وظاهرا في الوجوه والإيماءات في الأفلام الواقعية الجديدة، كئيبا بشكل بائس ومستغرقاً في التفكير في نظرته إلى العدسة.

تؤكد الصفات الجسدية المدخلة باليد والتشديد المعطى لجرة القلم السفلية في التوقيع ذلك بما لا يدع مجالاً للشك: هذه الشخصية

Twitter: @ketab_n

الغريبة، المشؤومة ليست سوى أنا نفسي في فصلي الدراسي الأول كطالب فنون. ربطة العنق ربما أتت من صندوق الملابس المستعملة للأب المحسن فولغنتيوس. كانت معقودة من أجل لقطة سريعة في حانوت يدعى فوتوماتون. الوجه حليق تماماً، الشعر مفروق بشكل مرتب بعناية، غير محدد تماماً، ما يفسح في الكثير من المجال لأجل الحدس.

كان الانجذاب المديد التي شعرت به أنا وبنو نوعي نحو الوجودية ـ أو ما كان يرمز إلى الوجودية في ذاك الوقت ـ قائماً على سلعة مستوردة فرنسية تم تكييفها مع الشروط غير المصقولة الألمانية ويمكن ارتداؤه كقناع: يصبح بالنسبة لنا، نحن الناجين من «الأعوام المظلمة»، كما اتخذته إحدى المواربات من أجل فترة الطغيان النازي: لقد عزز أوضاعاً مأساوية. فقد رأيت نفسك في لعبة كلمات متقاطعة أو أمام الهاوية، بحسب مزاجك. كان كل الجنس البشري مفترضاً به أن يخاطر بنفسه. فالشاعر بن Benn والفيلسوف هايدغر وفرا اقتباسات لأجل المزاج القيامي. كانت الخلفية لذلك كله هي الموت الخاضع للبحث الشامل والمتوقع قريباً عن طريق الذرة.

كان الحاسم لهذا البيع النشيط خارج المهنة سيجارة متدلية من الشفة السفلى. فقد كشف التدلي الاتجاه الذي كنا منطلقين فيه، رغم أن السيجارة، مشتعلة أو باردة، تتمايل إلى الأعلى والأسفل في الحوارات التي تستمر طوال الليل، التي لخص في أثنائها الوجود البشري بوصفه «ارتماء كينونة الأشياء». لقد تعاملوا مع المعنى في ما هو عديم المعنى، الفرد والجماهير، الأنا الغنائية والعدم كلي الوجود. سيتكرر الانتحار كصورة بلاغية، الذي يدعى أيضاً «موتاً مجانياً». كان التأمل في ذلك أثناء التدخين مع الأصدقاء يعتبر ظرافة bon ton.

ربما كان في سياق مثل هذه النقاشات بالضبط، النقاشات العميقة

Twitter: @ketab_n

للغاية بحيث أنها انحدرت إلى العبث، أصبح الشاب في صورة جواز السفر، الذي يمجد خاتمة لا نهاية لها برفقة أصدقائه، هو الأول في الإدمان على الشاي ثم مدخناً، لكن لدي مشكلة في تحديد تاريخ تناوله الأول، المؤجل دائماً، للسيجارة.

وعموماً، إن الالتزام بالمسار الكرونولوجي للأحداث يقيدني مثل مشد. لو كان بمقدوري فقط أن أجدف عائدا إلى أحد شواطئ البلطيق حيث بنيت تلك القلاع الرملية عندما كنت طفلاً..... لو كنت لا أزال جالساً تحت نافذة السقيفة تائهاً تماماً في مطالعتي بطريقة لم أكن بها منذئذ.... أو أعود مع صديقي جوزف تحت خيمة، أرمي أحجار النرد، من أجل مستقبل كان يبدو نديا وغير مسلوب...

بأي حال، كنت قد بلغت سن الواحد والعشرين وكنت أظن نفسي بالغاً، مع أنني كنت لا أزال غير مدخن أحمل بطاقة عندما حظيت، إلى جانب فتاة من كريفلد تركت منحوتاتها الحيوانية ـ ظباء ومهور ـ انطباعاً مبشراً على لجنة القبول ـ بالدخول إلى صف البروفسور سب ماغز للنحت. كنا الأصغر سناً.

كان شخص ما، من المفترض أنه الأب فولغنتيوس، قد أقنعني بأن أجرب النوعيات المنشطة من الغلوكوز بدلاً من التبغ. (أظن أنه كان الأب فولغنتيوس، بالنظر إلى أنه كان هو من أبقاني ممونـاً: مثل الحليب المجفف، كان يأتي من الآباء الكنديين).

لكنني لم أكن قادراً على أتمالك نفسي عن ملاحظة أن كل شخص آخر في الصف، بمن فيهم مصاب في الحرب ذو عين زجاجية، كان مدخناً. كانت الموديل العارية، وهي ربة منزل بدينة، تشعل سيجارة أيضاً في أثناء الاستراحة بعد كل نصف ساعة من الوقوف في وضعية التوائية، رغم أنني كنت دوماً أعطيها بعضاً من غلوكوزي.

Twitter: @ketab_n

حاولت إحدى الطالبات - أعمر قليلاً من الآخرين، أن تمارس دور الأم علي فكانت ترفع شعرها عالياً فوق رأسها فيما كان يدعى بشكل تهكمي في أثناء الحرب تسريحة «كل شيء واضح» - لعبت دور السيدة الكبيرة grande dame باستعمال حامل بز سجائر. أما صديقتها، التي كانت مدللة البروفسور، وربما عشيقته، فقد استلت سيجارتها الخاصة ونقثت دخانها بعصبية في وجههم إلى أن دخل ماغز الأستوديو، وهي اللحظة التي تطفئها فيها في كتلة من الصلصال. كان الجميع يدخنون. حتى إن واحدا منا كان يدخن غليونا.

يمكنني فقط أن أفترض أنني، المبتدئ المفرط الحماس الذي كنته، حاكيت الطريقة التي كان يلف بها زملائي الطلاب السجائر تماماً مثلما كنت أحاكي الأثواب الفضفاضة البيضاء التي تصل إلى الركبتين التي كانوا يرتدونها، وهم يقفون في نصف دائرة أمام مشاجب عرض موديلاتهم، وهم يتطلعون إلى ربة المنزل العارية، ويدققون في التفاصيل الجسدية بعدة تشكيل النماذج الخشبية والسلكية. لم نكن نختلف عن جماعة من المرضات والأطباء المقيمين الذين ينتظرون زيارة كبير الأطباء، لأن ماغز، أيضاً، كانت يرتدي الأبيض وصولا إلى قلنسوته.

بالأوفرولات والكنزة المبهرجة ذات الأطراف الصوفية التي نبشتها من صندوق ثياب دار الإحسان شعرت أنني من مرتبة ثانية بلا جدال، وبما أن الابن شعر بالحاجة إلى لباس لائق بشكل حاد للغاية، فإن الأم، الفخورة «بطالب الفن الغر»، صنعت كنزة بيضاء بلون الثلج لأجله من شراشف سرير لائقة تماماً، المهترئة حول الحواف فقط. تظهرني الصور الملتقطة في ذاك الوقت مكسواً بهذا الشكل.

ما يمكنني أن أراه بشكل أكثر وضوحاً من البداية المتأخرة لسيرتي كمدخن هو أول تكليف أتلقيته، أي، النسخ بصلصال تشكيل النماذج

Twitter: @ketab_n

لرأس جصي روماني متأخر أكبر من الحجم الواقعي لامرأة كان البروفسور ماغز قد انتشله من غرفة العاديات التابعة للأكاديمية وكان مفروضا علي تقريباً.

كانت سقالة من الأنابيب الحديدية تستند على منصب وتعترضها العصي الخشبية ـ كنا نسميها الفراشات ـ تؤمن الاستقرار للصلصال. إن الفتل الطفيف للرأس والالتفافات الوفيرة مجتمعة، بالتضافر مع بروفيل مائل، جعل من الصعب استنساخ التمثال النصفي.

حصلت على بعض المساعدة من البيكارات وخيط الرصاص [الشاقول]، خصوصاً عندما أشارت زاوية الكتف إلى وجود انعطاف خفيف للجسم إلى اليمين. كان ثمة مشكلة أخرى هي المادة الجديدة: الصلصال الرطب اللين، الذي كنا نغطيه بالقماش المبلل عندما نغادر الأستوديو ليلاً.

لكوننا نحفظ في أذهاننا أشكالاً ورؤوساً مختلفة جداً عن أشكال ورؤوس العهد الروماني المتأخر، فقد لعنت قدري، لكنني كلما كرست مزيداً من الوقت لصب الجص بأثر من ذقن مضاعفة، تعلمت أكثر. صرت فضولياً ووجدت جمالاً مخفياً في التفاصيل، في انحناءة الجفنين، على سبيل المثال، وإطار شحمتي الأذنين المتدليتين.

كان على الحجار المتمرن أن ينحت كثيراً من المادة الصلبة: إذ كان على طالب الفنون المتمرن أن يقولب صلصالاً أخضر رمادياً وأن يشكل، مثل الله الأب، من ذاك الصلصال رأس حواء إن لم يكن آدماً.

كانت فورة في النشاط، لأن أعياد القديسين ـ عيد القديس مارتن؟ ـ يحتفل بها في مكان ما، لكن عندئذ كان كل شيء هادئاً والتجمع في البناء المبجل للأكاديمية. بالتدريج اتخذت النسخة شكلاً، صارت تشبه أختها الجصية. في الوقت نفسه، كان ثمة لوحات لعاريات ودراسات لهيكل عظمي ذكري كامل كنا ندعوه تونز أو شيل، تيمناً بشخصيتين شعبيتين من بلاد الراين كانت مآثرهما البطولية مادة لنكات كثيرة في ذاك الزمن.

Twitter: @ketab_n

عندئذ كان هناك كل ما على المدينة أن تقدمه: المعرض تلو المعرض في صالات الفنون. رسامو الانفصال الرايني، جماعة «راينلاند الفتية»، التعبيريون، مجموعة «الأم آي» Ey، مشاهير دوسلدورف المحليون. رأيت أعمال غولر، شريبر، ماكتانتس، النحات يوب روبزام. وكان هناك رسام باسم بودليش كله حماس.

كان أحد معارض الصالات يعرض الألوان المائية لبول كلي، الذي كان يدرس في الأكاديمية إلى أن طرده النازيون. قبل أن ينتقل فيلهلم لمبروك إلى باريس، يقال إنه كان التلميذ النجم لبروفسور يدعى يانسن في ورشتنا بالذات، وأوغوست ماكه، أسطورة أخرى، يقال إنه تعلم ما هو موجود لتعلمه هنا، لفترة قصيرة على الأقل. كانا يحكى عنهما بنبرات مكتومة، ربما لأن سيرتيهما الباهرتين كانتا في طور البراعم؟

في بعض الأحيان كنت أغامر بزيارة استوديوهات أخرى. في أحدها، كان ثمة أحمق رهيب اسمه جوزف بويس يعتبر عبقرياً، رغم أنه مجرد تلميذ لإدوارد ماتاري. من كان يظن أنه سيسبب فيما بعد ارتفاعاً شديداً في سعر العسل الاصطناعي ومختلف الدهون واللباد؟

كنت سألقي نظرة على معرض وحوش أوتو بانكوك، وهو متحف ازدهرت فيه المواهب بتكاثر فاسد وكانت العائلات الغجرية تتسكع داخلة خارجة. لم يشاهد أحد ميتاً في ثوب فضفاض أبيض هناك.

في صف الرجل الذي أعطاني شورتا لكنه قدم لي نصيحة مهنية حلوة في يومي الأول في دوسلدورف، إنسللينغ، قابلت نوربرت كريكه، الذي كان مخلصاً للطبيعة ومعلمه، إذ حول الفتيات العاريات الحيات إلى فتيات عاريات جصيات إلى أن مل منهن بعد ذلك بسنوات قليلة وتحول إلى الأشكال السلكية المفتولة بشكل زخرفي بروح العصر.

كان ثمة عبقري على ناصية كل شارع، لكن لا أحد كان يبدو راغباً

Twitter: @ketab_n

في تقبل حقيقة أن الفن الحديث «Moderne»، من آرب إلى زادكين، كان آنذاك قطعة متحفية كبيرة. كان المريدون يستعرضون أنفسهم بلا حياء بوصفهم مبتكرين باهرين.

هل قمت أيضاً بقفزة إلى الذرى السماوية، أم كان جوعي إلى الفن مشبعا آنذاك بحيث كان بمقدوري أن أكون متأكداً من خندق نصف مليء على الأقل؟

ربما أنقذني تدريبي كحرفي يعمل في حجر مقاوم من أحلام العظمة. إن ماغز، الذي كان ينحدر من عائلة حجار من بالاتيناته، قد ساعدني أيضاً في إبقاء قدمي على الأرض. ثم كانت الخاصية الدنيوية التي تقع في أعلى الكاتالوغ الألماني للفضائل: العمل بكد ظل يدفعني.

حتى رغم أنني كنت لا أزال أسكن في غرفة دار الإحسان ذات الأسرة الأربعة المحرومة من ضوء النهار، فإن الاستديو الفسيح، بنوافذه الكبيرة المواجهة للشمال ورائحة الصلصال والجص والخرق المبللة، أصبح بيتي الحقيقي. وقد صرت معتاداً في أثناء أيامي في قص الحجر على الاستيقاظ باكرا، فكنت دائماً أول من يصل إلى مشجب عرض الموديلات. مع ذلك كنت غالباً من يغطي عمل اليوم بتلك الأقمشة الرطبة. فأين غير هناك كان بمقدوري أن أنتزع ساعات قليلة وحدي؟ حسناً، ليس وحدي كلياً: كل أصابعي العشرة كانت منهمكة بشكل نشيط بكتلة مطواعة، بالصلصال. كان ذلك قريباً من النعيم.

قبل وقت قصير من إقفال الأكاديمية في يوم السبت، سأفتح النافذة السفلى المواجهة للشارع العريضة بما يكفيني للانسلال إلى الأستوديو في الصباح التالي بعد تسلق السطح الخارجي المبني من الحجر الطبيعي الوعر.

هذا يبدو جريئاً، مادة لسلسلة أفلام: الحماس الجامح لمتسلق الواجهة، لويس ترنكر آخر يقيس الوجه الشمالي للآيغر Eiger. لكن بما أن كلا من ستوديوهات النحت وغرف صب الجص والبرونز كانت

Twitter: @ketab_n

تقع على الطابق الأرضي، فقد كان تسلقي يوم الأحد لعب أطفال. ولم أكن الوحيد الذي فعل ذلك ـ إلا أنني كنت أفعلها غالباً أكثر من معظم الآخرين. لا أحد ارتاب، والبواب تعامى عن ذلك.

في حوالي منتصف فصلي الدراسي الأول أقنعت إحدى شريكاتي في الرقص في لوفنبرغ بالمشاركة في تسلق يوم الأحد والوقوف كموديل لأجلي على منصتنا الخشبية الدوارة في الأستوديو ـ الذي كان مدفأ، رغم كونه بارداً، في الحد الأدنى على الأقل عن طريق سخان كهربائي. كانت مخلصة بما يكفي للتسلق والوقوف كموديل، وإن لم يكن ذلك بلا تذمر.

خلافاً لربة المنزل التي وقفت كموديل لأجلنا في أثناء الأسبوع والتي تطابق أكوام لحمها المثال لكل من الأستاذ الفرنسي مايلول وأستاذي، كانت بديلة نهاية الأسبوع المرتعشة من خلال وضعياتها الالتوائية نحيلة، فعظم الترقوة، وعظام الوركين، وعظم الظهر كانت كلها ظاهرة بوضوح. هناك كانت تقف، بركبة مصابة بشكل طفيف، في حين فتلتها لتلتقط الضوء الذي سيكشف جمالها الأخرق للحصول على أفضل مزية.

ولما كانت عصبية بالطبيعة، كانت تميل إلى البكاء عندما يصبح الوقوف في وضعية ثابتة أكثر [من قدرتها على التحمل]. فكنت أعمل بسرعة وبصمت. حالما بدأت تتململ، عرضت عليها الغلوكوز بدلاً من الاستراحة. كان كتلة شعرها الملتفة ودغلة عانتها حمراوتين متوهجتين.

هكذا كان التصميم المتمحور حول الذات الذي أبدع قطعة النحت المستقلة الأولى من قبل طالب الفنون الذي يحمل اسمي. انتهت جلستنا والواجهة خلفنا ـ لم نستخدم الاستوديو أبداً كعش غرام ـ فأخذنا الترام إلى غرافنبرغ، حيث كانت موسيقى الراغتايم تعزف حتى بعد منتصف الليل. كانت موديل نهاية الأسبوع سهلة الانقياد على باحة الرقص، وكانت أيضاً: لينة وخفيفة القدمين.

Twitter: @ketab_n

كانت أبعاد إلزبت - هل كان اسمها إلزبت؟ - توفر الأساس لبضعة أشكال صلصالية، كان أحدها، هو **الفتاة مع التفاحة**، مصبوباً بالجص وأعيد صبه لاحقاً بالبرونز. كذلك اشتقاقاً من تلك الأشكال، تحت إشراف بروفسوري الكئيب عادة ذي القلنسوة، كانت منحوتتي الكبيرة الأولى - تقصر عنه متراً واحداً في الارتفاع - هي **الفتاة الضاحكة**.

هناك كانت تقف بظهر أجوف وذراعين معلقين، إلى أبعد ما يمكنها عن استدارة مايلول. تقبل ماغز ذلك. الرجل الذي كان عليه أن يجيب من أجل بضع نصب تذكارية حربية نازية ورجلين عملاقين مفتولي العضلات من أجل ستاد برلين الأولمبي 1936 سر بفتاتي الناقصة المقاسات. الأنكى من ذلك، أن تمثالي، بابتسامته الحمقاء، وتمثال بنفس مقاس الفتاة ذات وركين أعرض بشكل ملحوظ نفذه زميلي في الصف تروده إسر، لقيا اعترافاً متأخراً عندما ظهر تقرير نهاية العام عن الأكاديمية بوصفهما مشروعين طلابيين رائعين في شتاء 1949 ـ 1950. كانت صبة الجص، المصورة رأسياً، المدبوغة، ولذلك تبدو مثل البرونز بشكل خادع، متخذة وضعية الاستعداد للتصوير، شديدة النحول، ومتغطرسة، في وضعية التوائية. كان للفتاة الضاحكة صفحة كاملة مخصصة لها.

لم يبد نشر بروشور الأكاديمية خطيراً على وجه الخصوص بالنسبة لي في حينه، لكن بالعودة إلى الوراء يمكنني أن أقيم أهميته. لقد كان الدليل الوحيد، التجسيد الوحيد لمقدرتي الفنية - مجرد زعم حتى حينه - الذي سبق تاريخ وفاة والدتي: توفيت من السرطان في نهاية شهر كانون الثاني 1954. إنها، رغم كونها مهتمة وحتى قلقة، كانت قد صبرت على أطواري الغريبة وهروباتي إلى ما كانت تدعوها بلاد الوقواق الغائم ولم تحد عن إيمانها بابنها. آنذاك كان ثمة شيء يمكنها أن تريه للأقارب والجيران بشيء من الفخر: «انظروا إلى ما فعله فتاي».

Twitter: @ketab_n

من يستطيع أن يخبر كيف أصبحت هذه القطعة أيقونة بالنسبة لأمي. ليتني كنت قادراً على أن أعرض عليها المزيد لتتباهى به. لكن الاسكتشات التي أنجزتها بالفرشاة أو بقلم القصب كانت مثيرة لاشمئزازها: لقد وجدتها قاتمة أكثر مما ينبغي، كئيبة أكثر مما ينبغي. بناء على طلبها استعرت بعض الزيوت من أحد أصدقائي، فرانتز فيته، ورسمت باقة من أزهار النجمة، أزهارها المفضلة، على لوح مصنوع من القشر المضغوط. ستكون لوحتي الزيتية الوحيدة.

لأكثر من عامين كان والداي يسكنان قرب منجم فورتونا نورث للفحم البني في شقة جاءت مع وظيفة أبي هناك، وهي مكان مؤلف من غرفتين مع مطبخٍ صغير، صغير لكنه سهل التدفئة، في اوبرأوسم، وهي قرية كانت موطناً لكثير من عمال المناجم. كانت الخيمة واطئة، وشيئاً فشيئاً كانا يضيفان قطعة من الأثاث تلو الأخرى.

كلما كنت أجيء إلى هناك ـ كانت زياراتي غير معلنة في معظمها ـ سيكون تقرير الأكاديمية ملقى على الطاولة قرب الأريكة، مفتوحاً على الصفحة مع منحوتتي، كما لو أن الأم استشعرت أنني قادم. فقد كانت تأمل دوماً في أن ابنها العزيز سيرتقي إلى شيء ما، والآن لم تعد تأمل في أكثر من ذلك.

كان البرهان الدامغ على الإنجاز واسم المنجز مطبوعاً يبدو أيضاً أنه قد خفف النزاع الطويل الأمد بين الأب والابن ولين لهجة نقاشنا. كان بوسع أختي، التي كانت قد بدأت التمرن في الأعمال التجارية في مستشفى القديسة ماري في دوسلدورف، أن تستمتع بالسلام العائلي والهدوء الذي سببه بروشور الأكاديمية عندما اجتمعنا نحن الأربعة. امتد الوئام حتى إلى الأوقات التي ضيعها الأب أو الابن بشكل شائن على الأم في ألعاب السكات skat على طاولة مطبخنا. كانت السكات

Twitter: @ketab_n

لعبة تعلمتها بمراقبة لعب أمي. فقد كانت معروفة بتقديم المزادات بالمراهنات الخطيرة بشكل زائد ـ ولم تكن تخسرها أبداً تقريباً.

ربما لأنها احتفظت بمثل هذا السهر الحماسي على البروشور فأن الفتاة الضاحكة دوماً، ذات الطول الناقص متراً، قد احتفظت بأهميتها طوال هذه السنوات، رغم أنها وبقية تماثيلي الجصية المتوسطة الحجم كانت آنذاك تعني لي القليل بحيث أنني تركتها كلها ورائي في الأستوديو في نهاية عام 1952، عندما قمت بنقلتي التالية. فقد أخذ طالب زميل اليتيم الصغير معه.

بعد ذلك بعقد، عندما كان لي اسم وأموال كافية، أخبرني أنه كان قد أخذ التمثال معه، لذا يمكن صنع صبة برونز لضمان وجودها الدائم. حدث الشيء نفسه لتمثال **الفتاة ذات التفاحة**، نتاج مهاراتي في تسلق الجدران: إديث شار، التي وقفت كموديل زمناً قصيراً من أجل صفنا وأصبحت فيما بعد فنانة متعددة المواهب في إسبانيا وألمانيا الشمالية، أنقذت الصبة الجصية بعد وقت قصير من رحيلي المفاجئ، وبذلك تساعدني في تذكر زمن كان بغير ذلك، بسبب نقص الذكريات الملموسة، سيصبح ضبابياً مثل صورة فوتوغرافية عرضت للنور.

ثمة القليل جداً مما يمكن حفره. الأمزجة في أحسنها، تتموج من خلال الفواصل ـ البعض ثقيل ومستبد، البعض خفيف بشكل لعوب، لكن الكل غامض؛ لا توجد حادثة تسمني بأنني لاعب أو ضحية، لا ذكرى عما استذكرته فيما مضى بتفصيل مفرط. البصلة تتوقف فجأة. يمكنني فقط أن أخمن ما حدث خارج مرسمي أو دار الإحسان. إنني حتى أرى نفسي كواحد فقط من رسومي التخطيطية [الاسكتشات] الكثيرة: كل واحد بوصفه الرسم الأخير عن الرسم الأصلي.

ربما بقي طالب الفنون في فصله الدراسي الثاني ثم الثالث رغم كونه لا

Twitter: @ketab_n

زال مهووساً بالفن ومدمناً بشكل متقطع على المؤثرات الجديدة، العابرة غير المؤثرة غالباً، جائعاً للحب ومجنوناً بالرقص، لكنني لا أستطيع أن أتأكد مما إذا كنت اتخذت موقفاً في أثناء تلك السنوات في قضايا مثل تقسيم البلد، بدء الحرب الباردة هنا، والحرب الطويلة البعيدة في كوريا، أو إن كنت أكيدا، ما هي الحجج التي استخدمتها. كان زمن الشعارات السائدة: «أيها الأميركي اذهبوا إلى بيتك Ami go home».

كان لدي شعور غريزي بالنفور من الأشخاص الذين وجدوا المعجزة الاقتصادية، التي صدف أن نجحت أولاً في دوسلدورف، مؤاتية لرغبات أغنيائهم الجدد. صحيح، لم أحد عن ذاك الشعور، لكنه آنذاك، وقد كان مخولاً برمي ورقة الاقتراع، فهل مارس المقترع الممكن تخويله في انتخابات البوندستاغ [البرلمان الألماني] الأولى؟ ربما لا. فقد كنت مستغرقاً بالكامل وكلياً بوجودي الخاص والأسئلة الوجودية الملازمة ومن الممكن أن أكون أقل اهتماماً بالسياسة اليومية. عندما أصبحت إعادة التسليح أولاً قضية ثم واقعاً، ربما كان متطوع الحرب الفتي، الطفل ذو الأصابع المحروقة، قد عد بين الكبار المعترف بهم إنما الجبناء السلبيين سياسياً مع ذلك لحركة «اعفيني».

كان المستشار أديناور مثل قناع يخفي كل ما كنت أمقته: النفاق المقنع بالمسيحية، المزاعم الكاذبة بالبراءة، النزعة المادية المسرفة لعصابة من الذئاب في ثياب النعاج. وسط الكثير جداً من التزييف كان الشيء الوحيد الذي بدا حقيقياً لي هو افتقاري إلى المال. كانت الحيل وراء الأبواب المغلقة والفساد الكاثوليكي تظن سياسة. إن المنظف الذي كانت تنتجه شركة هنكل الدوسلدورفية ويحمل اسم برسيل أدى إلى إحداث مصطلح شهادة برسيل. بمساعدته كانت تزال أكثر من عدد قليل من البقع البنية وتتحول إلى بيضاء مغسولة، ودخل الحياة العامة مع الأيدي النظيفة.

Twitter: @ketab_n

والاجتماعيون؟ الديموقراطي الاجتماعي كورت شوماخر، الذي كنت قد سمعته عندما كنت فتى مقرنا على خلفية خرائب هانوفر والذي أعده اليوم بين أبطال زمننا غير المتغنى بهم، نفرني في أوائل الخمسينات بعاطفيته القومية. فوجدت أي شيء بنفحة القومي منفراً. كنت أيضاً أبدي ازدرائي للتفاهات الديموقراطية. بالفعل، إن أي شيء له نكهة السياسة كنت أنفض يدي منه. الآراء الديمقراطية الاجتماعية التي كانت قد فرضت على حلق الصبي المقرن على أرض منجم البوتاس على عمق 950 متراً تحت الأرض من الممكن أيضاً أن تكون قد وقعت في حفرة لا قرار لها. وإذ كان المهووس بأناه، egomaniac فلم يكن يرى ويشعر إلا نفسه. لم أكن أريد مقابلته، لكنني لو قابلته، لكنا قد تشاجرنا.

في أثناء جلسات آخر الليل تلك، عندما كنا نشرب كثيراً من الشاي وندخن كثيراً من التبغ، تشربنا أيضاً كل الكليشيهات التي كانت بحوزة الوجودية لعرضها. مرة أخرى كان السجال حول الحياة بأكملها، مع أنه هذه المرة ـ أو هكذا اعتقدنا ـ على مستوى أعلى. وعندما كنا نختلف، لم يكن ذلك حول جرائم الحرب التي كانت تقع وراءنا، ناهيك عن الشجارات الحزبية للمجتمع أمامنا؛ كنا نتباهى بالتقارب المفاهيمي.

أوه، ربما كان لدفق كلماتنا الليلية مسحة غامضة مضادة للفاشية ومحبة مجردة للسامية. في محاولة للتعويض عن ماضيها، باتت مقاومتنا المحبطة فيما مضى كلها شجاعة وبطولات متبجحة ولم تكن بحاجة إلى إثبات مزاعمها. ربما كنت أحد أولئك الصخابين، الذين نسيت الذاكرة، ذاك الحيوان النهم المنفلت، إعلاناتهم بشكل يدعو للشفقة.

بدأت الأمور تتغير عندما وقعت تحت تأثير معلم جديد، أوتو بانكوك، لكن في هذه الفترة كنت لا أزال تلميذاً لأستاذي الذي كان المحترم لكنه ليس مثيراً أو كاريزمياً بشكل خاص، إنه سب ماغز. لم

Twitter: @ketab_n

يكن يتكلم حول الفن أبدا. كان مفهومه الثابت، الذي لا يتغير للشكل يدعم الواضح والبسيط، وفي أوائل الستينات نشر كتاباً تحت عنوان *صروح Monuments*، الذي وجد فيه الواضح والبسيط في الحجر تعبيراً عنهما. تحت إشرافه، تعلمت مهنتي وبقيت عاملاً يدوياً.

لكن كيف كانت حياتي خارج الأستوديو؟ لقد قرأت ما كانت يداي تقعان عليه وما كان الأب ستانيسلاو يمرره إلي. فقد أصدرت دار روفولت طبعات رخيصة ذات غلاف ورقي من رواية *في نور آب* لوليام فوكنر ورواية *لب المسألة* لغراهام غرين. أنتجت تياراً مستمراً من الشعر يحمل بصمات تراكل أو رينغلناتس أو الإثنين مجتمعين. بقيت أتناول وجباتي في دار الإحسان وكان بمقدوري أن أكسب ما يكفي لاستمر في العيش على وظائف عرضية مثل ترتيب وتنظيف واجهات المحلات أو العمل كحجار في البناء وبرسم البورتريهات لشاربي البيرة المنتفخي الكروش ولزوجاتهم المتمايلات، والأذرع معقودة، في اختبارات الرمي على ضفاف الراين، بسعر ماركين للقطعة الواحدة. كان المال الذي جنيته كافياً لتغطية نفقات التنقل بالترام وتذاكر السينما والمسرح وحفلات الرقص والتبغ ـ نعم، في ذاك الوقت ـ لمدة شهر.

أم أنني أصبحت مدخنا لأول مرة عندما كافأتني نقابة عمال منجم والدي ـ كان لايزال يعمل من أجل أهل الفحم البني على الراين الأسفل ـ براتب قدره خمسون ماركاً في الشهر؟

بأي حال، بدأت أدخن بشكل منتظم عندما قرر الشاب الذي يحمل اسمي أن التدخين هو الشيء الذي يجب القيام به. كان تبغي المفضل، شفارتسر كراوزر، مفروماً بشكل ناعم وبالتالي مناسباً لكي يلف المرء سجائره الخاصة. أما أصناف التبغ الملفوف في المعمل مثل روتهندله وريفال فكانت خارج إمكانيتي، حتى في العلب الحاوية على خمس سجائر.

Twitter: @ketab_n

كنت أدخن كما لو أنني تعرفت عليه في وقت مبكر من حياتي. لا أزمة أرغمتني على الانغماس فيه. لا مشاكل في الصميم، لا شكوك. كان بشكل واضح الحديث الذكي وعمقه الظاهري، هو الذي حرض الرغبة في الانتماء إلى مجتمع المدخنين والحصول بشكل دوري على التبغ وورق السجائر. هذا ما جعلني أتورط ـ أو بالتعبير عن ذلك بشكل لبق ـ جعل مني مدخناً نظامياً.

كان شفارتسر كراوزر يأتي في علبة زرقاء من الخارج وفضية من الداخل، ولما كنت أعسر، فقد أبقيتها في متناول يدي إلى جيبي الأيسر. كنت قد رأيت عدداً من الجنود وعمال المناجم يلفون سجائرهم، ولذلك لم يجد الصبي المقرن مشكلة في إبقاء سائق قاطرته ممونا [بالسجائر].

في منتصف السبعينات، عندما تحولت إلى الغليون، خوفاً من مرض ساق المدخن، كتبت نعوة من أجل سنواتي الكثيرة مع السجائر تحت عنوان «لف سيجارتك الخاصة»: «عندما تلف سيجارتك الخاصة، ينبغي عليك أن تشجب جذرياً كل القطع الزغبة التي ترفض أن تنحشر. عندئذ فقط، عندما يكون التبغ محجوباً بشكل ثابت على امتداد الثلث السفلي للورقة، قاسي الملمس ـ عندئذ فقط أخرج لسانك ورطب شريط اللاصق على امتداد الحافة البعيدة للورقة، باستعمال سبابتك خلفها كخلفية». في هذه النعوة، أمتدح نوعاً من ورق السجائر الذي يمكنك الحصول عليه في هولندا، ليس له مادة لاصقة لكنه مع ذلك يلتصق وأنهي بوصف ميزة خاصة تأتي من لف المرء سيجارته: الأعقاب ذاتية اللف كلها فريدة، كل واحدة محنية بشكل فني وكل يوم تدعني نفاضة سجائري أعرف كم تتقدم أزمتي».

بالنظر إلى الوراء ـ إذا قسمت حياتي حتى الآن إلى ثلاث فترات: فترة اللامدخن، فترة لف سيجارتك الخاصة، وفترة الغليون ـ كانت

Twitter: @ketab_n

فترة اللامدخن في الحرب وما بعد الحرب هي الأفضل. بالمتاجرة بقسائم سجائره وبطاقات الحصص من السجائر التي حلت محلها فيما بعد، كان بإمكان اللامدخن أن يعتمد على كل أنواع المنافع ـ كان ثمة زمن، على سبيل المثال، عندما سيجارة فعلية واحدة، التي كانت تسمى المنتجات المصنوعة في المعمل، تجلب بيضة، في حين كانت الميزة الوحيدة التي يمكنك أن تعزوها إلى التدخين هي اللذة القصيرة المستمدة من كل مجة. مع ذلك فقد كان رذيلة أعاف التبرؤ منها.

بعد تحذير الطبيب فقط تخلى ابن الخمسين عاماً، الذي أصبح لف سيجارته الخاصة بالنسبة له هوساً، نوعاً من البديل عن الحماس الديني، عن اللف اليومي والتدخين وبمساعدة نماذج مكسرة أرسلت إليه من قبل صديق من النوع الرديء يتحول إلى الغليون، لا يزال إلى هذا اليوم يضعه جانباً ولا يسمح له بالظهور إلا عندما يشكل تماثيل صلصالية ـ إنسانية أو حيوانية ـ وكل الأصابع العشرة مشبعة.

باستذكار ما حدث من الممكن أن أتفكر فيما إذا كنت الآن سأعفى من إثبات حقوقي لدى شرطة الأخلاق المعينين ذاتياً الذين (كم كانوا متحضرين) ضيقوا رؤيتهم إلى حظر على استهلاك النيكوتين وحتى اتخاذ احتياطات من أجل المخالفين الذين لا سبيل إلى علاجهم على هيئة مناطق تدخين محدودة جداً، ومع ذلك من يستطيع أن يخبرنا أية العقوبة الشديدة يمكن أن تأتي أخيراً ـ أو غداً، لو لم أهجر مهنة نحت الحجارة أبداً لصالح الكتابة والتنضيد بيد واحدة أو باثنتين لمخطوطات أخذت أبعاداً ملحمية وشجعت العادة العصبية، تناول التبغ (كان ثمة وقت دخنت فيه السيجار والسيجارللو أيضاً).

بوصفي لامدخناً مستقيماً تخلي عن عادة الكتابة الوسواسية في حينه، قل سعالي، ولم أخرج بصاقاً ذا بقع رمادية، وأمشي برشاقة أكثر على ساقي اليسرى الخالية من الألم..... لكن يكفي!

Twitter: @ketab_n

في حـين كنـت لا أزال لامـدخناً ـ أو بعـد وقـت قصـير فقـط مـن استسلامي للمتع المنتظمة للنيكوتين ـ وتحت العين العابسـة للبروفسـور سب ماغز، كنت عرضة لجولاته اليومية وتعليماته الموجزة التي يعطيها حول الحفاظ على السطح الصلصالي الرطب للمنحوتة خشناً لفترة طويلة قدر الإمكان، لأنه لو كان أملس بعد وقت قصير أكثر مما ينبغـي فإنـه يخدع البصر، إذ يقول: «إنه يبدو منتهياً فقط».

فيما بعد نقلت أسلوبه إلى مخطوطاتي، فأنا أشذب النص باستمرار، أبقيه في تدفق من طبعة إلى أخرى، وأكتب علـى مناضـد واقفـة لأنـني معتاد على العمل على قدمي. وما كان ماغز يسـمح لنـا بـالجلوس عنـد مشجب عرض الموديلات.

بقيت تلميـذه حتـى نهايـة عـام 1950، في ذاك الوقـت الـذي تم فيـه إنجاز عدد من تماثيل الفتيات النحيلات أو كن يبدون هكـذا. في كـل يـوم في أثنـاء هـذه الفـترة، في حـين كنـت أرفـض بشـكل دائـم أن أحـاكي الانحناءات المايلولية للموديلات القصيرات السمينات إلى البدينات عمومـاً، فإن أحد زملائي في الصف، المحارب السابق ذا العين الزجاجيـة، سـوف يصفر ثيمات وموتيفات من كل سمفونيات بيتهـوفن التسـع، بالإضـافة إلى كونشـرتوهات البيـانو. كـان تكنيكـه مـذهلاً. إذ كـان بمقـدوره أن يصـفر سويتات وسوناتات كاملة، كل ما لدى الموسيقى الكلاسـيكية لتقدمـه، مـن باخ إلى برامز، بشكل نابض بالحياة وبمهارة بحيث أنني منذئذ فصاعداً لم أجد عناء في تمييـز سمفونيـة بيتهـوفن الثالثـة مـن سمفونيتـه الخامسـة أو شوبرت من شومان. كان يصفر بشـغف متحفظ، أي لـيس بصـوت مرتفـع لكن ليس لنفسه، مكرراً ألحاناً فاتنة بشكل خاص، هذه القطعـة الموسـيقية المتمهلـة أو تلـك، سـوناتا كرويتسـر بعنـوان *Eine kleine Nachtmusik* . كان بمقدوره ـ إن كنت أتذكر بدقة، أي بلا نزعتي المشـهورة إلى المبالغـة ـ أن يصفر مقاطع كاملة من Art of Fugue لباخ.

Twitter: @ketab_n

في حين كان المحارب القديم يصفر ألحاناً معروفة للآخرين لكنها جديدة بالنسبة لي، فقد كان يستعمل عدة صنع الموديلات الخشبية المستوية لتمليس سطح تمثال صلصالي بالحجم الطبيعي، امرأة ماشية فيها شيء مصري، شيء يشبه المومياء، إلى أن حثته قطعة موسيقية سريعة مرحة على تخشين السطح بأداة قولبة سلكية مثلمة. ثم أعادته حركة بطيئة إلى التمليس. كانت المرة الوحيدة التي قطع فيها الذواق برنامج معزوفاته عندما كان ماغز يقوم بجولاته.

تلك هي الكيفية التي اكتسبت بها تربيتي الموسيقية بشكل عرضي، ونظراً لكوني جائعاً إلى التعلم، فقد كنت سأستفيد أكثر حتى من الصافر لو لم أكن في نزاع مع معلمي.

ليس معنى ذلك أنني كنت أستفزه. فقد كان هو أيضاً يبدو راضياً تماماً عني وعن حضوري المنتظم واجتهادي. عندما كان أحد الموديلات الجصية الذي كان قد أنجزه، وهو امرأة راكعة ضخمة بنقش ضئيل البروز، كان جاهزاً لتحويله إلى كلس صدفي، طلب مني أن أشارك في العملية، بأجر محترم. كان الموعد النهائي يقترب بسرعة. كان دوره هو أن يزخرف مدخل مبنى حكومي على جسر مانزمان، أما أنا فقد اشتغلت على السقالة إلى جانب رجلين من شركة كوستر، أنحت الكلس الصدفي من نوع غرنتسهايم، وهو حجر ذو كثافة متبدلة بشكل ماكر.

بصلصال تشكيل الموديلات، أضفت امرأة مضطجعة ذات فخذين منفرجين، فاستاء ماغز من الفرج المكشوف والوضعية المبتذلة ـ برأيه ـ الأمر الذي يتعارض مع «الشكل مغلق، البسيط». لقد ألح علي بقوة أن أقرب الفخذين. عندما رفض التلميذ مراعاة مفهوم البروفسور للحشمة والشكل، وصل الأمر إلى المكاشفة. «لا شيء مثل هذا يحدث تحت إشرافي»، قال البروفسور، «ولن يحدث أبداً»، أضاف.

Twitter: @ketab_n

أو من الممكن أن يكون قد وضع الأمور في يديه هـو، وأغلـق كـل مـا هو، برأيه، ينبغي ألا يكون قد فتح أبداً: الصلصال لين ويخضع.

تعرض الذاكرة عدداً من الطبعات، بعضها أكثر تملقاً لـه، والـبعض الآخر أكثر تملقاً لي. في بعضها استرجعت وضعية الفخذين مباشرة بعد محاولته لتصحيح الإساءة: لأن الصلصال يخضع.

بالرغم من أن النزاع بين المعلم والتلميذ خفت نبرته، فقد تمسك كل واحد منا بموقعه على الأرض: فهما لم يكونا مصنوعين من صلصال؛ لم يكونا لينين أو يخضعان. ولم تثمر المحاولات لمصالحتهما، التي قام بها المحارب القديم ذو العين الزجاجية والصافر الموهوب، الذي رأى نفسه بمثابة الناطق باسم صفنا.

وهكذا بدلت المعلمين. لقد ساعدني ماغز على نيل الدخول إلى أستوديو اوتو بانكوك. لم أعد متحمساً للدراسة مع ماتاري، الذي كان قد تبنى الزخارف المسيحية المتقشفة، وحتى المجسمة للصفات البشرية، لتلميذه المهيمن آنذاك، جوزف بويز. كان الوقت قد حان للانعتاق من المعايير المفروضة من فوق والبحث عن طريق ـ أو مهرب ـ لمعاييري الخاصة.

رغم أن بانكوك لم يكن نحاتاً ـ فقد عمل بشكل شبه حصري في الفحم الحجري والروسم الخشبي وقيل حتى إنه أعمى ألوان ـ فقد اجتذب التلاميذ الذين كانوا أكثر عاطفية من معظمهم ومعروفين، كما كنت آنذاك، بامتلاكهم إرادة خاصة بهم. بقيت متصادقاً مع زملاء الدراسة السابقين، بياته فينستر Beate Finster، زهرة المنثور، مع أنها لا تزال مزهرة بشكل دائم، وبالأخص تروده إيستر Trude Easter، ومانفرد [ها] الوسيم، وهو فايكينغ مجعد الشعر من فريزلاند الشمالية خطف لاحقاً ـ قصة في حد ذاتها ـ ونقل إلى باريس.

Twitter: @ketab_n

لا بد أن معلمي الجديد كان في منتصف الخمسينات من عمره، رغم أن لحيته المكتملة، الشائبة قبل الأوان جعلته يبدو أعمر، ومهيباً، يشبه قليلاً الرب الأب. مع أنه لم يكن ثمة شيء من التجهم التوراتي فيه: كان متأنياً، وحتى ليناً، مع تلاميذه، الذين كانوا يفكرون فيه كموديل لدور أكثر من كونه معلماً. ولم يكن طول قامته فقط هو الذي جعله يراقب كثيراً.

إن السبب في أن المسيحيين الأوائل كان يتعقبهم الهازئون هو أنهم ظهروا ـ أو بدقة أكثر، كشفوا أنفسهم ـ بوصفهم مبدأيين إلى درجة عالية بالطريقة التي كان بها بانكوك. كان يشع روحاً ثورية لكنها لطيفة. عقيدته السلمية التي وجدت تعبير **المسيح يكسر السيف**، وهو روسم خشبي وصل إلى جمهور عريض كملصق ضد إعادة التسلح الألماني، خدمتني كمعيار لزمن طويل، في أثناء الاحتجاجات ضد الصواريخ المتوسطة المدى السوفييتة والأميركية في الثمانينات أو حتى لزمن أطول. في الأعوام الأخيرة من القرن المنصرم، عند إنشاء مؤسسة لأجل شعبي روما وسينتي مع جائزة نقدية لم أكن أحتاج إليها تحديداً، وجدت أن من الطبيعي فقط أن أسمي الجائزة التي خططنا لنيلها كل عامين اسم جائزة اوتو بانكوك.

كان محظوراً على بانكوك أن يرسم أو يقيم معرضاً أثناء العهد النازي. فقد عاش مع الغجر وارتحل معهم، ونظم شعراً تصويرياً عن حياة هذه الأقلية المضطهدة طويلاً، وفي النهاية أتلف القسم الأعظم في روسمات خشبية لاحصر لها ورسوم الفحم الحجري. لأنه كان يعرفهم بشكل جيد للغاية استطاع أن يحول محاكماتهم ومحنهم إلى سلسلة من الصورالتي تصور آلام المسيح، صفحات كبيرة مليئة بظلال لا نهاية لها من الرمادي بين الأسود والأبيض.

Twitter: @ketab_n

لقد شكل الغجر، صغاراً وكباراً، طاقم شخصياته، ولم يكن مرسمه الخاص فقط بل مرسم تلاميذه أيضاً كانت تزار بانتظام من قبل ناجيي أوشفيتز ـ بيركناو من خطهم المصغر بشكل كبير. فقد كانوا ينتمون إلى عشيرة بانكوك الجامحة الشديدة الحماسة والصوفية. كانوا أكثر من موديلات. كان زمناً عندما كانت المبادئ العتيقة المبعثرة، أو هكذا كنا نأمل، للنظام تسجل عودة، كل شيء ظريف وملمع، أمام أنظارنا، لكننا كنا نتصرف مثل الأطفال المتمردين للاستعادة.

تغير المشهد على خشبة المسرح حيث الشخصيات تظهر في ذاكرتي، أولاً في زي، ثم في آخر، ويساعدون أنفسهم من صندوق الدعائم. ولأنه تحت حماية الرجل الكريم ذي اللحية الكثة بشكل غريب فأي شيء وكل شيء في الفكر والصورة كان ممكناً، بعد ذلك ببرهة عندما بدأ الحبر يسيل من قلمي، وجدت شخصية مسرحية مخترعة مكاناً في معرض تماثيل بانكوك. وهو لم يملأ فصلاً تلو الفصل من الرواية الجائعة للزمن فحسب، محتلاً خشبة المسرح المركزية، الـ be – all الـ end- all سواء كان منفعلاً أم فاعلاً، فأوسكار ماتسيرات قد وجد لنفسه وظيفة أيضاً كموديل في الأستوديو.

كان، وهو المشتهى من قبل الرسامين والنحاتين على السواء، مثالياً لأجل التصوير الرمزي، المشحون عاطفياً. كان صغيراً وأحدباً، يجسد جنون العصر المنصرم والعصر الذي بدأ للتو. ولأنه كان كليهما، كان بمقدوره أيضاً أن يكون عكس ذلك كله. كان اللقاء به مثل الوقوف أمام مرآة مقعرة: في حضرته كل واحد كان يتخذ مظهراً جديداً.

أصبح اوتو بانكوك أيضاً كاريكاتورا لنفسه عندما حاول تحويل أوسكار إلى رؤيته للموديل: أصبح البروفسور كوخن المستنشق لغبار الفحم. وفي اللحظة التي سمع فيها أوسكار مبرد الفحم الحجري

Twitter: @ketab_n

السيبيري للفتاة على امتداد الورقة، رسم صورة بديلة، مسوداً كل شيء في المشهد بالكلمات.

لقد فعل الشيء نفسه مع تلاميذ البروفسور، الذين أظهرت مشاجبهم التأثير الأسلوبي لمعلمهم. إذ انطلق متحرراً فقط من الغجر، وهو يحس أنهم يمكن أن يروا من خلال حيله، ألعابه بالكلمات والصور، والأسوأ، خوفاً من أن يحطموا سحره.

وكنت، أيضاً، أنا تلميذ بانكوك الأكثر انفتاحاً، كنت مستبعداً ليس فقط من الفصول التي استنشق فيها البروفسور كوخن غبار الفحم؛ لقد تلاشيت كليا في السيل الذي لانهاية له من الكلمات التي وصلت في نهاية المطاف، مشذبة في رواية، إلى سوق الكتاب. كنت مجرد وسيلة للكتابة اتبع مسار الحبكة ومن غير المسموح لي أن أنسى شيئاً، لا الحقائق انسكبت في الخرسانة ولا الخدع ظاهرة عندما تضاء من الخلف: مداخل أوسكار.

قرر هو من يجب أن يموت، ومن يجب أن يمنح البقاء الإعجازي. لقد كان أوسكار هو الذي أرغمني على التردد بكثرة على الزوايا الضبابية من سنواتي الأولى. أذن لي بأن أضع كل شيء أدعى الحقيقة بين علامتي استفهام. علمنِي، هو المجاز المحرف مشخصاً، النظر إلى كل ما مفتول بوصفه جميلاً. هو، وليس أنا، حول بانكوك إلى كوخن، المسالم النبيل إلى بركان تسود انفجاراته أية صفحة ورق بقدرة تعبيرية وحشية. إن مجرد حضوره أطلق طقوس عربدة بالأسود؛ رأى الأسود وصنع الأسود؛ حدبته رمت ظلالاً سوداء قاتمة.

عرضياً، عمل أوسكار أيضاً كموديل لأجل ماغز، الذي أعاد تسميته فوراً باسم مارون. إن عدداً من زملائي في الصف الذين كشف لهم حدبته في صفوف مارون وكوخن قد خدموا فيما بعد كحوامل لأجل

Twitter: @ketab_n

هوسه الشديد بالتسمية: صديقي فرانتس فيته، على سبيل المثال، الذي تقاسم معي أستوديو تحت الإشراف المتساهل لبانكوك والذي يلعب دوراً شبحياً في الرواية؛ أو صديقي غلدماخر ـ المزيد منه لاحقاً ـ الذي تحول إلى كليب Klepp، طباخ السباغتي طريح الفراش الذي كان، رغم كونه شيوعياً، يوقر ملكة إنغلترا ونجح في الاستشهاد بعبارة «ليحمي الله الملكة» في عزفه على الفلوت «للنشيد الأممي».

حتى لو أصبح مؤلف في نهاية المطاف معتمداً على الشخصيات التي يبدعها، يجب أن يرد من أجل مآثرهم وآثامهم. من ناحية أخرى، إذا كان أوسكار ذكياً بما يكفي لاستخدامي، وكان، من الناحية الأُخرى، يمتلك الكرم ليترك لي حق طبع كل ما يظهر باسمه. إذا كتبت، فإنك تنكر ذاتك. وحدهم موظفو الضرائب يرفضون قبول حقيقة أن وجود المؤلف هو مجرد قول كذا، أي تخييل، ولذلك فهو غير خاضع للضريبة.

لذلك يجب أن أعترف بأنني أجد من الصعب أن أكشف علنا عن ماضيي من أجل حقائق قابلة للبرهان. ما إن أنزل إلى البزنس حتى يبدو أن شخصاً يبرز فيه. كبطل معترف به عموماً، يلح على حق مولده وفي الوقت نفسه يضايقني باستمرار من أجل حساء الخضر التوراتي من العدس كلما كان التبادل ممكناً.

إن أوسكار يجب أن يكون الأول دائماً، أوسكار يعرف كل شيء ويحكي كل شيء، أوسكار يضحك على ذاكرتي المثقوبة. بالنسبة له، كما هو سهل ليقرأه الجميع، فإن البصلة تقوم بوظيفة مختلفة، لها معنى مختلف.

لتخفيف التوتر و التخلص من عدم نضوجي، الذي يقع اللوم على وحدي بسببه، سأتحول الآن بدون تأخير إلى أسفاري المهمة الأولى. فالعطل الصيفية الطويلة التي تمتد من تموز إلى أيلول قد جعلتها ممكنة.

Twitter: @ketab_n

بدءاً من عام 1951، كان بإمكان أي مواطن من ألمانيا الغربية أن يتقدم بطلب للحصول على جواز سفر. فكانت الموافقة على طلبات سمات الدخول والخروج /الفيزا/ تتم بسرعة نسبية. استباقاً لذلك، كنت قد جنيت ما يكفي من المال للسفر ليس فقط بالعمل ليس كحجار في البناء فقط بل كمصمم عربات ذات منصات لأجل كرنفال كولونيا أيضاً. على إحدى العربات يظهر أديناور وأولبريشت (بالجص فوق شبكة سلكية وخيش) يتمايلان متشابكي الذراعين، في صورة التناغم الألماني الجامع. لا يزال بمقدوري أن أسمع نجاح الكرنفال لتلك السنوات: «من سيدفع للزمار؟ من يملك المال الآن؟».

لكن مصدري الأساسي لكسب المال كان يأتي من العمل على واجهات الكلس الصدفي والترافرتين: أفاريز النوافذ الحجرية كانت لا تزال في حاجة للترميم. كان الأجر الساعي ماركاً واحداً وسبعين [بفنيكا].

في منتصف شهر تموز كنت مستعداً. وعدت والداي بأنني إذا لم أرسل رسائل فسأرسل بطاقات بريدية منتظمة. كانت حقيبتي الظهرية خفيفة: قميص، جوارب تبديل، علبة ألوان مائية، علبة فراشي وأقلام رصاص، مجموعة ورق رسم، وعدد من الكتب. التقطت كيس نوم رخيصاً في دكان يصفي مؤن الجيش الأميركي. اشتريت أيضاً زوجاً من أحذية المسير، تصنف الآن أحذية تنزه.

إخلاصاً مني للغريزة الأكثر أساسية من الغرائز الألمانية وبذلك أسير على خطى التوتونيين، وأباطرة هوهنشتاوفن، وعابدو فن دويتشرويمر، انجذبت إلى ايطاليا، فكانت وجهتي النهائية هي باليرمو، حيث شعرت بالألفة الشديدة في أحلام طفولتي كمرافق شخصي أو مدرب صقور لأجل فريدريك الثاني وعضو في حاشية كونرادين عندما سقط آل

Twitter: @ketab_n

شتاوفر. كان السبب الآخر لعبور جبال الألب هو جرح رفض أن يندمل بالإفرازات السريعة من الشعر أو الاستهلاك الزائد من التبغ: حبي الكبير الأول ـ بعيداً عن افتتاناتي الصبيانية ـ كان قد انتهى إلى لاشيء.

كانت هي، آنروزه، قد انطلقت مثلي لتكون نحاتة. كانت عيناها رماديتين ـ أم كانتا زرقاوين ـ وصعقتني بوصفها جميلة، وكنت أعرف لماذا: كانت الطريقة التي تؤرجح بها تنانيرها وحقيقة أنها تنحدر من شتوتغارت، حيث كانت قد درست مع النحات باوم. حدث ذلك في آذار أو في أوائل نيسان، بأي حال في وقت لم يكن فيه الربيع في الجو تماماً، بل يستدعي التغييرات.

قبل أن يزهر حبنا كنت قد خرجت نهائياً من دار الإحسان ـ ودون جعجعة. في بناية سكنية في شارع يوليشر كنت قد وجدت حماماً فارغاً ذا حوض غير موصول إلى المأخذ الرئيسي للماء ومجهزا بخزانة أطباق وسرير معسكر.

بما أن أختي، التي كانت لا تزال متمرنة في مستشفى القديسة ماري، نجحت في التفاوض على وجبات مجانية لأجلي هناك، لم أجد نفسي تعتني بي راهبات فرانسيسكانيات بشكل إحساني فقط بل بالفرصة لاصطحاب ممرضة أو أخرى إلى الرقص ومن ثم في زيارة قصيرة إلى السرير العسكري للمستأجر الثانوي في شارع يوليشر شتراسه. كانت غرفة الحمام السابقة تحتوي أيضاً على سجادة مصنوعة من ليف جوز الهند، لكنني أرفض وصفها بالتفصيل لأن أوسكار سوف يقاطع، take over، move in on me .

لم تدم مواعداتي مع الممرضات في حمام شارع يوليشر طويلاً. فقد وصلت إلى نهاية مفاجئة عندما دخلت أنروزه مجال رؤيتي، طاردة كل شخصية أنثوية أخرى من الحشد. كانت الوحيدة التي يمكنني أو أريد

Twitter: @ketab_n

أن أراها. وكما يحدث هكذا غالباً عندما يقوم المرء بتصفير العداد على موضوع واحد، فكل شيء يختصر إلى امتلاك: أباشر فوراً في بناء عش فسيح لأجلنا، الحمام بلا ماء قد ثبت أنه ضيق و مملوء بمآثر الماضي.

وهكذا، شرعت مع الرسام والموسيقي هورست غلدماخر، وبمساعدة جار سابق من لانغفور، ومعلم بناء القرميد فرنر كابنر، في إعادة بناء الطابق العلوي من إسطبل في دوسلدورف - شتوكوم، محولاً إياه إلى أستوديو مع غرفة جانبية. كان الهدف هو أن أضفي سقفاً متيناً على حبنا المشرد، وأن أضفي على نفسي أربعة جدران خاصة بي بعد سنوات كثيرة قضيتها في غرف محتشدة بأسرة معلقة. لهذا فإن الحماس الذي جلبته إلى المبنى قد أشعله بالقدر نفسه الحب والمصلحة الذاتية، التي سعت دوماً في السنوات اللاحقة إلى إيجاد متنفسات: الأستوديو في خرائب برلين - شمارغندورف؛ أستوديو آخر، أكبر، في قسم فريندناو من البلدة؛ مع أنه كان ثمة أخر في قرية فيفيلسفلت المستنقعية؛ وآخر صغير على جزيرة مون الدانماركية، في بحر البلطيق؛ منشأة برتغالية قديمة؛ وأخيراً إسطبلي في بلندورف، ضامناً بذلك لنفسي، ولنفسي فقط، الفضاء لأجل مساقط رؤوس جديدة.

إن جزءاً لا بأس به من المادة التي استعملتها - الإسمنت، الحجر، الهيكل المعدني لأجل المنور، والباب المؤدي إلى درج حديدي خارجي - كان يأتي من مواقع بناء غير محروسة أو كان قد دُبر بكلفة متدنية من قبل جارنا السابق، وهو ابن شرطي أصبح رئيس ورشة بناء.

اشترينا الدرج، بكلفة متدنية أيضاً، من متعهد تدمير. جاء غلدماخر بمدفأة حديدية وبضعة أمتار من مدخنة المدافئ لنقل أدخنة العادم من خلال الجدار نحو الخارج إلى العالم. من والدي، الذي كان عمله مع شركة الفحم البني لازال يكافأ جزئياً بشكل عيني، حصلت على دفعة

Twitter: @ketab_n

من قوالب الفحم الحجري، الذي بدأ الناس يجمعونه في الربيع من أجل الشتاء التالي.

لقد سمح لنا أن نستخدم الإسطبل، الذي دفعنا ثمنه مبلغاً زهيداً جداً، وكان يقع خلف بناء سكني ذي تواليت في الطابق الأرضي. كان ثمة شجرة معاقة النمو، لا يمكنني أن أتذكر نوعها، تنمو في الباحة.

احتل غلدماخر حجرة الانتظار، مع مسجلاته ومزاميره القربية، وحقيبة الطبيب المملوءة بمادة الرسم؛ كنت وآنروزه نمتلك الاستوديو ذا المنور، ما يعني أنه يمكننا في الليالي الصافية أن نحصي النجوم في السماء. كان فراشنا ملفوفاً بإطار خشبي مصمم لأجل شد قماش اللوحات. عندما أصبحنا جسداً واحداً متعدد الأطراف، ليلاً أو نهاراً، رافقتنا من الباب التالي مسجلات غلدماخر مستبدلة أغاني البلوز بأغاني الأطفال القصيرة.

دامت سعادتنا القصيرة العمر حتى أوائل الصيف. كان بإمكاننا، آنروزه وأنا، أن ندفئ بعضنا بعضاً خلال الفصل البارد وكانت غريزة الاقتران بالكاد ضعفت لولا أن حبي الأول لم ينته نهاية مباغتة.

كانت والدة حبيبتي، وهي شخص مزعج من بعيد ومنذ البداية، قد رتبتها في النهاية لتكون بنتاً مطيعة بسيل من الرسائل والبرقيات للعودة إلى شتوتغارت فوراً: لا (إذات) ifs ولا (لكنات) buts! تضمنت الرسائل قصاصات من أشياء رهيبة قرأتها في الصحف المصغرة المحلية. كانت إحداها مقالة طويلة حول القتل العنيف لفتاة صغيرة من قبل حجار بمطرقته وحديدة التنقيط، اللتان رافقت صورهما القصة. قورنت بخط اليد القوي لأم غاضبة ببناء الحجر النزاع إلى القتل. وصفت المقالة علاوة على ذلك القاتل بأنه من الشرق وأعسر.

ترددت آنروزه لليلة طويلة ونصف نهار، لكن أمها انتصرت. كان

Twitter: @ketab_n

وداعاً فاجعاً. شعرت بوحدة رهيبة في الاستوديو شبه الكامل بالمنور. كان السرير الآن أعرض من اللازم. لقد افتقدت تنغيمها السوابي Swabian. أصابعها القصيرة القوية. حرمت محروماً من حنانها. تركت الصبي الحقير المنتحب البائس الذي أحاول الآن أن أصوغ نباحاته في كلمات، لكن كل المحاولات لفك شيفرة أفكار تلك الروح المهجورة هي عديمة الجدوى.

حتى ذاك الوقت، كان هو من قام بالهجران، تاركاً النساء والفتيات، اللواتي مل منهن سريعاً، دون وداع.

كان صديقي غلدماخر، الذي قضى الليلة تلو الأخرى يستخرج الجاز باللكنة الألمانية من مسجلاته وآلات الفلوت، غير قادر على تعزيتي، من أجل كل تنويعاته البلوزية الذواقة على الأغنية الشعبية «على النافورة عند البوابة».

ساعدني العمل على المنزل قليلا. ففي مقايضة مجموعة كاملة من طوابع الدولة الحرة النادرة التي كانت أمي قد أنقذتها من فوضى الترحيل، استولى البواب في أكاديمية الفن على عدة كاملة من تجهيزات الاستوديو ـ مشجب عرض الموديلات، منصتان دوارتان، بضعة فرجارات معدنية، وحامل ـ من مدخرات القبو لأجلي. الحامل، مع الغرفة العارية ١١، المنقوشة عليه، لازالت تحتفظ بمكانها في أستوديو بلندورف، رغم أنني لا أستطيع طوال حياتي أن أقول كيف صار هناك.

ولا حتى هذه المقايضة ـ لاشيء ـ كان بإمكانها أن تعوض عن فقدان حبيبتي. باستثناء ربما رحلة. فقد تقدمت بسرعة بطلب للحصول على فيزا. وفي حين كنت أنتظر قمت بعمل بعض الواجهات، بحيث أنني في الوقت الذي غادرت فيه كنت أحمل 300 ماركاً في حقيبة جلدية على جلدي. كان الرحيل يبدو مثل الفرار.

Twitter: @ketab_n

أحرزت تقدماً سريعاً بالركوب متطفلاً نحو الجنوب إلى أن قادتني نزوة جامحة إلى قطع الرحلة في استراحة شتوتغارتية. فركبت سيارة متطفلاً إلى داخل المدينة. كانت الوجهة هي هازنبرغستايغه. شققت طريقي صاعداً التلة، باحثاً عن الفيللا المحجوبة خلف أشجار الصنوبر، حيث التجأت حب حياتي من حجار قاتل وحيث كانت الآن تحتجز أسيرة من قبل أمها الشريرة، حيث أخافتها تلميحاتها إلى حد تصديق القصة.

هل كنت أريد أن ألعب دور الفارس بالدرع اللماع؟ هل كان يحركني الانتقام؟ أم بنتفة من الأمل؟

أعيد عرض الفيلم وأوقفه لأرى نفسي واقفا عند بوابة الحديقة عند الفجر ـ أم هل كان الغسق؟ البوابة صدئة ومنحرفة قليلاً لكنها مقفلة. حديد صب بزخارف. أهزهزه. أهزه. ألوح بذراعي مطالباً بأن يدعوني أدخل، أشتم الأم والبنت، وأنا أصفر بإصبعين. لا أحد يأتي. البوابة ترفض الانفتاح. أشتم مرة أخرى. ثم أتوسل، أناشد، وربما أبكي.

أتمنى لو كان بمقدوري أن أرى ما الذي يفشل الفيلم، الذي يدور إلى الأمام مرة أخرى الآن، في إظهاره: شاباً غاضباً أخلع البوابة عن مفصلاتها وأقذفه بكلتا اليدين إلى داخل حديقة الفيللا المرعوبة.

لابد أنني كنت قوياً بما يكفي من أجل ذلك في سنوات شبابي. لابد أن المهووس المهتاج قد قذف البوابة المصنوعة من الحديد الصب. كانت الخسارة مؤلمة للغاية. لم أعرف كيف أعالج هذا الفائض من الحب.

لكن الفيلم يظهر شيئاً مختلفاً جداً. في رواية ***أعوام الكلب*** يخلع باب حديقة عن المفصلات في نوبة غضب من قبل شخص ما ليس أنا و ـ كرمز للارتماء ـ يرمى إلى حديقة فيلسوف ذي قبعة مستدقة إلى الأعلى، لكن ذلك ق حدث في الغابة السوداء، لأسباب أخرى تماماً، في حين

Twitter: @ketab_n

أنني وقفت عاجزاً على هازنبرغستايغه شتوتغارت، والذراعان متدليان على الجانبين.

هناك وقف، أخرس عند البوابة المقفلة بالمزلاج، يتطلع إلى نافذة سقيفة مضاءة ـ الآن أنا متأكد من أنه زار البيت ليلاً ـ وينتظر عبثاً من أجل الصورة الظلية التي كان يعرفها جيداً، متأملا في ألمه. لا شيء تحرك خلف الستارة؛ لا بومة نعقت، لا عندليب غرد بشيء. نهاية الفيلم، شققت طريقي نازلا التلة.

سلسلة من السيارات والشاحنات ـ في إينسبروك حتى الدراجة النارية ـ أخذتني وأخذت أحزاني، التي تضاءلت بشكل ملموس من مقطورة إلى مقطورة، فوق معبر برنر إلى حيث يزهر الليمون. هناك اتخذت طريقي على عربات تسليم ثلاثية العجلات، العربات التي تجرها الحمير، وفي توبولينو، السيارة ذات المقعدين المحبوبة كثيراً في ذاك الوقت. نزولا إلى مؤخرة السيارة. وتابعت إلى جزيرة صقلية، في نقطة بين سيراكوزه وباليرمو ـ شعرت أنني كنت في منتصف اللامكان ـ بعد ساعات من الانتظار من أجل سيارة أو عربة أو أي شيء على عجلات، بعد أن كانت الظلال قد استجمعت نفسها لأجل الليل، لمحت جماعة من الرجال المسلحين يظهرون من تجويف بين تلتين ضخريتين، وكلما اقتربوا اتضح أكثر أنهم ليسوا فريق صيد، بل عصابة من جواسيس المافيا الريفية. إذ كانوا قبل ذلك بوقت طويل قد شكلوا حلقة حول الأجنبي ذي قبعة القش الغريبة.

أفرغت حقيبتي الظهرية وفلشت أشيائي الخاصة من أجلهم ليروها. ما إن كان قائدهم، الذي كان يرتدي عباءة طويلة مشابهة لرداء الكاهن، استفسر عن أصلي ووجهتي ـ ماذا غير ذلك ـ حتى ظهرت سيارة توبولينو، وهي تنفث الدخان في طريقها مقتربة أكثر فأكثر من

Twitter: @ketab_n

التلة. رفع بندقيته لإيقافها. فقام سائقها المرعوب، وهو طبيب ريف، بأخذ الضيف المفروض عليه إلى كالتانيستا، حيث أنزلني في السوق.

ومغامرات أخرى، والتي حكيتها لأولادي غالباً وبتنويعات كثيرة بحيث لم أعد قادراً على تحديد أيها الصحيح: على سبيل المثال، هذه المغامرة التي أحب أن أنهيها بطلقة تحذرني من التقدم، آتية من بارودة ذات منشأ ألماني، الكاربينه 98 التي تدربت على استعمالها بنفسي - بعبارة أخرى، غنيمة من الاحتلال الذي لا يزال حديثاً. رغم كل شيء، فإن المافيا في شخص زعيمها وعرابها في نيويورك لاكي لوسيانو كان يقال إنها ساعدت الجنود الأميركيين في الاستيلاء على صقلية في عام 1943.

في لقائي مع الأعضاء المحليين «للمجتمع المشرف» في كل أنحاء الجزيرة، اعتبرت حاجاً تقياً: البليغرينو pelligrino التائب على الطريق إلى القديسة روزالينا، التي كانت معروفة بأن لها مقراً في باليرمو. لذلك ساعدوني. ومن كالتانيسيتا أخذني سائق شاحنة طوعاً إلى وجهتي الأخيرة.

في ذاك الوقت كنت قد سافرت عبر توسكاني وأومبريا وزرت روما. في الأوفيزي Uffizi كنت رأيت أخيراً النسخ الأصلية من لوحة تيتيان **فينوس أوربينو** *Venus of Urbino* ولوحة بوتيشيللي **ولادة فينوس** ***Birth of Venus***، وفي قصر بيتي لوحة سودوما **القديس سباستيان** *Saint Sebastian*، جسده الصبياني المثخن بالسهام يتلوى على خلفية مشهد مشجر: أعمال بفضل بطاقات السجائر الملونة جعلتني الشاب المدمن على الفن الذي كنته. يمكنني بسهولة أن أصور نفسي واقفاً أمام البورتريه في بروفيل رجل ذي أنف معقوف وقبعة حمراء، من أعمال بييرو دلا فرانسيسكا.

نمت في فنادق الشبيبة والأديرة، تحت أشجار الزيتون وفي كروم

Twitter: @ketab_n

العنب، وفي أحيان قليلة حتى على مقاعد المنتزهات. حيثما وجدت mensa populare مفتوحة، كنت آكل المكرونة الرخيصة، حساء الخبز مع حبيبات الدهن الطافية طافية فيه، وtrippa alla Napolitano، كون الأخيرة تذوقي الأول لسلعة رجل فقير في أنحاء العالم، مصنوعة من الكرشة، المعدة الأولى للبقرة، التي تبدو، عندما تبرش بالفرشاة وتغسل جيداً، مثل منشفة وبرية.

كان علي فيما بعد أن أقدم هذه اليخنة مرات كثيرة، مع البندورة والثوم والفاصولياء البيضاء، لضيوف أقمت مخزناً خاصاً بهم. لقد صنعتها من أجل أستاذ كاتدرائية ناومبورغ وموديلاته ـ كلهم كانوا ينحدرون من عائلات حرفيين أو فلاحين استوطنت على ضفاف نهر السال Saale بعد الاحتلال العسكري لبلادهم في أوائل القرن الثالث عشر.

كان الأستاذ يقف مرتديا بذلة جيدة عندما جاء ليحفر أشكالا حجرية كلسية لمؤسسي الكاتدرائية. الكونتيسة غربورغ والكونت كونراد ومارغراف هرمان ورغليندديس البهيجة، الكونت الكئيب سيتزو والسوداوي تيمو فون كوستريتس، وأخيرا وليس آخرا إكهارد الثاني وزوجته العاقر، أوتا فون ماومبورغ الشهيرة.

مع أنه في ذاك الوقت عندما جاءت جوقة الغرب عن طريق هذه المنحوتات ـ التي سميت فيما بعد غوطية مبكرة ـ لم يكن ثمة بندورة أو فاصولياء بيضاء، لذلك كان علي أن أستبعد البندورة وأستبدل الفاصولياء العريضة الطازجة. مع ذلك، كان الشريط نفسه الذي عبأني من أجل القليل للغاية في مطابخ حساء روما.

حتى زوجة صانع البراميل، غرتروده الشقراء، التي خدمت كموديل لأجل أوتا فون ناومبورغ التي لا يمكن الاقتراب منها، كانت تمتلك ذوقا؛ سائق العربة الشرس الذي أصبح الصورة المطابقة للكونت سيتزو

Twitter: @ketab_n

لم يكن بمقدوره أن ينال ما يكفي منه؛ وفالبورغا، ابنة الصائغ، التي تم تحويل غمازاتها المرحة إلى Reglindis، ابنة الملك البولندي، طلبت مساعدة ثانية.

بالعودة إلى الوراء في أيام ألمانيا الشرقية، عندما سمحت سلطات تلك الدولة المعزولة لي بشق النفس بالاستمرار في رحلة قراءة لماغدبورغ وإرفورت وييينا وهاله - كان ذلك قبل عامين من سقوط الجدار - قمت أنا و أوته بزيارة كاتدرائية ناومبورغ. في حين أعجبنا بالأشكال المهيبة على مرتفع، أوته تتطلع إلى أوتا، بسطت دليلتنا الخلفية الواقعية الاشتراكية لهذه التمثيلات المنحوتة في الحجر للواقع: «قام الأستاذ باختيار واع لاستبدال القديسين المطوبين بالعمال، الذين كانوا في زمن مبكر يعود إلى العصور الوسطى مشربين بالوعي الطبقي». هي تابعت القول إنه حتى الدعاية الفاشية، التي صنعت عبادة أوتا، لم يكن بمقدورها أن تنتقص من الجمال الشبيه بالحياة لهذه التماثيل. عندما غادرنا، كان بمقدوري أن أسمع رغليندديس وهي تضحك.

جلبت معي ثلاثة عناوين إلى ايطاليا. الأول هو الهازنبرغشتايغه في شتوتغارت، الذي كان قبلئذ قد أدى غرضه. الثاني جاء من أختي فالتراوت، التي كانت قد أتمت تمرنها التجاري في الربيع وكانت تعرض خدماتها على مجموعة من الراهبات خارج روما ينتمين إلى رهبنة مقرها في آخن لكنهن كن يرعين عدداً من المشافي في الخارج كما في الداخل. كان الفرع الرومي يتضمن مدرسة تمريض، وكانت أختي تساعد الراهبات اللواتي يسيرنها.

كانت الراهبات يندفعن دوماً في الجوار أو يكدحن بعيداً في حديقة الدير لزراعة الخضار. كان يبدو أنهن لا وقت لديهن للصلاة. حتى رئيسة الدير كانت تقوم بقسطها من العمل، فتقوم بطي الملابس المغسولة

Twitter: @ketab_n

وتساعد في جني الزيتون. كان ديراً ذا أبواب مفتوحة ومؤسسة فاعلة.

في طريقي إلى صقلية وفي طريق عودتي قدمن لي ضيافة حسنة في مبنى ملحق، في صومعة تطل على تلال ألبان. في كل مساء كنت أجد إبريقاً من النبيذ في انتظاري. أما الوجبة فكانت تقدمها راهبة مطبخ ممتلئة الجسم من أصل ڤستڤالي كانت تحب قبل الانصراف متدحرجة أن تتركني مع فكرة مثقفة أو إثنتين.

كان تستخدم كأس النبيذ الذي لازال فارغاً، الذي يخترقه شعاع قطري من الشمس، لتعطي الكافر تفسيراً صالحاً إلى الأبد لمعجزة الحبل بلا دنس، مشيرة بطريقة البرهان إلى الكأس التي يخترقها الضوء، ومع ذلك فهي سليمة.

هكذا اكتسبت شمس المساء وظيفة الملاك الرئيسي واكتسبت قوة الإيمان لكنة ڤستڤالية.

في حين كانت راهبة المطبخ تقوم بتنويري، رغم كونها بعيدة عن الجنسانية بعد السماء عن الأرض، كانت تبتسم ابتسامة شديدة الشفافية بحيث أنها هي، أيضاً، ربما كانت مصنوعة من الزجاج وتنتظر المعجزة بشكل دائم. ثم، كما لو أنه لم يعد ثمة شيء آخر لتقوله، كانت يداها تختفيان في كمي ردائها الواقي.

حالما انصرفت الراهبة شربت النبيذ من الكأس الطاهرة. عبرت رأسي أفكار فاسقة. حتى عندما كنت شابا لعبت دور الملاك الكبير الذي يفعل أكثر مما يعلن. ومرة أخرى كأسير حرب، بذل صديقي جوزف قصارى جهده في أثناء جلسات النرد ليستميل صديقه إلى الديانة الحقيقية الواحدة. فكنت أنادي أسماء العذراء وأعدد كل وسائل التعذيب التي استعملت لتعذيب الناس من الجنسين باسم أم الرب.

كانت أختي، مع ذلك، تبدو قانعة بين الراهبات المنطلقات

Twitter: @ketab_n

بصخب. كان إيمانها الطفولي، الضائع في وجه العنف المرتكب من قبل الجنود في نهاية الحرب قد تمت استعادته. وهو ما كان له تبعاته.

كان العنوان الثالث قد مرر إلي قبل وقت قصير من انطلاقي، وذلك من قبل دينا فييرني المفعمة بالحيوية، وهي آخر موديل من موديلات أرستيد مايللول، التي كانت تقوم بعمل تجاري /بزنس/ سريع مفاجئ بمنحوتاته من قاعدتها الباريسية. كانت قد جاءت إلى دوسلدورف لتبيع المدينة تمثالاً برونزياً بالحجم الطبيعي. إن الفتاة العارية، وهو تصوير لها نفسها في سنواتها السابقة، ستزين أخيراً قاعدة تمثال في الهوفغارتن.

غنت من أجلنا، الذين كنا ننظر إلى وجودها بوصفه ظاهرة طبيعية، أغاني ثورية ألمانية وروسية. لقد فتلت رأس صديقي غلدماخر تماماً وسرقت مانفرد حبيب ترووده إسر من تحتها، خاطفة إياه إلى باريس، حيث أصبح أخيراً من الصعب سماعه. أما أنا، المحصن ضد التلوثات من هذا الصنف بفعل نوبتي الأخيرة من الالتياع بالحب، فقد أخذت معي عنوان طليقها، الذي كان يقضي فترة منحة حكومية فرنسية في الفيللا ميديتشي في روما. لقد أفهمتني: «إنه يحب الزوار...».

وكانت على حق: فقد استقبل الضيف بدون رفة جفن. ولا بد أنني قدمت نفسي بسرعة في مرسمه الفارغ إنما غير المشغول كلياً، كل شيئ سوى أنه غير مستعمل لأنني أمتلك صورة مشوشة لرأس صلصالي لمضيفي الكسول، السعيد، ذي الشعر المجعد لأوثق بها الفترة الفاصلة. إنها معبرة لكنها غير منتهية، تبدو مثل رسم أولي لظبية.

كنا نأكل، هي وأنا والضيوف الآخرون، الذين كان عملهم على فنهم موجها إلى نقاشات متصاعدة دوما، التي لم أفهمها إلا عبر الإيماءات، وجبات متقنة على طاولة رخامية قديمة طويلة. كنا ندخن قبل وفيما بين وبعد كل حصة تدريسية. كان بمقدور مخرج من الموجة بكاميرا

Twitter: @ketab_n

التي سرعان ما سيدعوها الفرنسيون جديدة، أن يقتنص بكاميرا خفية مشاهد نموذجية نمطية للعصر.

كانت فيللا ميديتشي، الواقعة فوق الدرج الإسباني، مثل مصحة لأجل الفنانين المكرهين على الخروج: كانت الحديقة الفسيحة مليئة بالمقاعد الحجرية الظليلة.

في النهار كنت أتمشى في شوارع روما، عندما كان الحر يسمح بذلك. وحدها الكنائس والكنائس الصغيرة كانت باردة. لاحظت شيئاً آخر: كل نافورة، كل منبر عمود أصبح مجازاً. ألهمت جماعات الكهنة الملفعين بالسواد وبقبعات عريضة الحواف اسكتشات سريعة للحركة. رسمت بريش الحمام والنورس المغمس في قصعة من الحبر الهندي المخفف. كل شيء أصبح موتيفاً: أحصنة العربات الغافية، أطفال الشوارع المرحين، الغسيل على حبال طويلة. المرأة السمينة على شرفتها. الساحات الخالية عديمة الظل.

اشتريت قبعة قش لنفسي. كانت سجائر نازيونالي هي الأرخص، باستثناء سجائر غولواز التي كان زوج دينا فييرني السابق، الذي عاش حياة أمير منفي في مقر إقامته في فيللا ميديتشي، يؤمنها مجاناً. كان مخزوني من تبغ شفارتسر كراوزر الذي يلف ذاتياً كان قد نفد مبكراً.

كل يوم هدية. قطعت مسافة طويلة في تلك الرحلة وحدي، ورغم كونها محدودة الزمن فإنها لم تنته أبداً: حتى الآن، في سن الشيخوخة، فإن كل رحلة جديدة أقوم بها ـ وأوته وأنا سافرنا من قارة إلى قارة، سافرنا عبر الصين كلها والهند والمكسيك ـ بغض النظر عن مدى كونها مخططة بعناية، ومجزية بشكل يمكن التنبؤ به، مع أنها مسعرة بشكل معقول، هذه الرحلة تصبح باهتة بالمقارنة مع الاغتناءات اليومية التي كنت أمر بها في تلك النزهة صعوداً ونزولاً سيراً على القدمين.

Twitter: @ketab_n

لقد عشت: أي، ابتلعت كل شيء، لم أستطع أن أنال ما يكفي، وبكد كما حاولت، كنت غير قادر على حصر الروائع بنظرة واحدة. وقفت مذهولاً أمام الرخام المشار إليه، مسلوب اللب أمام التماثيل البرونزية الإتروسكية بحجم اليد. تفرجت على فاساري في فلورنسا وأرتزو. وفي البالاتزو بيتي في فلورنسا والبالاتزو بورغيزي في روما رأيت المزيد ثم المزيد من بطاقات السجائر في شبابي تتحول إلى لوحات أصلية مؤطرة بإطارات فخمة.

كنت أرسم أي منظر أو شارع أو ساحة ينبغي أن أعرضه، طارحاً الشعر كالعادة، مستحضراً الحر الساكن لهدوء الظهيرة أو نافورة في منتزه ظليل.

سعيداً، حزيناً، كنت أقتفي آثار الرسام الرومي الألماني، فور Fohr، الذي غرق في نهر التيبر في سن مبكر، أقمت صداقات لم تدم، التقيت وفارقت عند تقاطع الطرق، استضفت نفسي هنا وهناك إلى جيليه الليمون، صعدت الدرج الإسباني، تركت أختي تأخذ لقطة لي بقبعة القش كبرهان آخر على هويتي، رممت لوحة (مادونا والطفل) جصية متأذية في دير أومبري مقابل غرفة ومائدة، تركت نفسي أسرح مع لوحة *corso* لبيروجيا Perugia، رقصت تحت عريشة مغطاة بالكرمة مع فتاة إنكليزية كانت تبدو ليس أقل من ملاك بوتيشيللي، تهت في متاهة نابولي، كتبت رسالة طويلة من هناك إلى أمي، أغذي أشواقها بتفاصيل اللون المحلي، جنيت أكثر قليلاً من نقود السفر برسم دعايات البوتاغاز، غادرت إلى باليرمو ـ وهي قصة غالباً ما تغديت عليها خارج البيت لاحقاً ـ في إهاب بلليغرينو، محاطاً برجال المافيا المحلية، الذين أعطوني بندورة وجبن الماعز من أجل الطريق.

فكرت بنفسي بوصفي خارجاً عن القانون، مغامراً ذا شهوة ترحال لا

Twitter: @ketab_n

يمكن إشباعها كان يشعر أنه مختار، لكنني كنت مجرد واحد من آلاف الشبان في الأعوام ما بعد الحرب الذين وضعوا مفهومهم للحرية على المحك بعبور الحدود، المفتوحة آنذاك نهائياً، الذين انطلقوا كيفما اتفق مع أنهم بهدف، إلى أمكنة مثل أسيسي وبومبي وأغريغنتو *con mezzi di fortuna* ، كما يسمي الإيطاليون فن الركوب تطفلاً، التقيت مسافرين تطفلاً كانوا، قبلئذ بسبع سنوات، بهذا اللباس الموحد أو ذاك، قد نجوا من المعركة من أجل المونت كاسينو أو كانوا قد تقابلوا كأعداء عندما نزل الحلفاء على الشاطئ في أنزيو ـ نتونو، لكنهم كانوا آنذاك يتفحصون الموقع بشكل سلمي كأنداد متساوين باللباس المدني. رأيت إشارات إلى مقابر الجنود ذات صفوف أنيقة من الصلبان بقوة كتيبة؛ رأيت الدبش مفرط الكبر بسرعة. كان البحر فاتراً.

التقيت فتيات على طوال الطريق، وحيدات أو مثنى، فتيات من السويد وكندا وسكوتلندا، يرسلن بطاقات بريدية من كل مكان إلى هاباراندا وتورنتو وغلاسغو، لكنني كنت غير متاح، لازلت تحت القفل والمفتاح السوابيين. وقد استمر ذلك إلى باليرمو، حيث قدم الحاج المفترض نفسه للبروفسور روسوني في أكاديمية الفنون الجميلة بدلاً من القديسة روزاليا ـ كما وعد أسياده في المافيا ـ وهناك، حين كنت أحضر صفه في النحت، فتنت فجأة بتلميذته أوررورا فارفارو. انفتح المزلاج؛ تمزقت الستارة. ماذا يمكنني أن أقول؟ حب من النظرة الأولى.....

لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها، ذات مفاتن محمية للغاية بشكل لصيق بحيث لم أستطع إلا في المقاعد الخلفية أن أخبرها، بكلمات قليلة وبأقل استخدام للنحو، عن كل الأشياء التي رأيتها فيها، وما شعرته تجاهها، الالتياع الذي سعيت إلى تهدئته بحضورها الجاهل، ولماذا آلمني للغاية جمالها المحروس بشكل لصيق. بالطبع، أحببت أيضاً رنة اسمها.

Twitter: @ketab_n

عندما منحت الإذن من قبل روسوني بأن أشتغل بورتريها لأورورا بالصلصال، كنا بشكل دائم تحت إشراف أخيها الأصغر، الشرير المظهر، أو تحت إشراف جدتها، التي كانت تأخذ غفوة من حين لآخر. لم يكن مسموحاً بشيء أكثر من النظرات، رغم أن الأنامل نجحت في أن تلتقي، واستطعنا أن نقطع شوطاً مع اللغة الإنكليزية أبعد منه مع الإيطالية. لكن ما كان قد بدأ يأخذ شكل الحب لم يهرب أبداً؛ ولا الرأس الذي بالغت في شكله المتطاول، تجاوز السكتش، مع أن أحد تلاميذ روسوني صنع منه صبة جصية كما يبدو، بعد أن غادرت.

أنا غادرت ـ وهي بقيت. لكن حتى في الوقت الحاضر، بعد انفصال دام لأكثر من خمسين عاماً، لم ينقطع سوى مرة واحدة، في أوائل الستينات، قاد إلى شيء سأتجاوزه بصمت، لانزال على اتصال ولم ننس شيئاً، لاسرية المقعد الخلفي، لا الكلمات المهموسة، ولا لحظات الاقتراب الزائل.

ما الذي كان سيحدث لو بقيت في باليرمو إنما يعود إلى فيلم مختلف كلياً، تراجيكوميديا تحت السماوات الصقلية ستأخذني إلى شيخوخة مرتعشة تتقدم بوهن. ومن تبقوا من الإغريق والسراسنة [العرب القدماء] والنورمنديين والشتاوفريين على تلك الكومة المعزولة من الحطام التاريخي كانوا سيجتمعون ويشكلون المادة الخام لرواية ملحمية واسعة النطاق.

عندئذ ما الذي كان سيحل بدانتسيغ؟ كيف كنت سأتصور المدينة المفقودة من منظور باليرمو؟

في الشاحنة التي منحت المسافر المتطفل مقعداً أمامياً في طريق عودته على قدميه في اتجاه سيفالو، فتحت الصرة التي قدمتها لي كتقدمة

Twitter: @ketab_n

وداع فوجدت شرحة كعك، وبعض التين المجفف، ونصف دزينة من البيض المسلوق جيداً. كانت أورورتي مهتمة للغاية، حبي الذي لم يعش لكنه الباقي، محفوظاً في الكهرمان.

وصلت عائداً إلى دوسلدورف في منتصف أيلول، في الوقت المناسب لبدء الفصل الدراسي. لم يعد ستوديو كيرشتراسه الذي أعيد بناؤه والجاهز تقريباً في ضاحية شتوكوم يبدو موحشاً ومقفراً: باشرت على الفور بروفيلا برقة الورق للقديس فرنسيس وتميثيلات ذات مظهر إتروسكي. كان هناك أيضاً هورست غلدماخر مع مجموعة من آلاته ورائحته النفاذة.

قدم بانكوك اعترافاً إيجابياً إن لم يكن تعوزه الحماسة برسومي وألواني المائية من أسفاري: كان كثيرون من تلاميذه قد عادوا من أمكنة بعيدة يحملون أشياء لعرضها.

إلى الآن، تحجب ذكرياتي عن الرحلة إلى إيطاليا حبكة جانبية غنية بالشخصيات اكتست فيما بعد حياتها الخاصة بها وقدمت المؤونة للرواية القارتة عملياً، بحيث لا يمكن استخدام سوى المتبقي منها لأجل هذا الوصف.

تظهر الصور الملتقطة من قبل هانز، شقيق تروده إسر، غلدماخر وأنا ندخن مايبدو شبيهاً بأعقاب السجائر، مع فرانتس فيته. إننا نأخذ أنفسنا على محمل الجد، كل بدوره. أوه، يا صديقي! لا زلت أفتقدهما. لم يعيشا طويلاً: كلاهما دمرتهما مواهبهما ودمرا نفسيهما. كنت قوياً بما يكفي لأن أبقى حيا بعدهما.

لقد أثمرت صداقتي مع هورست غلدماخر، المعروف باسم «فلوته» بالنسبة لأصدقائه الحميمين، وحبي الدائم لموسيقى الراغتايم والبلوز فرقة جاز من ثلاثة، مع غونتر شول على الغيتار والبانجو. إن غونتر،

Twitter: @ketab_n

الذي كان يدرس ليكون أستاذ فنون، قد درس علم الرسم فعلاً فيما بعد وكان يبدو دوماً في مزاج جيد.

من أجل آلات النقر استعملت قطعة منزلية كانت قد خدمت الجاز منذ أبكر أيامه - في نيو اورليانز - لوح الغسيل، أصدر الإيقاع على فولاذه المموج بثمان أصابع ملبسة بالكشتبانات.

كنا نعزف ثلاث مرات في الأسبوع في التشيكوس، وهو مطعم مؤلف من طابقين في المدينة القديمة الضيقة الشوارع، ذي جو هنغاري زائف. كان عازف صنجات غجري مع ابنه على double bass يملأ بقية الأسبوع. كنا نعزف محشورين في الفراغ بين أسفل السلم المؤدي إلى صالة العرض، وقلوبنا تتلهف إلى الوجبات والأجر المتواضع، أمام جمهور من الأغنياء الجدد وبعض الفنانين الأكثر أو الأقل نجاحاً والمتطفلين عليهم. ولأن المالكين، اوتو شوستر وزوجته، كان من الممكن أيضاً أن يكونا قد خرجا من رواية، دخلا لاحقاً إلى الفصل الذي يقتبس فيه لوح الغسيل من طبل الصفيح.

فعل المؤلف كما يشاء بطاقم شخصياته، مانحاً التشيكوس فصلاً خاصاً به، «في قبو البصل»، وبالتالي أهمية كبيرة، دافعاً بترونات المؤسسة الأنيقة المنهكين لكنهم لا يزالون محبين للحياة إلى ذرف الدموع بمساعدة السكاكين وألواح التقطيع: كان البصل المفروم، صنف خاص جداً من المطهر، ملائماً كله لخز ثقوب قليلة في ما أصبح يعرف لاحقاً بـ «عجز» مجتمع ما بعد الحرب «عن الحداد». هذه هي الكيفية التي سارت بها الأمور. من أجل الأجر، كان بإمكانك أن تبكي حتى تخرج عينيك من مكانهما. كانت الدموع المأجورة تجلب الفرج. اختصر الضيوف الدافعون للمال إلى أطفال مثرثرين تبعوا عندئذ قرع طبل أوسكار الظريف. الأمر الذي يقودني إلى استنتاج أن البصل من بين كل منتجات

Twitter: @ketab_n

الأرض هو الأكثر ملاءمة للأدب. فسواء كان يفض الذاكرة قشرة قشرة أم يبلل مجاري الدمع المجففة ويسبب جريان الدموع، فإنه كناية صحيحة، أما بخصوص قبو البصل فقد كان جيداً لأجل الشغل /البزنس/.

لا داعي لقول شيء آخر: ما يتحول إلى أدب يتكلم عن نفسه. ولكن حتى لو كان المقصود من قبو البصل أن يبقى بعد التشيكوس، لا يمكنني أن أخرج من ذهني وصلة كليبات clip joint اوتو شوستر ـ المزاج الذي تأتي من الهواء الفاسد ومصابيح الزيت الباهتة .

نادراً ما كنا نحن الموسيقيون المناسباتيون الثلاثة نأخذ استراحة. فبعد منتصف الليل بوقت طويل، عندما غادر آخر الزبائن، جلسنا وحشونا أنفسنا بمرق اللحم والخضار من نوع سيغدين. لم أفرط في التدخين، لكنني شربت أكثر مما ينبغي من المرك والسليفوفيتس، وأصناف البراندي المشتراة لأجلنا من قبل الزبونات السيدات الصارخات. كانت عملية صاخبة، وكانت أسعارها قد اعتادت أن تتسلق مما تدعى المعجزة الاقتصادية.

كنت ذاهباً إلى الكلاب. الأكاديمية نادراً ما رأت وجهي. كل ليل كان يبتلع النهار التالي. حديث كئيب. أنفاس سكارى. وجوه الزبائن الغريبة، واحد يتنشق من التالي. مزيد من الثقوب في ذاكرة مثقوبة قبلا. ومع ذلك ثمة شيء يمكنني أن أكشفه، كما لو خلف لوح من الزجاج الحليبي، شيء يمكنني في منتصف الطريق أن أصدق أنني أتذكره: ثلاثتنا ـ غلد ماخر يدفع فلوتاته إلى طبقة أجشة. شول أحياناً يلتقط وأحياناً يضرب البانجو، أما أنا، فتارة أرتد وتارة أخرى أعطيه كل ما لدي على لوح النقر ـ ذات مرة كان لديه زائر آخر ليل مشهور.

بعد جلسة مزدحمة أمام جمهور ضخم ـ كانت بطاقاته قد بيعت

Twitter: @ketab_n

مسبقاً قبل أسابيع - ظهر معبود سنواتنا المبكرة في الشيكوس، مع الحاشية بكاملها. وقد سمع من مسافة طاولات قليلة إلى الوراء نوعنا من الجاز واستمتع به ظاهرياً، أو على الأقل بتفجرات غلدماخر المزقة للأذن، فقد كان صوته غير مألوف.

جلب الضيف البارز، كما علمنا لاحقاً، ترومبيته من غرفته في الفندق بسيارة تاكسي، والشيء التالي الذي عرفناه كان حضوره الذي لا يخطأ في ركننا تحت الدرج - يمكنني أن أراه الآن، يرفع الآلة النحاسية اللماعة إلى شفتيه، منضما إلى مجموعة من النكرات التافهي الأجر الذين كانوا يحاولون فقط أن يفوقوا الصخب في المطعم، بنداء كلاريون لماع، الذي كان عندئذ يأخذ دوره من التمتمة الجامحة لفلوته، فإن عينيه الدوارتين، الضاحكتين في عزف منفرد [سولو]، أجاب عليها عازفنا السولو، واسمه غلدماخر، بفلوته المرتفع الذي كان يلعب على التناغم بين النحاس والخشب، فكان ساتشمو Satchmo مئة بالمئة، الساتشمو الذي عرفناه من تسجيلات مشتهاة، من الراديو، من الصور الفوتوغرافية الصقيلة بالأبيض والأسود. ثم أخرس ترومبيته وسحبه متراجعا، مازجا صوته مع صوتنا لأبدية وجيزة - تاركاً إياي وأصابعي الكشتبانية تنتقل إلى إيقاع جديد، ملحا على بانجو شول، ومسبباً تهليلاً عاماً - وحالما نزل جامع نقودنا، غلدماخر من فصله البهلواني الأصغر من الحجم العادي، نفخ نفخة امتنان بوقية أخيرة، ومعطيا كل واحد منا، إيماءة ودية، فمية نوعاً ما، لقد ولى.

يا لها من زيارة تفقد! لم يكن شول وآلته البانجو أو أنا وكشتباناتي هو ما أغراه، بل فلوته غلدماخر، الذي امتلك البراعة لأجل تحويل الأغاني الشعبية الألمانية إلى أغاني مهاجرة غير مستقرة ونقلها إلى ألاباما: كانت نسخته من أغنية «صياد من البالاتيناته» - أم هل كانت

Twitter: @ketab_n

«آه يا شجرة التنوب»؟ ـ هي ما جذبت أذن لويس أرمسترونغ.

كان مشروعاً محفوفاً بالمخاطر، فقد كان أهل الحي قد جاءوا معاً بيقين وهمي. لم يدم أكثر من ست أو سبع دقائق ـ متى تدوم النعمة أطول من ذلك؟ ـ لكن المشهد، الذي لم يسجله فلاش تصوير، لايزال طازجا في أذني وعيني. إن التكريم الذي توجت به جهودنا للترفيه يعني لي أكثر من كل الجوائز التي نلتها لاحقاً، بما فيها الأكثر تقديراً على الإطلاق، التي منحت لي في شيخوختي الكتابية، إذ منحتني سروراً متحفظاً بشكل تهكمي وعلق بي منذئذ مثل لقب وظيفي آخر.

نعم، حتى لو كانت المخاطرة المهنية للكاتب قد أغرتني بالتجريب عن طريق الإدراك المؤخر لما هو قابل للتصديق وقابل للتحمل على الورق، أي، حتى لو لم يحصل هذا الاجتماع التذكاري في الواقع اللطيف، فإنه يحتفظ بمعنى مجازي: دائماً ضمن المتناول، ذهب الترومبيت، خال من التفسير، فوق الشبهة.

لم يبق شيء في معرض تماثيل بانكوك سوى الفشل البائس لمحاولات فرانتس فيته ومحاولاتي الجريئة للتحليق على قماش الرسم أو الورق البني. لا توجد معجزة تحولنا سوى حساء سمك ترووده إسر، الذي صنعته من أجل الأصدقاء الجائعين من أسماك رنكة عديدة تذكرنا بصيد بطرس الإعجازي.

عادت أختي من روما وقد بات وجودها المعزول مختلفاً بشكل غريب، كما لو أنها غيرت مظهرها الخارجي. كان والداي مرعوبين لمعرفة أنها تنوي أن تصبح راهبة. انتحب الوالد، في حين انزعجت الوالدة. شربت أكثر مما هو جيد لي. لأن فرانتس فيته بدأ يشوش كلماته، واستشاط غلدماخر غضباً وضرب رأسه بالجدران التي كانت قاسية فعلاً وحقاً. كانت الحروب قد نشبت في كوريا وفي أمكنة أخرى.

Twitter: @ketab_n

فقدنا الإيمان بأنفسنا وكنا نعيش على الرصيد في حين ازدهى حشد الأغنياء الجدد بثرواتهم الجديدة.

تركوا أيضاً بقشيشاً كبيراً في التشيكوس يكفي لتمويل رحلتي الكبيرة الثانية، في صيف 1952. وفرت كل الشتاء، أردت أن أبتعد، خارج دوسلدورف، وهي بلدة كانت نرى نفسها «باريس صغيرة»، يرتدي الفنانون فيها زياً بوهيمياً في التجمعات النقابية.

في هذا الوقت ورثت شريكتي رقص سهلتي الانقياد من الاحتفالات الكرنفالية - واحدة تلو الأخرى ومعاً لبضعة أسابيع في الوقت نفسه. قامتا بجولات زارتا فيها مرسمي الواقع في شارع كيرشتراسه في شتوكوم، حيث قدمت لهما، أمام خوفهما، أطباقاً ساخنة على المدفأة الحديدية كالهازنبففر وكلاوي الخنزير الحامضة وكبد الحصان المقلي.

كانت إحداهما طويلة الساقين، والأخرى متناسقة بشكل جيد، لكن قلبي أو بالأحرى، حجراته، كان لايزال غير صالح للسكنى حتى لو كنت منجذباً بشكل مزدوج - بالرغبة والفرصة - إليهما. بعد إتمام التدريبات على صنع الملابس، قررتا أن تخدما الفن، مع أن موهبتيهما لم تكونا جليتين.

مع ذلك أمضينا وقتاً طيباً كافياً. لم تكن مسألة ملكية، لذلك كان اختلاطنا بلا خاتمة مأساوية، رغم أنه لم يكن خالياً من التوتر. استمتعنا ببعضنا بعضاً حتى إشعار آخر.

كانت كلتاهما قد درستا مع مهرج إيمائي فرنسي في البرويكه، وهو مركز ثقافي كانت ترعاه قوات الاحتلال الإنغليزية وفيما بعد، عندما كنت خارج الصورة زمناً طويلاً، لحقت إحداهما، وكان اسمها بريغيته، بأستاذها إلى المعسكر الاشتراكي وعملت كمصممة رقص في برلين الشرقية، لكن حين كنا لا نزال معاً بدأت تلفظ اسمها لفظاً فرنسياً بثقة بالنفس، وهي الراينلاندية الخالية من الهم.

Twitter: @ketab_n

أما الأخرى، رغم كونها من بوميرانيا - كانت مخلوقة فاتنة هشة عندما تمشي بخطوات سريعة تفرشخ بكلساتها الخضراء الصفراوية والأرجوانية تحول الصالة الملكية إلى ممر ضيق - فقد ظلت مخلصة لدوسلدورف والرقص الإيمائي /البانتوميم/ لفترة من الزمن. بعد ذلك بسنوات ظهرت كشاعرة باسم أولـلا في رواية غالباً ما يستشهد بها منذئذ، لكنها في هذا الجانب من الأدب كان اسمها يوتا وكنت اسميها أنا والآخرون أنغل /ملاك/ بسبب سلوكها. هكذا أسميها بحنان إلى هذا اليوم عندما نحيي بعضنا بعضاً، ونحن مسنان، من بعيد.

خططت رحلتي إلى فرنسا بلا بريغيته ويوتا، اللتان تصادفان في معظم الأحيان في وضعيات بانتوميم بطيئة الحركة أو تقومان بمشيات غريبة ومط العنق أمام المرآة. مرة أخرى سافرت متطفلاً، أمضي معظم وقتي على الطريق إلى باريس وبين ساحل البحر المتوسط وساحل المحيط الأطلسي في الشاحنات، إلى جانب السائقين المنهكين جسدياً. غالباً ما كان علي أن أغني لأبقيهم مستيقظين. عند الفجر كان من السهل الحصول على ركوب خارج باريس في اتجاه مرسيليا أو شربورغ أو بياريتز عن طريق الذهاب إلى سوق الهال Les Halles، السوق المركزية الميتة الآن. بغض النظر عن المكان الذي كنت أتجول فيه، إلى شواطئ أي ساحل، كنت أجعل باريس منطلقي، أولاً في بيت الشباب المبتلى بالصراصير قرب بور دو لا شابيل، ثم في غرفة ذات إطلالة على سان سولبيس، في شقة مترجم لكلايست اسمه كاتس.

أصاب الهرج اللغوي لمسرحيات كلايست المتعطشة للدم كاتس بنوع من الجنون الغريب: فكان يجمع الأمازونيات [المسترجلات] قاتلات الرجال من عمله في موكب ويحيي كل واحدة بعبارة «بجعتي تغني بنتسيليا Penthesilea حتى بعد الموت». كان يعقد اجتماعاً رسمياً في

Twitter: @ketab_n

مقهى أوديون وهو يلبس نظارة أحادية العين [مونوكل]، وهو ما كنت أجده مربكاً. كان كما يبدو آتياً من ماينتس إلى فرانكفورت. ولما كان ثرثاراً فقد كان يتباطأ كلما طرح موضوع أصوله أو كيف قضى فترة الحرب.

لو دعت الحاجة، لكان بمقدوري دائماً أن أجد مكاناً للنوم بين رجال الخدمة السابقين العائدين من الجزائر أو من الهند الصينية. فقد كانت الحرب قد ارتسمت عليهم جميعاً بطرق يمكنني تمييزها، وكنا نفهم بعضنا بعضاً بأي خليط من اللغات نستخدمه. أي شخص كان قد رأى ليس الجثث الفردية فقط بل أكوام الجثث يتطلع إلى كل يوم جديد بوصفه هبة.

لوهلة وجدت وسائل راحة مجانية الأجرة في غرفة بسيطة ذات إطلالة على الأسطح والمداخن مقابل القيام بغسل الأطباق لزوجين ينتميان إلى طبقة النبلاء القدماء ـ القديس جورج ـ كانا يتخانقان، مجازياً وحرفياً. ففي كل صباح بعد الفطور كان ضجيج شجارهما ينتقل من غرفة المعيشة إلى الردهة الطويلة إلى المطبخ. في غالب الأحيان كنت أقف بينهما، محاولاً بلغة الإشارة أن أهدئهما، لكنهما كانا، غافلين عن وجود المتفرج، يتابعان قذف الصحون التي غسلتها، أو التي لم أغسلها.

كانا مهذبين دوماً، وحتى ودوين، تجاه مساعدهما في المطبخ، مع أنهما كانا يوفران حنقهما إلى الفترات التي كنت أقوم فيها بغسل الصحون. ليس فقط لأنها كانت إحدى المرات القليلة التي يكونان فيها معاً؛ كان شجارهما يحتاج بشكل واضح إلى وجود شاهد.

في بعض الأحيان كانا يتقاذفان السكاكين والشوكات. ذات مرة كان علي أن أضمد جرحاً في يد السيد اليسرى. كانت معرفتي المحدودة

Twitter: @ketab_n

باللغة تعني أنني أستطيع أن أخمن فقط ما الذي أغضب قاذفي السكاكين ودفعهما أخيراً إلى الحافة. ربما كان إرثاً يعود إلى زمن قديم يغوص عميقاً في التاريخ، إلى اضطهادات الهوغنوت، مثلاً، أو حتى أبعد من ذلك، إلى حروب الورود التي لا تنتهي أبداً.

كان المسيو والمدام يستخدمان الضمير الرسمي vous مع بعضهما البعض. لذلك كانت شجاراتهما محتشمة. استطعت أن أضيف تعليقاً كوراليا وأجعل الشجار ثلاثي الأيدي. إذ قام صديقي كاتس بالإخراج. بالإضافة إلى ذلك، فإن دراما المطبخية قد عبرت عن نفسها في أحد العناوين addresses الأكثر إقصاء في باريس: بوليفار بيرير. إنه عنواني أيضاً.

من كان يكنس الكسرات؟ ربما كنت أفعل ذلك بتعبير هادئ. كنت أقل وجعا بجلسات تهشيم الصحون اليومي مما كان يمكن أن أكون لأن التخاصم الطقسي لثنائي القديس جورج كان يحدث في وقت كان فيه التخاصم منتشراً. كانت الأطروحة تتصادم مع الأطروحة. ليس أنني كنت قد قرأت كامو في ذاك الوقت، لكن المبارزات الشفهية بينه وبين سارتر كانت على شفاه الجميع، رغم كونها عبارات جوفاء أكثر مما هي معلومات موثوقة. كان حديث العبث وأسطورة سيزيف، مدحرج الصخرة السعيد. ربما كان كاتس هو الذي أفسدني، منتقلاً بدون جهد من كلايست إلى كامو، من كيركغارد إلى هايدغر، ومن كليهما إلى سارتر. كان كاتس يحب النهايات القصوى.

في السجال الدائر بين آلهة مذهب الخلاص الوجودي، وهو سجال امتد عبر السنين والحدود، اصطففت مع كامو ـ أولاً بنشاط، ثم بقوة. لكنني ذهبت أبعد من ذلك: التشكيك بكل الأيديولوجيات ورفض كل الأديان. جعلت من دحرجة الصخور نظامي اليومي. أحببت سيزيف

Twitter: @ketab_n

ذاك. ملعوناً من الآلهة، واثقاً من عبثية الوجود الإنساني بقدر ما كان واثقاً من شروق الشمس وغروبها، وبالتالي مدركاً أن الصخرة التي دحرجها صاعداً التلة لن تبقى موضوعاً - أصبح قديساً بالنسبة لي، قديسا يمكنني أن أعبده. إنه بطل ما بعد الأمل أو اليأس. إنسان أسعدته صخرة متقلقلة. إنه لا يستسلم أبداً.

لقد كان في باريس أن بدأت أحكم على مواقف ملتزمة سياسياً، ولو بشكل عرضي فقط، مراهنا بأرضي الخاصة في أثناء نقاشات النوادي الصغيرة مع كاتس وبدونه. صرت بالتدريج أرى أن علاقات القوة السياسية يمكن قياسها. انضممت إلى المناظرة - أو تجادلت مع نفسي إذا دعت الضرورة - وعشت على الطعام الرخيص: البطاطا المقلية pommes frites والفصيد boudin، النظير الفرنسي للنقانق Blutwurst.

تتضمن النتاجات الفرعية الورقية المحفوظة من جولتي في فرنسا كراسة رسوم تخطيطية [اسكتشات] زائد كومة من الرسوم المتوسطة الحجم، شكل عليها ريش النورس وقصبة خيزران خطاً متصلاً واحداً لكنه غير منكسر يشكل رؤوس الرجال والنساء الذين كانوا قريبين بما يكفي للرسم على مدى فترات طويلة كافية في المقاهي وعلى مقاعد الحدائق وفي المترو وفي أمكنة نومي. ثمة أيضاً دزينتان من اللوحات المرسومة بالألوان المائية على ورق أسمر تظهر ليس الرؤوس بقبعات وبدونها وأشكالاً نصفية فقط بل الشوارع في ضواحي المدينة أيضاً. لقد رسمت بضع لوحات بالألوان المائية لقناة سان مارتن الغنية بالجسور ولمناظر حانات، تظهر فيها التأثرات من صفحة إلى صفحة - من بيكاسو ودوفي إلى سوتين. إنها تختلف عن الانطباعات بالحبر الهندي عن رحلتي الإيطالية من العام السابق في تعبيريتها المصعدة. وكلها (خُربشت) بسرعة، مع أنها كانت محاولات لأجد نفسي أو أحداً ما

Twitter: @ketab_n

كنت أريد أن أكونه. لكن من هو الذي كنت أريد أن أكونه؟

كانت كتابتي أثناء الرحلة بالشكل نفسه تلمساً للطريق نحو للأمام. إن سلسلة القصائد التي تدور حول ربان سفينة أوديسيوس هي عرضة للنسيان بشكل بارز. ثم جاءت قصيدة لانهاية لها يتطور في أثناءها عامودي stylite معاصر إلى بطل للعبث: معمار شاب يتخلى عن وظيفته، يقطع كل الصلات مع عائلته ومجتمعه، أي يصبح غريباً تماماً فينصب عاموداً في سوق المدينة ويشرف منه على نشاطاتها اليومية، أي على العالم، المكان الأفضل لغمره بشتائم محملة بالمجاز من موقع أفضليته الرفيع. رغم أنه يدع أمه تطعمه بسارية طويلة.

السبب الوحيد في أني أذكر هذه الملحمة الشعرية، وهي عمل يتغذى على حمية من التعبيرية الألمانية القديمة المتبلة بأبولينير وغارسيا لوركا والغنية بشكل جامح وفقاً لذلك، عمل ثنى عضلاته لكنه لم يكتمل أبداً، هو أن هذا العامودي السكوني قد تطور على مر السنين، ومن خلال سيرورة تخمر مديدة فأصبح مسقط رأس متنقلاً يشتم العالم من المنظور المضاد - الرؤية من على طاولة - ونثراً.

في طريق العودة إلى الوطن من فرنسا قمت بانعطافة صغيرة. وكان العنوان هو كل ما أغراني بالذهاب إلى سويسرا، إلى كانتون آرغاو، وبلدة لنتسبورغ الصغيرة النظيفة.

ذهبت إلى هناك لأرى ممثلة اسمها روزماري لوس كانت قد قابلتني في سينما بدوسلدورف كانت تعرض فيلم أطفال الفردوس Les Enfants du Paradis. في سياق عناقاتنا المستعجلة والمعارك اللفظية المستمرة لابد أنها توسلت إلي من أجل مكابد شهير للجوع، لأنه بعد عودتها إلى الوطن بقيت أتلقى طروداً مليئة بالمتع السويسرية. فقد سررنا فلوته غلدماخر وأنا بالأوفالتين وأصابع الشوكولا والجبن المبشور ولحم البقر

Twitter: @ketab_n

المعالج. عبرت عن امتناني بالعملة الوحيدة التي كنت أملكها: قصائد طويلة وقصيرة.

في لنتسبورغ كانت تسكن وأسرة أختها مع والديها. كان بيتهم الخاص يختلف قليلاً عن البيوت الأخرى في البلدة. كان والدها ساعي بريد، عضواً في نقابة كتاب غوتنبرغ، وكان ديمقراطياً اجتماعياً. مع ذلك، كان صديقها المفضل الذي جاء إلى ما هو مقصود به أن يكون حفلة وداع بالقهوة والكعك بريئة لأجلها، من منبت طبقي متوسط موثوق ولا يبلغ من العمر سوى تسعة عشر. كانت تتحرك مثل راقصة ناشئة ـ بنخعات صريحة ورأس مرفوع عاليا في نهاية عنق طويل ـ وتصرح بأنها، دون أن تسأل، كانت تسلك طريقاً مباشراً إلى برلين، والسبب هو أنها لم تكن ترغب في أن تكون المعلمة التي كان والداها يأملان أن تكونها وقررت أن تدرس فن الرقص التعبيري الحافي لماري ويغمان Mary Wigman، النصيرة الألمانية الشهيرة للرقص الحديث.

قرار شجاع! ومعلن بألمانية عليا طنانة. وبناء عليه تبلور شيء ما بداخلي، شيء لم يكن حتى ذاك الوقت أكثر من رغبة مبهمة. فأعلنت للشلة الملتئمة، أسرة لوس زائد الطالبة المستقبلية للرقص الحديث، أنني أنا، أيضاً، كنت سأنتقل إلى برلين وعلى الفور: المناخ الألماني الغربي لم يكن يوآتيني.

هكذا بدأت محادثة كانت لها تبعاتها المترتبة عليها. فقد تفكرنا هي وأنا في أننا قد نلتقي في برلين، رغم أن برلين مدينة كبيرة، مدينة يمكن أن تضيع فيها بسهولة. مع ذلك، فأنت لا تعرف أبداً....

حينما كنت مسافراً عبر فرنسا ـ وخصوصاً حينما كنت منتظراً ركوبي التالي ـ كنت قد رسمت كثيراً من الصيصان، وقارنت الحركات الناخعة لراقصة المستقبل بمشية الطير التي راقبتها، وهي مقارنة

Twitter: @ketab_n

حاولت فوراً، وإن بشكل غير موفق، أن أعيد صياغتها كـإطراء. عندئـذ تم تقديم القهوة والكعك وعاد النقاش إلى برلين. حزرت روزمـاري لـوس أن قلبي من الممكن أن يكون قد قرر تغييري المقترح للإقامة.

بعد أن ذهبت آنا ـ كان لديها موعد وداع آخـر لتحضـره ـ صـارت النبرة ديمقراطية اجتماعية: السيدة الشابة ذات شهوة الترحـال كانـت تنحدر من عائلة برجوازية مثقفة، راكمت ثروة عـبر تجـارة الخـردوات وفقاً للمبادئ الليبرالية الجيدة. شريكة حياة متوقعـة جيـدة، بالتأكيـد. صيدة جيدة، خصوصاً للألمان المفقرين الذين يمرون من خلال....

ربما أضفى شيء من الغيرة الخفية على مزاحنا صبغة مشؤومة. كنـا روزماري وأنا، المشاكسين كما كنا، قد استهلكنا أحدنا الآخر باسـتمتاع واستعجال. وهنا كنت، مسترخياً، غير منظـور لأحـد، أدخـن سـجائر تدعى (باريزيان) قدمت لي من علبة صفراء.

بأي حال، كانت العائلة المتجمعة حول المائدة لا تزال في تردد تام ـ فالنقاش كان يجري في جزء منه بلغة ألمانية عليا وفي جزء أخر بألمانيـة سويسرية ـ عندما دخل فتى يبلغ عمره حوالي ثلاث سنوات، وهو ابن أخت صديقي مرتاد السينما الحاد الرؤية إلى الغرفة المليئة بالدخان مـع طبل لعبة معلق من عنقه ونقر رقعة الصفيح المدورة بعيدان خشبية.

مرتان باليمين، مرة باليسار. غير آبه بالكبـار، عـبر الغرفـة ودار حـول المائدة بشكل متكرر، وهو يقرع على طبله. لم يكن لتردعه رشاوى الشوكولا أو الملهيات السخيفة وبدا أنه يمعن النظر في كل واحد وكل شيء. ثم فتـل دفعة واحدة على عقبه وأعاد اقتفاء خطواته خارجاً من الغرفة.

كان مشهداً ترك أثره، صورة بقيت معي. لكن سيمضي وقت طويـل قبل أن ينفتح المزلاج، ويطلق سيل الصور ومع الصـور، الكلمـات الـتي كنت أدخرها منذ الطفولة.

Twitter: @ketab_n

أما بخصوص آنا شفارتس، مهما كان ظهورها قصيراً، فقد تركت وراءها أكثر من اسمها.

وهكذا تلقت رغبتي المبهمة في مغادرة دوسلدورف ذات المعجزة الاقتصادية، بغرائب بلدتها القديمة التي تفوح منها رائحة الجعة والجلبة حول نوابغ أكاديمية الفنون فيها، زخماً غير متوقع. في برلين أردت أن أجد «معلماً مطلقاً» جديداً أكثر تطلباً، كما عبرت عن ذلك لاحقاً في طلبي، وأضبط مواهبي المتصارعة في مناخ أكثر قسوة.

قبلئذ في الصيف قبل أن أسافر إلى فرنسا، كنت مفتوناً بمعرض لنحات اسمه كارل هارتونغ، وخصوصا النوعية التذكارية لأعماله الصغيرة. لذلك قدمت طلب انتساب إلى مدرسة برلين للفنون الجميلة، حيث كان يعمل مدرساً، مع حقيبة من الرسوم والصور الفوتوغرافية لبضع صبات جصية وحافظة أوراق تضم قصائد وسيرة ذاتية مختصرة على شكل رسالة. وصل القبول في أواخر الخريف.

لم أهدر وقتاً كثيراً في الوداعات. «إنها بعيدة للغاية»، قالت الأم وهي تنتحب. برلين «مكان خطير»، قال الأب «وليست فقط على حساب السياسة». الأخت، التي كانت بصدد أن تدخل دير آخن، تمنت لي «رحلة موفقة».

إن كلا من الرأس غير المكتمل للقديس فرنسيس والتميثيلات النيو إتروسكية في أستوديو شتوكوم كانا قد جفا. شعرت بالاستنزاف. كانت مغادرة دوسلدورف سهلة.

بعد احتفال بعشية رأس السنة دام الليل كله، رافقني فلوته غلدماخر، شول الغيتار، والابن صاحب الصوت الباصي bassist للغجري عازف الصنجات مودعين، وكل واحد منهم يدخن سيجارة، كما لو كانت سفرتي الأخيرة. جاء فرانتس فيته أيضاً. عزفنا فرقة الجاز

Twitter: @ketab_n

لآخر مرة. بقي لوح الغسيل والكشتبانات على المنصة. لم يكن ذلك كل شيء.

غادرت دوسلدورف على متن القطار الواصل بين المناطق. كان ذلك في الأول من كانون الثاني / يناير عام 1953، في منتصف الفصل الدراسي الشتوي مع قليل من الأمتعة لكنني كنت غنياً بالكلمات والصور التي لم تكن تعرف بعد إلى أين تذهب.

Twitter: @ketab_n

هواء برلين

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

آه، يا أصدقائي! كان القطار ينطلق وكان فرانتس ڤيته لازال يمرح في الجوار: ينط إلى الأمام وإلى الوراء على المنصة، شخصية مراوغة، لا يمكنك أن تمسكه، فهو يفر دائماً في هذا الاتجاه أو ذاك. يختال مثل مالك الحزين أو كأنه يضرب بمنجل، على وشك أن يقلع، يطير بعيداً. مع ذلك فقد تريث، تحول إلى سونوتر Soonother، كما في الكتاب، مع أنه الآن في الصور، بالألوان المتبدلة، متطاولاً حتى: إلغريكو آخر.

ليس قبل وقت طويل، في أحد الاستوديوهات الصغرى حيث تُرك الطلاب الخصوصيون لأوتو بانكوك لحيلهم الخاصة، كنا قد خرجنا بطرقنا المستقلة الخاصة، كان يرقص فوق ألوان قوس قزح، وأنا أعدو معترضاً بالأسود والأبيض. في أحيان قليلة كنت أراقبه وهو يحكي أساطير القديسين بعدد من الفراشي بآن معاً، يبخ دم الشهداء كما لو من نافورة.

على قماشات الرسم تكلم بوضوح مطلق: الأحمر إلى جانب الأزرق، الأصفر إلى جانب الأخضر؛ ومن ناحية أخرى، كان كلامه مشوشاً، يستذكر شعراً ذا جمال رقيق يتلاشى على الورق. كان بمقدوره أن يشكل ناطحات السحب بالكلمات ويسقطها مقطعاً مقطعاً. رغم كونه هشاً بطبيعته، أدعى كونه ملاكاً يلبس درعاً لا يمكن لإرادته أن تقاوم قوة بهيمية. حطم لوحاته باستمتاع بالغ وسكين نحت.

Twitter: @ketab_n

لم يمض وقت طويل بعد مغادرتي في عيد رأس السنة ـ أم كان ذلك بعد عام؟ ـ أن القرميدة المسددة طويلاً عليه قد أصابته في الرأس.

كان ثمة حديث عن شجار في بلدة دوسلدورف القديمة قرب كنيسة القديس لامبرت، ثم حديث عن فتى جوكر اسمه فرانتس فيته يؤدي رقصة في الصالة الملكية على الأسطح المغطاة بالثلج لسيارات الأوبل والبورغفارد والمرسيدس والفولكسفاغن المحدبة الظهر المركونة بشكل ملزوز، إلا أن أي (شاسيه) لم يتأذ لأن الراقص كان خفيفاً على قدميه.

تأكد ذلك فيما بعد. لكن في حين كان يثب من سطح إلى سطح راسماً تعابير وجه مضحكة ـ كان يجيد ذلك ـ أصابت قفا ظهره قرميدة أم حصاة؟ تلك كانت الكيفية التي وضع بها الغضب العارم المدمج لمالكي السيارات المتحدين نهاية لقفزاته في اللامكان.

فيما بعد، عندما اندمل الجرح، ظاهرياً، أُخذ إلى غرافنبرغ، سلمه البوليس بوصفه «مجرماً شهيراً». في العام التالي لمغادرتي زرته في المصحة، أخذت له بعض الحلويات. كان يبدو حتى أكثر تزعزعاً من ذي قبل. كانت له طريقة غريبة في الكلام ويظل يشير بإصبع طويلة إلى الأشجار المورقة خارج نافذة الصالة.

ويقال إن فرانتس، عزيز الآلهة، قد قفز من خلال نافذة الصالة. بانطلاقة راكضة، على طول الصالة، وأخيراً من خلال الزجاج. أراد أن يطير مرة أخرى، أن يكون طيراً أو هواء، ريحاً في الأشجار.

أحد أبنائي يحمل اسمه، صديقي الميت ـ تيمناً به وبالعم الذي صار بطلاً رغماً عنه في مكتب البريد البولندي. كلاهما فرانتسان. عندما غادرت في ذاك اليوم عند الفجر، تركت فرانتس الصغير ـ فرنتسشن، كما كنا نطلق عليه ـ ورائي على المنصة. إلى جانب فرانتس فيته مضطرب بشكل يائس للغاية وليس بإمكانه الجلوس كانت لا تزال

Twitter: @ketab_n

تنتصب صخرة هورست غلدماخر، الذي كان من الممكن أن يفعل أي شيء ـ يرسم بكلتا اليدين، يتملق ألحاناً لم يسمع بها من فلوت بكل أصابعه ـ يفعل أي شيء سوى ما كان يعنيه اسمه، صانع المال [غلدماخر]، ضمناً: كان يائساً من جني المال.

ومع ذلك، ذات مرة استعملت الاسم الواعد لأفزع أمي المسكينة. عندما سألتني بعصبية كيف خطط ابنها الفنان المدلل لأن يعيش حياته، كيف أنوي دفع ثمن تذاكر الترام الشهرية ـ «دون أن أقول شيئاً عن التبغ وما شابه» ـ كان الجواب الوحيد الذي بإمكاني أن أعطيه هو إشارة عرضية إلى مهارتنا، غلدماخر وأنا، بالورق والطلاء. كان بإمكاننا بسهولة أن نستخرج نسخاً عن أشياء تبدو تماماً مثل المادة الأصلية.

لا عجب أن أمي المسكينة ربطت اسم صديق ابنها بأسوأ شيء يمكنها أن تتخيله: عملية تزوير طابق أرضي، عندما تصورت جامع المال هذا وابنها ـ ابنها المشكلة وتابعه الأمين ـ مجداً في العمل. لو ضبط وهو يزور، سواء الجوازات أم الأوراق النقدية، كنت سأهبط معه. بعد وفاة أمي بسنوات كثيرة أخبرتني أختي أنها لطالما توقعت كل حلقة في بابهم الأوبرهاوسم هي عضو في الشرطة المحلية أو، الأسوأ، الشرطة الجنائية.

في الحقيقة، كان فلوته غلدماخر خطراً فقط على نفسه: فهو سيضرب رأسه بالجدران الجصية أو بالبناء العاري ليبرهن كم هو قوي. كان هذا يحدث بفواصل غير منتظمة، وخلافاً لذلك كان روحاً لطيفة، دمثة بشكل فائض، كان يحيي الناس بضع مرات بكياسة عظيمة ولا يمسح حذاءه باجتهاد على الحصير قبل دخول مسكن مضيفه فحسب، بل يكرر العملية لدى خروجه. غدواته وروحاته كانت تزيد من بطئها قاعدة أخرى تفرض ذاتها: سواء كان واصلاً أم منصرفاً، لم ينس أبداً طرق الباب.

Twitter: @ketab_n

أما فلوتاته، من الناحية الأخرى، فكان يعاملها بشكل متهور مثلما يعامل رأسه. أكثر من مرة رأيته يشقها إلى اثنين ويقذف النتف من فوق جسر الراين، فقط ليندب موتها.

كان يعزف سماعياً بشكل كامل، لكن الطريقة التي طعمت بها موسيقاه أغاني الأطفال الألمانية، وترنيمات عيد الميلاد وأغاني الحب العذبة بإيقاعات وأنغام قاطفي القطن السود، كنت لتظن أنها أتت من موسيقى فيلم تم تأليفها حديثاً. كان أيضاً مزخرفاً ماهراً شغوفاً بالتفصيل: كان بإمكانه أن يحول صالة البيرة الأكثر شعبية في البلدة القديمة إلى صالون وايلد وست Wild West جدير بهوليوود أو إلى مقصورات زورق بخاري مسيسيبي فاخر. دوسلدورف لم تكن تضم الزبائن الأثرياء فقط بل الروح المثالية لأجل «علم تذوق الطعام الخادع» أيضاً.

كان جون براون ووالدة جون براون في شخص واحد؛ كان موسى العجوز وبوفالو بيل؛ كان يونس في [بطن] الحوت؛ كان يبكي مع شناندواه، ابنة الزعيم الهندي، لكي يعود النهر إلى منبعه. قبل ظهور فن البوب على المسرح بزمن طويل، كان قد اخترعه سراً، مخططاً ألوانه المشبعة تماماً بالأسود؟

في العام الذي ظهرت فيه رواية *طبل الصفيح* و ـ كما تنبأت عاملة تنظيف ذات مرة من تفل قهوتي ـ بدأت أكون موسوماً بأني شخص مشهور، نجحت في الوصول إلى ديتر فلرشوف، ثم محرراً مع كيبنهوير، لأدس مقطوعة غلدماخر O Susanna في قائمتهم. هذا العمل الفني، توليفة من صور الجاز ومقطوعات البلوز والمقطوعات الروحية والإجيلية، هو متاح الآن فقط في المكتبات المتاجرة بالكتب النادرة وعلى الإنترنت.

بقي فلوته أطول من فرانتس. جاء إلى برلين في أوائل الستينات، عندما بدأت أفقد نفسي في مخطوط *أعوام الكلب*، وزارنا في شارع

Twitter: @ketab_n

كارلسبادر، منفوخاً من البيرة الكثيرة أكثر مما ينبغي. في وسط الخراب المرعب في ذاك الحين، المسكون حتى العوارض الخشبية بأهوال الحرب، أخاف آنا والصبيان ولاورا الصغيرة، المولودة في عام الجدار، طفلة جادة لم تبتسم أبداً أكثر من ابتسامة تجريبية.

لأنه نفسه كان مفعماً بالخوف للغاية ويسيطر عليه القلق فقد كان يثير الخوف والقلق لدى الآخرين. لقد اعتقد أنه كان مضطهداً وسوف يترك الغرف منسحباً إلى الوراء ويتجنب شوارع المدينة أو، عندما يكون ذلك مستحيلاً، يحاول أن يخفي آثاره. فكان يمسح بصمات أصابعه عن الأشياء ويرجوني أن أخبئه في الغرفة العليا الصغيرة من مرسمي لأحميه من الشخصيات المشبوهة التي كانت تلاحقه. حاول أن يجعلني أشتري له كاميرا مميز ورخيصة وغير غالية الثمن من شأنها أن تمكنه ـ هنا أخفض صوته إلى مستوى الهمس ـ من تصوير الشوارع من خلال سرواله. ضحك وبكى في الوقت نفسه. ضرب جبهته بالجدار بشكل أقوى مما سبق، وفقد بدون فلوتاته واختفى ذات يوم، ولم يعد أبداً.

على كل، قبل ذلك بوقت قصير، كان له فاصل مشرق، عندما سجلنا كلانا تسجيلاً على شرف فيلي براندت، الذي كان آنذاك عمدة برلين الغربية ـ هو يعزف على عدد من الفلوتات، العالية والمنخفضة، وأنا أقرأ عشر أو اثنتي عشرة قصيدة من كتابي الثالث *Gleisdreieck*، التي تضم عقيدتي، «الزهد». هناك شريط آخر، صنع في أواخر الخمسينات، عن طبقة الجليد الرقيقة ذات حلاوة السكر، وألحان متكلفة صاخبة ألفها لأجل **الإوزة والطباخون الخمسة**، وهو باليه ليبرتو كتبته لأجل آنا، قد ضاع لسوء الحظ. ظهرت لأول مرة على خشبة المسرح في الـ Aix – les Bains ، رغم أنه ـ مرة أخرى لسوء الحظ ـ بلا آنا.

Twitter: @ketab_n

ذهب ذلك كله. لم يتبق شيء سوى LPs قليلة، مواد جامع الألحان التي أشتهيها. لا شيء سواها وصديقين تركتهما ورائي، جالسين في ذاكرتي، سجناً مكتظاً لا أحد يحرر منه.

هل كنا قد اتفقنا على أن نلتقي أم هل لعبت الصدفة، مرة أخرى، دور المخرج؟ كان الرجل الجالس قبالتي شخصاً يجب الاقتراب منه بحذر. في القطار الواصل بين المناطق، المشغول بشكل خفيف، الذاهب إلى برلين كان بإمكانه أو بإمكاني أن يكون قد انتهى بسهولة في مقصورة أخرى.

كان لودفيغ غبريل شريبر ـ أو لود اختصاراً ـ أعمر مني بعقدين. كان رساماً ونحاتاً ينتمي إلى جيل من الفنانين لم يتطور إلى حد أن يكون محظوراً في عام 1933؛ في الوقت الذي لم يعد فيه قادراً على أن يعرض في صالة شتوكرت أو صالة الأم أي، كانت الحرب قد بدأت، فأمضى الحرب بأكملها في الجيش.

في الآونة الأخيرة كان قد سمي بروفسوراً وبدأ يدرب مدرسي الفن المستقبليين في مبنى غير متضرر في شارع غروهنفالد، لكنني قابلته كسكير شديد في التشيكوس، حيث كان يجلس وحده في العادة، يرطب جبينه بالبراندي بين كل جرعة، كما لو كان يشعر بالحاجة إلى إعادة تعميد مستمرة.

ذات مرة، أثناء فاصل، وضعت لوح الغسيل والكشتبانات جانباً واستجمعت الشجاعة للذهاب والتكلم إليه. عندما سمع أنني أرغب في الذهاب إلى برلين للدراسة مع هارتونغ، كان مساعداً بشكل مدهش. فقد كان هو من نصحني بتضمين رسالة بخط اليد مع المصنف المطلوب: ستعطي انطباعاً جيداً، قال، ستجعله شخصياً أكثر.

كنت الآن جالساً معه وجهاً لوجه. كان يدخن روتهيندله. ألف

Twitter: @ketab_n

سجائر فقيرة من مؤونتي من شفارتسر كراوزر. كان كل واحد منا يتجنب عيني الآخر.

كان لود يتنهد من حين لآخر، كان صامتاً. كنت أريد أن أقول شيئا، لكنني لم أتجرأ.

في دوسلدورف، حيث كان معروفاً ومهاباً كشخص منعزل من السهل استقزازه وسرعان ما يضرب، كان يزور عشيقته، التي كانت متزوجة على الورق فقط. وكان لود، أيضاً، يسكن بعيداً عن زوجته. كان يقوم برحلة يومية يتناوب فيها بين برلين ودوسلدورف، بين الأستوديو والعشيقة.

عندما انطلق القطار، ربما استطعت أن أراها متروكة على الرصيف مثل الأصدقاء الذين جاؤوا ليودعوني بالبانجو والناي والباص. لقد عرفت وجهها الضيق من لقاء قصير وفي صورة وجهية جانبية /بروفيل/، من منحوتاته الخشبية الصغيرة. إن إيتا، وهو الاسم الذي أطلقه عليها، ستكون بالتأكيد قد رافقته إلى المحطة، إن لم يكن طوال الطريق إلى المنصة.

لم ينبلج نور الصباح الكانوني الشاحب حتى وصلنا إلى الرور. كان لود قد تصادق مع الرسامين غولر وماكتانتس وغروته منذ ما قبل الحرب. كانت الأعوام النازية ومن ثم الحرب قد أعادت لمهم. قاموا بمحاولة متأخرة للنأي بأنفسهم عن تأثيراتها. في لوحات لود، كان على التدرجات الدقيقة في اللون أن تصمد ضد البنى المتقشفة.

أنا أحوز على لوحتين بالألوان المائية لشريبر يعود تاريخهما إلى الزمن الذي قضاه كأسير حرب في إنغلترا. إنهما منظران في الحديقة تم إنجازهما بتدرجات لونية ساطعة تطبق اقتصاديا. فيما بعد، بعد أن أصبحنا صديقين وبعد ثلاث أو أربع كؤوس من الدوبلكورن، كان يتكلم

Twitter: @ketab_n

حول السنوات الضائعة وأصبح ساخطاً للغاية بحيث أنه أطاح بضعة متفرجين أبرياء في الحانة بضربات كاراتيه بطريقة التعويض.

في أثناء القسم الأول من الرحلة لم نتحدث كثيراً. هل ربما كنا نائمين؟ من غير المحتمل؟ هل القطار بين المناطق كان يحتوي عربة طعام ميتروبا؟ لا.

ذات مرة في ساكسونيا السفلى المثلجة، لمح إلى شيء ما للقيام به مع التغيرات الفيزيائية. ظننت أنه كان يقصد أن يستخدم مزيداً من الجص على إحدى منحوتاته لزيادة حجمها. لكنني عندئذ تحققت من أنه يحاول أن يقول إن عشيقته حامل. كان من دواعي الصدمة أنه كان يدندن فجأة؛ ثم أنشد شيئاً كاثوليكياً حول الاحتفال بوصول إيمانويل. لكن عندما ولد ابنه وابن ايتا، عمداه باسم سيمون.

كان لزوجة لود، مثل إيتا، وجه ضيق وبروفيل متجهم. كانت عيناها متقاربتين وجاحظتين قليلاً. كنت قد رأيتها في حفل افتتاح، تائهة وصامتة في معمعة النقاشات القوية.

عبرنا نقطة تفتيش الحدود الألمانية الشرقية في مارينبورن بدون أي حادث، مع أن لود اكفهر عندما أخرج جواز سفره بشكل حاقد من جيبه. لا أحد منا كان يمتلك الكثير على خط الأمتعة.

مع القمصان والجوارب التي كنت قد حشرتها في حقيبتي الظهرية الصغيرة كنت قد بعثرت قليلاً من الأدوات، بما في ذلك مكواة تنقيط ولفافة من الرسوم ومصنف قصائدي وشرحة من لحم الخروف المشوي بين قطعتين من الخبز مع بذور الكراوية، هدايا التشيكوس. الطقم الذي كنت أرتديه جاء من أيامي في الكاريتاس /دار الإحسان/.

أتمنى لو كنت أعرف ما الذي كان يخطر ببالي في ذاك الوقت إضافة إلى الرغبة في تغيير المشهد والرغبة في وضع الجو الفاسد

Twitter: @ketab_n

لدوسلدورف ورائي، لكن بغض النظر عن كيف حاولت ذلك، فحتى الصدى لفكرة لم يعد إلي.

أنا موجود ظاهرياً فقط: في الحقيبة السوداء على مشجب الأمتعة والتطريز المسنن للطقم. رغم أنه من الصحيح أيضاً أنه في أثناء الرحلة من الغرب إلى الشرق كاد الضغط المستمر للكلمات أن يفجر جمجمتي: شذرات من الأفكار، ضجيج العزلة، الأرواح المرعوبة التي رأيتها تركض إلى جانب القطار ـ مساقط الرؤوس التي ما كانت تدعني أكون.

كان الرجل الجالس قبالتي محسوساً، وبالتالي أكيداً، إنه لودفيغ غبريل شريبر، الذي لم أسميه لود إلا بعد أن أصبحنا صديقين مترددين، ثم وفيين.

رغم كونه مختصراً إلى لود وممدداً إلى لودكوفسكي، لودشترويم، الأسقف لودفيك، ورفيق الشرب لودريشكايت إلى لودفيك الجلاد أو لودفيغ سكريفر نقاش الخشب، وتغير من قرن إلى قرن، إنه مشبوك في القصة التي كنت أحكيها وفي الوقت نفسه أصبح مشاركاً في روايتي *التخبط*، التي اشتغلت عليها في أثناء منتصف السبعينات. أحد فصولها القصيرة يحمل العنوان «لود» لأن صديقي اختفى من تحتي عندما كنت أكتب.

ذهب لود. لود يسكن في ذاكرتي، لذا لا يمكنني أن أتخلى عنه. الطريقة التي وصفته بها هي الطريقة التي عرفته بها في أثناء سنواتي الأولى في برلين، عندما كنا نلتقي غالباً ونتقارب جداً في بعض الأحيان: «مثل رجل يقاوم ريحاً قوية. ينحني بشكل متجهم وهو يتقدم إلى الأمام عند دخول الغرف المغلقة مثل الأستوديو المليء بالتلاميذ. جبهة وعظام وجنتين بارزة، لكنها كلها مشكلة على نحو رقيق. شعر خفيف وناعم. عينان حمراوان لأنه كان ثمة دوما رياح رأسية قوية. فم مرهف ومنخران

Twitter: @ketab_n

دقيقان. محتشم مثل خربشاته المرسومة بقلم الرصاص».

كان الكونتور /خط الكفاف/ مع التفاصيل الصغيرة مرسوماً ـ كانت تلك تقريباً الطريقة التي كان يبدو بها عندما كان يجلس مواجهاً لي في القطار الواصل بين المناطق إلى برلين، رغم أنه كان أصغر بعشرين عاماً مما كان عندما كتبت تلك النعوة. كتل عظيمة، أمواج من الدخان في مقصورة خالية إلا منا.

هل كانت ناقصة التدفئة، أم زائدة التدفئة؟

هل كان يتعلق بالفنانين اللاتمثيليين كما لو كانوا المحطمين للأيقونات الأصلية أم ينأى بنفسه حتى عن نقاشات غرفة بارنا؟

هل تقاسمنا سندويشة لحم الخروف؟

في الخارج، كان المشهد يمتد منبسطاً تحت الثلج المتناثر، المسكون بالخيالات لأن الناس كانوا في مكان ما لكي يشاهدوا. بعد ماغديبورغ، التي لم يكن بمقدورنا سوى أن نتخيل بقاياها، تكلم لود: حول الابن ـ كان متأكدا من أنه كان ابنا ـ الذي كان قد أنجبه وسوف يسميه، بجعجعة كبيرة، إمانويل؛ حول فن الحثيين والشكل العظيم الذي فقدناه؛ حول ميقينة والنعمة البهيجة للمنمنمات المينوئية؛ تكلم بأنصاف جمل حول المنحوتات البرونزية الإتروسكية، ثم انتقل إلى المنحوتات الرومنسكية لفرنسا الجنوبية وإلى زمنه عندما كان جندياً هناك وفيما بعد في النروج وفي الجبهة القطبية الشمالية ـ حيث «يمكنك بالكاد أن تكشف الإيفانات [الروس] المموهين في ستراتهم الفرائية البيضاء» ـ لينتهي، بعد إحالة ذات مغزى إلى كاتدرائية ناومبورغ وتماثيلها الغوطية المبكرة، في اليونان، رغم كونها تطل فوق العمليات العسكرية على هذه الجزيرة أو تلك لمديح التقشف القديم، من المجيء إلى الراحة، والإحساس الداخلي بالفرح الذي لا يزال يثيره / يحدثه

Twitter: @ketab_n

فينا. لقد تأخرنا كثيراً، قال، «الأتباع، البطالة.....».

وبين موقفي جولة أوروبة الكبيرة هذه، التي، رغم كونها رحلة واجب بدا أنها قد تركزت حصراً على الفن، سوف يقتطف، بلا كؤوس مترعة، شرب نخب المغني الجهير الصوت العجوز في كتابه المفضل، *اويلنشبيغل Uilenspiegel* لشارل دو كوستر Ch. De Coster، باللغة الفلمنكية: «Tis tydt van te beven de klinkaert». هو السكير ذو الخبرة، كان بمقدوره أن يحدث نفسه سكرانا بدون شنابس.

ثم جاءت بوتسدام وأيقظتنا. منصة مليئة بالفوبوس، شرطة الشعب. إعلانات باللهجة السكسونية تترجمها مكبرات الصوت إلى اللغة الألمانية العسكرية. بعد إبراز جوازات سفرنا مرة أخرى من أجل حرس الحدود، كنا في طريقنا عبر برلين الغربية: غابة الصنوبر، الحصص الغذائية، الخرائب الأولى.

بقي لود يقاطع نفسه ويتنهد بشكل اعتيادي، ثم فجأة وبدون سبب ظاهر اعتاد أن يصر بأسنانه، وبذلك يصبح الشخصية المعروفة بالصرار grinder في رواية *أعوام الكلب* لروائي المستقبل، وعندما دخل القطار إلى محطة حديقة الحيوانات عرض بشكل عرضي أن يؤويني ليلاً في مرسمه في شارع غرونهفالد.

كيف عرف أنني لا مكان لي للنوم؟ هل كان يخشى أن يترك وحيداً بين منحوتاته غير المكتملة؟

هناك شربنا كؤوساً من الدوبلكورن ذي المحتوى المرتفع بشكل واضح من الكحول ويدون الاقتباس من أويلنشبيغل *Uilenspiegel*، وأكلنا الزوادات التي جلبها معه: سمك الاسقمري المدخن مع البيض الذي ملحه وفلفله وخفقه في مقلاة صغيرة على السخان في المطبخ الصغير. ثم استلقيت على أحد السريرين اللوحيين في الطرف البعيد من الأستوديو

Twitter: @ketab_n

وغططت في النوم، لكن ليس قبل أن أراقبه وهو يقف هناك وسط عدد من التماثيل الصلصالية المحجبة، يفرك بالرمل تمثالاً نصفياً جصياً كان يبدو مثل محبوبته البعيدة في الصورة الوجهية الجانبية [البروفيل].

في اليوم التالي وجدت غرفة في شارع شليتر أجرتها لي من الباطن أرملة ذات شعر أبيض متموج مقابل عشرين ماركاً بالشهر. قالت لي: «غير مسموح دخول النساء، بالطبع».

وسط قطع الأثاث عديمة الفائدة التي تحتشد بها غرفة المستأجر الثانوي كان ثمة، على الأقل، سرير قديم الطراز. لم تكن الساعة الجدارية تعمل ومن المفترض أنها بقيت على الجدار لتؤكد الانطباع بأن الزمن لم يتوقف. «فقط زوجي كان مسموحاً له أن يقرنها»، أخبرتني، «لا أحد أخر غيره، بمن في ذلك أنا».

على كل، وعدت بأنها ستحمي المدفأة الآجرية في عطل آخر الأسبوع ـ مقابل أجر، بالطبع.

كان راتبي النقابي كعامل منجم قد رفع من خمسين إلى ستين ماركاً في الشهر. بالإضافة إلى ذلك، كانت أرملة أوتو شوستر ـ مالك التشيكوس الذي فقد حياته في حادث غامض ـ كانت قد دفعت مبلغاً محترماً مقابل بورتريه بالنحت النافر كنت قد أنجزتها لزوجها. فدفعت أجرة الغرفة وأجرة التدفئة سلفاً.

كان التصميم الجصي المزخرف الذي يزين الجزء الخارجي من البيت الشققي الذي أمدني بعنوان ثابت قد تضرر بشكل طفيف فقط بشظايا القنابل، لكن الأبنية على جانبيه كانت قد دمرت كلياً في نهاية الحرب، فكان ينتصب هناك مثل ضرس وحيد. فيما بعد، عندما جاء الربيع، رأيت من نافذتي شجرة كستناء باقية على قيد الحياة في فناء الدار ذات أزهار متألقة ممتلئة.

Twitter: @ketab_n

في مقابل البيت الشققي كانت بقايا واجهة بلا شيء إلى اليسار أو اليمين منه: الدبش قد أزيل، تاركاً فضاءات خالية تزوبع عبرها الريح، والثلج المسحوق أولاً والغبار لاحقاً، الذي انتشر بشكل متساو للغاية فوق المدينة بحيث أنني أينما ذهبت ـ المدرسة المجاورة أو مكتب التسجيل ـ سرعان ما كنت أجرش نتفاً من الآجر بين أسناني.

كان غبار البناء يغطي كل برلين، المنطقة الشرقية ومناطق الاحتلال الغربية الثلاث. لكن عندما هطل الثلج كان الهواء مرة أخرى هواء برلين الحقيقي، الخالي من الغبار، كما يتم التغني به في الأغنية الناجحة المدوية من مذياع مطبخ صاحبة البيت: «هذا هو الهواء البرليني» Luft، Luft، Das ist» die Berliner Luft » لم أكتب قصيدة طويلة إلا بعد عقد من الزمن، وكان عنوانها «سيدة الدبش العظيمة تتكلم» كتعبير عن الخضوع للوضع. يقول المقطع الأخير: «برلين تقبع هناك مبعثرة / الغبار يتطاير / ثم يسود الهدوء / السيدة العظيمة للدبش تطوب».

كل شيء كان يمتد أبعد في برلين: المدينة كان لها مظهر رث، مفجوم الأسنان، أقرب إلى الحرب. فالفضاءات الخالية الكبيرة بين جدران النار المنتشرة. أبنية جديدة قليلة، الكثير من الأكواخ والأكشاك البديلية المؤقتة. كان الكورفورشتندام يمر بزمن عصيب يعيد بناء صورته كمتنزه أنيق، مع أنني في شارع هاردنبرغ قرب ساحة شتاينبلاتس، بين محطة حديقة علم الحيوان ومحطة ساحة آم كني ـ فيما بعد ساحة إرنست رويتر، رأيت السقالات التي كانت وراءها تلك الفظاعة الكثيرة الطوابق التي أصبحت المصرف البرليني تتخذ شكلها.

في محل آشينغر كان بإمكانك أن تحصل على حساء البازلاء وكل لفافات الخبز التي يمكنك أن تأكلها مقابل بفنيكات. كل شيء كان أرخص، حتى ورق الكتابة من صنف ماكس كراوزه: اكتب رسائل

Twitter: @ketab_n

بشكل استثنائي تماماً، استعمل قصبة قرطاسية ماكس كراوزرعلى الباصات المكونة من طابقين معي من الجوار إلى الجوار.

وصلت. وفي اللحظة التي وصلت فيها نفضت غبار دوسلدورف عن قدمي. أو هل أمضيت وقتاً سهلاً وأنا أقذف الحصى، لا أنظر إلى الوراء أبداً، أصل وأكون هناك وهناك فقط؟

بأي حال، فقد تقبل مبنى مدرسة الفنون الجميلة وصولي كشيء مسلم به بحيث أنه ربما يكون قد نجا من القصف بالقنابل خصيصاً لأجلي. وقد أحدث معلمي الجديد، كارل هارتونغ، أيضاً جلبة صغيرة، وهو يعرفني على تلاميذه والموديل العاري، التي صدف أنها كانت تأخذ استراحة وكانت تحبك شيئاً يشبه الجورب.

أعطيت علاقة ثياب في خزانة الملابس من أجل سروالي الخاص بالعمل ومشجب عرض أزياء. إن لوتار مسنر، الذي كان ينحدر من السارلاند ويلف سجائره الخاصة به، مثلي، قدم لي بعض التبغ. قبلت في نادي رجال، وكان بإمكان تلميذة هارتونغ الأنثى الوحيدة، فروني، أن تنتمي إليه أيضاً، بفضل بنيتها القوية.

خلف المبنى الرئيسي للمدرسة وباحة مملوءة بالأشجار كانت الاستوديوهات لأجل طلاب النحت والأساتذة ـ شايبه، سينتنيس، أولمان، غوندا، ديركز، هايليغر وهارتونغ. كانت لنا إطلالة على الجامعة التقنية على الجانب البعيد من بقعة فارغة من الأرض إلى يسارنا وزاوية مدرسة الموسيقى إلى يميننا. في المدى البعيد كان بإمكاننا أن نرى أيضاً دبشاً غير مزال / نصف مخفي بالأدغال.

كانت المنحوتات الصلصالية التي أنتجها تلاميذ هارتونغ في أثناء جلسات الموديلات الحية تمتلك استقلالاً خاصاً بها رغم أنها كانت لا تزال تحمل آثاراً من حس أستاذهم بالشكل. التلميذة الأنثى الوحيدة

Twitter: @ketab_n

أضفت على عريها المضطجع الأبعاد الوافرة لجسدها الخاص، لقد صدمتني بوصفها الأكثر موهبة.

كان الجو في مرسمنا هادئاً. لا مظاهر بوهيمية، لا أحد يمثل دور العبقري. كان أصغرنا، غروزن فيرنباخ، ينحدر من عائلة حفاري خشب من الغابة السوداء. جاء طالبان أو ثلاثة من شرق برلين وكانوا يتلقون وجبات طعام في مطعم الجامعة التقنية. دلني فيرنباخ على حانوت مجاور، بتر ـ هوفمان، حيث يمكنني أن أشتري الخبز والبيض والمرغرين وجبنة السندويش بأسعار رخيصة.

في أسبوعي الأول أقمت للوافد الجديد حفلة قدمت فيها سمك الرنكة الملفوف بالطحين والمقلي على صفيحة ساخنة. كنت أشتري سمك الرنكة طازجاً في السوق الأسبوعية بسعر قدره خمسة وثلاثون بفنيكا للنصف كيلو، وأصبح المادة الرئيسية لحميتي الغذائية.

ما إن استقر بي المقام حتى بدأت أعمل على فتاة، مشروع مستقل عن الموديل العارية الواقفة. ضغط صلصال الفواخرجي الأحمر في قالب جصي وشوي ليصبح طيناً نضيجاً terracotta. كانت رسمات الفتاة من رحلتي الفرنسية قد أثبتت قيمتها، وقد بقيت تحفزني الديوك والدجاجات، لفظياً كما عملياً، وصولاً إلى قصيدتي *خصال البط*.

ذات يوم، بعد أن قام هارتونغ بجولاته، وهو الذي يحتفظ بمسافته عادة، حكى لي قصة زيارته إلى الأستوديو الباريسي للنحات الروماني برانكوزي Brancusi، «كعنصر من قوات الاحتلال»، أضاف، ليكون صريحاً كلياً. إن لغة برانكوزي الشكلية «تكثيف الشكل الأساسي»، كانت قد تركت انطباعاً عميقاً عليه. عندئذ، إشارة إلى فتاتي في السياق، «طبيعية، غير واعية بعد».

كان يستخدم الكلمات بنفس الطريقة الرصينة التي كان يشع بها

Twitter: @ketab_n

الضوء الشمالي من خلال نافذة الأستوديو الكبيرة. كانت لحيته الصغيرة مشذبة ومقصوصة. كان قادراً على تطبيق المفهوم الدارج آنذاك «للمجرد» التجريد على كل شيء أو جسد يمكن تجريده. مع ذلك، شن هجوماً على رائحة الرنكة المقلية المنبعثة من خلال الباب الذي يصل مرسمه بمرسمنا، لكنه فهم عندئذ حاجتنا وفي بعض الأحيان كان يدعونا إلى Buletten مع سلطة البطاطا من محل بوتر ـ هوفمان. كان صديقاً لشريبر وتسامح مع نفوذه المتزايد على تلاميذه.

في لحظة ما من شهر كانون الثاني كان علي أن أتقدم إلى امتحان شفهي لأنني كنت قد دخلت في منتصف الفصل الدراسي. إن مدير المدرسة، كارل هوفر، الذي لم ينبس بكلمة واحدة، وتابع ثلاثة أو أربعة أساتذة مناقشة تفسيرية معي في السياق الذي أثارت فيه القصائد التي ضمنتها في ملفي فضول البروفسور غوندا. امتدح مقاطع من الدورة العامودية واستشهد بعدة مجازات تناسلية، واصفاً إياها بـ «الجريئة، وحتى الوقحة»، وهو ما وجدته محرجاً: لقد شعرت أنني قد تجاوزت ذاك النوع من الصور.

من تعليقات البروفسور «الساخرة» فهمت أن غوندا قد كتب وحتى نشر رواية قبلئذ بسنوات. تبين أيضاً أنه من متحمس [للشاعر] ريلكه. وهذا ما مكنني من أن أستحضر ***مفكرة مالته لاوريدز بريغه*** ، وهو عمل كان الأب ستانيسلاوس قد استعمله ليستدرج شحنته الجائعة للكتب إلى مناقشة. عندئذ انتقلنا إلى مكانة ريلكه بوصفه سكرتير رودان وكاتب سيرته. غوندا وأنا رجمنا كل منا الآخر باقتباسات، لم أعد أتذكرها، مع أنها على الأرجح كانت تتضمن السطر من القصيدة الـ «الجولة السعيدة في باريس» وعندئذ وعندما كان فيل كله أبيض....».

طوال هذا الحوار ظلت اللجنة الفاحصة خرساء. ثم كسر هوفر

Twitter: @ketab_n

الصمت وأعلن: «يكفي، يمكن للمرء أن يتحدث إلى ما لا نهاية حول ريلكه، المرشح قد نجح».

لازلت متفاجئاً بهذا الامتحان الذي لم يكن امتحاناً، والاستحسان اللانقدي للقصائد التي كانت، كلها، تشكو من حالة متقدمة من الاستعارة metaphoritis. ربما الوصول الحديث أكسب نقاطاً إضافية من أجل ما اعتبروه إمكانيته كشاعر، ما يمكن أن يصيره ولما يصيره بعد.

تفاجأت حتى أكثر بالصبر الذي تحمل به كارل هوفر، الذي بدا معزولاً كلياً عن أعضاء اللجنة الآخرين، أدائي الجبان أولاً ثم الواثق من نفسه. لكنت أنا أكثر صرامة مع نفسي.

أتذكر وجه هوفر، وجهاً مدموغا بالخسارة. كان حاضراً مع أنه كان محتاراً، جلس هناك ينظر كما لو أن لوحاته المدمرة في عمليات القصف بالقنابل كانت تمر أمام عين عقله، كما لو كان عليه أن يرممها، واحدة تلو الأخرى، في رأسه.

نادراً ما رأيته بعد ذلك، وعندما رأيته كان ذلك فقط عندما كان يمشي ببطء من خلال المدرسة. سرعان ما صدم بقسوة بنزاع مع أحد أبوات الفن العالمي. لم يتجاوز ذلك أبداً، ولم تتم تسويته حتى يومنا هذا.

في يومي الأول لاحظت قمرة الهاتف إلى يسار المدخل الرئيسي. ارتحت لما رأيته مشغولاً، ارتحت عندما كان ثمة ثلاثة أو أربعة أشخاص ينتظرونه. كان التكتيك الآخر هو تفادي النظر في اتجاهه. لأنه حالما صار شاغراً وجاهزاً للاستعمال أغريت وقلت في نفسي: الآن، الآن، الآن...

في مرات كثيرة استجمعت شجاعتي وطلبت الرقم، الذي كنت أحفظه عن ظهر قلب، لكنه علق بعد الرنة الأولى. مرة أو مرتين رد المكتب، لكنه لم يلق أي رد مني، مضيعاً القطع النقدية.

Twitter: @ketab_n

لكنني لم أستطع أن أتحاشى قمرة الهاتف إلى الأبد. هناك كانت، تنتظر بصبر، تنتظر الماطل. فخ. بعد برهة، بدأت أتصور ذلك في طريقي إلى المدرسة أو من الأستوديو إلى الصف.

ظهرت لي، جرت ورائي. حولتني إلى ناسك يعذبه قرص الهاتف، الرقم بالترغيب والمنع. بدا، مفتوحاً ومغرياً، في أحلام المستأجر الثانوي في شارع شلوستر. في الأحلام كنت مهزوماً في غالب الأحيان عن طريق الطنة، رغم أنني في الأحلام فقط حصلت على جواب ومحادثة طويلة سارة. أن تدعوني حشداً سيكون نصف صحيح فقط: كنت سأتلو الرقم مراراً وتكراراً، مثل ابتهال. لقد ساعد ذلك، لكن لفترة وجيزة.

ذات مرة، في أثناء الوقوف في الطابور من أجل الهاتف، اعتقدت أن مغازلة عاطفية مع فتاة تدعى كريستينه من صف سينتنيس قد تبرهن أنها مفيدة. فقد كان ثمة شيء يشبه المهرة فيها. بأي حال، كانت لها تسريحة ذيل الفرس، وكل ما كان علي فعله هو أن أمسدها، لا أكثر. لكنني لم أفعل ذلك، وعندما دخلت هي إلى القمرة قبلي فإن شخصاً كان يبدو للتو مثلي وكان يشعر بالخوف الراسخ من الارتكاب مثلي قد ولى هارباً.

كان حبي جباناً للغاية في حالته الغرة، مدفوناً بلا حياة تحت كلمات رقيقة المقصود منها أن تفي بالغرض، بحيث أنني استمتعت تماماً بمماطلتي وخشيت، ولذلك تحاشيت، أي شيء يؤدي إلى أبعد من ذلك، نظراً إلى أنني في كل مرة قصدت المقصورة عرفت أنك إذا ساهمت بقرشين في الحصالة وطلبت الرقم تلو الآخر، ستسمع بيب / صوت إنذار تلو الآخر يليه صوت بشري يعلن أنك قد وصلت إلى مكتب أستوديو ماري فيغمان، وأنك، لطيفاً كنت أم فظاً كما تجعلك الروح، تعطي الاسم الأول والأخير لشخص لديك رغبة ملحة في التكلم إليه،

Twitter: @ketab_n

وتنتظر إلى أن تنط هي إلى الهاتف وتقول «نعم، من فضلك»، بأجمل لغة ألمانية عليا، وأنت مخدوعٍ، لا عودة، مربوط، عالق. شيء ما يحدث، يقترب، يصير لحماً ودماً، اسمه مكتوب حتى الآن في الغيوم.

وعندما تبادلت في النهاية جملاً قليلة عبر الهاتف مع طالبة رقص اسمها آنا شفارتس، كان من نتيجتها موعدنا الأول. كل ما احتاجه الأمر هو مكالمة واحدة.

لما كان من الصعب علي أن أتذكر أعياد ميلاد أبنائنا الصغار وأحفادنا، لا أزال أتذكر ذاك التاريخ: التقينا في 18 كانون الثاني 1953. بالنسبة لي ـ لقد تصورت على الدوام أحداثاً تاريخية كالمعارك ومعاهدات السلام باعتبارها تحصل في الحاضر ـ التاريخ الذي أراد فيه بسمارك أن يظهر الرايخ الثاني إلى حيز الوجود لايزال مفيداً، وهي حقيقة ترد إلى الذهن كلما تذكرت ذاك اليوم البارد الجليدي، هل كان يوم سبت أم أحد؟ ـ وسياق أحداثه الأقل وضوحاً.

كنا قد اتفقنا على أن نلتقي في الساعة الواحدة عند مخرج محطة U من محطة حديقة الحيوانات. منذ الوقت الذي جرحت فيه وفقدت ساعة اليد من ماركة كينتسله بين سنفتنبرغ وشبرمبرغ، لم أكن أملك وسيلة لمعرفة الوقت. وصلت إلى المحطة قبل الموعد بساعة، أخطو إلى الأمام والوراء، قاومت الإغراء لوهلة، ثم تناولت كأسين من الشنابس في كشك مجاور، وهو ما كان يعني أن أنفاسي كانت تفوح منها الرائحة عندما ظهرت آنا في الموعد المحدد، تبدو أصغر من عشرين عاماً.

كان ثمة شيء من الخشونة والصبيانية في الطريقة التي تتحرك بها. كان أنفها أحمرٍ من البرد. ما الذي كان علي أن أفعله بهذا الكائن الفتي طوال فترة بعد الظهر؟ إن استدراجها إلى غرفة المستأجر الثانوي، حيث لم يكن مسموحاً دخول النساء، لم يخطر ببالي إلا بوصفه شيئاً

Twitter: @ketab_n

يجب تجنبه بقوة. كان بإمكاننا أن نذهب إلى السينما في شارع كانط المجاور، لكن العرض الغربي هناك لم يكن يبدو مناسباً. لذلك فعلت ما لم أفعله من قبل أبداً، فقد دعوت الآنسة شفارتس بشهامة للانضمام إلي لتناول القهوة والكعك في مقهى شيلينغ في شارع تاونتسين، أم هل كان مقهى كرانتسلر في شارع كودام؟

أنا عاجز، أفتقر إلى الكلمات للتعبير عن كيف وأين قضينا ذاك العصر الطويل. لابد أننا قد تحدثنا: كيف يكون الرقص حافي القدمين؟ هل أخذت هي دروساً في الباليه عندما كنت صغيرة؟ وما هو شكل ماري ويغمان؟ هل هي صارمة ومتطلبة كما كنت تأمل؟

أم هل تحدثنا عن ملوك الشعر غير المتوجين، عن بريشت هناك في الجزء الشرقي من المدينة وعن بن Benn هنا في الغرب؟ هل صرنا سياسيين؟

أم هل استرسلت، قبل القطعة الأولى من الكعك، في خلق الانطباع بأنني أنا نفسي شاعر؟

أنا مثل عامل منجم ذهب يهز منخله، أهز وأهز، لكن لا يبدو أن ثمة شذرة تلمع، لا ذرة فطنة، لا صدى لمجاز جريء. ولا كم من الكعك أو الفطير التهمنا، وفي كم من الأمكنة، المدرجة على أي من قشور البصلة. لقد قضينا بعد الظهر بطريقة أو بأخرى.

لم تنطلق الأشياء حتى المساء، عندما امتصتنا صالة الرقص المشهورة آنذاك المعروفة بالأيرشاله. لا يكفي القول إننا رقصنا: وجد كل منا الآخر يرقص. بالنظر إلى الوراء عبر ستة عشر عاماً من زواجنا، يجب أن أعترف بأنه بغض النظر عن كم حاولنا الرقص بحب، فقد كانت المرات الوحيدة التي كنا فيها لصيقين فعلاً، شخصاً واحداً، ثنائياً couple، عندما كنا نرقص. في غالب الأحيان كنا نتجنب أنظار بعضنا

Twitter: @ketab_n

البعض أو كنا نشرد، باحثين عن شيء لا يوجد أو يوجد فقط في شكل شبحي. وعندما أصبحنا أبوين، مقيدين بالواجب، وشعرنا بضياع كل منا للآخر، كان الأولاد الشيء الوحيد الذي أبقانا لصيقين. إن برونو، ابننا الأخير، لم يعرف ما الذي يفعله ليهرب من ذلك؟.

انتقلت الفرقة في آيرشاله من ديكسيلاند إلى موسيقى الراغتايم إلى السوينغ. رقصنا كل رقصة، مقدمين كل ما عندنا. كان كما لو أننا قضينا معاً أعمارنا كلها. ثنائي راقص صنع في السماء. شغلنا كثيراً من الفراغ. بالكاد لاحظنا أن الآخرين كانوا يراقبون. كان من الممكن أن نستمر إلى أبدية صغيرة، ممدودي الذراعين بكامل طولهما، خداً إلى خد، العينان تتلامسان تلامساً وجيزاً، الأصابع تضغط بخفة، نتأرجح بعيداً لكي يكون من الأفضل أن نندمج، نلتف مثل الدوامة كشخص واحد على قدمين خلقتا لتلتفان كالدوامة، جادين بشكل لعوب، نحو الخارج ثم عائدين، فترتفع هي بخفة، أسرع مما تنوي، وهي تجري بشكل أبطأ من الزمن.

بعد آخر أغاني البلوز ـ كان ذلك في منتصف الليل ـ رأيت آنا تمضي إلى الترام. كانت تمتلك غرفة في شمارغندورف. وتروي القصة أنني بين رقصتين قلت: «سأتزوجك»، فقالت إن لديها صديقاً وهي جادة في علاقتها به، وهو ما حثني على القول: «كله جيد. يمكننا أن ننتظر ذلك خارجاً».

البدايات السهلة تمهد لقدوم الأوقات العصيبة.

آه يا آنا، الوقت الذي تقاسمناه. الفجوات التي لم يكن بالإمكان سدها، الأشياء التي من الأفضل تركها منسية. الأشياء التي لم نطلبها والتي جاءت بيننا ثم كان يجب معاملتها بوصفها مرغوبة. كيف أسعد كل واحد منا الآخر. ما ظنناه جميلاً، هو خادع. لماذا أصبحنا غريبين،

Twitter: @ketab_n

آذى كل واحد منا الآخر. لماذا طوال كل هذه السنوات الكثيرة، وليس فقط لأنني أحب الأسماء التصغيرية، أسميتك آنشن.

ثنائي من كتاب صور، قال الناس لنا. كنا نبدو غير قابلين للانفصال، كل واحد منا خلق للآخر، وكنا ندين متكافئين. سوف تفتخرين بشكل مقصود، علمت نفسي أن أكون واثقاً من نفسي. في تعاقب سريع للصور المصممة للاحتفال بالثنائي الشاب أرانا متحدين: في المسارح شرقاً وغرباً، حيث شاهدنا مسرحية ***دائرة الطباشير القوقازية*** ومسرحية ***في انتظار غودو***، أو في سينما شتاينبلاتس، حيث شاهدنا الأفلام الكلاسيكية الفرنسية *Hotel du Nord* و*Casque d'or*، و*La Bete humaine*. كنت أريد *أن أصعد إلى غرفتك*، *ليس بعد*، *قلت لي*. *كنا سنكافئ* لود شريبر كأساً بكأس في بار ليديكه الطويل إلى أن يكون عليك أن تسحبيني إلى البيت، ثملاً حتى العمى. كنت ستأتين وتريني في مرسمك، حيث دعاك هارتونغ الشاعرة الهلفرية، وأشاهد رقصتك حافية القدمين في مؤسسة ماري فيغمان الشديدة الانضباط. لم يكن بوسعك أن تطبخي، لذلك أريتك كم يمكن أن يكون لحم الغنم مع العدس شهياً ورخيصاً، *وكم هو بسيط* أن تزيلي اللحم عن عظام سمكة رنكة مقلية. وعندما فاتني الترام وطلبت أن أبقى إلى موعد الترام التالي، كنا نأمل في ألا تلاحظ ذلك صاحبة البيت، تلك المرأة المشاكسة.

أصدقاؤنا المشتركون: أوللي وهرتا هيرتر، الذين وضعنا الله معهم والعالم في المكان الصحيح. تبول رولف سيمانسكي، الذي كنا ندعوه تيتوس ومعه أنا، الثمل حتى العمى، عند بوابة البرلينر بنك لأننا ظننا أنها مبولة كبيرة، وهو ما دفعنا لأجله الغرامة الكبيرة البالغة خمسة ماركات لكل واحد منا. وفيما بعد هانز وماريا راما، اللذان التقطا الصور

Twitter: @ketab_n

الأولى لك وأنت ترقصين: أنت مضاءة بشكل ساطع كلياً وجزئياً. حتى آنذاك كنت تريدين أن تتحولي من الرقص الحديث إلى الباليه الكلاسيكي، رغم أن أقواسك كانت منخفضة أكثر مما يجب وساقيك أقصر مما ينبغي. في أحيان أغلب مما كنت أحب ذهبنا إلى مسرح هبل لأجل الباليه: كل تلك الدورانات على قدم واحدة والقفزات الكبيرة من رجل إلى أخرى الخاطفة للأبصار. أوللي وأنا كنا سنصفر في اللحظة التي أسدلت فيها الستارة.

أردنا أن نرى أنفسنا مجدولين على الورق أيضاً. كتبت مسودة نص الأوبرا لأجل باليه قصير يكون فيها شاب مرعوب مرتجف يرتدي قلنسوة الخباز، مع شرطيين في أعقابه، يبحث عن ملجأ ويجده تحت تنانير راقصة باليه ترتدي ملابس فلاحة، كان من أن تكون أنت، إلى أن يكون الخطر قد زال ويتمكن من الخروج ويرقص معها رقصة اثنين بخطوة واحدة pas de deux: قطعة مضحكة مبتذلة، بعيدة عن الانضباط الكلاسيكي قدر المستطاع. لقد ظلت مسودة ولم تر خشبة المسرح، بالرغم من أنها تحولت فيما بعد إلى نثر سردي، وثباته البطيئة الحركة وعدواته السريعة المنفذة على شكل رقص إيمائي تحقق بعض الحركة النخعية الشبيهة بالأفلام الصامتة في الفصل الأول من رواية *طبل الصفيح*.

أحببنا كل منا الآخر وأحببنا الفن. وعندما وقفنا عند حافة البوتسدامر بلاتس المهجور عادة في منتصف شهر حزيران وراقبنا العمال وهم يقذفون الحجارة على الدبابات السوفييتية، لم نغادر القطاع الأمريكي، بقينا عند الحافة الشرقية لكننا جربنا السلطة واتعدام السلطة في مثل هذا المدى بحيث خلقت الحجارة الرمزية وارتداداتها انطباعاً يتعذرعلينا محوه. هذا هو السبب في أنني بعد اثني عشر عاماً كتبت

Twitter: @ketab_n

تراجيديتي الألمانية، *العوام يتدربون على الانتفاضة*، التي يجري فيها العمال المتمردون، الذين يفتقرون لأية خطة، في دوائر، في حين أن المثقفين؛ الذين يجيدون استخدام الخطط لإيجاد الكلمات الصحيحة، يُهزمون عن طريق غطرستهم.

في ذاك الوقت كنا نتفرج فقط. لم نجرؤ على فعل أكثر من ذلك. بما أنك كنت محمية من قبل الملاذ الآمن الذي كانته سويسرا، فقد كان رعبك جديداً، وكان رعبي قد أنعشه خوف هاجع طويلاً. كنت أعرف الدبابات، كانت من طراز T 34S.

كنا قد رأينا بما فيه الكفاية، حان وقت الذهاب. العنف أصابنا بالذعر. فرمي الحجارة على الدبابات لا يمكن أن ينجح إلا في المخيلة. كنا نمتلك أنفسنا والفن. كان ذلك شبه كاف.

وهكذا اشترينا خيمة لأجل شخصين. لونها برتقالي مائل إلى الحمرة. ومع تلك الخيمة ملفوفة في حقيبة ظهر انطلقنا إلى قضاء الصيف في الجنوب. آه، يا آنا....

Twitter: @ketab_n

وفيما السرطان، صامت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه المرة فوق معبر غوتهارد. لكن قبل أن ننطلق في مغامرة الركـوب المتطفل الأولى معاً. زرت وآنا والـدي، ثـم أختـي الـتي كانـت في آخـن تمارس ترهبنها في دير فرنسيسكاني. تلك الرحلة السابقة للرحلة لاتزال مؤلمة.

كانت الأم مريضة، بشرتها رمادية، وتوجد ظـلال تحـت عينيهـا؛ كان الأب قلقاً. كلاهما كانا يعانيان من فقـدان ابنتهمـا، لكنهمـا حـولا حزنهما نحو الداخل. لقد بذلا قصـارى جهـدهما للترحيـب بنـا، مـع أنهما كانا متفاجئين قليلاً: كانت هـذه هـي المـرة الأولى الـتي أعرفهمـا فيها على إحدى «غـزواتي»، علـى حـد تعـبير أمـي. لم تكـن آنـا قـد خبرت مثل هذه الأحياء الضيقة. كانت أختي قد اشترت بعض الأثـاث الجديد بالمال الذي وفرته.

عندما أحاول أن أستذكر زيارتنا، أشعر بأنني غير واثـق مـن نفسـي لأنني أعاني من مشكلة في تصور المكان الذي كانت تنتصب فيه مقصورة المطبخ، لون الستائر. هل كانت الأرضية مصنوعة مـن الخشـب ـ ألـواح الصنوبر ـ أم مغطاة بمادة اصـطناعية ذات لـون لا يمكـن تصـنيفه؟ هـل لغطاء الطاولة زينة محبوكة؟ لماذا أكلنا في المطبخ الصغير وليس في الغرفة الرئيسية؟ أم عكس ذلك؟

يمكنني أن أتصور آنا وهي تقف إلى جانب المـدفأة، الـتي تسـتهلك

Twitter: @ketab_n

قوالب فحم بني من منجم فورتونا نورد للوقود، وأحاول أن أراها عند طاولة المطبخ، التي كانت مغطاة بقماش زيتي لأجل المناسبة. ربما كان الأب قد طبخ أحد أطباقه المفضلة من أجل زيارتنا: Konigsberger Klopse مع صلصة الطيهوج المخلل مع البطاطا المسلوقة.

الآن ترفع آنا «ملء ملعقة صغيرة لذيذة» من الصلصة لإعطائها لتذوقها. الأم تثب هنا وهناك، غير عارفة ماذا تقول. الآن تجلس آنا إلى الطاولة وتجيب هلى الأسئلة باللغة الألمانية العليا الجميلة التي تعلمتها في المدرسة، أسئلة حول بلاد العجائب الخالية من الحرب المعروفة باسم سويسرا. الآن تحدق خارج النافذة في اتجاه المنجم وتشاهد المداخن النافثة للدخان.

في لحظة، قبل أن نغادر بوقت قصير، تأخذ الأم الابن جانباً: «لا يمكنك أن تعامل الآنسة آنا مثل فتياتك الأخريات. إنها من أسرة صالحة، يمكنك أن تميزها».

بالكاد نتكلم عن أختي وعندئذ نتكلم بنبرات حذرة فقط: المياه العكرة للحزن قد رقدت في مكان ما، ولا جدوى من تعكيرها مرة أخرى. ربما أقول شيئاً جذلاً مثل: «لو كانت سعيدة هناك....».

أنظر حولي كما لو كنت أنظر للمرة الأخيرة. أرى زهور النجمة التي رسمتها، أرى الأثاث المكتسَب حديثاً، قطعة قطعة. أرى خزانة الأطباق في غرفة نومهما. فيها صورة مؤطرة لأختي عليها. إنها تبتسم - تظهر غمازتها - وترتدي فستاناً زهرياً.

الآن أسمع الوالد يقول: «لقد تجاوزت مرحلة الترشح للدخول في الرهبنة، كما تدعوها؛ إنها مبتدئة، فتاتنا الصغيرة. اسمها الأخت رافائيلا....».

ثمة أيضاً صورة لها كراهبة، مؤطرة بالأسود والأبيض، وجهها يبدو

Twitter: @ketab_n

طفوليا. تبدو فخورة أيضاً، رغم كونها قلقة قليلاً من كون ثيابها الخاصة لن تعود لها. فجسدها قد ولى، كما لو أنه لم يوجد. والداها يقفان على جانبيها، كلاهما يرتديان القبعات. إنهما يبدوان غير مرتاحين، خارج المكان.

سكنت الراهبات نثري وشعري منذ أواخر الخمسينات حتى الستينات: *تمرين سحري مع عرائس المسيح* هو عنوان حلقة شعرية verse cycle كتبتها آنذاك وصاحبت رسوماتي التوضيحية. «مصنوعة لأجل الريح / إنها تبحر دوماً، حتى دون أن تصدر صوتاً عميقاً».

أنجزت رسوماً لراهبات كدراسات واسعة النطاق للعب بالأبيض والأسود، مستعملاً فرشاة منقوعة في الحبر الهندي على ورق من القطع الكبير: راهبات يركعن، يطرن، ويقفزن، يعبرن الأفق ضد الريح؛ رئيسات أديرة مستبدات، متجمعات في مؤتمرات القربان المقدس؛ راهبات فرادى وراهبات مثنى، بلا أردية باستثناء القلنسوات المجنحة - كل هذا استغل محنة أختي لأشكرها عليه - ومن ثم لأراها، كلها تقية وورعة، مستغرقة في رياء منظم، وبتحرق، بالمعنى السلبي، كانت في انتظار النذر عندما قمت وآنا بزيارتها في دير آخن.

وقفت، مكسوة بثوب ثقيل، تنتحب في الباحة الداخلية. جدران الآجرالعتيق على كل الجوانب، اللبلاب المتعرش صعوداً إلى مزاريب المطر. سياجات البقس المشذبة بعناية تبطن المرات المحسوبة المقاسات بدقة وتحيط بمساكب ضيقة طويلة من نباتات الزينة. كل شيء بترتيب كامل. لا أعشاب. التربة منظفة من الحصى. ورود تفوح منها رائحة الصابون المتخثر.

هناك وقفنا، ننتظرها أن تتوقف عن البكاء. تتلعثم، كما لو أن كلمة كانت تتطلب شجاعة، روت كارثتها. الحياة في الدير لم تكن على

Twitter: @ketab_n

الإطلاق بالطريقة التي كانت تعتقد أنها ستكون... الطريقة التي كانتها عندما أنجزت العمل الاجتماعي قبل عامين في ايطاليا... تلك كانت الروح الفرانسيسكانية الحقيقية، المفعمة بالفرح... هنا كان عليها أن تصلي طوال الوقت، أن تفعل ما تؤمر به، جلد الذات حتى... كان ثمة عقوبات لأوهى مخالفة للقواعد، وكل شيء كان إثما... كانت تود أن تصفر، أن تصعد / تهبط ثلاث درجات دفعة واحدة ـ حتى هذا كان ممنوعاً... كان عليك أن تأكل كل شيء يوضع أمامك، حتى الخبز الملطخ بدهن الخنزير... ولا كلمة حول مساعدة الفقراء والمرضى؛ مجرد الندم، استبطان الأفكار والدوافع، ذاك النوع من الشيء... كانت تريد الخروج، حالما يكون ذلك ممكناً، ذاك اليوم بالذات...

ثم توقفت وقالت، والدموع لازالت تنهمر على خديها. «المشرفة على المترهبنات المبتدئات شديدة الصرامة... ليس لديكم أية فكرة عن مدى صرامتها...».

ولذلك أمرت أو بالأحرى طلبت لقاء مع هذا الضابط الانضباطي المرهوب كثيراً. عبرت الباحة مباشرة وصعدت إلينا، مقدمة نفسها باسم ألفونز ماريا وبذلك أعطت الانطباع بالسلطة القانونية الثنائية الجنس، نوع من كبير الملائكة المرسل من الأعلى / لتسيير إصلاحية هنا في الأسفل.

لقد أجفلها طلبي بأن تطلق سراح أختي من الدير كما لو أنه لم يوجد. تكلمت بدلاً من ذلك عن الإغراءات والجاذبات المشهورة وكيف أن قلبا مشربا بالإيمان يمكن تعليمه أن يقاومها، «أليس ذلك ممكناً، يا أخت رافائيلا؟».

انتظرت الباحة المسورة كلمتها؛ فلم تسمع سوى عصافير الدوري تزقزق: أمسكت المترهبنة لسانها. تكلمت كبيرة الملائكة المرتدية نظارتين بالسلطة الممنوحة المبثوثة فيها، تعلن كل كلمة بدقة: «سوف نباشر طقوس الأيام التسعة a novena وسنجد سلامنا... ونحن محصنات».

Twitter: @ketab_n

آنا وأنا ارتعبنا من رؤية أختي ترد على الأمر من ذاك الفم الضيق مع هزة ورعة من الرأس. نظارات ألفونز ماريا سجلت الانتصار.

وافترقنا. عندما انتهت فترة التسعة أيام، تلقينا رسالة بخط يد طفولي تعلمنا بأن الصلاة والاستبطان المتواضع قد منحاها القوة على استعمال إيمانها لتحدي الإغراء عموماً و، بنعمة الله، إغواءات الشيطان خصوصا، وعلى الاستمرار في اعتزال العالم. وإن لم يكن ذلك بكلمات كثيرة، نسبت دور الشيطان إلي، أخيها.

كان أي جواب يمكن أن نرسله سيمر بشكل مفترض من خلال يدي المشرفة. لقد جعلته واضحاً بشكل مهدد أن فترتي ستكون أقل من تسعة أيام. لو لم تعتق أختي من سجن ديرها حالاً، لقمت بزيارته مرة أخرى. اعتقدت داداو لاحقاً أن البرقية وليست الرسالة هي التي يكون لمضامينها المرعبة التأثير المطلوب.

ليكن ذلك كما يفترض، فقد نجح تهديدي في فتح ثغرة فرار في الحصن ذي الجدران الآجرية الحمراء. في اللحظة التي ظهرت فيها أختي، التي كان إحساسها بالجوهريات الدنيوية قد بقي حيا بشكل واضح عبر فترة أسرها في الدير، بحثت عن مصفف شعر، نجح مقابل أجر زهيد - الراهبات لم يكن محسنات إليها بشكل خاص في دفعهن تعويض نهاية الخدمة - وبمهارة عظيمة في تحويل الشعر الذي تركه الجز النظامي إلى ما يشبه تسريحة نسائية. «أوكي، يا بنت، الآن بإمكانك أن تغامري بالخروج إلى العالم مرة أخرى»، يقال إنه أخبرها.

تألق قليلاً جو أمي المتوعكة وشقة أبي الكئيبة المكونة من غرفتين، وإن ليس طويلاً: حتى بعد العودة إلى البيت فإن أختي التي كانت فيما مضى مفعمة بالحيوية لم تضحك أبداً.

في عيد العنصرة من العام الذي ينتهي الآن قمت وأختي بزيارة غدانيسك لاستعادة دانتسيغ وطفولتنا. دعوت أيضاً الأحفاد الأكبر سناً،

Twitter: @ketab_n

أي لويزا ابنة لاورا وابنيها التوأمين لوكاس وليون، ورونيا ابنة برونو وروزانا البنت الكبرى لراؤل، زائد فريدر، صديق التوأمين، وأخذتهم في مشاوير جدية[نسبة إلى الجد] عبرٍ البلدة [غدانيسك] وفجيشتش Wrzeszcz المجاورة، لانغفور سابقاً، وإلى اجتماعات مع أقاربنا الكاشوبيين. كنا نحن الإثنان نثرثر فيما كان الأطفال يفتشون عن زبد أمواج البلطيق الكسولة بحثاً عن قطع فضية اللون من الكهرمان، وفي نهاية المطاف جئنا إلى الفصل الإضافي / للرهبنة منذ أكثر من خمسين عاماً مضت. تملكني الشعور بأن الأخت ألفونز ماريا، المشرفة القاسية على الراهبات المبتدئات، كانت لاتزال تلوي عنق أختي. وما كان حتى أكثر إدهاشاً: كانت داداو قد احتفظت بايمانها الكاثوليكي، ولو مع التحيز اليساري للقابلة السابقة والمسؤولة النقابية. ألقت نظرة شكاكة على البابا بنديكت المنتخب حديثاً: «لما كان يمكن أن يكون ألمانيا، فلا يمكنني أن أقول إنني أهتز طربا». وبعد توقف قصير: «الآن لو اختاروا كاردينالاً برازيلياً أو كاردينالاً أفريقياً....».

في حين كنا نحن الاثنان عجوزين ـ هي في استدارتها المكتنزة وأنا بقفاي المدور وخطوتي المترنحة ـ شققنا طريقنا من خلال الرمل بين غلتكاو وتسوبوت، والأطفال، ليون الكثير الحركة خارجاً في المقدمة، لوكاس الحالم يلهث في المؤخرة، روزانا، الكثيرة الحركة على ساقيها اللقلقيتين، لويزا، المترددة في البداية، ورونيا، الواثقة من نفسها، كانوا يجمعون شذرات الكهرمان، كلانا شجبنا الموت المعلن للبابا السابق، البابا البولندي بوصفه تمثيلاً مسرحياً وقحاً، أسميه «منفراً»، وهي تدعوه «وقحاً»، رغم أنني كان من الممكن أن أكون قد طلعت بصفات أسوأ، وهي ابتلعت صفات قليلة كان من الممكن أن تكون قد فاقت صفاتي.

وبعد استعراض آخر لأحداث مختلفة من طفولتنا، مبقياً إياها حية عن طريق مقارنتها بنسختينا الشخصيتين منها، حكيت لها قصة كيف

Twitter: @ketab_n

أنني عندما كنت أسير حرب في السابعة عشر من عمري سعيت إلى الالتجاء من المطر تحت خيمة مع فتى في سني وكيف كنا نمضغ بذور الكراوية لنبعد جوعنا. أختي لا تصدق قصصي في المبدأ، وكانت تهز رأسها متشككة عندما قلت إن اسمه هو جوزف، كانت له لكنة بافارية مميزة وكان كاثوليكياً ثابتاً على عقيدته.

قالت: «وماذا إذاً، ثمة الكثير منها».

لكنني احتججت، إذ لم يكن بإمكان أحد أن يكون متعصباً بمعنى الكلمة على هذا النحو وفي الوقت نفسه حنوناً ومحباً عند الإشارة إلى الكنيسة الحقيقية الوحيدة كما كان صديقي جوزف. «جاء، إذا لم أكن مخطئاً، من مكان ما قرب ألتوتينغ».

جعلها هذا حتى أكثر تشككا. «هل أنت متأكد؟ يبدو مستبعداً قليلاً بالنسبة لي. تماماً مثل إحدى قصصك».

قلت: «حسنا، إذا كانت تجاربي في المعسكرات تحت السماوات البافارية ليست لها أية أهمية لك....».

فردت على ذلك بقولها: «أوه، انطلق».

تخليت عن شيء من الثقة لأجعل نفسي أكثر قابلية مصداقية ـ «كنا مجرد اثنين بين آلاف» ـ لكنني رفضت أن أستبعد إمكانية أن صديقي جوزف، الذي كان مقملاً مثلي، وكان الجوع قد دفعه إلى مضغ بذور الكراوية من كيس، وكان إيمانه مخزوناً بشكل آمن مثلما كان السور الأطلنطي فيما مضى، كان من الممكن أن يحمل الكنية راتسينغر وهكذا يكون الرجل الذي يدعي العصمة اليوم بوصفه البابا، ولو فقط بتلك الطريقة الخجولة المألوفة الخاصة به، متكلماً بلطف، الأفضل لتعزيز تأثيرها.

وعليه ضحكت أختي كما يمكن للقابلات خارج العمل فقط أن يضحكن: «إنها مجرد واحدة أخرى من تلك الحكايات التي كنت تحكيها لخداع الماما».

Twitter: @ketab_n

«من يدري»، أذعنت مرة أخرى. «لا يمكنني أن أقسم أن الولد الطويل النحيل الذي كنت أجلس معه في أوائل حزيران 1945 في معسكر باد آيبلينغ، يطل على جبال الألب البافارية عندما كانت الشمس تطلع ويربض في خيمة عندما تمطر السماء، كان في الواقع يحمل اسم راتسينغر، لكنه كان يريد أن يصبح كاهنا، لم يكن مهتماً بالفتيات وكان يخطط لدراسة كل ذاك الهراء الدوغمائي الملعون في اللحظة التي تحرر فيها من الأسر ـ وهذا ما أنا متأكد منه. وأن راتسينغر هذا، الذي كان قد خدم سابقاً كحاكم للتجمع من أجل عقيدة الإيمان ويسيطر الآن كحبر أعظم، كان واحداً من العشرة آلاف المحتجزين في معسكر باد آيبينغ ـ وأنا متأكد من ذلك أيضاً. ظاهرياً، أضفت، مرة أخرى لأجعل نفسي أكثر مصداقية، «هذا هو ما تقوله الملخصات».

ثم ـ في حين كان الأطفال، البريئون من مواجهتي المبكرة مع اللاهوت الأصولي الكاثوليكي، يبحثون في عشب البحر، ولويزا، روزانا وفريدر أرونا أظهروا لنا بفخر اكتشافاتهم الضئيلة ـ حكيت لأختي عن علبة السيجار المملوءة بدبابيس سيغفريد لاين التذكارية وأحجار النرد العاجية الثلاثة وحامل النرد الجلدي التي كنت قد رفعتها عندما حانت الفرصة في مارينباد قبل وقت قصير من نهاية الحرب أو بعدها. «وحالما لم يكن لدينا شيء أفضل للقيام به، جوزف وأنا، دحرجنا أحجار النرد لقراءة المستقبل، مستقبلنا. حتى عندئذ أردت أن أكون فناناً ومشهوراً، وكان هو يريد أسقفا وأكثر، الشيطان فقط يعرف ماذا. لقد استوهمنا fantasized حول تبادل الأدوار».

ربما ذهبت إلى أقصى الحماس بشكوكي الدائمة حول ما إذا كان يحب الأخت عندما جزمت بأن التحديق إلى الأعلى إلى الأقل من السماء التواصلية، التي رأى جوزف خلفها المقام السماوي في حين رأيت فراغاً

Twitter: @ketab_n

منفرجاً، رددنا كلانا بكتابة الشعر التفاخري، الذي برهن، مع ذلك، أنه قاصر. هذا هو السبب في أننا جعلنا أحجار النرد تصنع القرار النهائي بخصوص من سيصبح ماذا. لأستحث صديقي، زعمت أنه حتى الملحد يمكن أن يصبح بابا، كما أثبت تاريخ الكنيسة.

«بأي حال»، قلت لأصفي حسابي مع تلك السنوات المبكرة، «جوزف طرح ثلاث نقاط أخرى. أسمي ذلك حظاً سيئاً أو جيداً. هكذا أصبحت مجرد كاتب، في حين أنه هو... لكن لو رميت ستتين وخمسة واحدة، لكنت أنا وليس هو اليوم.....».

كان رد أختي مقتضباً: «إنك تكذب من خلال أسنانك». ثم صمتت، لكنني استطعت أن أميز أنها كانت تشتغل على أحد اعتراضاتها التي لا يمكن دحضها وكانت تخفي شيئاً في كمها.

قبل تسوبوت، عندما وصلنا إلى المنتزه وكان الأطفال يرونني حبة رز أخرى من الكهرمان، ألقت نظرة إلي من فوق أعلى كؤوسها فوجدت أن هذه النزهة العائلية الظريفة، رحلة العنصرة كلها مع كل الأحفاد الحلوين، ستكون مستحيلة لو كان أخيها وليس شخص جوزف ذاك هو البابا. «أم هل تقول إنك حتى كباباً كنت ستجلب نوعاً كهذا إلى العالم؟».

ثم عدنا إلى النبش حولنا في علية سنوات شبابنا، وكالعادة طلعنا بذكريات مضادة. لكنني عندما ناديت الأخت ألفونز ماريا، المشرفة على الراهبات المستجدات، البغي المتظاهرة بالتقوى، انفجرنا بضحكة متناغمة.

ماذا جاء قبل، ماذا بعد؟ البصلة تهتم قليلاً بالتسلسل. في بعض الأحيان، تكتب أرقام البيوت عليها، في بعض الأحيان نتف من أغاني بوب بلهاء وعناوين أفلام مثل *المرأة الآثمة* ـ أسماء لاعبي كرة القدم الأسطوريين، لكن نادراً ما يكون تاريخاً دقيقاً. ينبغي علي أن أعترف بأنني أعاني مشكلة مع الزمن: أشياء كثيرة بدأت أو انتهت تماماً ولم تدون معي إلا بعد الواقعة بوقت طويل.

Twitter: @ketab_n

كلما تقدمت في السن، قل ثبات ذاك العكاز، الكرونولوجيا. حتى عندما أفتح كاتالوغات الفن الآخذة في الاصفرار، أو أحدق في بضعة أعداد من مجلة *Der Monat* من منتصف الخمسينات على الانترنت، يظل حدث واحد كان له أثر كبير على حياتي ممرغاً في التقريبي. إن التالي وحده مؤكد: قبل أن ننطلق، آنا وأنا، إلى الجنوب مع خيمتنا البرتقالية المائلة إلى الحمرة، كانت برلين قد أصبحت مسرحاً لجدال فني استمر حتى العام التالي، لا بل أطول، إلى ما بعد وفاة كارل هوفر، وحتى في يومنا هذا لا بد أنه يعتمل في النفس مع الطليعيين السابقين، بشكل قوي للغاية كان ادعاء «الحداثة» المتنازع عليها. لقد اتخذت موقفاً، ولوعن بعد فقط.

إن هوفر، المتضايق وبالتالي الغاضب، قد دافع عن الفن التمثيلي، الفن الذي يقرره الشكل البشري، ضد الأولوية المطلقة في الزمن، التي اصطلح على تسمية مقاربته الفن اللاشكلي ا، art informel وتم امتداحه في كاتالوغات الفن بوصفه أحدث مراحل الحداثوية. كان معارضه في الجدال هو ناقد فني اسمه ڤيل غرومان الذي قبل فقط ما كان هوفر يشعر أنه سيؤدي إلى «انزلاق إلى المسافة الضبابية من العدم». لام هوفر التعصب السائد في عدد من المقالات، محذراً حتى من التقارب مع «دولة غاولايتر النازية».

لقد شن حربه ليس كمسؤول، كمدير لمدرستنا فقط، بل كفرد. فقد كان يعتبر الفن عرضة للخطر من «المزخرفين السطحيين» أمثال كاندينسكي، ودافع عن باول كلي، الذي كان يسميه «شاعراً رساماً»، في مقابل «الشيء الرديء المصبوغ بالدم» لدى الروسي.

أدين لاحقاً من قبل وافدين كثر بوصفه «خرفاً وخارج العصر»، «معمياً بالسخط ضد الحديث»، وبكلمة واحدة «رجعي». كانت حقبة

Twitter: @ketab_n

تنافست فيها الكلمات والمفاهيم وآخر المذاهب مع بعضها البعض، فوصل الخلاف إلى اتحاد الفنانين. بدأ الأعضاء بالاستقالة.

عندما ذهب هوفر بعيداً إلى حد اتهام أمريكا بكونها مصدر العقيدة الدارجة ـ في أمريكا كان أي شيء جديد جيداً بحكم الطبيعة وجيداً لأجل المجتمع ـ فقد شُجب بوصفه شيوعياً خفياً. كان ثمة شك آخر في الزمن، شك كان، كما كان معتاداً آنذاك، مكبوحاً في البرعم، لكنه عاد بعد عقود قليلة بين الباحثين الذين يقومون بالبحث الأرشيفي، أي أن الـ CIA كانت قد شجعت المدرسة اللاتمثيلية المسماة (الفن اللاشكلي) في ألمانيا بسبب عدم ضررها، والنوعية الزخرفية ولأن مفهوم الحديث كان ملكاً للغرب ووعد بأن يظل ملكاً له.

بالنظر إلى الوراء إلى الجدال من منظور اليوم، يمكنني أن أرى مدى قوة تأثير النزاع بين هوفر وغرومان، رسام الشخصيات العنيد وبابا الفن في تلك الحقبة على اتجاه عملي أنا كفنان بصري. كما في النزاع بين كامو وسارتر الذي قرر موقفي السياسي لاحقا، إذ وقفت مع كامو، كذلك هنا اخترت هوفر.

أصبحت صرخته «يا كلي المقدس، ليتك كنت تعرف ما كان يُفعل باسمك!» قولاً مأثوراً. «وما أخبرنا به نحن طلاب الفن في أوائل الخمسينات ـ المشكلة المركزية للفنون البصرية هي وتبقى هي الإنسان والإنساني، الدراما الأبدية» ـ قد احتفظ برنينه، الشامخ كما يمكن أن يبدو، حتى شيخوختي. ربما كان هذا هو السبب في أنني أتذكر بالضبط تقريباً ما الذي كان يعنيه الجدال بالنسبة لي وكيف أنه شق المدرسين والطلاب في المدرسة إلى زمر حزبية حتى بعد وفاة هوفر واختيار نكرة فنية ليحل محل هوفر.

عندما قرر كارل هارتونغ أنه قد حان الوقت بالنسبة لي لتقديم

Twitter: @ketab_n

بعض رسومي الطباشيرية ـ بما في ذلك أكداس القش فوق المدينة *Haystacks Over the City* وكي الخنفساء *K the Beetle*، وهي لوحات تستند على القصائد ـ إلى اتحاد الفنانين لكي يكون بالإمكان عرضها في المعرض السنوي القادم، كان مجبراً على الإبلاغ في خلال أسابيع قليلة بأنه في حين اعترفت هيئة التحكيم بجودتها فقد رفضتها بوصفها «تمثيلية أكثر مما ينبغي». منذ ذاك الحين فصاعداً احتفظت بمسافتي عن كل القيود العقائدية، وافتريت على كل الباباوات، على سبيل المثال، بابا شركات الإعلانات media – savvy الذي أخذ فيما بعد على نفسه فيما بعد أن يحاكم السماء الأدبية حصراً وفقاً لمعاييره، وتصالحت مع خطر أن يكون علي أن أقاوم روح العصر zeitgeist كدخيل. وهو ما كانت له تبعاته: الطريقة الوحيدة التي يمكن بها لعملي كفنان أن يحظى بالعرض هي في معارض الرجل الواحد، المتجه متحررا من الموضة. لقد بقي على الهامش إلى هذا اليوم.

تابعت طريقي الخاص حتى في تلك السنة الأولى في برلين. لم يكن العمل الذي قمنا به مع الموديلات ـ الفتاة العارية ذات الوقفة الالتوائية النموذجية، التي كان من المفترض أن تعلمنا كل ما هو موجود لنتعلمه ـ بقدر ما كانت الدجاجة الضخمة، آنذاك كان جسم الطير يشد على عصا والسمكة المفلطحة بقطعة مفقودة في المنتصف، هو ما جعلني الفنان الذي أكونه. كانت السمكة مستندة على رسوم مبكرة متصلة لاحقاً بثيمات رواية *التخبط*، وفي قصائد مثل (أرغن برميلي قبل عيد الفصح بوقت قصير) و(الطوفان)، وهذه الأخيرة هي نص قادني إلى قطعتي المسرحية الأولى، وجدت النغمة التي كنت أبحث عنها، ولو بشكل لعوب فقط. هواء برلين المنكه بكسر القرميد كان مساعداً.

جرفني الحب: كتبت ورسمت لأجل آنا، التي كانت منهمكة في

Twitter: @ketab_n

الـرقص. معلمتهـا، مـاري فيغمـان، كلفـت بتصـميم رقصـات مشـهد فينوسبرغ لأجل مهرجان بايروت في العام التالي، وسوف يمر تانهاوزر، شاقاً طريقه بـين جمهـرة جامحـة مـن الفتيـات الحافيـات والعاريـات افتراضياً، بتجربة شبق منفلتة.

اوللـي هـايرتر وأنـا ذهبنـا لنـرى هرتـا(ه) وآنـا(ي) قبـل تجريـب الفساتين. كانتا كلتاهما تعانيان من كل الـرفس المطلـوب لكنهمـا كانتـا متحمستين للأداء .

في منتزه رأيت وأوللي جماعة من الشخصيات ذوي الملابس الغريبـة يقفون في صف. كانوا يرتدون قلنسـوات مخملـيـة علـى رؤوسـهم وكـانوا ملفعـين بالعبـاءات السـوداء: مريـدو فـاغنر في اليـوم الآخـر يقـودون أوركسترات غير مرئية، كما لو كان ثمة جمهور خلفهـم. الـبعض مـنهم كان لهم مجموعات نوطات مفتوحة على ركائز كانوا قد جلبوها معهم، الآخرون كانوا يقودون الأوركسترا من الذاكرة.

من ناحية أخرى، كل ما أخذته إلى البيـت مـن بـايروت والتموقـع المثير للاشمئزاز لغوغاء الأثرياء الجدد حول حظيرة المعجبين cult barn الهائلـة كـان غثيانـاً هسـتيرياً. الرجـال بالقمصـان الرسميـة المنفوخـة، والنساء المثقلات بالحلي، والنبلاء الأثرياء، كل شيء كان معروضاً. لكن ذاكرة التجوال عبر الغابات المجاورة التي بدأت بشكل بريء بما يكفي تقدر بقشرة بصلة بحالها.

كنا نطوف عبر غابة داكنة مثل حكاية خرافيـة عنـدما وقعنـا علـى فسحة خالية من الأشجار التي أعلنت منها فرقة صخب وحماسـة عـن مسـابقة رمـي. كـان الأشـخاص المرتـدون أزيـاء شـعبية وقبعـات ذات قنزعات من شعر الشاموا يجلسون إلى طاولات بيرة طويلـة. موائـد بـين مقعدين طويلين تدعوك إلى إطاحة أهرامات من علب الصـفيح أو الرمـي على أهداف للفوز بالأزهار الاصطناعية والجوائز الأخرى.

Twitter: @ketab_n

رغم أنني كنت قد تعلمت كيف أطلق النار على البشر في سن غض، فإنني لم أطلق طلقة واحدة أبداً. هنا الأهداف لا يمكن إيذاؤها: كانت البنادق هي بنادق هواء والذخيرة من العيار الأدنى. ترددت في البداية ـ هل ينبغي علي أن ألتقط الأرومة، ألمس السبطانة؟ ـ لكنني في النهاية صعدت إلى المنصة أملاً في أن أربح وردة لأجل آنا.

سددت الشعيرات بدقة وضغطت الزناد، لكن القدر وجه طلقتي إلى دريئة أكسبتني طائر لقلق مع سلة صغيرة تحتوي توأمين معلقين من منقاره. كان هذا قبل حبة الدواء وسن منع الحمل.

من كان مرعوباً أكثر؟ لم يكن بمقدور حتى الوردة، التي ربحتها بعد ذلك فوراً، أن تجعل آنا تربح. فالإشارة النبوئية إلى ولادة ابنينا فرانتس وراؤل بعد ذلك بثلاثة أعوام لم يكن بالإمكان إزالتها بأصباغ البيرة أو المزح بها بإشارة إلى مراهقي الشاعر جان بول المتعلقين بالنموذج الأصلي ڤالت وڤولت. ولا إشارة إلى فونزيدل، مسقط رأس الشاعر المجاور، تفيد في إذابة الطلقة القاتلة بسخرية. ولم تسمح آنا لي مرة أخرى أبداً بإطلاق النار من أجل وردة. في العام السابق، لم تكن بايروت شيئاً أكثر من وعد غامض في الأفق. بدأت العطلة الصيفية بعد وقت قصير من انتفاضة العمال في برلين الشرقية وقبل وقت قصير من وفاة محافظ برلين الغربية، إرنست رويتر. ذهبت آنا إلى سويسرا، وبعدئذ بوقت قليل ركبت أنا أيضاً متطفلاً نحو الجنوب مع خيمتنا في حقيبتي الظهرية.

في لنتسبورغ هيأت آنا والديها لأجل زيارتي ـ لا أعرف بالضبط ما أخبرتهما به. كثيراً ما حاولا أن يجسرا المسافة بحسن الضيافة، فالمعدمون من ألمانيا الذين طردوا بالقماش القطني وبحقيبة الظهر لم يكن من الممكن ضربهم بوصفهم أكثر اغتراباً. لتلطيف مظهري، كنت قد حلقت اللحية المنمقة التي أطلقتها كنزوة أكثر مما كانت كإيماءة

Twitter: @ketab_n

وجودية. عندئذ كنت أشعر بأنني عار في اللحظة التي ينظر فيها أي شخص إلي. لحسن الحظ، أن شقيقات آنا ـ إحداهن كانت أعمر نوعاً ما، والأخرى كانت أصغر بكثير ـ ساعدن في تهوين دخولي إلى الجو غير الودي.

في أثناء زيارة تعارفية إلى جد آنا من جهة أمها، الأرمل، وهو كالفيني من جنوب فرنسا كان قد تزوج في هذه العائلة التسفينغلية، جلسنا على مصطبة البيت من الطبقة العليا المتوسطة التي تتكلم لغة فرنسية تطير من فوق رأسي كما لو كنت هواء. نادراً ما كانت تستقر على الواصل الجديد، الذي شعر أنه أعطي دوراً غير ملائم في كوميديا أخلاق، يشرب الشاي الخفيف، يقضم الفطائر برفق، وأنظر خلسة نحو زجاجة براندي بعيدة المنال أو نحو الحديقة وبوابتها، التي تحجبها شجيرات الدفلى، التي كانت تمتد على الطريق الذاهب إلى فيلدغ وبروغ.

لقد سافرت متطفلاً من هناك. كانت البوابة مغرية. لماذا لا أفر؟ هناك وآنذاك. كنت رشيقاً بما يكفي. كل ما كان يتطلبه الأمر هو سرداب فوق جدار المصطبة يؤدي إلى الحديقة.

ذاك هو! قفزة واقفة وأكون على طريقي. خطوات قصيرة قليلة عبر المرجة، من خلال البوابة، وإلى الشارع، حيث تلتقطني أول سيارة أو قد تكون الثانية، أو شاحنة صغيرة من معمل مربى هيرو المجاور وأتحرر من إحراج كوني مكشوفاً. أنا غير مقيد، أنا حر مرة أخرى.

ما الذي كنت أفعله هناك، بأي حال؟ أي إظهار للرحمة سيكون قد عوض شكاكاً متحجر القلب مثلي؟ ما شأن كاثوليكي وثني بين التسفينغليانيين والكالفينيين؟ باباوي معزول من حروب الهوغونوت. ولا جرعة براندي في المتناول. لا، كان عليه أن يخرج من هناك!

كنت قد ربت خلسة على جيب الصدر لسترتي لأتأكد من وجود

Twitter: @ketab_n

جواز السفر؛ وفي ذهني كنت مستعداً للوثوب، إلا أن ساقي كانتا ترتجفان. أخذت نفساً عميقاً، باذلاً أقصى جهدي لأنظر إلى آنا، التي ربما تفقدتني وأحست أن ثمة خطب ما، عندما التفتت جدتها بوجه مؤطر بتجاعيد فضية إلى وجهي، ثبتتني بنظرة لاهية وفضولية وقالت - وفمها في ابتسامة، وتجاعيدها ترتجف قليلاً - بألمانية عالية مطهرة من كل شيء سوى أثر اللكنة. «ابني بوريس يخبرني أنك تدرس الفن في العاصمة السابقة للرايخ. في أثناء شبابي تعرفت على رجل كان يطير في المناطيد. وهو أيضاً كان من برلين....».

وفجأة كان فراري المخطط له بدقة - والمنفذ ذهنياً - قد تبخر في الدخان. لم يكن ثمة دعم في الخارج الآن. في اللحظة التي خاطبتني الجدة فيها، كنت قد قبلت في أسرة صلبة قائمة على الملكية، أسرة عاشت بتواضع، كما كان الحال مع أبناء بلدهم، على الفوائد من مدخراتهم، وكانوا متسامحين، مخلصين للتقاليد مع أصولي كما لو أن مرسوم الأسماء لم يلغ بناء على نزوة من الملك الشمس.

هكذا أذعنت، رغم كوني لا أزال متنبهاً لوجود سرداب ممكن يؤدي إلى أرض آمنة. إضافة إلى ذلك، كان وريث راكب المنطاد البرليني دوماً يملك استيعابا في هيئة الخيمة البرتقالية المائلة إلى الحمرة التي سنأخذها، أنا وآنا، معنا إلى ايطاليا.

حُدد يوم الرحيل، فرزمنا حقائب الظهر. كانت محتوياتها تضم بعض الكتب الدليلية القديمة الطراز زائد كتاب بوركهارت بعنوان ***ثقافة عصر النهضة في ايطاليا*** لرفع إحساسنا بالجميل. لكن قبل أن يكون بإمكاننا أن ننطلق، كان على آنا أن تهدئ مخاوف أمها حول ما قد يحدث في خيمة في الليل. لقد فعلت ذلك بشرح بريء قدر استطاعتها، أي إن العمودين الجديدين الذين يبقيان الخيمة واقفة سوف يبقياننا

Twitter: @ketab_n

منفصلين أيضاً. وعلى ذمة غريتي شفارتس، فقد صدقتها.

من كابو سيرسيو تابعنا جنوبا إلى نابولي، وليس مهما أين ننصب خيمتنا - على الشاطئ، تحت أشجار الصنوبر، في خرائب المنازل المهجورة - اقتربنا أكثر فأكثر، لا يعيقنا الخط التخيلي للحد الفاصل بين العمودين. لكن بما أن حبنا كان ويبقى ملكاً لنا، آنا وأنا، ويقاوم كل المحاولات للتعبير عنه بالكلمات، فإن الشيء الوحيد الذي سأقوله حول الخيمة هو أن قماش الخيمة كان يحمل عدداً من البقع الحمراء الدموية التي لا يمكن للمطر أن يزيلها: فقد قمنا، غافلين عن التبعات، بنصبها تحت شجرة توت مليئة بالثمار المفرطة النضوج.

ذات يوم كنا نطبخ على الشاطئ - السمك كان رخيصاً - فجلبت عصابة من الفاشيين الشباب لنا بعض الخشب الطافي من أجل النار. أفزعونا تماماً. هؤلاء الفتيان بقمصانهم السوداء - تحيتهم لاتزال تحمل نكهة موسوليني، الدوتشي - كانوا أقوياء كما كنت في قميصي الشبيبي يونغفولك. الأعشاب لا تموت؛ فهي تبقى عائدة /، تبقى تنتشر. وليست ايطاليا وحدها التي تقدم مناخاً مساعداً.

رغم أننا غطينا الكثير من الأرض، لم نر ذلك كثيراً: آنا وأنا كنا لانزال نكتشف أحدنا الآخر. نجرب كل منا الآخر بذهول. فقد كانت مثيرة لي بما يكفي، وكنت مثيراً لها بما يكفي، وكان ثمة القليل مما يمكنه أن يلهينا أحدنا عن الآخر. حتى ونحن نخربش أو نرسم، كنا نجلس لصيقين معاً.

بعيداً عن أحداث السفر متطفلاً المعتادة - آنا التي أفزعها رجلان نابوليان، مررت لي سكينها الجيشية السويسرية - ولقاء مع قس كابوتشيني ملتح أنزلنا إلى مقبرته و، وهو يضحك، ضحكة مجلجلة عظيمة، أرانا بفخر كومة من الجماجم التي جمعها - الشيء الوحيد الذي أذكره حول رحلتنا نزولاً وعودتنا هو الزيارة التي قمنا بها إلى

Twitter: @ketab_n

جيورجيو موراندي، وهو رسام كنا نحترمه احتراماً كبيراً. كنا شباباً ومتهورين بما يكفي للبحث عن بيته في بولونيا وتقديم أنفسنا إليه بشكل غير معلن عنه.

استقبلتنا شقيقات المايسترو. بعد أن أوضحنا رداً على استفسارهن أننا لسنا أميركيين americani وآنا، التي كانت طليقة باللغة الإيطالية، سحبت اسم الجامع السويسري فلويرسهايم، وهو أحد معارف خالتها / عمتها وهو جامع معروف لأعمال موراندي، أرشدتنا السيدتان الغافلتان إلى استوديو المايسترو. رغم أن كل ما كان لديه ليرينا إياه هو قماشات الرسم البيضاء على المشدات، فقد أكد لنا، وهو يضحك ضحكة مكبوتة مثل جني قزم، أن اللوحات التي لم ترسم بعد ـ وكان ثمة دزينة أو أكثر ـ قد بيعت. لأميركيين، بالطبع.

كانت الطاولات والرفوف على الفرندا، التي كان يستعملها كفضاء أستوديو، مغطاة بأكوام من الفازات والأباريق والقوارير على قواعد أعمدة واطئة تنتصب أمام قماشات مشدودة وموضوعة بشكل ظاهر بشكل عشوائي. فيما مضى كانت الموديلات من أجل كائنات موراندي النمطية الحية الساكنة، اكتست بطبقة من الغبار مع مرور الزمن، والأواني المجمعة كانت قد باتت بنية رمادية موحدة مانحة بذلك لمسة من السحر الإضافي للوحات المايسترو.

كان يرتدي نظارتين مستديرتي الحواف وابتسم عندما حدقنا بدهشة إلى الموديلات لأجل الفن الذي كنا معجبين فيه كثيراً. تشكلت بيوت العنكبوت، التي كان بعضها حتى مسكوناً، بين الفازات والقوارير. في هذه الأيام، فإنها، مثقلة بالغبار وموضوعة بشكل عشوائي كما كانت، ستكون قد اجتذبت عالم فن غير متطلب بوصفه فن المفهوم Concept Art وبالتأكيد ستجد مشترياً.

Twitter: @ketab_n

بعد أن شربنا ليكوراً أخضر، أحلى من الحلو، من كؤوس صغيرة، فإن شقيقات المايسترو، المتلفحات جميعاً بالسواد، وقمن بوداعنا. سأكون قد سألت ما إذا كان يملك أية بروفات من قوالبه. لو كان الرجل العجوز في مزاج كريم، لكنا، آنا وأنا قد فزنا بلوحة موقعة من موراندي. لكننا غادرنا مدينة بولونيا خاليي الوفاض، بولونيا la rossa، la dotta ، la grassa الحمراء، المثقفة، المكتنزة.

قرب المرفأ في نابولي رأينا فرقة من الكشافة الألمان الذين سرقت حقائبهم الظهرية ولم يكن بمقدورهم أن يفكروا إلا في شيء واحد: كيف يصلون إلى الوطن. كان الغسيل الملون معلقاً في الخارج عبر الشارع لكي يجف. حشود / جماعات من الأطفال الصاخبين. كنا على غير هدى في الشوارع الضيقة، رأينا مواكب عرفنا أبهتها الكاثوليكية الوثنية من الأفلام الواقعية الجديدة. كانت تفوح رائحة السمك والفاكهة العفنة.

خلافاً لذلك لم يترك شيء علامته باستثناء الرسالة الـ poste restante من أمي. فهي، التي كنت قد وعدتها برحلات خيالية إلى الجنوب، البلاد التي تشتهر بزهور الليمون فيها، إلى نابولي، هي التي كانت ترتدي حبيبها، عزيزها الصغير الواعد باسم بطل مسرحي، رجل أثبتت بصلة حياته، بعد تقشيرها قشرة بعد قشرة، أنها خالية من نواة ذي معنى؛ هي، التي رغم كل وعودي المتبجحة قد انتهت خالية اليدين مثل أم (بير جينت)، هي التي كانت تمتلك إحساساً بالجمال وجاعت وراء الجمال طوال حياتها، كانت مبتهجة تماماً لأن «صبيها العزيز» كان «لايزال محظوظاً بعد مرة أخرى ليرى كل ذاك الجمال»، ومع «مثل هذه المرأة الشابة الظريفة من عائلة صالحة».

حتى نهاية الرسالة، التي حضتني على أن «أكون حذراً مع الآنسة آنا»، لم تكن هناك أية إشارة إلى مرضها - «إنه يرفض أن يتحسن» -

Twitter: @ketab_n

الذي يمكن بشق النفس أن يُخطأ، لكنني فشلت في أن آخذ على محمل الجد كل ما حدث بعدئذ دون علمها، خارج معاناتها.

ما إن عدنا إلى لنتسبورغ حتى طلبني والد آنا من أجل حديث رجل لرجل. بينما كنا ننصرف، كانت مالكة بيت ابنته في برلين قد أرسلت له رسالة مملوءة بالتلميحات المريبة. لم يكن ممن يصدقون الأقاويل التافهة، لكن شيئاً واحداً كان واضحاً لا لبس فيه: لقد أمضيتُ الليل مرارا في غرفة ابنته. برأي زوجته، رأي كان أيضاً يشاطرها إياه، كانت علاقتي بابنته التي تقوم، كما كان يفترض، على تعلق حقيقي، تحتاج الآن إلى أن تكون حالة شرعية متناغمة. لقد وفر علينا كلينا مزيداً من الكلمات الأخرى.

كنا نقف بجانب رفوف مليئة بالكتب حاولت أن أخمن عناوينها من ظهورها. وجد والد آنا النقاش محرجاً. أما أنا فلم أجده كذلك، سيما عندما كنت أرد بصراحة بكلمتي نعم وآمين. كل ما بقي هو تحديد موعد العرس.

كان والد البنات الثلاث، بوريس شفارتس، يود أن يرانا متزوجين إن لم يكن فوراً فبالسرعة الممكنة، ويفضل قبل نهاية السنة. لكنني لم أكن أريد أن أتزوج بالملابس القطنية كي لا أقول شيئاً عن سترتي الإحسانية الرثة؛ أردت أن أكسب ما يكفي من المال في أثناء الفصل الدراسي الشتوي كي أكسو نفسي بثياب ذات علامات تجارية جديدة، أي لأقف أمام عدالة السلام في لنتسبورغ ببذلة طازجة من واجهة المحل. كانت (آنا) أيضاً منحازة إلى إقامة عرس ربيعي. كانت تريد رقصة انفرادية مؤداة على لحن معزوفة على البيانو من تأليف بارتوك من أجل امتحان هام.

كنا لامبالين بهذا الزواج كما لو كان حبة دواء لأجل النكاف أو الحصبة. إنه لا يضير. كلما أسرعنا من الانتهاء منه كان ذلك أفضل.

Twitter: @ketab_n

اتفقنا على يوم في نيسان. كنت ضد تاريخ العشرين منه، تاريخ ميلاد هتلر، لكن حميي [والد زوجتي] المستقبلي قال إنه تاريخ ملطخ، كما يمكن أن يكون اليوم في ألمانيا، لكنه لم يكن يمتلك أية معاني إضافية سياسية في سويسرا، لولا أنه، بالإضافة إلى ذلك، سمع من بناته أنني عندما كنت جندياً شاباً نجوت من هجوم في العشرين من نيسان 1945، وجرحت، لكن بشكل طفيف.

كان تاجر الخردوات العالي المبدئية وضابط الاحتياط للجيش السويسري الدائم الجاهزية في الصميم رجلا معتدل السلوك. كان بشكل واضح واقعاً تحت قدر كبير من الضغط. لكن بالتمعن في عينيه فيما يعيد امتحان نعمي السعيدة، لم يشعر العازب المتحول بشكل متهور إلى عريس أنه مضغوط. كنت أرغب في أن أفي بالوعد الذي قطعته. كان بوسعي قبلاً أن أرى نفسي محملا بحلي مبهرجة، وقرنفل في عروة السترة وكل شيء، أحدق في المستقبل.

ما تلا ذلك سرع كثيراً ما كنت سأختزله إلى تسلسل زمني للأحداث [كرونولوجيا]، خصوصاً كما سار بشكل مختلف للغاية من أجل أمي المكابدة، البعيدة.

أنا غير متأكد مما إذا كان ذلك في أثناء تلك الأسابيع في لنتسبورغ أو في زيارتنا إلى هناك في العام التالي أن أصبحت خزانة كتب والدي زوجتي الغنية المخزون أصبحت أكثر أهمية من مناقشة الزواج التي حدثت بجانبها. بأي حال، قرأت وقرأت. التهمت كتاب ***موجز تاريخ الأدب*** من تأليف كلابوند، ثم الطبعة الجلدية الناعمة الفخمة من مجلدين لكتاب أوليسيس الذي نشرته دار راين فرلاغ في زوريخ وترجمه غيورغ غويرت. لا زلت أكتنزه. كانت أم آنا، التي كانت تقرأ بشكل واسع وحتى سن متقدم ـ كان عمرها 104 عاماً عندما توفيت ـ تجد جيمس جويس صعباً جداً و«أخرق» أكثر مما ينبغي، وأهدتني نسخة

Twitter: @ketab_n

منه، وهي تشك قليلاً فيما ستحركه معجزة لغته، خصوصاً عندما يجتمع مع عمل جاد فاتن أعارني إياه بعدئذ بوقت قصير باول، عم آنا، وهو شخص غريب الأطوار كان يسكن مع شقيقته غريبة الأطوار بالقدر نفسه في فيللا كبيرة وكان يربي سعدانا مربوطاً بسلسلة في الحديقة. إن كتاب *Berlin Alexanderplatz* لألفرد دويبلين، هو رائعة المؤلف الذي استعملتُ كل كتاب من كتبه فيما بعد كدليل عملي للكتابة، وعلى شرفه أحدثت جائزة.

ثم كانت الطبعة من كتاب شارل دي كوستر de Coster بعنوان ***أويلنشبيغل*** *Uilenspiegel* المزينة بالصور من قبل فرانز مازيريل، وهو حكاية تعج بالأحداث المتعلقة بالمتشردين التي ستغذي في نهاية المطاف هوسي المكبوت بعد بالكتابة. وتلك لم تكن سوى البداية لذلك. كان كما لو كان علي أن أجمع مخزوناً من الكتب قبل العرس يكفيني على الطريق الطويل أمامي: ***ترحيل مانهاتن*** لجون دوس باسوس، ***العقل المأسور*** لتشيسلاف ميلوش، ***مذكرات تشرشل***، التي قدمت لي الحرب من وجهة نظر المنتصرين، وكتاب ***هنري الأخضر*** لغوتفريد كلر للمرة الثانية. كنت قد قرأت هذا الأخير في خزانة كتب أمي عندما كنت فتى، وهي الآن تخضع للعلاج بالأشعة من السرطان في بطنها.

أم هل كان في برلين أنني أنجزت كل تلك القراءة فيما كانت تعاني؟ هل من الممكن أن لودفيغ غبرييل شريبر هو الذي فرض علي كتابه المفضل في كل الأوقات: ***مغامرات أويلنشبيغل*** وصديقه لامه غويدتساك؟ لأن لود الذي أصبح أكثر كاثوليكية مع كل جرعة، يشتم محكمة التفتيش بوصفها عملاً شيطانياً ـ لأسمعه، كان ذلك لازال مستمرا ـ من شأنه، كلما كان ثملاً عند طاولة الحساب الطويلة في حانة ليديكه كان يهتف، *Tis tydt van te breven de klinkaert* ومعناه

Twitter: @ketab_n

تقريباً: «*دعونا نقرع الكؤوس*»، *وبذلك* استفز، فهشم الكأس التي كان قد أفرغها للتو. لكن بغض النظر عمن وضعني على القافلة السردية التي لا نهاية لها، فقد بدأت مع معلم اسمه ليتشفاغر، الذي أعطى تلاميذه حقنات من كتاب *Simplicissimus* لغريملزهاوزر ـ كانت خزانة كتب حميي هي مهر آنا: الزواج بها أغناني بهذه الطريقة أيضاً.

كان الـ Baumliacker أو حقل الأشجار، كما يطلق على البيت والحديقة في لنتسبرغ، يحتوي مصدرا آخر للقوة: شقيقتا آنا. فالكبرى، هيلين ماريا، كان من الممكن أن تجعلني أضطرب، وقد فعلت ذلك في السر، في حين كانت الصغرى، كاتارينا، فتاة ضخمة قوية البنية لاتزال في المدرسة. ومثلما أن خزانة الكتب أطلقتني في رحلة حياة من سرد القصص، بدرجات متفاوتة من الصدق، وإعادة ربط الخيط عندما يفلت، كذلك فإن نمط الأخوات الثلاث قد ظل معي، يمكن للمرء أن يقول بشكل عنيد، على مر السنين: فيرونيكا شرويتر، والدة ابنتي هيلينه، هي واحدة من ثلاث أخوات سكسونيات؛ إنغريد كرويغر، التي أدين لها بإبنتي نيله، نشأت الصغرى في أسرة تورينغية من ثلاث أخوات؛ كما بالنسبة إلى أوته، التي التزمت بي في السراء والضراء والتي أدخلت ابنيها مالته وهانز إلى أسرتنا الموسعة، إنها الكبرى من ثلاث بنات لطبيب من جزيرة قبالة ساحل بوميرانيا.

لا، لا أستطيع أن أجد أية ثلاثيات أخرى، باستثناء ربما البنات الثلاث لرئيس عمال المنجم، اللواتي كانت كبراهن قد تولع بها الفتى المقرن. كان من الممكن أن أرد كل هذه الكوكبات الثلاثية النجوم في حياتي إلى سلوك خاص من القدر، لكن ألم يكن الشيطان ـ أم صديقي جوزف الماضغ للكراوية ذات مرة، الحبر الأعظم الحالي؟ ـ من قال «كل شيء حظ!» في اليوم الغابر عندما رميت، وقد سألت أحجار النرد عن مستقبلي مع النساء، ثلاث ثلاثات أربع أو خمس مرات في صف واحد؟

Twitter: @ketab_n

مثل النعم الإلهية الكثيرة للغاية، لوحت الشقيقات وداعاً لي عندما غادرت لنتسبرغ إلى برلين عن طريق بروغ مع الخيمة ذات اللون البرتقالي المائل إلى الحمرة الملطخة بالتوت في رزمتي. أما كان علي أن أتخذ طريقاً ملتوية وأقوم بزيارة لوالدي في أوبراوسم؟ فقد كانت الوالدة لاتزال تعاني في البيت، رغم أنها كانت تستقل الباص إلى كولونيا من أجل العلاج بالأشعة، المزيد والمزيد من الأشعة.

طوال فصلي الخريف والشتاء عملت عددا من أقنعة الموت الجصية من أجل متعهد برليني. وقد عاد ذلك علي بالمال الكافي من أجل شراء سترة سوداء على مقاسي، من مخزن القسم المعروف باسم كاوفهاوس ديز فستنز، وسروال مقلم، وربطة عنق ذات لون رمادي فضي، وحذاء أسود، لم ألبسه مرة أخرى. لم أكن أملك شيئاً في جيوبي، لكنني أردت أن أبدو عريساً أنيقاً.

ما جرى قبل العرس وبعده، في حين بدأت أشياء أخرى، بدأت وانتهت، قطعها لوهلة قصيرة فقط تغيير عاجل لمقرات الإقامة وتقارير عن معاناة أمي ـ في ذاك الوقت كانت في مستشفى في كولونيا ـ نيبز ـ وهي أشياء كادت فيما بعد أن تمزقني إرباً، جعلتني عليلاً، حررتني، ثم انتهت على الورق أو في الصلصال، جالبة قدرا من المال وتذوقي الأول لطعم النجاح ـ بيع سرطان برونزي بحجم اليد ـ كل ذلك سار وفقا لنظام محدد، شيء يخفي شيئاً آخر، كل شيء يكافح ليكون حاضراً، ينافس من أجل الأولوية.

كان ذلك في حوالي الوقت الذي شاهدنا (أنا وآنا) فيه لأول مرة الوميض الأسود والأبيض لشاشة تلفزيون في واجهة محل لبيع أجهزة الراديو قرب روزنك، وفي حين كان الجدال الفني بين كارل هوفر وفيل غروهمان يهز مدرسة الفنون الجميلة وصولاً إلى غرفة الجص فيها، نقلت أمي إلى المستشفى لأجل المعالجة وانتقلنا إلى مقاطعة شمارغندورف،

Twitter: @ketab_n

حيث كانت لمالكة بيتنا، وهي روسية ألمانية، عاملة تنظيف، كانت تأتي من الجزء الشرقي من المدينة لتكسب الماركات الألمانية الغربية وتقرأ فناجين القهوة مرة كل أسبوع. بعيداً عن وفاة في الأسرة، لم تتنبأ لنا بشيء سوى الشهرة والمجد: «الحظ السعيد رفيقك الدائم....».

كانت لنا غرفة كبيرة وسمح لنا باستعمال المطبخ. فيما كنت أكتب رباعياتي أو أرسم حيواناتي، وفيما كانت آنا ترقص حافية القدمين على موسيقا بارتوك، وفيما كنا خارج البيت نشاهد أفلاماً فرنسية من الثلاثينات، كانت أمي تحتضر ببطء بعيداً عنا.

كنا هناك عندما عقدت المناظرات أمام جمهور منقسم سياسياً، أحياناً في برلين الشرقية وأحياناً أخرى في الغربية، حيث كانت الحرب الباردة تقدم المادة الملتهبة الوفيرة والشتاء يثبت أنه ليس قارساً بشكل خاص ولا معتدلاً بشكل خاص. وفي حين كانت النزاعات بين الشرق والغرب تغمر الأرض نفسها كنا نشاهد برتولت بريشت وهو يبتسم هناك على المنصة كما لو أنه لم يكن له رأي حول الحرب الكورية أو التهديد النووي. لكن عندما كان ب. ب. البائس يلوك سيجاره بصمت وكان المثلان الفكريان للقوتين الكبريين العالميتين ـ ملفين لاسكي ممثلاً للغرب وفولفغانغ هاريش ممثلاً للشرق ـ يعدد كل منهما جرائم الآخر ويهدد كل منهما الآخر بضربات نووية وقائية، كان السرطان ينهش أمي.

اشترينا براداً مستعملاً، كان شراءنا الأول كزوجين ـ كانت أحشاء أمي تحترق تحت الإشعاع.

كنا نرقص في كل فرصة، وكنا نعتقد أن الشباب هو كل ما كان موجوداً لدينا ـ أصبح بطنها جرحاً لن يندمل.

كنت أود أن أتكلم عن أشياء أخرى حدثت قبل زفافنا، واحداً تلو الآخر أو كلها معاً؛ مع ذلك فإن موتها البطيء، الذي لا أعرف عنه

Twitter: @ketab_n

شيئاً، حدث خارج زمننا وبلا شيء كثير يحدث في نهايتنا؟

النقاشات بين الشرق والغرب ـ كانت المقارنة دوماً بين ضحايا الستالينية والعدد التقديري للوفيات التي سببتها القنابل التي أسقطت على هيروشيما وناغازاكي ـ ولا كلمة واحدة حول أوشفيتز ـ هذه النقاشات ربما هزت العالم، مثلما فعل موت ستالين في العام السابق؛ أما موت أمي فقد مر بصمت.

عرض معلمي، كارل هارتونغ، الذي كان ينتمي إلى نادي للرجال يجتمع كل أسبوع في الساحة البايبرية حول الشاعر غوتفريد بن، عدداً قليلاً من قصائدي على الأستاذ المتعذر الوصول إليه بغير ذلك؛ أمي، التي كانت في رفقة مختلفة كلياً، لم يكن لها أي دور في بث الشعر المقفى وغير المقفى.

وعندما كتبت أختي ـ أو هل كان والدي؟ ـ تقول إنني ينبغي أن أجيء حالاً، النهاية قريبة، فغادرت ـ كان ذلك بعد أن سمعت من هارتونغ أن بن قد وصف قصائدي بأنها «واعدة إلى درجة عالية» لكنه أضاف قائلاً: «تلميذك في نهاية المطاف سيكتب النثر» ـ بلا آنا على متن القطار بين المناطقي إلى كولونيا، حيث كانت والدتي مستلقية تحتضر في مستشفى القديس فنسنت.

صارت تتعرف علي تدريجياً. ظلت تطالب بأن يقبلها ابنها. فقبلت شفتيها المزمومتين من الألم، وقبلت جبهتها ويديها الجامدتين. كان سريرها قد أخرج من الجناح إلى مخزن يخدم بمثابة حجرة الموت، وهو وكر بلا نوافذ يفتقر حتى إلى الصليب الإلزامي على الجدار. كان الضوء الوحيد يأتي مما قدرت أنه مصباح ذو استطاعة أربعين واط قرب السقف.

لم يعد بمقدورها أن تتكلم، لكن شفتيها الجافتين بقيتا تتحركان. تحدثت إليها، لا أدري حول ماذا. كان والدي وشقيقاتي هناك أيضاً. فكنا نتناوب على إبقاء شفتيها مبللتين. حالما كنت وحدي معها، كنت

Twitter: @ketab_n

أنحني وأتكلم بصوت خافت في أذنها، أقدم الوعود المعتادة، القصة القديمة ذاتها: «عندما تتحسنين، سنذهب كلانا... إلى الجنوب المشمس... نعم، حيث يزهر الليمون... إنه جميل، جميل في كل مكان... طوال الطريق إلى روما وإلى نابولي... خذي كلمتي ياماما....».

من حين إلى آخر كانت المرضات والراهبات يأتين إلى جانبها. كن، وهن ملفوفات بخمارهن، ينزعن الضمادات ومدافئ السرير وكرسياً ذا عجلات. كن مستعجلات دوماً. فيما بعد ألهمتني الخمارات لإنجاز رسوم جبهية وجانبية للفنسنتيات.

قدمت إحدى الراهبات اللواتي كن يأتين ويذهبن وعداً عندما مرت مسرعة: «الرب العزيز سوف يعتق الروح البائسة قبل أن يطول الزمن».

هل كنت قد جلبت أزهاراً؟ أزهار النجمة التي كانت تحبها كثيراً؟ البصلة لا تقول شيئاً.

فيما كنت جالساً هناك نائماً - لا أدري كم طال ذلك - توفيت. قال الوالد «لنشن، لنشنتي...» وظل يتمتم.

هي، التي دببت خارجاً منها وأنا أصرخ ذات يوم أحد - «طفل الأحد، هذا هو أنت»، كانت تحب أن تخبرني، التي كنت لا أزال أجلس في حضنها في سن الرابعة عشر، صبي الماما الذي تشبث بعقدته؛ هي، التي من أجلها وعدت وصورت ورسمت الثروة والشهرة والجنوب، أرضها الموعودة؛ هي، التي علمتني أن أحصل ديون زبائنها بأقساط صغيرة: «اطرق الباب يوم الجمعة، عندما يكون ثمة شيء متبق من راتبهم»؛ هي، ضميري الجيد المسترضى، ضميري السيئ المكبوت؛ هي، التي كومت عليها الهموم والويلات التي ضاعفتها دزينة مثل القوارض؛ هي، إلتي من أجلها اشتريت المكواة الكهربائية - أم هل كانت طاسة كريستال؟ - في عيد الأم، بالمال الذي جنيته من تحصيل الديون؛ هي، التي رفضت أن تأتي إلى المحطة عندما تطوعت في

Twitter: @ketab_n

الجيش، وكنت لا أزال فتى - «إنهم يرسلونك إلى حتفك»؛ هي، التي لم تتفوه بكلمة واحدة عندما سألتها في القطار المنطلق من كولونيا إلى هامبورغ عما حدث لها عندما وصل الروس بمثل هذه القوة - «الأشياء السيئة يجب أن تنسى»؛ هي، التي علمتني لعبة سكات وكانت تعد الأوراق النقدية وقسائم الحصص التموينية بإبهام مبلل؛ هي، التي كانت أصابعها تعزف مقطوعات البيانو الضعيفة والتي وضعت الكتب التي لم تُقرأها على الرف لأجلي؛ هي، التي لم يتبق لها شيء من ثلاثة أشقاء سوى ما تتسع له حقيبة ملابس متوسطة الحجم والتي رأت أشقاءها يستمرون في الحياة في - «لقد أخذت أنت كل شيء من ارتور وباول وبعض الأشياء من ألفونز أيضاً...»؛ هي، التي كانت تخفق السكر في صفار البيض لأجلي؛ هي، التي ضحكت عندما قضمت قطعة الصابون؛ هي، التي كانت تدخن السجائر المصرية وفي بعض الأحيان تنفث حلقات الدخان؛ هي، التي كانت تؤمن بي، طفلها المولود يوم الأحد ولذلك فقد كانت دوماً تفتح تقرير نهاية العام في الأكاديمية على الصفحة نفسها؛ هي، التي أعطتني، أنا ابنها المدلل، كل شيء وتلقت القليل؛ هي، التي هي وادي فرحي ووادي دموعي والتي، عندما كتبت من قبل وأكتب الآن، تطل من فوق كتفي حتى بعد الموت وتقول: «اشطب ذلك، إنه قبيح»، لكنني نادراً ما أصغيت إليها وعندما فعلت ذلك كان ذلك متأخراً؛ هي، هي التي ولدت في الألم وماتت في الألم، أطلقتني لأكتب وأكتب؛ هي، التي كنت أحب أن أوقظها بقبلة على ورقة لاتزال بيضاء، بحيث يمكنها أن تسافر معي، معي فقط، وترى الجمال، الجمال فقط، وتقول في النهاية: «أنني يجب أن أعيش لأرى مثل هذا الجمال...»؛ هي، أمي، توفيت في 24 كانون الثاني / يناير 1954. رغم أنني لم أبك حتى وقت متأخر. متأخر كثيراً.

Twitter: @ketab_n

هدايا العرس التي تلقيتها

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في الجنازة في مقبرة قرية أوبراوسم وقفت إلى جانب شقيقتي، التي كانت تقف إلى جانب

والدي. كان العمل الوحيد التي أمكنها أن تجده بعد ترك الدير هو كموظفة حفظ أوراق [أرشفة] بشكل متواضع في مستشفى بكولونيا. كانت تذبل ولم تكن تعرف ما العمل. من كان بمقدوره أن يخفف أساها الآن وكان الله، بالنسبة لها، لم يعد ضمن المدى؟

توارت الأم مع التابوت الذي أهيلت عليه كتل من التراب. الأخ لم يكن يفكر إلا بنفسه بالثروة الجيدة الذي تمت طمأنته إليها بتهور؛ لقد كان منفصلاً كما كان دوماً، في عالمه الخاص. أما الوالد الذي تخلف، مثل الأخت، منفطر القلب، فقد كان يبدو أصغر بشكل ما، وحتى منكمشاً.

كان يبدو كما لو أنه سيكون عاجزاً عن تحمل الكثير من هذه العزلة. بعد وفاة زوجته بوقت قصير اقترن بأرملة كانت، مثله في نهاية المطاف، ستقبض معاشاً تقاعدياً وعاشا فيما كان يعرف باسم «زواج العم». كان راضياً بطريقته الخاصة. كلاهما سيشاركان في المناسبة، يستقلان رحلات حافلة المتقاعدين إلى باخاراخ على الراين الأعلى من أجل حفلات تذوق النبيذ، أو إلى منتجع في بلجيكا من أجل المغامرة بمدخراتهم الصغيرة في الكازينو.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك بسنوات، عندما كنت قد «صنعت اسماً» لنفسي، على حد تعبيره، زعم الوالد أنه فخور بابنه، الذي «آمن به دوماً»، كما أكد لي، وعيناه الزرقاوتان لا ترفان. ورددت بقولي: «نعم، يا بابا، حيث سأكون بدونك»، ومنذئذ فصاعداً كانت لقاءاتنا سلمية دوماً: كلما جاء هو وزوجته الجديدة كليرشن للاتصال بنا وبالأولاد، كانت هي، السيدة غوتبلرلت، تجلس على الأريكة تتصفح المجلات وكان هو يلعب السكات مع آنا، التي لم تكن في أفضل سلوكها، ومعي.

على كل، في مقبرة أوبراوسم لم يكن لدينا عملياً شيء لنقوله كل منا للآخر. ربما كان مشهد كل تلك القبور هو الذي سلبنا الكلام. لكن المداخن المدخنة لفورتونا نورد أعطتنا رسالة واضحة جداً. الحياة تستمر، الحياة تستمر.

كان النائحون / محاطين بأحجار الأضرحة المنحوتة من الدوليريت والرخام السيليزي والحجر الكلسي والغرانيت البلجيكي، الموضوعة بين صفين من أسيجة خشب البقس. فالأحجار كلها من الممكن أن تكون قد أتت من ورشة غوبل، وحينما نقلنا، كبير العمال كورنف وأنا، أحجاراً منفردة أو مزدوجة إلى عدة قرى مجاورة في سيارة الفان الصغيرة التابعة للشركة لم نكن قد ذهبنا إلى أوبراوسم أبداً.

وقفنا عند القبر مع جيران الوالد وزملائه العمال. ليس بمقدوري أن أتأكد مما إذا كانت السماء تمطر أم تثلج أو إن كان ثمة قبلئذ طبقة من الثلج على الأرض. لا أعرف بالضبط من الذي أتى ومن الذي لم يأت. لا يمكنني أن أتذكر شيئاً عن شعائر الدفن سوى أن الكاهن كان له مساعد واحد فقط. كنت خاوياً، أو شعرت بأنني كذلك، حاولت أن أبكي، لكن عبثا. رغم ما يعنيه ذلك.

وعندما سألت الأختُ الباكيةُ ـ كنا قد تركنا المقبرة في ذاك الوقت ـ

Twitter: @ketab_n

«ما الذي سيحل بي؟ ماذا ينبغي علي أن أفعله؟» لم يكن لدى الأخ جواب، فقد كان مشغولاً بنفسه، بنفسه فقط.

توفي الوالد في سن الثمانين في صيف عام 1979. كان التابوت لا يزال مفتوحاً عندما وصلت. كان يبدو جيداً، حسن الهندام كما كان دوماً ومسالماً. إنه مدفون في اوبلادن مع الأرملة غوتبرلت، التي سبقته إلى هناك. كان، كلما رأينا أحدنا الآخر، يشعر بالحاجة إلى تشجيعي «اصمد، يا بني، اصمد».

كانت محفظة الجيب تحتوي على مراجعات ايجابية لكتبي، التي لم يقرأ واحداً منها. عندما كان ابني راؤل تقني راديو متمرناً في Westdeutscher Rundfunk في كولونيا ـ وبشعر مجعد طويل كان يبذل قصارى جهده لكي يبدو مثل معبوده فرانك زابا ـ كان هو وأصدقاؤه يعرجون على جده من أجل لعبة سكات عرضية، هوايته البريئة.

في أثناء منتصف الستينيات عندما رفع حزب اليمين المتطرف، الـ NPD، أو الديموقراطيون القوميون، شعارات البارحة، سألته لمن صوت في انتخابات البوندستاغ [البرلمان الألماني]. «للاجتماعيين، بالطبع»، قال، «كالعادة». ثم بعد توقف أضاف، «لو لم أصوت للديمقراطي الاجتماعي، لتوقفت عن إرسال النقود إلي». كنا نفهم أحدنا الآخر جيداً.

قبل وفاته بعدة سنوات، حيث كان آنذاك في دار تمريض، جلبته أنا وأوته إلى بيتنا في زيارة. استمتع برحلة السيارة الطويلة ورفض أن يأخذ قيلولة، مأخوذاً بالمروج الغنية والأبقار، الأبقار في كل مكان. لكنه جلس في زاوية مطبخنا في (فيفلسفلت) يضيع الوقت لساعات من غير انقطاع. وعند الظهر، قبل أن يأتي برونو ومالته وهانز إلى البيت

Twitter: @ketab_n

جائعين من المدرسة وتعلو أصوات ضجيجهم المختلفة، سيجلس قرب المدفأة ويستمع إلى طبخ البطاطا. «كنت دوما أحب الاستماع إليها وهي تغلي في القدر»، قال، «عندما كنت أطبخ من أجل لنشن ثم كلرشن.....». لم يكن يحب كثيراً التكلم أكثر من ذلك وكان في أسعد أحواله عندما قبلته أوته قبلة آخر الليل: «قبلة صادقة. على الفم».

وأختي؟ السؤال الذي طرحته علي في مقبرة أوبراوسم أو بعد خدمة [شعائر الدفن] كان هو السؤال الذي سأسمعه مرات أخرى كثيرة: «ما الذي سيحل بي؟ ما الذي ينبغي علي فعله؟».

في حوالي نهاية شهر نيسان / أبريل بعد العرس، الذي جاءت من أجله إلى لنتسبرغ، ساقت السيارة برفقتي وآنا إلى كوخ والدي زوجتي الصيفي في تيكينو، حيث حاولت أن تسكن أحزانها بأكوام من الشوكولاته السويسرية والحليب والحلويات المرة، ولم تكن تعرف ما الذي تفعله سوى البكاء في الطقس الأجمل. مع أن شكاويها التي لا تنتهي كان فيها عنصر اجتماعي، رغبة في مساعدة الآخرين، مساعدتهم بطرق عملية، هنا والآن.

وعندما جاءت لتزورنا في برلين في خريف عام 1954 بعد وقت قصير من رحلتنا عبر إسبانيا فرانكو المغلقة بشكل مقيت، التي أمدتني بالمادة من أجل قصتي الأولى، «مرجي الأخضر» ـ آنذاك كنا نسكن في شقة دياناسي في الطابق الأرضي ـ وطرحت السؤال نفسه بنفس الإلحاح ـ كنا قادمين إلى البيت من مشاهدة فيلم وكنا ننتظر في شارع بودابست لكي تتغير إشارة المرور ـ أخيراً أعطيتها نصيحة خرجت أقل أخوية، وأكثر شبها بالأمر.

في ومضة إلهام غفوت. «اقطعي النحيب، اللعنة! كوني قابلة. سيكون هناك دوماً أطفال للتوليد».

Twitter: @ketab_n

وصارت قابلة، بعد إتمام تدريبها في العيادة النسائية في هانوفر. عملت في ريدت، وعيادة جامعة بون ولويدنشايد، خارج دوسلدورف، وأشرفت على حوالي أربعة آلاف ولادة. يداها الرشيقتان وكلماتها الخالية من الهراء عادت عليها بفائدة كبيرة؟ على مر السنين، وفي نهاية المطاف، لم تكن تشرف على القابلات وترشدهن فقط في مؤسستها، بل رأست لجاناً من أجل ظروف العمل المحسنة والرواتب الأعلى أيضاً في عدد من المستشفيات. ولاتزال تقوم بالكثير من الأسفار كممثلة للجنة كبار مواطني نقابتها. إنها محبوبة - ومهابة قليلاً - من قبل أولادنا وأحفادنا بوصفها واحدة تعرف عقلها الخاص ويمكنها أن تتولى مشروبها في التجمعات المهرجانية، بوصفها ديمقراطية اجتماعية كاثوليكية وصديقة لراهبة اسمها الأخت شولاستيكا، والتي تعرف الآن باسم شوللي، تتخذ موقفاً صلباً. حتى في سنها المتقدم تجد فرصة لأجل ضخ فكاهتها الجاهزة في النقاشات، لكنها تستطيع دائماً أن تفقد مزاجها وتمنح ممثلي الإثم المعاقب رسمياً هنا قطعة من عقلها، «أعني، حقاً. إنه شائن» هي واحدة من لازماتها المتكررة. إنها تعمل أيضاً على تخفيض معدل الولادات الآخذ في الهبوط مع أختي الصغرى نيله، التي هي نفسها قابلة. إنهما تعزيان إحداهما الأخرى: «لحسن الحظ أنه يوجد أجانب بما يكفي لإبقاء العالم مستمراً..».

لذلك فإن كلمة تقال على ناصية شارع أثناء الانتظار لعبوره يمكن أن تحدد اتجاه حياة برمتها. وهو ما يذكرني بالبروفسور إنسلينغ، الذي وجهني في الشتاء البارد الجليدي لعام 1947، عندما أغلقت أكاديمية دوسلدورف للفن مؤقتا بسبب نقص الفحم، في الاتجاه الصحيح الوحيد.

ثمة صورة من عرسنا - آنا في طقم أحمر خمري، وأنا في السروال المقلم - ونظهر فيها ونحن نبتسم أحدنا للآخر كما لو أننا قد أطلقنا للتو

Twitter: @ketab_n

مزحة مرحة. هي في الحادية والعشرين من عمرها. وأنا في حوالي السادسة والعشرين. إنه يعني الكثير لنا بحيث أننا لا نحتاج بعد إلى أن نكون بالغين تماماً. إننا نلبس خاتمينا في يدينا اليسراوين؛ إنهما من الذهب ولذلك فهما غاليان. لكن بالنظر إلى أنني كنت قد فكرت مسبقاً بآنا بوصفها ملكية مكتسبة، فقد كانت الثمرة الأثمن للعرس المتسرع هي هدية العرس وهي آلة كاتبة نقالة من طراز أوليفيتي، موديل ليتيرا، التي جعلتني كاتباً، إن لم يكن فوراً فبعدئذ شيئاً فشيئاً.

إلى كل المصالح والغايات بقيت مخلصاً لها: فأنا لم أكن راغباً ولا قادراً على التخلي عنها. لقد عاملت ليتيرا دوماً باحترام. لقد استعبدتني إلى هذا اليوم. فقد عرفت دوما عني أكثر مما كنت أرغب في أن أعرف عن نفسي. بيتها هو إحدى طاولات مكتبي الاحتياطية، عندما تكون لوحة مفاتيحها دوماً في انتظاري.

أجل، ولكنني جربت موديلات أخرى في مسيرتي - شؤونا قصيرة الأجل، إذا جاز القول - لكن الأوليفيتي لم تخفق أبداً في إخلاصها، ولا أنا أخفقت في إخلاصي، ولا حتى بعد أن لم يكن بالإمكان العثور عليها إلا في أسواق السلع المستعملة. كل شخص كان يهديني واحدة لم يكن يعود يستعملها، مع توضيح بأنها قد شهدت أياماً أفضل. وهو ما كان مغلوطاً.

إن ليتيرا هي آلتي الدائمة. فقد صمدت أمام اختبار الزمن لأنها سهلة الإصلاح للغاية. إنها تبدو أنيقة بشكل متواضع للغاية في ذاك الغلاف المعدني الرمادي الأزرق الخالي من الصدأ. ملمسها الخفيف ينسجم للغاية مع طريقتي في استخدام إصبعين، هي موسيقى بالنسبة لأذني. في بعض الأحيان يستعصي حرف أو آخر ويعلمني الصبر، تماماً كما تكون هي صبورة معي عندما أظل أنضد الأحرف المغلوطة.

Twitter: @ketab_n

أوه، إن لها خصائصها. فالشريط ينحو إلى الالتصاق. مع ذلك، في حين أنها ربما تكون آخذة في التقادم، فأنا واثق من أنها لن تصبح عتيقة. إن الطقطقة التي تعبر النافذة المفتوحة تخبر العالم أننا حيين، كلانا. اصغ! حوارنا بعيد عن النهاية / لن ينتهي: بالنسبة إليها أنا كاثوليكي بما يكفي للاعتراف.

في الوقت الحالي ثمة ثلاث آلات ليتيرا طاولات مكاتبي القائمة في البرتغال والدانمارك وأستوديو بهلندورف. إنها، كثالوث، تحرص على ألا يجف سيل القصص لدي. إن مجرد رؤية واحدة أو الأخرى أو الثالثة يكفي لإعطائي فكرة، وسرعان ما تخرخر بعيداً، برقة بالغة، بشكل بهيج، مالئة فترات الصمت.

كل الآلات الثلاث هي ملهمات آلية. فليس لي ملهمات أخرى. لقد أهديت لها مقطوعة شعرية رباعية في مجموعتي الشعرية بعنوان ***مواد فقدت ووجدت من أجل اللاقراء***، وهي مجلد أشعار من نهاية القرن المنصرم تضم مساهماتي في الجنس الأدبي الذي أدعوه الشعر المائي aquaverse. إن أوليفيتي البرتغالية لا تغار أبداً من أوليفيتي الدانماركية، أو إن أوليفيتي بهلندورف لا تغار من الأخريين الأجنبيتين. وكما أنهن يعشقنني بأصواتهن الثلاثة، كذلك أنا مخلص لهن، ولهن وحدهن.

بغض النظر عن كم سلعة جديدة وعصرية دخلت إلى السوق، فإن شيئاً لم يغريني. فلا الموديل الكهربائي [من الآلة الكاتبة] ولا الكومبيوتر أثبتا أنهما مغريان بما يكفي لاستبدال حتى واحدة من آلات أوليفيتي، تماماً كما أن أياً منها لم تنجح في أن تهزمني على كومة النفايات «كمكواة عتيقة».

في منتصف السبعينات، عندما كان زواجي آخذ في الانهيار لم أعد

Twitter: @ketab_n

واثقا من سقف فوق رأسي ـ هذا هو السبب في أن مخطوط رواية *التخبط* لم يعرف ما الذي حصل له ـ هربت من برلين إلى لندن مع إحدى آلات أوليفيتي، وعندما وجدت ملجأ مع زميلة طيبة القلب اسمها ايفا فيغز، انطلقت الآلة تطقطق في الجو الجديد إلى أن استقريت مرة أخرى، بفضل أوته.

لقد دللتها، صدقوني: لم أقذف شتائم مقصودة لأجل الآخرين عليها. ولا ألومها إذا كنت كسولاً للغاية بحيث لا أبدل الشريط وتصبح الطباعة أدكن فأدكن. لم أعرها لأحد أبداً.

ويصح القول أيضاً إنها لم تخذلني أبداً، مهما كانت الطلبات التي فرضتها عليها. كتغير المناخ بعد طيران طويل، على سبيل المثال. في كالكوتا، عندما أقمنا لبعض الوقت، كان عليها أن تتحمل الحرارة والرطوبة العظيمتين وابتليت بالحشرات التي تستخدم أحشاءها كأراض للتكاثر. رغم أن الأعوام السابقة كانت حتى أسوأ.

في أوائل الثمانينات، عندما بدا لي أن الجنس البشري في طريقه للخروج إلى الأفضل، خلقت شلة كاتب استمرت لمدة أربع سنوات، خلال هذا الوقت كان الشيء الوحيد الذي استعملت أصابعي لأجله هو تشكيل الصلصال في منحوتات فشعرت آلات ليتيراس الثلاث كلها أنها مهجورة. فقبعت الثلاث هناك تجمع الغبار إلى أن بدأت القصص ترد إلي، قصص الوداع القيامية، التي خربشتها أولاً بفرشاتي على ألواح من الصلصال المحترق إلى الحرق حتى الابيضاض، ثم باليد على الصفحات البيضاء لنموذج طباعي سميك لآلة طابعة ذات سطور غير مقروءة تحت عنوان *الجرذ*، والذي احتاجت من ثم إلى أن تجمع وتنضد بشكل نهائي.

يوماً بعد يوم، ورقة بعد ورقة... لمدة خمسة عقود. نسختان أو ثلاث

Twitter: @ketab_n

على الآلة الكاتبة بعد النسخة المكتوبة بخط اليد. يمكن لأوليفيتي أن تأخذ أي شيء: روايات قصيرة وروايات، قصيدة مناسباتية بطريقة النحت النافر، إذا جاز القول، إضافة إلى خطابات انتخابية ديمقراطية اجتماعية جافة و ـ بعد إعادة التوحيد في عام 1989 ـ خطابات حول صفقة شراء الشرق من قبل الغرب.

كنت إذا نفست غضبي عليها، لا أقصد ذلك شخصياً. وتعلقت بها عندما عزلني تماماً تقييمي لخدعة الخصخصة، عندما خفتت رواية *نداء الشرغوف*، وفي حين كبرت رواية *Too Far Afield* وكبرت إلى شيء هام بما يكفي لتضم الحطام المصنف من قرنين من التاريخ الألماني، بالإضافة إلى بقايا بطلي تيودور فوتكه ـ يعرف أيضاً باسم فونتي. بما أن الأشرطة من أجل أوليفيتي النقالة التي أملكها لم تعد موجودة في السوق آنذاك، فإن كتابتي ستكون تحديداً قد واجهت أزمة مادية، إن لم تكن وجودية، لولا مساعدة الأصدقاء.

في أثناء زيارة إلى مدريد مع أوته ـ كنت أمنح الهيدالغو، وهي جائزة على هيئة عكازة صنعها من القصب العضو الأكبر سناً في جماعة من الغجر gitanos الذين كانوا ينصبون مخيمهم قرب مستنقع خارج المدينة، وهي مادة سرعان ما ستصبح مفيدة عندما بدأت أعاني المزيد ثم المزيد من المشاكل في المشي ـ بعض الشبان الذين قرؤوا مقالة صحفية تسخر من عاداتي البالية في الكتابة قدموا لي علبة من أشرطة الآلات الكاتبة طازجة من المعمل، ما يكفي لإبقائي مستمراً في الكتابة لبعض الوقت.....

لكن أوليفيتي الأولى التي أملكها ـ وهي هدية زفاف من عمة زوجتي مارغوت وزوجها أورس وهي حالياً بحوزة ابني الأصغر برونو، الذي يحتفظ بها كما لو كانت جزءاً لا يتجزأ مني ـ كانت ذات تبعة خاصة:

Twitter: @ketab_n

لقد كانت الآلة التي استعملتها لتنضيد القصائد التي سرعان ما أصبحت كتابي الأول، *خصال البط* .

لابد أنها جاءتني بدون جهد لأنه لا توجد قطرات عرق أو آثار أخرى للجهد على قشرة بصلتي. لا يمكن أن يكون هناك أي شك في أن الجرثومة لأجل القصائد جاءت من غرفة قبو رطب ذات نافذة تطل على حديقة، غرفة أخذتها آنا وأنا في منزل طابقه العلوي، المكتمل ببرج ونافذة مشربية، كانت قد أفرغ في الحرب وسكنه منذئذ الطقس المتقلب وطيور الحمام. كنا قد اكتشفنا هذه النصف خربة بين الصالة الملكية والمياه الكثيرة القصب لبحيرة دياناسي ولم نجد أي عناء في استئجار غرفة القبو، التي كانت فيما مضى جزءا من مكان إقامة البواب، مقابل مبلغ متواضع. كان الأشخاص الوحيدون الذين يسكنون فوقنا بروفسورا وزوجته، كنا نحييهما ويحييانا.

كان المسكن ضيقاً، لكن كان بمقدورنا دوماً أن نخرج إلى الحديقة المفرطة في نموها، سعداء أو على الأقل نحيا قصة خرافية تعد بنهاية سعيدة. شعرت آنا أكثر بأنها في بيتها أكثر مما شعرت أنا، لأنني بعد طفولة محمية في محيط سويسري آمن فإن أنشودتنا الرعوية في الخرائب قد منحتها [زوجتي] وهم الحرية. فقد سمحت لأفكارها بأن تحلق أقل كثيرا مما سمحت لأفكاري. في الصيف كانت النافذة التي تواجه الحديقة تترك مفتوحة طوال المساء للسماح بدخول شمس الغروب.

كنت أطهو أطباق العدس على مدفأة الغاز ذات الحلقتين وأقلي الرنكة الخضراء وكل ما هو رخيص الثمن ـ النقانق، والكلاوي، والأضلاع الاحتياطية في مقلاة من الحديد الصب. في أيام الأحد، عندما كنا نستقبل ضيوفاً كنت أطهو قلوب البقر المحشوة بالبرقوق، وفي الخريف كنت أضع قطع لحم الغنم مع الفاصولياء والإجاص على

Twitter: @ketab_n

المائدة. «فاصولياء وأجاص» كان اسم إحدى القصائد التي نضدتها على الأوليفيتي. ثمة قصيدة أخرى بعنوان «وباء الذباب الصغير»، كان منشؤها في الدياناسي المجاورة، أرض تفقيس البعوض.

كنا ننتقي الأصدقاء بعناية. هانز وماريا راما، اللذان قررا أن حبنا يحتاج إلى أن يجعل مستمراً بالصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود. تصادقت أيضاً مع عازف فلوت آخر، هذا الأجعد الشعر، ذو ضفيرة مؤخر الرأس على طريقة موتسارت، أستاذ الفلوت الفضي والمحاط بحشود الفتيات الصغيرات. كان اسمه أوريله نيكولت وكان حب آنا الآخر، حباً ينتظر دوماً في الأجنحة لكنه لا يعيش أبداً. كان يأتي آل هرتر لزيارتنا ومعهم كنا نستمتع بالضحك على الناس. ثم كان هناك فريديوف شليبهاكه، وهو طالب هندسة عمارة الذي صمم فيما بعد الأثاث ومصباح الشقة الأرضية، يحمل اسمه الآن، من أجل جمعية طلبة ايشكامب، والنحات شريبر، الوقور نهاراً، مع تلميذه كارل اوبنهايمر، الذي تخلى قبل وقت طويل عن الدعاية جانباً وذهب للعمل من أجل معمل ألبان كبير، بوله، بعد مرور بعض الوقت كلفني أوبنهايمر بأن أضع معاً نشرة تحتفل بالذكرى السنوية الخامسة والسبعين لمعمل الألبان وافتتاح أول مخزن له ذاتي الخدمة.

وهكذا كتبت على الأوليفيتي هدية زفافي كتبت نقداً ساخراً من ست أو سبع صفحات بعنوان «اهد الوثني أو بع الحليب»، التي أرسلت آنذاك في mass mailings من 350000 نسخة بشكل مزعوم إلى عائلات برلين الغربية. لقد كانت هي جمهوري الكبير الأول.

إنه نتاج جانبي فقط، لا أمتلك نسخة منه لأقتبس منها، لكنه كان يمجد كارل بوله، الممون الأول والأسطوري للحليب الطازج إلى مدينة كبيرة (بوله على عربة الحليب)، بشروط مضحكة، وكسبت منه 300

Twitter: @ketab_n

ماركاً عندئذ وأكثر من ذلك بعد ثلاثين عاماً، عندما قامت الشركة التي لاتزال مزدهرة بإعادة طبع قصتي الحليبية الخيالية منفذة بذلك حكم غوتفريد بن المتبصر على شعري: «سيكتب النثر ذات يوم....».

مع أن الأوليفيتي ظلت تبصق القصيدة تلو القصيدة، فقد وجدت نغمتي، أو أن نغمة شاردة بدون أستاذ قد وجدتني. حفظت القصائد معاً في مجلد، وذات يوم اختارت آنا وأختي ـ التي جاءت في زيارة ـ نصف دزينة وأرسلتاها إلى زويددويتشر روندفونك، راديو جنوب ألمانيا ـ لأن المحطة كانت قد أعلنت عن مسابقة للشعر في الصحف، وأقنعتاني معاً بأن أقوم بمحاولة. تضمن اختيارهما قصيدة «سوسنات من النوم» المثقلة أكثر مما يجب بالمجاز. ولم تكن الترنيمة الجميلة للتدخين، العقيدة Credo، أو المخزون الغنائي، «خزانة الملابس المفتوحة» أو حتى «البازلاء والأجاص»، بل تلك الأزهار المصابة بفقر الدم، سوسنات ولدت من نومي الصحي بشكل مثالي، تلك أكسبتني الجائزة الثالثة ـ كما يتذكر عقل محصل ديوني ـ و350 علامة. تلقيت أيضاً أجرة الطائرة لحضور حفل تسليم الجوائز في شتوتغارت، كانت هذه رحلتي الأولى بالطائرة.

مباركاً على هذا النحو، أشريت لنفسي معطفاً شتوياً من الرف في محلات بيك وكلوبنبورغ. أما الباقي من نقود الجائزة فقد ذهب ثمناً لتنورة الموهير ذات اللون الرمادي الأسفلتي التي أشترتها آنا في هورن، المحل الأكثر أناقة في شارع كورفيرشتندام، بدم بارد للغاية، كما لو أننا كنا نعرف أننا لن نحتاج مرة أخرى إلى الأموال أبداً. لا يزال بإمكاني أن أشعر بنسيج المادة، أتصور تفصيلته الناعمة: بشكل رشيق للغاية كانت آنا تنتقل بعائدات قصائدي.

كان من الممكن أن يكون هذا بداية حكاية لم أكتبها والتي لا تنتهي

Twitter: @ketab_n

إلى تلك القصائد المجمعة من قبل الأخوين غريم. ربما لم يكن بإمكان سوى هانز كريستيان أندرسن أن يكون قد طلع بشيء من هذا النوع. ذات مرة كان ثمة خزانة ثياب فيها ذاكرة معلقة على مشاجب...

تلك الخزانة لا تزال مفتوحة، تروي المقطع تلو المقطع ـ ما هو المحفوظ على القعر، على القمة، ما هو شبه جديد وما هو بال ـ وتهمس لنفسها.

كانت خزانتنا ضيقة كنا قد التقطناها في محل الخردة، علقت فيها تنورة آنا الموهيرية فقط. وعندما تفتح تقص حكاية كرات بيضاء تنام في الجيوب وتحلم بالعث، بالزهور النجمية والأزهار الملتهبة الأخرى، وبخريف يصير ثوباً...

وهكذا أصبحت الحكاية بلا مؤلف مؤكد واقعاً: ذات مرة كان ثمة نحات راوده الشعر من حين لآخر، وبشكل عرضي، وكان قد كتب قصيدة تدعى «خزانة الملابس المفتوحة». عندما تلقى جائزة متواضعة من أجل قصيدة أخرى، اشترى على الفور تنورة لأجل محبوبته ومعطفاً لنفسه. منذ ذاك الوقت فصاعداً فكر اعتبر نفسه شاعراً.

وهكذا استمرت الحكاية: كان الشاعر ـ نحات أيضاً، كان يصنع الدجاج والطيور والأسماك والمخلوقات الشبيهة ـ يجيب بالقصائد في جيبه على دعوة سلمت إلى الشقة الأرضية من فيلته في الخرائب في أثناء ربيع 1955. كان الليلك مزهراً في حديقة الفيللا المفرطة النمو؛ ريح الليل حملت البعوض من البحيرة المجاورة إلى النافذة المفتوحة.

كانت البرقية موقعة من قبل رجل اسمه هانز فرنر ريشتر. كانت تطلب من الشاعر الشاب بأسلوب تلغرافي متحفظ أن يحضر بنفسه في دار روبنهورن، على بحيرة أخرى أكبر، بحيرة فانسي، حيث اجتمعت زمرة 47 الأدبية النخبوية بناء على دعوته. انتهت بأمر مقتضب: «اجلب القصائد».

Twitter: @ketab_n

لجعل الحكاية أكثر قابلية للتصديق، دعوني أضيف: أحد أعضاء لجنة تحكيم مسابقة الشعر كان قد وصفني بأنني موهوب وزكاني إلى الرجل المدعو ريشتر كمشارك، لكن الأخير تردد حتى ذاك الوقت في دعوتي.

بأي حال، قبل الشاعر زوجته الشابة، التي كانت راقصة، دس سبع أو تسع قصائد في جيبه لإبقاء الحكاية مستمرة، صعد إلى الحافلة، نزل عند دار روبنهورن، ودخل الفيللا الفخمة ـ التي كانت مسكونة فيما مضى من قبل شخص نازي عظيم الشأن ـ في وقت مبكر من بعد الظهر، عندما كان أفراد الزمرة، التي تأسست في عام 1947، يأخذون استراحة قهوة ويتحدثون بذكاء كل مع الآخر وبعد الآخر. وهذا أيضاً كان جديراً بهانز كريستيان أندرسن.

أتت الانطباعات المبهمة التي كونتها، أنا النحات الذي كان يعتبر نفسه شاعراً، وجود الجماعة وما الذي جمعهم، من التقارير الصحفية. من العام 1947 نفسه، مع ذلك، تكونت لدي انطباعات واضحة جداً تستند على خبرتي الخاصة: لقد كان آنذاك ـ العام ذو أقسى الشتاءات، شتاء رفض أن يستسلم، وذو نوافذ عديمة الزجاج أكثر من الألواح المتوفرة في السوق ـ في ذاك الوقت بدأت تدريبي كبناء حجر، مستعملاً أزاميل مدببة ومسننة لتحويل الرخام السيليزي إلى حجارة أضرحة، وكتبت قصائد على الجانب، مجرد قصائد غنائية، لم يبق منها بيت واحد.

عندما دخلت فيللا فانسي رأيت رجالاً ونساء يجلسون إلى طاولت مدت قريبة من بعضها البعض. كانوا يحتسون القهوة ويأكلون الكعك ويتجدثون بذكاء. لا أعرف أحداً من الشعراء المجموعين يرغب في تحريك القصة نحو الأمام، اتخذت مقعداً إلى طاولة غير مشغولة وفكرت

Twitter: @ketab_n

ربما في حوالي العام 1947، عندما كان الشتاء قاسياً للغاية بحيث أغلقت أكاديمية دوسلدورف للفن بسبب انقطاع الفحم.

أقبلت نادلة ترتدي مئزرا وقلنسوة إلى الطاولة عندما كنت أجلس شارداً وبائساً للغاية وسألت الواصل الجديد إن كان شاعراً، كان سؤالاً مزعجاً.

عندما أجاب أمير الحكاية الخرافية بنعم غير مبالية، أخذته النادلة على كلمته وانحنت احتراماً وأحضرت له فنجاناً من القهوة وقطعة من الكعك كان طعمها مثل طعم الكعك الذي اعتادت زوجة معلم البناء غوبل أن تخبزه. هي التي كانت تربي عنزة اسمها غينوفيفا التي كان علي أن أخرجها مربوطة بحبل لكي ترعى في ربيع 1947، وجعلت مني مشهداً محزناً.

عادت إلي قصة العنزة على هيئة حكاية خرافية، شبيهة بالقصة التي كانت قد بدأت للتو، رغم أنني لم أعد مشهداً محزناً؛ لا بل كنت شابا واثقا ليس لديه ما يخسره ولديه كل ما يمكن تصوره ليكسبه، مثل الجندي العائد إلى الوطن من الحروب الذي يجني ثروته في حكاية أندرسن «الشخص سريع الغضب».

ما رأيته وخبرته بدا غير واقعي بشكل غريب أو ذا واقعية مبالغ فيها. مع ذلك، كنت أعرف بعض الذين اجتمعوا هناك بالاسم. فقد كنت قد قرأت شيئاً ما أو آخر من قصائد هاينريش بول. لقد أحببت قليلاً من قصائد غونتر أيش: كنت قد قرأت المزيد من فولفغانغ كوبن وأرنو شميدت، لكنهما لم يكونا ينتميان إلى الزمرة. كان بول وأيش في سنوات ما بين الحربين وسنوات الحرب أعمر من النحات الذي كان يرى نفسه شاعراً.

فجأة ظهر رجل بدين مهيب ذو حاجبين كاملين عند طاولتي

Twitter: @ketab_n

ليساعد في إطالة الحكاية. رمقني بنظرة عابسة. أراد أن يعرف ما الذي كنت أفعله هناك مع كل الكتاب الذي يتحدثون بذكاء ويشربون القهوة، ومن أكون ومن أين أتيت. فيما بعد قال إن الواصل الجديد يبدو مثيراً للشبهات بالنسبة إليه. كان قد رآني كشخصية غامضة مشبوهة، وربما حتى محرضاً عميلاً يهدف إلى تفريق التجمع.

لم تختف النظرة العابسة إلا بعد أن أخرجت البرقية ومسدتها. «أفهم. هذا أنت. صحيح. كنا ننتظر شاعراً آخر في هذه الأمسية».

عندئذ قال الرجل الذي يدعى ريشتر، الذي يمثل دور الملك ثرشبرد في الحكاية والذي كان قد دعاني كبديل مؤقت لكنه لم يكن بمقدوره أن يرى أنه سرعان ما سيصبح المعلم الناصح المخلص للشاعر الشاب: «بعد استراحة القهوة سيقرأ فلان الفلاني، ثم باخمان، ثم شخص آخر. ومن ثم ـ ما اسمك مرة أخرى ـ يكون دورك».

لم أعرف من هو «فلان وفلان» و«الشخص الآخر» لم أكن أعرف. كان الاسم الوحيد الذي كنت أملك معرفة بشكل غامض حوله ـ كانت معروفة جيداً بشكل كاف لأن يكون قد استعمل كنيتها فقط ـ هو باخمان.

«بعدئذ سيكون هناك نقد»، أعلن، «تلك هي الطريقة التي تقوم بها الزمرة بالأشياء».

من المؤكد أن الرجل المسمى ريشتر استدار عائداً بعد أن ابتعد وأخبر الشاعر الشاب، «تأكد من كون صوتك عالياً وواضحاً».

لقد حفظت ذلك في ذهني طوال حياتي عندما أقرأ قراءات عامة. كان صديقي جوزف، الذي أصبح في عام 1947 طالب فلسفة ولاهوت في المعهد اللاهوتي في فرايزينغ، يقرأ علي الهراء الورع من كتاب أسود صغير كلما اجتمعنا هناك تحت الخيمة في معسكر باد أيبلينغ بصوت رقيق ولاهث للغاية بحيث أنه خطر ببالي في حكاية منسوجة من قماش

Twitter: @ketab_n

مختلف كلياً. ما كان يستحق الكثير.

سأركل شيء كما تنبأ به «عم حكايتي الخرافية» ريشتر. عندما قرأ رجل لم أكن أعرفه مقطعاً نثرياً قبل باخمان وقرأ رجل آخر لم أكن أعرفه مقطعاً نثرياً بعدها، انتقد القارئان من قبل أفراد الزمرة قبل أن يتمكنا من إغلاق مخطوطيهما تقريباً: بصراحة، بقسوة، بشيء من الدقة بعض النقد دقيق، والبعض الآخر يجانب الحقيقة.

تلك كانت الطريقة التي تفعل بها الزمرة الأشياء. عندما اجتمعت الزمرة لأول مرة، وكانت تلك السنة السابقة للسنة التي اتخذوها اسماً، كان ثمة قراءات أعقبها النقد مباشرة. كان الأب ستانيسلاو، الرجل المسؤول عن مكتبة دار الإحسان كاريتاس، قد قرأ قصائد لغيورغ ترالد على الشاعر الشاب عندما كان لايزال حجاراً. كانت حزينة جداً، جميلة جداً، ومن السهل محاكاتها.

أحد النقاد الذين ظهروا في الحكاية الموشكة على النهاية كان اسمه الأخير كايزر [قيصر] ـ رغم أنه لم يكن إمبراطوراً ـ واسمه الأول يوآخيم. كان يبدو قريباً من سني لكنه كان يتكلم بطريقة أكثر شبهاً بالكتاب ـ رغم أنه بمسحة شرق بروسية ـ بحيث أنني، خجلاً من تلعثمي الداخلي، لم أقل شيئاً، بقدر ما أحببت أن أعارضه.

وعندما بدأت باخمان، التي صدمتني بكونها غير واثقة من نفسها، تقرأ أو بالأحرى تنتحب قصائدها الفائقة الجمال ـ الصفة المنتحبة تأتي من النبرة الحزينة المرتعشة لإلقائها ـ وقلت لنفسي، إذا هبط ذاك الكايزر الشديد الفصاحة على باخمان السهلة المكسر بالطريقة التي هبط بها على الرجل المجهول الذي سبقها، فسوف تسأل عن الجمهور وتنتظر الشاعرة الباكية أو شبه الباكية، بتمتمة أو بلا تمتمة. ألم تكن إحدى القصائد التي قرأتها هي، «أخبرني يا حبيبي» فيها بيت مساو

Twitter: @ketab_n

لصرخة من أجل المساعدة: «يمكن لحجر واحد أن ينعم الآخر؟».

لكن كايزر ذاك، الذي كان في العام الذي تأسست فيه الزمرة يبلغ من العمر مجرد واحد وعشرين عاماً مثل معمار الحجر الصغير السابق لكنه كان يدرس كيف يتحدث مثل كتاب مع أدورنو في فرانكفورت أم ماين ويتعلم تحليل كل شيء، بما في ذلك ديالكتيك قصص غريم الخرافية، لعب دور «الحجر المراد تنعيمه» ومجد كل ما قرأته باخمان: كانت بشكل واضح في طريقها إلى الشكل الكامل.

كان الأب الفرنسيكاني ستانيسلاو المقروء جيداً قد قال الشيء نفسه كثيراً عندما عهد إلي بشكل وقور بمجلد تراكل الصغير. هكذا أمسك الشاعر الشاب لسانه ولم يفتح فمه إلى أن كان جالساً على كرسي بجانب الرجل المسمى ريشتر وبدأ يقرأ قصائده، السبع أو التسع، بما فيها قصيدة «خزانة الملابس المفتوحة» وقصيدة «الراية البولندية» وقصيدة «صلوات الأرباب الثلاثة»، على أعضاء الزمرة 47 بصوت «عال وواضح» كما نُصح.

وهكذا استمرت الحكاية: ذات مرة كان ثمة نحات شاب ظهر لأول مرة كشاعر. لم يكن يعاني من رهبة المسرح لأنه كان واثقاً في قصائده، فقد تنشقها من هواء برلين. وبما أنه اتبع التعليمات وقرأ كل بيت على حدة بصوت عال وواضح، استطاع كل شخص من الجمهور أن يفهم كل كلمة.

بعد ذلك، لقي ما قرأه مديحاً من كل الأطراف. فقد تكلم شخص عن «روح نهاية» وجازف بتقييم تبناه نقاد آخرون ونوعوه، بحثاً عن مقارنات أخرى. ربما حذر شخص ما، ربما الكايزر الذي كان اسمه الأول يوآخيم، من المديح المبالغ فيه. لكن بما أنه حتى الرجل، ذو الحاجبين الكثين، الذي يدعى ريشتر، الذي جلس إلى جانب كرسي القارئ - «الكرسي الكهربائي»، كما كانت تدعى - بدا راضياً أو على

Twitter: @ketab_n

الأقل قال إنه سمع «صوتاً جديداً بشكل منعش»، طلب أن يخبروه مرة أخرى باسم النحات الشاب الذي أدى للتو دور الشاعر، لأنه نسيه وشعر في تلك اللحظة أنه ينبغي أن يكتب كاملاً، وتلك هي الكيفية التي توصل بها الرجل الذي أهديته قصتي ***الاجتماع في تلغته***، بعدئذ، بعدئذ بوقت طويل، إلى سماع اسمي.

حتى عندما نهض النحات الشاب الذي أثبت نفسه للتو شاعراً عن كرسيه، لم تشأ الحكاية أن تنتهي. فقد وجد نفسه فوراً محاطاً بنصف دزينة من المحررين، الذين قدموا أنفسهم على أنهم يمثلون دور النشر هانزر وبيبر وزوركامب وس. فيشر. فانتزعوا القصائد السبع أو التسع التي كان الشاعر قد نضدها في المنزل في غرفته القبوية الرطبة على آلة الأوليفيتي النقالة بنسختين بفضل طلحية من ورق الكربون الأزرق. رفضوا أن يعيدوها وظلوا يتحدثون عن أنفسهم بصيغة الجمع ـ «سوف تسمعون منا»، «يمكنكم أن تتوقعوا أن تسمعوا منا قريباً». «سنكون على اتصال ـ لذلك فقد أغري بالظن أنه قبل انقضاء وقت طويل سيعرف عصراً إن لم يكن ذهبياً فسوف يكون فضياً.

بعد ذلك تفقد الحكاية زخمها: لم أسمع كلمة من المحررين الذين وعدوا بالكثير للغاية. إن رجلاً ذا بنية جسدية تبدو منحرفة نوعاً ما كان قد قدم نفسه باسم فالتر هويلرر، ناشر مجلة أدبية تدعى Akzente، هو فقط من وفى بوعده ونشر بضع قصائد من قصائدي.

ثم، عندما ملأ الشاعر الممدوح حديثاً يديه، يدي النحات، بالصلصال والجص، بدأت الحكاية تصعد مرة أخرى. زعم محرر من لوخترهاند أنه قد تم إخراجه من الجمهور من قبل المحررين الآخرين بعد قراءة الشاعر المجهول الشاب سألني بلباقة إن كنت لاأزال حراً ـ إن لم يكن قد مضى زمن طويل منذ أن وقعت العقد مع زوركامب أو

Twitter: @ketab_n

هانزر. إذا كنت كذلك، فإنه يود هو، بيتر فرانك، أن ينشر مجموعة مختارة من أشعاري.

يا لها من بداية جميلة، بداية تضع حداً لكل من الوجود المغفل الاسم للشاعر وبراءته المخفية: «كم هو جيد أن أحداً لا يعرف أن اسمي هو رومبلشتيلسكين....».

لأن بيتر فرانك، مخلوق لطيف ذو خفة نمساوية ونزوع إلى الخروج المألوف، فقد قام بزيارة إلى خربتنا الرعوية، وما إن أريته بعضاً من رسومي ذات الموتيفات الغنائية حتى وافق على تضمين، دزينة من رسومي بالقلم والحبر في مجلد الشعر كما اقترحت أنا، وعلى أن يدفع، كما طلبت، مبلغاً إضافياً من أجلها. حتى أنه وافق ـ باسم الناشر، إدوارد رايفرشايد ـ على مطالبتي بحقوق مؤلف قدرها 12.5 بالمئة من سعر التجزئة من أجل كل نسخة مباعة. إذا كنت مباشراً على هذا النحو، فقد كان ذلك لأنني رأيت النسبة بمثابة الأساس لأجل وجودي المادي.

كانت دار لوخترهاند، هكذا سمعت، قد حققت نجاحاً في نشر الأدب القانوني بشكل رئيسي، بما في ذلك خلاصة وافية loose leaf، لكن بناء على الطلب السريع للناشر تمنى الآن أن يمتد إلى الأدب الألماني بعد الحرب وكان قد كلف الكاتب المشهور ألفرد أندرش بإدارة مجلتهم الأدبية *Texte und Zeichen*. إن بعض القصائد كان من الممكن أن تظهر هناك أولاً و ـ من نافلة القول ـ كنت سأقبض دفعة مستقلة من أجلها. كم كان جيداً أن أمي الفقيرة علمتني منذ وقت مبكر للغاية أن أحصل الديون.

لكن، لنختم الحكاية، عند توقيع العقد، الذي أمدني بدفعة أخرى بعد، هذه المرة بسبب صورة الغلاف، بهرتني الأفكار الخيالية للكتاب الأول لشاعر شاب غضضت النظر عن فقرة الخيارات، تلك الفقرة

Twitter: @ketab_n

المكتوبة بخط طباعي صغيرٍ التي تنص على أنني ملزم بعرض كتابي التالي على لوخترهاند أولاً.

هل كان ثمة مبرر للإيمان بكتاب قادم؟ هل كان ثمة شيء بالإضافة إلى *الطوفان*، وهي مسرحية من فصلين، ومسرحية *عشر دقائق إلى الجاموس* من فصل واحد وبعض الاسكتشات من أجل مسرحية من أربعة فصول سأسميها *العم*، *العم* وكان المقصود منها أن تكون تعبيراً عن إجلالي لمسرح العبث؟ هل كان ثمة حتى تلميح إلى كتاب؟ أو بعبارة أخرى: هل رأيت ظهوري الأول على المسرح كحدث يمكن تكراره في المستقبل المنظور؟

من غير المحتمل، فقد كنت لا أزال أكتب القصائد طالما كان بمقدوري أن أتذكر. أكتبها وأرميها بعيداً. ما كنت قد فرضت مثل هذه الأشياء أبدا على العامة القارئة لمجرد أنني شعرت أنني مرغم على الكتابة. كنت واثقاً من عدم كفاية كل ما أبدعه قلمي حتى ذاك الوقت، بقدر ما كنت واثقاً في السنوات المبكرة من إمكانياتي المستقبلية.

إن القصائد التي راودتني في هواء برلين كانت الأولى التي كانت لي بالكامل، الأولى التي كانت تتطلب أن تُلقى، تُقرأ، تُطبع. في الوقت نفسه، لم تكن الرسوم بالقلم والحبر من أجل المجلد الصغير ذي الغلاف الورقي بعنوان *خصال البط* الذي سيصبح كتابي الأول هي مجرد *رسوم توضيحية*؛ كانت استباقاً غرافيكياً واستمرارا للشعر. *فقد تم إنجازها بنقطة دقيقة جداً* وبرزت من سلسلة من الاسكتشات تتطاير فيها الطيور المزركشة عن *طريق الريح*، وتغوص العناكب في الكؤوس، ويحتل الجراد مدينة وفي الوقت نفسه يكون طعاماً لأجل الأنبياء. دمية تنظر شذراً وبذلك تنجو من الإصابة بالسهام؛ مقص مزقزق يطير؛ أكوام من الآذان تقبع على الشاطئ، وذباب صغير بحجم الإنسان يصبح

Twitter: @ketab_n

مجازات بصرية. كلمة وصورة تتدفقان من الحبر نفسه في استيلاء شخصي بشكل رفيع وملموس على العالم.

كلما استدعيت إلى ذهني أين حدثت شعوذتي على الورق، في قبو خربة من حرب عالمية قرب دياناسي برلين، ينتابني الشعور بأنني دون البحث عنها كنت قد وجدت شيئاً، دون أن أبحث عنه، على سكة مزدوجة يلائم مركزية الأنا egocentricity وحس الفكاهة لدي ويجعل المؤلف يعتقد أنه من الطبيعي تماماً أن تنشر القصائد والرسوم معاً. فسارت الطبعة الأولى وفقاً للعقد ـ وهو عقد يعكس رغباتي الخيالية ـ رغم أن 735 نسخة فقط قد بيعت في أثناء الأعوام الثلاثة.

لم يتضح حتى لاحقاً، في أبيات وأنصاف أبيات مستقلة، إلى أي حد بشرت القصائد بكتابي الثاني. من «مدرسة لمغنيي الأصوات الصادحة»، يتم فيها اختبار الأغاني المهشمة للزجاج، إلى القصيدة الأخيرة، «موسيقا من أجل الفرقة النحاسية»، التي يوجد فيها طفل ذو خوذة مطوية من صحيفة قديمة على رأسه، الموتيفات التي تأتي تتصدر المقدمة تشير إلى الأشياء التي لا تزال مخفية في اللعبة المسرحية البيضاء ـ الحمراء والحمراء ـ البيضاء «للعلم البولندي».

من الممكن أن يكون المرء قد اتخذ ذلك كله كتمارين أصابع كفؤة على ذاتها. عندما قرأت «مرجي الأخضر» ـ قطعتي النثرية الأولى، الحصيلة لرحلة العام السابق إلى إسبانيا ـ في اجتماع لزمرة 47 بعدئذ بستة أشهر، لم يكن ثمة طريقة لمعرفة أن الحلزون، «العاري والحساس»، الذي جُعل ضخماً في سياق السردية سيمهد الطريق إلى نثر المستقبل: أن أثره اللزج سيتجاوز قياس ساحات المعارك السياسية وسوف يتحدث عن التقدم خارج الحلم بقفزة عظيمة إلى الأمام.

على كل، في البداية لم يكن ثمة سوى لمحات وتلمسات وحدوس

Twitter: @ketab_n

واعية ليس لها أي تفسير. كان من الممكن أن نحدس بأن كتلة ضخمة من المادة كانت تكمن مأسورة وتظهر إشارات، لكنها تفتقد إلى شكل لم يكن جاهزاً بعد لأجل ضوء النهار.

أكتب أم أرسم، فقد مارست فن التملص بكل المهارة التي اكتسبتها على امتداد الطريق؛ راوغت بكياسة مطبات واضحة، ولم تكن لدي أية وخزات ضمير حول اختلاق الأعذار، واخترت مادة تمجد الركود: تخييل fiction تربى على كافكا والمعاناة من فقد الشهية، دراما تمرح بلغة لعبة الاستغماية، اللعب بالكلمات قاد بمرح إلى مزيد من اللعب بالكلمات.

كان من الممكن بسهولة أن أنخرط في إضاعة مثمرة للوقت وأجعل نفسي أبدو مثيراً للاهتمام في اجتماعات زمرة 47 بحيل فنية جديدة لو كان بالإمكان تجاهل الوزن الهائل للماضيٍ الألماني وبالتالي الماضي الخاص بي بشكل ما. لكن ذلك وقف عائقاً، لقد أوقفني. لم يكن ثمة التفاف حوله. كما لو كان موصوفاً لأجلي، بقي غير قابل للاختراق: هنا كان سيل حمم بالكاد قد برد، هنا امتطاط من البازلت القاسي، قابعاً بنفسه على رواسب أقدم حتى. وطبقة فوق طبقة يجب جرفها، فرزها، تسميتها. الكلمات كانت مطلوبة. والجملة الأولى كانت لا تزال مفقودة.

لقد حان الوقت لإغلاق الأدراج، وفتل اللوحات إلى الجدار، ومحو الأشرطة، وطمر اللقطات الفوتوغرافية، التي أبدو في الواحدة تلو الأخرى أعمر فأعمر. إن غرفة الخردة المملوءة بالمخطوطات المؤرشفة والجوائز المتراكمة يجب أن تغلق بإحكام. فكل شيء قد ترك بعد صنع الكلمات، مادة القصة غير المستعملة، المجد المحمل بالغبار، النزاعات الآيلة إلى الإهمال يجب إزالتها من المشهد، لكي نركز، مع تخفيف الذاكرة من الأحمال، على الشاب الذي يحاول في حوالي عام 1955، وهو يرتدي بيريه، ثم قلنسوة، أن يؤلف جملة أولى من أقل عدد ممكن

Twitter: @ketab_n

من الكلمات.

دون أن يقصد ذلك فعلاً، لم يكن قد تخلى كثيراً عن عالم الصلصال الترابي وغبار الجص عندما امتد إلى حقل الأدب. وهذا يعرف بأنه بمثابة الانفساخ في الرياضة البدنية. هل كان ذلك مجهداً للغاية إلى حد أنه فسخني؟

حتى ذاك الوقت كنت قد لجأت إلى البار أشرب البيرة والشنابس بين الرسامين والنحاتين، أما الآن فأجد نفسي بصحبة كتاب يشربون النبيذ الأحمر حتى الفجر. البارحة فقط كنت قد أصغيت حين استمر لود شريبر في الحديث عن منجزاته، ومكابدات البطليموسيين الزائدة، إشراقات العصور القديمة، الآن أمتلك رنين المعاصرين الأدبيين لي في أذني: بهلوانيات هانز ماغنوس إنتسنبرغر اللفظية حبست أنفاسي، سيل كلمات مارتن فالزر جرفني إلى مناطق مجهولة.

كان معلمي كارل هارتونغ قد حولني بكلمات قليلة إلى تلميذ أستاذ، لكنني كنت لا أزال أمضي قسماً لا بأس به من وقتي في الخربة قرب بحيرة دياناسي، حيث كانت آلة الأوليفيتي المقعقعة، المتمتمة تخرج صفحة تلو الصفحة من ورق التنضيد ولا تبدو أنها شبعت أبداً.

الراقص في عرسين. كان بمقدوري أن أستمر في تعداد أسباب ضيقي، لكن لم تتمخض عن ذلك لوحة مرسومة بشكل واضح: أنا عاجز عن تجميع نفسي معاً، لا توجد سوى الشذرات. في صورة فوتوغرافية واحدة أجلس بجانب تمثال برونزي واقف يشبه طيراً في امتطاط نحو الأعلى ويظهر في قصيدة نثر ذات أصل أدبي خالص: «خمسة طيور. طفولتهم كانت: أن تكون سارية، تلقي ظلاً، أن تكون لطيفاً مع كل كلب، أن تكون معدوداً / تعد....».

على كل، كانت آنا لاتزال متحمسة على الوثبات والانعطافات،

Twitter: @ketab_n

حتى بعد أن استبدلت معبد ماري ويغمان بتاتيانا غسوفسكي، متاجراً بألم القدم الدائم للرقص الحديث مقابل عذاب الباليه الكلاسيكي. في «راقصة الباليه»، مقالتي الأولى من أجل مجلة *Akzente* لهويلرر - المكتوبة في العام التالي، بعد أن غادرنا برلين - إعلان حب يقال بصراحة تارة، وبحجب تارة أخرى، قارنت كرب ونشوة شكلي الرقص ودخلت في النهاية في تثمين الدمى المتحركة لكلايست، وتماثيل كولوشكا بالحجم الطبيعي وتميثيلات شلمر الثلاثية.

ثم، بعد شتاء رطب بارد، بدأت آنا تعاني من مشاكل صحية. الشقة القبوية الرعوية، حيث الصيف لم يكن طويلاً بما يكفي لأن نكون معاً، أثبتت أنها قاسية على كليتيها ومثانتها. الجدار الخارجي له تعفن جاف. كل شيء تفوح منه رائحة عفنة. النافذة لن تغلق تماماً. والمدفأة تدخن حتى رغم أن انفلونزاها تمر من خلال الجدار الخارجي وإلى الهواء المفتوح.

كنت أصر على الانتقال. كانت آنا تريد البقاء. وعندما قمنا أخيراً في أوائل 1956 أو أواخر 1955 بتحميل سيارة الفان المستأجرة بأثاثنا الرخيص وخزانة الثياب والفراش المزدوج، لم يكن بمقدورها أن تنفصل عن مشهد شجيرات الحديقة، الفيللا المجاورة في الخرائب، وغروبات الشمس؛ كانت قد بنت عشاً بشكل دائم للغاية. عندما تسرب الضوء بشكل مائل من خلال النافذة من الغرب، ظلت تكنس الأحجار اللوحية لكي يقول الناس إننا عندما انتقلنا من الصالة الملكية إلى شارع أولاند كنا قد غادرنا قبونا المستأجر في حالة جديدة.

وبعد، ثم ماذا؟ ثم حدث هذا، ثم ذاك. لكن قبل ذلك، في تشرين الثاني 1955، قبل أن ننتقل إلى وسط برلين الغربية ونصبح من سكان المدن، افتتح معرضي الأول وجعل الصحف....

Twitter: @ketab_n

لكن الاستمرار على هذا النحو سيعني أن نكون نغوص اللوائح وأن نفرض أشياء تستعصي على التصنيف في فئات. إضافة إلى ذلك، فقد كتب آخرون حول لوحاتي قبل ومن ثم بعد وحددوا لها تواريخ وأمكنة، ووضعوها بالترتيب. كما يلي: «من 19 تشرين الأول إلى 8 تشرين الثاني صالة لوتس وماير، شارع نيكارشتراسه، شتوتغارت، عرضت رسوم ومنحوتات الشاب والموهوب.....».

نعم بالفعل. وهكذا سارت الأمور. كل شيء مدرج في القائمة ومؤرخ، مطبوع بخطوط أنيقة، يعطى علامات كما في المدرسة. بداياتي كانت واعدة، مسرحياتي قصيرة الحبكة، القصائد شاذة عن المألوف ولعوب، النثر قاس أو خلاف ذلك ولاحقاً، رسالته السياسية حادة النغمة أكثر مما ينبغي. جمعت الحيوانات ودعيت بالاسم: خصال الطير، سير السرطانات المتأخرة، النسب المسهب للكلب، سمك السالم المفلطح وعظامه، الهر ذو العين على الفأر، الجرذ الذي حلمت به، الشرغوف الذي صرته، والحلزون أيضاً، يدركنا، يتجاوزنا، وبصمت يتابع طريقه مستعجلاً.

هذا هو بالضبط ما تنبأت به عاملة التنظيف التابعة لصاحبة منزلنا في شمارغندورف، التي كانت تأتي من برلين الشرقية وتقرأ تفل القهوة في الفنجان. لقد بدأت أصنع لنفسي اسماً. سنوات تمرني ـ أعوامي الدراسية Lehrjahre انتهت، وفقاً لقواعد نقابة المهنة المكرسة عبر الزمن، لكن لم يكن يبدو أن ثمة نهاية لأسفاري، أعوام سفري Wanderjahre.

في أواخر صيف 1956 غادرت وآنا برلين. رافقتنا هدية عرسي، طابعة اوليفيتي النقالة. مع قليل مع المال لكن مع عالم جواني غني بالشخصيات كنت آنذاك أبحث عن جملة أولى في باريس، جملة موجزة بما يكفي لنسف السد وترك الكلمات تتدفق. وكانت آنا مصممة على الاستمرار في تحمل عذابات تمارين الباليه الكلاسيكي. في أستوديو

Twitter: @ketab_n

بليس بيغال Place Pigalle العائد للمدام نورا ستتعلم أن تقوم بدورة كاملة على قدم واحدة وأن تقف بثبات على أصابع قدميها.

في باريس سكنا أولاً في شارع أليبر rue Alibert ، قرب قناة سان مارتن، حيث تم تصوير أحد أفلامنا المفضلة، *فندق الشمال*، مع آرلتي ولوي جوفيه. كنا قد بعنا خزانة ملابسنا وفراشنا في برلين وكنا نبحث عن شقة.

وصلنا في شهر آب، فوجدنا باريس خالية. على امتداد قناة سان مارتن، بين هويسات القناة وجسورها المتنوعة الأقواس، عثرت على مقعد كان غوستاف فلوبير قد أجلس عليه أبطاله في بداية روايته *Bouvard et Pecuchet* ، في الجملة، إذا جاز القول.

ثم انتقلنا إلى جزء مختلف من باريس، حيث أشرفنا على أستوديو نحات سويسري في شارع رو دو شاتيون في حين كان مسافراً. كان صديق راقص عائد إلى برلين قد ساعد آنا على تقديم طلب من أجل العمل مع فرقة فتيات بلو بل Blue Bell Girls، لكن ساقيها كانتا أقصر قليلاً مما يجب، أو غير طويلتين بما يكفي، من أجل مقاس جوقتهن، التي كانت كلها بدعة سائدة في باريس في ذاك الوقت.

كنت قلقاً في البداية، لأننا كنا نبحث عن شقة وكنت أبحث عن الكلمات لأنشئ جملة سوف تفتح الأبواب. أم هل كنت قبلئذ أنضد ترنيمتي إلى «راقصة الباليه» على آلة الأوليفيتي، أتوقف من حين إلى آخر لأبحث عن شقة وعن الكلمات؟

كان ثمة حرب تجري آنذاك في كل الصحف وفي الضواحي الباريسية، لكن الحرب السابقة كانت لاتزال هي الرئيسية برأيي، الحرب التي كانت قد بدأت في دانتسيغ، عندما وصلت طفولتي إلى نهايتها مع الدفاع عن مكتب البريد البولندي. حتى هكذا لم يكن

Twitter: @ketab_n

بمقدوري أن أجد الجملة الأولى.

ثم اشترى والد آنا لنا بناية ذات باحة في جادة ايطاليا، مع غرفتين صغيرتين في الطابق العلوي موصولتين بممر ضيق إلى جانب المطبخ الصغير والحمام الجالس. كان عامل يسكن في الطابق السفلي مع زوجته وطفلته. كل النوافذ كانت تطل على الباحة، التي كانت محاطة بورشات مغلقة.

حولت غرفة المراجل فوراً في القبو إلى أستوديو بتجهيزه بطاولة قائمة ودولاب صنع الخزف، وشرعت في العمل على المخطوطات الذي بدأته في برلين: مسرحية *الطباخون الأشرار* Wicked Cooks من خمسة فصول وعدداً قليلاً من الاسكتشات النثرية التي لم تكن تعرف إلى أين تذهب رغم الانتقال. كان شانتال هو اسم الفتاة التي كانت تضرب بشكل منتظم من قبل زوجة العامل في الشقة الواقعة في الأسفل بحيث أنني كتبت قصيدة بعنوان (في التوقيت الصحيح).

عندما أنجزت مع ابنتي هيلينه ـ التي تبدو شخصية جميلة كممثلة ـ في الآونة الأخيرة برنامجنا لـ Des Knaben Wunderhorn المصمم للموسيقى من قبل ستيفن ماير، من أجل 900 دارس للأدب الألماني في باريس، خصصت وقتاً لزيارة قصيرة إلى جادة ايطاليا الثالثة. تبدو الباحة ظريفة الآن حيث اختفت الورشات، خصوصاً عندما غرست الزهور. لكن غرفة المراجل السابقة لازالت تضم الطاولة القائمة التي اعتقدت أنني قد وجدت عندها تلك الجملة الأولى ـ لا أدري كم مرة.

في باريس سمعنا من بعيد أن غوتفريد بن وبرتولت بريشت قد توفيا بتتابع قريب، ميتمين بذلك أتباعهما الكثيرين. كتبت قصيدة بمثابة نعوة للاثنين.

في حين كانت الحرب في الجزائر يترجع صداها عبر باريس مع

Twitter: @ketab_n

القنابل البلاستيكية وكنا نجلس في دور السينما نشاهد الدبابات السوفييتية في شوارع بودابست ـ التي كانت تذكرنا بالدبابات التي رأيناها في ساحة بوتسدامر ببرلين قبل سنوات ليست كثيرة ـ وجدت أخيراً الجملة الأولى. فقد كتبت وأنا أقف إلى جدار مرسمي الرطب الذي يقطر ماء: «أعترف: إنني نزيل في مشفى الأمراض العقلية...».

في باريس نسينا برلين.

في باريس أصبحت أنا وبول سيلان صديقين.

في باريس كتبت فصلاً تلو الفصل حالما وجدت الجملة الأولى.

في باريس جفت منحوتاتي وتفتتت على الدرج.

في باريس كنا دوماً نفتقر إلى المال.

كان علي أن أسافر متطفلاً من باريس إلى ألمانيا وأبيع قصائدي مقابل النقود إلى محطات إذاعات كولونيا وفرانكفورت وشتوتغارت وساربريكن من أجل برامج آخر الليل وذلك لكي نحصل لمدة ثلاثة شهور أخرى على السردين الطازج ولحم الغنم والعدس والهلالية baguette اليومية، وورق التنضيد.

كيف أصبحت صانع كلمات متأصل في باريس؟

في عام 1973 قمت بمحاولة للدفاع عن قضيتي في رواية *طبل الصفيح*، وذلك في الفصل الذي عنوانه: «استذكار، أو المؤلف بوصفه شاهداً مريباً»، الذي يصف إقامتنا في باريس ويطرح سؤال الدافع من أجل العمل المديد لكتابة رواية. لقد أجبت عليه كما يلي: «القوة الدافعة الأكثر موثوقية ربما كانت خلفيتي البرجوازية الصغيرة، الرغبة ـ جنون عظمة عفن فاقمته حقيقة أنني لم أنه المدرسة، أنني كنت أمتلك ثلاث سنوات للذهاب ـ في إنتاج شيء هائل».

لكن كان ثمة دافع آخر، هام بالقدر نفسه: بعد أن وجدت الجملة

Twitter: @ketab_n

الأولى عند ذاك الجدار المتقطر، الكلمات لم تتوقف عن المجيء. لم أواجه أية مشكلة في الكتابة من الغسق إلى الشفق. صفحة تلو الصفحة. كانت الكلمات والصور تدفع وتجرف بعضها البعض، تطأ على أعقاب بعضها البعض: كان ثمة الكثير للغاية الذي كان يريد أن يشم، يذاق، يرى، يسمى. وفي حين كنت أخربش الفصل تلو الفصل في غرفة المرجل ومقاهي الدائرة الثالثة ثم نضدتها على الأوليفيتي، وفي الوقت نفسه صداقتي مع بول سيلان، الذي كان بمقدوره أن يتكلم عن نفسه والمسكوت عنه فقط في شعره وعن كربه فقط في مقاطع مهيبة، كما لو وضعت بين شمعتين، توأمينا، فرانتز وراؤل، حولانا إلى أبوين، شيء ما لم نكن قد تعلمنا بعد أن نكونه في برلين أو باريس.

كان التوأمان يصرخان، كل على حدة أو معاً، الأمر الذي دفع الأب البالغ من العمر آنذاك ثلاثين عاماً إلى أن ينبت شارباً، الذي تسبب، مع مرور السنين، في بورتريهات ذاتية كثيرة، مرسومة بقلم الرصاص، محفورة في النحاس، ومطبوعة كطبعات حجرية من الحجر الكلسي لمقلع سولنهوف: أنا ذو شارب حيوان الفظ وقوقعة حلزون في عيني، أنا عكس السمك المفلطح، أنا مع مسامير التابوت والطير الميت؛ أنا في حين يحلم الجرذ بي، أنا مع القلنسوة وضفدع الطين، أنا وشاربي، شارب حيوان الفظ متخفياً خلف صبارة، وأخيراً أنا مع سكين ونصف بصلة.

في باريس كان شارباً حيوان الفظ شائعين. في باريس اشترينا عربة أطفال مستعملة ذات متسع كاف لأجل الشقيقين التوأمين المختلفين جداً ليرقدا أحدهما إلى جانب أحدهما الآخر. ذهل أصدقاؤنا الباريسيون القليلون لرؤية آنا وأنا نظهر كوالدين بشكل مفاجئ للغاية وفي مسرحية / تمثيلية لم يتم التمرن عليها. وبول سيلان، الذي لم يكن بالإمكان تسكين كربه إلا لساعات قليلة في كل مرة، منحني الشجاعة عندما بدأ العمل على المخطوط

Twitter: @ketab_n

يترنح بسبب الطفلين الصارخين وبرغم الجدار المتقطر.

بعد ولادة التوأمين بوقت قصير، نال كونراد أديناور أغلبية مطلقة في الانتخابات الألمانية الغربية، التي جعلت من باريس ألمانيا تبدو كئيبة، عائدة إلى أوضاعها القديمة.

في أثناء استراحات الكتابة كنت أرسم الراهبات، الفينيسيات بشكل مفضل، اللواتي كانت خماراتهن الجناحية الشكل في ذهني منذ وفاة أمي البائسة في مستشفى سانت فنسنت في كولونيا والتي رسمتها آنذاك في مترو باريس أو في حديقة لوكسمبورغ. وكان هناك، غير بعيد عن عرض ريلكه للفرسان، أنني نجحت أحياناً في إغراء بول سيلان للخروج من الحلقات التي رأى نفسه فيها مضطهداً والتي كان أن لا مفر منها.

حالما بدأ فرانتز وراؤل يمشيان، اشترينا حظيرة نقالة خشبية للأطفال، وفي آب أخذنا توأمينا البالغين من العمر حوالي سنة واحدة إلى سويسرا، حيث كنت، وأنا أحدق إلى ستارة خلفية من جبال تيسينو التي تومض في الحر، ألقم الآلة الكاتبة اوليفيتي بفصول كان فيها الثلج يسقط على الثلج وبحر البلطيق يقبع تحت ملاءة من الجليد.

عندما عدنا إلى باريس مرة أخرى رقصت آنا تحت الإرشاد الصارم لمدام نورا فيما كنت أكتب، رغم أنني كنت أتنصت خارجاً من أجل التوأمين. وفي غالب الأحيان كان الصديق هويلرر يأتي عابراً، يخربش بطاقات بريدية بالحبر الأرجواني ويرسلها كلها إلى أنحاء العالم. اشترى على الفور فستاناً لأجل آنا أسميناه فستان هويلرر.

لقد سافرت من باريس إلى غدانيسك عن طريق وارسو في ربيع 1958 بحثاً عن آثار مدينتي المفقودة. فكنت أجلس في المكتبة البلدية غير المتضررة وأراقب نفسي وأنا في الخامسة عشرة من عمري جالساً في المكتبة البلدية. بقيت أجد وأجد، وعندما وجدت خالتي الكبرى /

Twitter: @ketab_n

خالة أمي الكاشوبية آنا كان علي أن أريها جواز سفري، فبدوت لها ناضجاً وقد كبرت للغاية وغريباً عليها. كانت تفوح من بيتها رائحة الحليب الحامض والفطور المجففة. حصلت منها أفكاراً أكثر مما كنت سأحصل من كتاب.

عدت إلى باريس مع مؤونة كبيرة من المادة: مسحوق شراب فوار، صوت الجمعة العظيمة ونفض السجاد، طريق هروب من ساعي بريد طلبيات المال الذي نجا من المعركة من أجل مكتب البريد البولندي، الطرق إلى المدرسة ومنها، الصحف التي تحتفظ بها المكتبة البلدية، الأفلام التي كانت تعرض في خريف 1939. ومع الهمسات في جلسات الاعتراف، النقوش على حجارة الأضرحة، رائحة بحر البلطيق، وقطع الكهرمان من الأمواج بين برويزن وغلتكاو.

وكل ذلك صار كلمات وبقي طازجاً، كما لو كان محفوظاً تحت قبة جبنة في باريس. وأرهقت نفسي، لكنني لم أصبح خالياً بعد، ورغم أنني لا أزال أكتب باليد، كنت آنذاك مجرد أداة ومكشوفاً إلى شخصياتي، خصوصاً الشخصية التي كانت تدعى أوسكار - ولماذا لا يمكنني أن أحكي. لدي القليل لأقوله حول كيف جاءت الأشياء ودارت حول؛ لو حاولت لكان علي أن أكذب....

وعندما سافرت في شهر تشرين الأول / أكتوبر من ذاك العام من باريس بطريق ميونيخ إلى منعزل بافاري أو سوابي Swabian يدعى غروسهولتسلويته لأقرأ الفصول المعنونة «التنورة الواسعة» و«فورتونا نورد» على اجتماع لجماعة 47، منح مؤلف رواية شبه منتهية / منجزة جائزة الجماعة وقيمتها 4500 ماركاً، ساهم بها الناشرون بشكل تلقائي عفوي. كان ذلك كسبي غير المتوقع الأول. لقد ساعدني على إعادة طباعة الرواية بأكملها على الأوليفيتي بسلام. وذلك لصنع طبعة نظيفة.

Twitter: @ketab_n

دفعت نقود الجائزة أيضاً ثمناً لمسجلة براون أنيقة التصميم تعرف باسم «تابوت الأبيض الثلجي» التي اشتريتها في ميونيخ بعد قراءتي الأولى على الراديو وأعدتها إلى باريس، حيث استمعنا إلى مقطوعة Rite of Spring لسترافينسكي ومقطوعة Bluebeard لبارتوك مراراً وتكراراً. فنحن لم نعد فقيرين وصار بمقدورنا أن نتحمل ثمن كبد العجل والتسجيلات.

في باريس كنا آنا وأنا نرقص غالباً وبشكل متلاصق. في باريس كنا سعيدين ولم نعرف كم طال ذلك. في باريس جاء ديغول إلى السلطة وتعلمت أن أخاف من هراوات البوليس. في باريس أصبحت أكثر تسييسا بشكل واضح. في باريس وجد عدد من درنات السل موطئاً لها في رئتي فيما كنت أقف عند الجدار المتقطر، ولم يتم استئصالها حتى عدنا إلى برلين. في باريس سيجري التوأمان على امتداد جادة ايطاليا في اتجاهين مختلفين ولم أعرف من سأطارده أولاً. في باريس كان بول سيلان وراء المساعدة. في باريس قبل وقت طويل لم يكن ثمة مبرر للبقاء.

وعندما ظهرت الطبعة الأولى من رواية *طبل الصفيح* في خريف 1959، ذهبت وآنا من باريس إلى معرض فرانكفورت للكتاب ورقصنا حتى الصباح.

وعندما غادرنا باريس لمدة عام كامل بعدئذ واشترينا مسكنا، وقد صرنا الآن أسرة، في برلين في نصف خربة أخرى، تقع في شارع كارلزبادر. فبدأت فوراً أرسم وأكتب في إحدى غرفنا الخمس المخصصة لي، لأنني عند عودتي إلى باريس مع آلة الأوليفيتتي، هدية العرس، كنت قد صنعت بداية ....

ومنذ ذاك الوقت فصاعداً عشت من صفحة إلى صفحة وبين الكتاب والكتاب، كان عالمي الجواني لا يزال غنياً بالشخصيات. لكن لأتكلم عن ذلك كله، فإنني لا أمتلك البصل ولا الرغبة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفهرس

قشور تحت القشرة	5
تكبسلات	35
كان اسمه نحنلانفعلذلك	73
كيف تعلمت الخوف	119
ضيوف على المائدة	175
على السطح وتحته	219
الجوع الثالث	269
كيف أصبحت مدخناً	315
هواء برلين	371
فيما السرطان، صامتاً	397
هدايا العرس التي تلقيتها	427

Twitter: @ketab_n

يعتبر غونتر غراس، المولود في عام 1927 ، والحائز على جائزة نوبل للآداب، إلى جانب الفيلسوف يورغن هابرماس من أشهر الكتاب الألمان في العالم الباقين على قيد الحياة من الجيل الذي عاصر صعود النازية وعاش تفاصيل الحرب العالمية الثانية وفترة الحرب الباردة حتى إعادة توحيد ألمانيا بعد انهيار المعسكر الاشتراكي. وغونتر غراس كاتب روائي ومسرحي من أهم أعماله الروائية \طبل الصفيح \التي ترجمت إلى معظم اللغات العالمية ومسرحية\العوام يتمرنون على الثورة\ وأكثر من عشرين عملا روائيا ومسرحيا ونقديا. وقد

أثار حصوله على جائزة نوبل موجة من الانتقادات والاعتراضات في الأوساط الإعلامية والأدبية الصهيونية على وجه الخصوص وذلك بسبب ماضيه النازي المزعوم.

لذلك يأتي كتاب\ تقشير البصلة\ ردا مباشرا على تلك الاتهامات على شكل سيرة ذاتية مليئة بالتفاصيل التي يقترن فيها التاريخ الشخصي للكاتب مع التاريخ السياسي المعاصر لألمانيا، في كشف جريء وحميم لأدق تفاصيل حياته العائلية والزوجية والاجتماعية بالتوازي مع المراحل التي مر بها تطوره السياسي والفكري وسيرته الأدبية الغنية التي توجت بحصوله على جائزة نوبل.

إنه كتاب مليء بالحب ونابض بالحياة، فهو بانوراما تغطي نصف قرن من حياته. يتميز أسلوبه بالسخرية والغوص في التفاصيل التي تحمل دلالات تتجاوز لحظتها الزمنية ويقترن لديه العام والخاص في توليفة خاصة. إنه رحلة مليئة بالمفاجآت والمغامرات لا تكتمل إلا بقراءته.

@ketab_n

دال للنشر والتوزيع